اتعاظ الحنفا

بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا

لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاكم بأمر الله أبو على منصور ابن العزيز بالله أبى المنصور نزار ابن المعز لدين الله أبى تميم معد

ولد في القصر بالقاهرة ليلة الخميس *الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، فى الساعة التاسعة ، الموافق صبيحتها الثالث عشر من شهر آب(١). والطالع من السرطان سبع وعشرون درجة(٢)، والشمس فى برج الأسد على خمس وعشرين درجة ، والقمر بالجوزاء على إحدى عشرة درجة ، وزحل بالعقرب على أربع وعشرين درجة ، والمشترى بالميزان على ثمان درج ، والمريخ بالميزان على ثلاث عشرة درجة ، والزهرة [٥٠ ب] بالميزان على تسع عشرة درجة ، وعطارد بالأسد على عشر درج ، والرأس بالدلو على خمس درج .

وسُلِّم عليه بالخلافة فى الجيش بعد الظهر من يوم الثلاثاء ثامن عشرى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة(٣). وسار إلى قصره فى يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة ، والعزيز فى قبة على ناقة بين يديه ، وعلى الحاكم دراعة(٤) مصمتة(٥) وعمامة فيها الجوهر ، وبيده رمح وقد تقلد السيف ؛ فوصَل إلى القصر ولم يُفقَد من جميع ما كان مع العَساكر شىء ، ودخَله قبل صلاة المغرب ؛ وأخذ فى جهاز أبيه العزيز ودَفْنِه .

(*) يبدأ المتن هنا بما يقابل السطر الخامس والعشرين من الورقة (٥٠ ا) من المخطوط الذى اعتبر أصلا للنشر .

(١) أغسطس ، سنة ٩٩٦ . وقيل ولد لأربع بقين من شهر ربيع الأول . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٧٦ .

(٢) فى الأصل سبعة وعشرون درجة . ومثل هذا الخطأ يتكرر كثيرا فى المخطوط ، وسنكتفى بالإشارة إلى بعضه .

(٣) بايع له أبوه العزيز بالله قبل وفاته ببلبيس، وجددت البيعة – كما يقول النويرى فى نهاية الأرب – صبيحة وفاة أبيه ، يوم الأربعاء لليلة بقيت من شهر رمضان . وكانت بيعة بلبيس يوم الثلاثاء عشرى رمضان . الخطط : ٢ : ٢٨٥ .

(٤) الدراعة والمدرعة نوع من الثياب ، وقيل جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من الصوف . لسان العرب .

(٥) الثوب المصمت الذى لايخالط لونه لون آخر .

ثم بكر سائر أهل الدّولة إلى القصر يوم الخميس ، وقد نُصب للحاكم سريرٌ من ذهب عليه مرتبة مذهبة فى الإيوان الكبير . وخرج من قصره راكبًا وعليه مُعمَّمة الجوهر ؛ فوقف الناس بصحن الإيوان وقبّلوا الأرض ومشوا بين يديه ، حتى جلس على السرير ، فوقف مَنْ مهمّته الوقوف ، وجلس من له عادة الجلوس . فسلم عليه الجماعة بالإمامة واللّقب الذى اختير له ، وهو الحاكم بأمر الله . وكان سنُّه يومئذٍ إحدى عشرةَ سنة وخمسة أشهر وستة أيام .

وكان جماعة من شيوخ كتامة تخلفوا عن الحضور(١) وتجمعوا نحو المصلّى(٢) . فخرج إليهم أبو محمّد بن الحسن بن عمار(٣) فى طائفةٍ من شيوخهم ، ومازالُوا بهم حتى أحضروهم بعد امتناعهم من الحضور ، وشكَوْا من عيسى بن نَسْطُورس(٤) ، وسألوا صَرْفَه ، وأن تكون الوَسَاطة لرجل منهم . فنُدب لذلك أبو محمّد الحسن بن عمار . فقرر أحوالهم فيما يُطلق لهم من الرزق بعد خطاب طويل ، على أن يطلق لهم ثمانى إطلاقات فى كل سنة ، وأن يكون لكل واحد ثمانيةُ دنانير ؛ وأن يطلق هذا الفضل(٥) فى يومهم بحضرة أمير المؤمنين . فأُحضر المال ودفع إليهم بحضرة الحاكم الفضلُ ، وهو عشرون دينارا لكل واحد منهم . وحَلَّفهم ابن عمار بعد ما حلف .

---

(١) كان الوزير يعقوب بن كلس قد أضعف شوكتهم بعض الشئ ، أيام العزيز فكان تخلفهم نوعا من الاحتجاج والرغبة فى استعادة مكانتهم التى كانت لهم . قارن نهاية الأرب للنويرى .

(٢) كان الجامع الأزهر يسمى عقب انشائه مصلى القاهرة . لكن لعل المقصود هنا مصلى العيد خارج باب النصر ، أحد أبواب القاهرة .

(٣) وهو من أصول أسرة بنى عمار التى تولت حكم مدينة طرابلس بالشام ، كما سيأتى تفصيل ذلك فى حينه . انظر : معجم الأنساب لزامباور ، وكذلك mohammadan Dynasties تأليف : S. Lane - Poole

(٤) تولى الوزارة – الوساطة – للعزيز بالله ، وكان يتولاها عند خلافة الحاكم . وسر الغضبة عليه يتمثل فيما ينسب إليه من قول رد به الشاكين من سوء تصرفه ومن تقديمه النصارى فى مناصب الدولة : « إن شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة . فمتى كان منكم إلينا إحسان حتى تطالبونا بمثله ! إن منعناكم قاتلتمونا ، وإن سالمناكم أهنتمونا . فإذا وجدنا لكم فرصة فاذا تتوقعون أن نصنع بكم » . نهاية الأرب .

(٥) المقصود به الأموال التى كانت تمنح لرجال الدولة ، والجنود خاصة ، فى المناسبات كمثل مناسبة تولى الخليفة .

وخَلع على أبي الحسن يَانِس الخادم الصقلّبي وحُمل على فرسين ، وقال : يتولى القصور .

وفى أول شوال فُرِش على سرير الذّهب فى الإيوان مرتبة نسيج فضة ، وخرج الحاكم على فرس أدهم بمعمَّمة الجوهر وقد تقلّد السيف ، وفى ركابه الايمن حُسَين بن عبد الرحمن الرابض ، وفى ركابه الأيسر برجوان ، والنّاس قيام ؛ فقبلوا له الأرض ، ودعَوْا . فقال ابن عمار للقاضى محمد بن النّعمان : مولانا يأمرك بالخروج إلى المصلّى للصّلاة بالناس وإقامة الدعوة لأمير المؤمنين . فنهض قائما ، وقلّده برجوان بسيف محلّى بذهب من سيوف العزيز ، ومضى فصلّى وأقام الدعوة ، ثم قدم .

ونُصِب السّرير الذهب فى صُفّة الإيوان ، ونُصِب السّماط[1] الفضّة ؛ وخرج الحاكم من القصر ، وكان قد دخل إليه ، وهو على فرس أشقر ، فجلس على السماط ، وحضر من له رَسمٌ ، فأكلوا وانصرفوا .

وفى ثالثه خُلع على ابن عمّار ، وقُلّد بسيف من سيوف العزيز ، وحُمل على فرس بسرج ذهب ، وكناه الحاكم ، ولقّبه بأمين الدولة[2] وقال له : أنت أمِينى على دَوْلتى ورجالى . وقاد بين الخيل ، وعمل خمسين ثوبا ملونة من البزّ الرفيع . ومضى فى موكب عظيم إلى داره .

وكُتِب سجل من إنشاء أبى مَنْصور بن سُورِين[3] وبخطّه ، قرأه القاضى محمّد بن النعمان[4]

---

(١) أما سماط الطعام فيعقد مرتين فى عيد الفطر ومرّة واحدة فى عيد النحر ويصفه صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٧ — ٩٨ فيقول مابعضه : طوله ثلثمائة ذراع وعرضه سبعة ويعبى بأنواع المآكل فى الليل . ويحط فى وسط السماط واحد وعشرون خروفا ، ومن الدجاج ثلثمائة وخمسون طائرا ، ومن الفراريج مثلها ، ومن فراخ الحمام مثلها . ويمكن الناس منه فيحتملون وينهبون مالا يأكلونه ، ويبيعونه ويدخرونه .

(٢) يقول النويرى وهو أول من لقب من رجالهم — رجال الفاطميين — وذكر المقريزى ذلك أيضا فى الخطط : ٢ : ٣٦ ويقول صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ١٢٢ : « وهو أول من تلقب من المغاربة وكان شيخ كتامة وسيدها » .

(٣) وهو أبو منصور بشر بن عبد الله بن سورين الكاتب النصرانى . الخطط : ٢ : ١٤ .

(٤) وكان القاضى أحد اثنين حضرا وصاية العزيز بالله بولاية العهد لولده ، وثانيهما أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٢٢ ؛ الخطط : ٢ : ٣٦ . وقد أقام القضاء فى أسرة بنى النعمان فترة طويلة بدأت أيام المعز لدين الله .

بالجامع يتضمّن وراثة الحاكم الملك من أبيه ، ويَعدِ الرعيّة فيه بحُسْن النَّظر لهم ؛ وأمر فيه بإسقاط مكوس كانت بالساحل[1]. ففرح الناس .

وكانت عدّةٌ ممّن قتلهم ابن نسطورس - لما احترق الأسطول - على الخشبة ، فأمر بتسليمهم إلى أهليهم ، وأطلق لكل واحد عشرة دنانير من أجل كفنه ، فكثر الدعاء من الرعيّة للحاكم . وأمر بقلع الالواح التى على دور الأخباز وسلمت لأربابها ومستحقّيها ، فبلغت شيئا كثيرا[2] .

وخلع على القائد أبي عبد الله الحسين بن جوهر القائد ، وردّ إليه البريد والإنشاء ، فكان يخلفه ابن سورين ؛ وحمل بين يديه كثير من الخيل والثياب ، وحمل على فرس بمركبين .

واستكتب أمينُ الدولة ابنُ عمار أبا عبد الله الموصلى ، واستخلفه على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم .

وأقرّ عيسى بن نسطورس على [١٥ ا] ديوان الخاص . وخلع على جماعة بولايات عديدة وقُرِئَ سجل ، قرأه القاضى بالجامع ، يتضمن ولاية ابن عمّار الوساطة ، وتلقيبه بأمين الدولة ، وأَمْرَ الناسِ كلهم أن يترجلوا لِابْن عمار ، فترجّلوا بأسرهم له .

وفى ثانى ذى القَعْدة تجمّع الكتاميون عند المصلّى ، فأنفذ إليهم واستحضرهم ، وتقرّر أمرهم على النَّفقة فيهم ، فأنفق عليهم[3]. وحُمِل راجلُهم على الخيل ؛ وكانوا نحو الألف رجل ، وأُرْكِبتْ شيوخُ كتامة بأسرهم على الخيول بالمراكب الحسنة .

---

(١) الساحل المصرى تغير بتغير السلطة الحاكمة فى مصر . فى عهد الفتح العربى إلى زمن الإخشيد كان بجزيرة الروضة على ساحلها الجنوبى الشرقى ، وأصبح فى عهد الإخشيد فى الجانب الشرقى ، شرقى فم الخليج حيث كان مجرى النيل قد تحول قليلا إلى ذلك المكان . ثم أصبح للقاهرة الفاطمية ساحل آخر عند المقس فى موقع ميدان محطة مصر الحالية مجاورا لجامع أولاد عنان .

(٢) فى الأصل : فبلغ شئٌ كثير .

(٣) فى الأصل : فنفق .

وفى ثانى عشرهِ ، خلع على أَبِى تميم سَلْمان بن جعفر بن فلاح ، وقلِّد السيف ، وحمل على فرس بمركب ذهب ؛ وقِيدَ بين يديه أَربعة أفراس مُسْرجة مُلْجَمة ؛ وحُمِل بين يديه ثياب كثيرة من كل نوع ؛ وجّرد معه عسكر ليسير إلى الشام .

وسارت قافلة الحاجّ بكسوة الكعبة والصِّلات والنفقة على الرّسم المعتاد فى النصف منه .

وركب الحاكم يوم الأَضحى فصلَّى بالناس صلاة العيد بالمصلى[1] وخطب ، وأَصعد معه المنبر القاضى محمد بنَ النّعمان وبرجْوَان وابن عّمار وجماعة .

(١) سبق أن أشرنا إلى أن مصلى العيد كانت خارج باب النصر من أبواب القاهرة . ويصف صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٤ موكب العيد ، فيقول مابعضه : « . . يركب الخليفة بالمظلة واليتيمة (الجوهرة التى تتوسط عمامة الخليفة) ولباسه الثياب البياض ، والمظلة أبدا زيها تابع لزى الخليفة . ويخرج من باب العيد إلى المصلى ، وعساكره وأجناده من الفرسان والرجالة زائدة على العادة ، فيقفون صفين من باب العيد إلى المصلى . ويكون صاحب بيت المال قد فرش الطراحات فى المحراب ، وعلق سترين يمنة ويسرة ، على الستر الأيمن الفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى ، وعلى الأيسر الفاتحة وهل أتاك حديث الغاشية . . . ويدخل الخليفة من شرق المصلى إلى مكان يستريح فيه قليلا ثم يخرج (للصلاة والخطبة) محفوظا كما يخرج للجمعة . . ويقف أسفل المنبر ومعه قاضى القضاة وصاحب الباب وصاحب السيف وصاحب الرسالة وإمام الأشراف الأقارب . . . وغيرهم .

سنة سبع وثمانين وثلثمائة[1] :

فى المحرّم ورد سابق الحاج ، فأخبر بتمام الحج والدّعاء للحاكم فى الحرمين .

وفيه نزع سعر القمح وغيرُه ، وعزّ وجوده ، واشتدّ الغلاء . ووقع فى البلد خوف شديد من طَرَفِ رجُل من اللّصوص فى الليل وكَبْسِه دورَ الناس فتحارسُوا فى الليل ، وأُخِذت نساءٌ من الطُّرقات ، وعظم الأمر فى ذلك .

وفيه ضربت رقبة عيسى بن نسطورس .

ووصل الحاج فى رابع عشر صفر ؛ فخلع على سُبُكْتَكِين ، مقدّم القافلة ، وحمل على عدد من الخيل .

ووقف سعر الخبز على أربعة أرطال بدرهم .

وسار أبو تميم [سَلْمان بن[2]] جعفر بن فلاح بعد أن خُلع عليه وقِيدَ بين يديه عدّةُ خيول ، وحُمل معه شئ كثير من الثياب ، وأنفق فى أهل عسكره ؛ فنزل مسجد تَبَر[3] ، فأقام إلى تاسع عشر ربيع الأول ؛ فخرج إليه الحاكم وحلّفه ومن معه ، وعاد . فرحل ابن فلاح إلى القصور فأقام بها . وقُرِئ سجل يوم الجمعة للنصف منه بمدح كتامة ولعن مَنْجُوتِكين

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من يناير سنة ٩٩٧ .

(٢) مابين الحاصرتين تصحيح استنادا إلى ماتقدم فى نهاية الحديث عن حوادث سنة ست وثمانين وثلثمائة ، واستعانة بما جاء فى ذيل تاريخ دمشق : ٤٦ .

(٣) خارج القاهرة مما يلى الخندق قريبا من المطرية ، وكان يسمى مسجد التبن . ويقال إنه بنى على رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على ، ويعرف أيضا بمسجد البئر والجميزة . وتبر هذا أحد الأمراء على زمن كافور الإخشيدى وقد اضطر جوهر الصقلى إلى محاربته حربا طويلة انتهت بفراره إلى مدينة صور بالشام حيث قبض عليه وأدخل القاهرة وضرب بالسياط وحبس حتى مرض ومات فسلخ جلده وصلب . الخطط : ٢ : ٤١٣ .

على سائر منابر مصر وفى القصر . وخلع على جماعة من الحمدانية[1] وجُهّزوا إلى ابن فلاح ، فساروا معه .

وفى آخره أَخْرَجَ ابن عمّار إلى سلمان [بن جعفر [بن فلاَح بخزانة مال ، عَلى ثمانية وستين بغلا ، فى صناديق ، فيها أربعمائة ألف دينار وسبعمائة ألف درهم ؛ وستة وأربعين حِمْلاً من السلاح ؛ وعشر جمازات[2] عليها دُرُوع ؛ وستْ قباب[3] بفُرُشِها وأَهِلّتها ومناطقها وجميع آلاتها ، منها قبتان قرقرى مثقل وباقيها ديباج ؛ وستّ جمازات تجنب بآلة الدّيباج الملون ؛ وثلاثين جمازة بأَجلتها[4] ؛ وعشرة أفراس وثلاث بغلات بمراكبها ، ومنديلٍ حمله خادم فيه ثيابُ شَرَف ، بها من ثياب العزيز وسيف من سيوفه .

وفى ثالث ربيع الآخر ركب الحاكم وابن عمّار إلى القصور فودّعا ابن فلاح ، وسار فى ثلاثة من كتامة وسبعمائة فارس من الغلمان ، وانضم إليه من عرب الرملة[5] ثمانية آلاف .

وفى النصف منه شق الحاكم المدينة وقد زينت زينة عظيمة ، وزيدان يحمل مظلة عن يمينه ، وابن عمّار عن يساره ، ويرجوان وحده خلفه ، فدخل الصناعة .

---

(١) من رجال الأسرة التى حكمت كلا من الموصل وحلب ، مجتمعتين أو مستقلتين . وكان لأصحاب حلب صلة بالفاطميين ، وقد ولى بعضهم قيادة الجيش أو الوزارة بمصر على فترات متباينة ، ولم يكونوا خاضعين للفاطميين فى جميع الظروف . وسيرد بعض التفصيل لذلك . انظر أيضا : معجم الأنساب لزامباور : ٢ .

(٢) جمز البعير من باب ضرب ، والجماز بالفتح والتشديد البعير الذى يركبه المجمز ، والجمازة ناقة المجمز ، والناقة تعدو الجمزى بالقصر أى تسرع .

(٣) القبة كانت من مستلزمات الجيوش المقاتلة ، تضرب فى ميدان المعركة ويلجأ إليها مجموعة من المقاتلة تستريح ولا تشترك فى القتال حتى تشتد المعركة وعندئذ تبادر إلى الاشتباك فترجح كفة المقاتلين ويشتد أزرهم . وقد استعملها القرامطة على نطاق واسع فى حروبهم . وتطلق القبة أيضا على المظلة .

(٤) الجل للدابة كالثوب للإنسان يلبس ليقى من البرد ، والجمع جلال وأجلال ، وجمع الجلال أجلة .

(٥) بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا . معجم البلدان : ٤ : ٢٨٦ – ٢٨٨ .

وأما مَنْجُوتكين فإنه لمّا بلغه ما فعله ابن عمار من إكرام كتامة وحطّه من مراتب المصْطَنعين الذين اصطنعهم العزيز من الأتراك خاف[1] . فلم يكن غير قليل حتى بلغه خروج سلمان بن جعفر بن فلاح إلى الشام بالكتاميين ، فسار إلى الرملة مستعدًّ القتال من يجيشه من مصر ؛ فالتقيا برفح . وكانت الوقعة بين الطوالع ، فانهزم أصحاب منجوتكين ؛ وسار ابن فلاح إلى منجوتكين ، فلقيه بظاهر عسقلان وقد انضم إليه ابن الجراح فى كثير من العرب ؛ فاستأمن إلى ابن فلاح عدة من أصحاب منجوتكين . واقتتلا يوم الجمعة ، رابعَ جُمادى الأولى ، فقتل كثير من أصحاب منجوتكين وأُسِر عدّة منهم ؛ وانهزم منجوتكين بمن بقى معه ، فقطع من عسقلان إلى دمشق فى ثلاثة أيام ، وأهلُها فى مجاعة من غلاء الأسعار وقلة الطعام وقد راجت الغلال . فاجتمع أهل البلد [٥١ ب] إلى الجامع وَهُم كثيرٌ ، فيهم حُمّال السلاح ومن يطلب الفتن . فقال الناس : نُرَحِّل مَنْجوتكين عنّا ؛ وقال طلاب الفتن: لا ، ما نقاتل معه ، وساروا إلى داره ومعهم قوم من المرج[2] يقال لهم الهياجنة ، أهل شر وفساد ، فنهبوها وما حولها من دور أمرائها . وخرج منهزما فى يسير من الجند فراسخ ، فنزل على ابن الجرّاح .

وبلغ ذلك ابنَ فلاَح فأرسل بأخيه علىّ بن جعفر بن فلاح فى ألْفَىْ رجل ؛ فنزل بظاهر دمشق ، لستٍّ بقين منه ، وبعث إلى ابن الجرّاح رسولا بأن يُنْفِذ منجوتكين إلى مولانا

---

(١) يصور سراف ابن عمار فى إكرام قومه من كتامة ما ذكره النويرى فى نهاية الأرب ، فى سبب الفتنة التى ثارت فى دمشق بزعامة منجوتكين : « كان سبب ذلك أن ابن عمار أظهر الكتامبين وبالغ فى الإحسان إليهم وخولهم فى الأموال وبسط أيديهم وفرق فيهم ما خلفه العزيز . قال بعض المؤرخين إن العزيز كان عنده عشرون ألف عليقة ما بين فرس وبغل وجمل وحمار ، ومن الأموال ما لا يدخل تحت الإحصاء ، ففرق ابن عمار ذلك فيمن أراد اصطناعه » . . الخ . ويقول ابن القلانسى : ٤٦ : « وندب أبا تميم سلمان بن جعفر بن فلاح وأطلق كل ما التمس من المال والعدد والرجال والسلاح والكراع ، وأسرف فى ذلك إلى حد لم يقف عنده » .

(٢) المرج الأرض الواسعة فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب أى تذهب وتجىء . وبالقرب من دمشق ثلاثة مروج هى مرج عذراء ، ومرج الصفر ، ومرج راهط وهو الذى يقصد عادة إذا ذكر مفردا غير مضاف . معجم البلدان : ٨ : ١٥ — ١٦ .

فإنّا لا نريد به سوءًا ، وهو آمن ، وبذل له مالا . فسار منجوتكين ودخل القاهرة فى ثانى عشرى رجب ، فأنزله ابن عمّار فى دار ، وكان يركب فى خدمته ، وإذا لقيه وهو راكب ترجّل له . وكان ابن عمّار ينزله أَدْوَنَ المراتب ، وغيّر رسومه كلها .

وأما علىّ بن [جعفر بن] فلاح فإنّه لمّا قدم من عند أخيه ولّى البلد لرجل من المغاربة لم يكن عنده ما رآه ، بل كان فظًّا غليظًا ، فشاقّ العَامَّة وواجههم ، فثاروا عليه بالسلاح ، وركب المغاربة ، وكانت بينهم حروب . ثم إن شيوخ البلد خرجوا إليه وأصلحوا الأمر .

وسار علىٌّ من الرملة فنزل على دمشق فى عسكر عظيم يوم الاثنين لِستٍّ بقين من رجب ، وأقام لا يأمر بخير ولا شر .

وأما ابن عمّار فإنه لما نظر فى الأمر كان ينزل على باب الحجرة التى فيها الحاكم ، ويدخل القصر راكبا ، فيشق قاعة الدواوين ، ويدخل من الباب الذى يجلس فيه خدم الخاصة[1] ، ثم يعدل منه إلى باب الحجرة ، فينزل ويركب منه . وكان النّاس من الشيوخ والرؤساء على سائر طبقاتهم يبكرون إلى داره والباب مُغلق فيُفتح بعد وقت ، فيدخل إليه الوجوه فيجلسون فى قاعة الدّار على حصير وهو فى مجلسه لا يدخل إليه أحد ، فإذا مضت لهم ساعة أَذِن للوجوه فالقاضى ، وبعده كُتامة والقواد ، فيدخل أعيانهم ؛ ثم يأْذن لسائر الناس فلا يقدر أحد على الوصول إليه ، فمنهم من يومى إلى تقبيل الأرض ، ومنهم من يقبّل الركاب ، ومنهم من يقبل ركبته .

وتسلّم النّظر والإسطبلات عامرة ؛ فأخرج لرجال كتامة وأحداثهم ألفا وخمسمائة فرس ،

---

(١) خدم الخاص ، أو الخاصكية : فرقة من الخدم أو المماليك تختص بخدمة الخليفة أو السلطان أو الأمير . وتشرف على حوائجه وملابسه ، وقد يشرف رئيسها على دخول الأمراء والكتاب للخدمة . ويختارون من بين الخدم الذين دخلوا فى الخدمة صغارا ، ويدخلون على مخدومهم فى خلوته ، ويركبون لركوبه ليلا ونهارا ، ولايتخلفون فى قرب أو بعد ، ويتميزون عن غيرهم من المماليك والخدم بحملهم سيوفهم وبملابسهم المزركشة . صبح الأعشى . انظر كذلك : السلوك : ١ : ٦٤٤ .

ولم يبق من شيوخهم إلاّ من قاد إليه الفرسين والثلاثة بمراكبها . وحمل لسلمان [بن جعفر] ابن فلاح ما يتجاوز ألف رأس ، وجُلَّ رحلِ العزيز وأمتعته . وباع من الخيل والبغال والنُّجُب والحمرُ ما يتجاوز الألوف ،حتى بيعت الناقة بستة دنانير ، والحمار الذى قيمته أربعون دينارا بأربعة دنانير . وقطع أكثر الرسوم التى كانت لأولياء الدولة من الأتراك والعبيد ، وقطع أكثر ما كان فى المطابخ . وقطع أرزاق جماعة أرباب الراتب ، وفرّق كثيرا من الجوارى طلَبًا للتّوفير .

واصطنع أحداث[1] المغاربة ، فكثر عبث أشرارهم وامتدت أيديهم إلى أخذ الحرم فى الطرقات ، وعرّوا جماعة من الناس ، فكثرت الشكاية منهم ولم يُبْدِ كبير نكير ؛ فأفرط الأمر حتى تَعرضوا إلى الأتراك يريدون أخذ ثيابهم ، فثار لذلك شرٌّ قُتل فيه واحد من المغاربة وغلامٌ تركىّ ؛ فسار أولياء الكتامى ليأخذوا[2] التركى قاتله ويأتوا به إلى قبر المقتول فيعتقوه هناك ؛ فلما أخذوه قتلوه على قبر الكتامى . فاجتمعت أكابر الطائفتين وتحزّبوا ، فوقعت الحرب بينهما وقُتل جماعة ، وانطلقت ألسُنُ كل منهما فى الآخرين بالقبيح . وأقاموا على مصافهم[3] يومين آخرهما تاسع شعبان ، فركب ابن عمّار فى عاشره بآلة الحرب وقد حفَّت به المغاربة ؛ وتبادر إليه الاتراك ؛ فاقتتل الفريقان وقتل منهما جماعة وجرح كثير . وجئ لابن عمّار بعدّة رءوس طُرحَت بين يديه ، فأنكر ذلك وظهر له الخطأ فى ركوبه ، فعاد إلى داره .

وجاء بَرْجَوَان ليصلح الأمر ، فثار الغلمان وركبوا دارَ ابن عمّار للفتك به ، فأركب

---

(١) الأحداث : رجال الشرطة المكلفون بإخماد الفتن والاضطرابات وعقاب مثيرى الشغب ، وهم أيضا رجال الحرس الإقليمى . انظر Dozy; Supp. Dict. Ar. وكذلك Reinaud; J. A; 1848. II .

(٢) فى الأصل : أن يأخذوا .

(٣) المصاف جمع مصف وهو الموقف فى الحرب ، وموضع الصف فى القتال . لسان العرب ، انظر أيضا : Dozy: supp. Dict. Ar.

برجوان إلى القصر وانبسطت أيدى المغاربة وأحداث الغلمان والنهّابة ، فانتهبوا [٥٢ ا] دارَ ابن عمار واسطبلاته ، ودار رشا غلامه ، وأخذوا مالا يحصى كثرة[١] .

وانعزل لثلاث بقين منه ، وتحوّل من القاهرة إلى داره بمصر . فكانت أيام نظره أحد عشر شهرا غير خمسة أيام . فأقام بمصر سبعة وعشرين يوما ، ثم عاد إلى القاهرة بأمر الحاكم فأقام بها لا يركب ولا يجتمع به سوى خدمه ؛ وأُطلقت له رسومه وجراياته وجرايات حشمه على رُتَبه فى أيام نظره .

وتقدم [الحاكم] إلى برجوان أن ينظر فى التّدبير على ما كان ابنُ عمار ، فنظر فى ذلك لثلاث بقين من رمضان ، وسار إلى القصر وجمع الغلمان الأتراك ونهاهم عن التعرض لأحد من الكتاميين والمغاربة . وقبض على عريف الباطلية[٢]، فإنهم كانوا قد نهبوا شيئا كثيرا لابن عمّار ، وألزمه بإحضار ما نهب أصحابُه . وأجرى الرّسُوم والرواتب التى قطعها ابن عمّار ، وأجرى لابن عمّار ما كان يجرى له فى أيام العزيز ، ولآله وحرمه ؛ ومبلغ ذلك من اللحم والتوابل والفاكهة خمسمائة دينار فى كل شهر ، يزيد على ذلك تارة وينقص أخرى على قدر الأسعار ، مع ما كان له من الفاكهة ، وهو فى كل يوم سلة بدينار ، وعشرة أرطال شمع كل يوم ، وحمل ثلج عن يومين ؛ فأجرى له ذلك مدة حياته .

---

(١) يذكر ابن القلانسى أن برجوان خشى على نفسه من ابن عمار والكتاميين ، فانتهز فرصة غيبة كثير من الكتاميين فى الشام مع سلمان بن جعفر بن فلاح فاتفق مع شكر العضدى على الإيقاع بابن عمار « وقررا أن يركبا ويركب على أثرهما جماعة من الغلمان ، فإنْ أحسوا وأحسسنا ما يريبنا رجعنا وفى ظهورنا من يمنع منا » . فلما وصلا دار ابن عمار أحسا بما كان يدبره هو أيضا للإيقاع بهما فرجعا ، وجرد غلمانهما السيوف لحمايتهما . ثم دخل برجوان وشكر قصر الحاكم يبكيان ، وثارت الفتنة واجتمع الأتراك والديلم والمشارقة وعبيد الشراء بالسلاح . . . ثم دار قتال عنيف بين الفريقين فى الصحراء فهزم ابن عمار ونهبت داره ودور رجاله . ذيل تاريخ دمشق : ٤٨ — ٤٩ . ويشرك النويرى معهما منجوتكين .

(٢) بدأ ظهور الباطلية جماعة متميزة — على مايبدو — زمن المعز لدين الله ، ذلك أنه قسم العطاء فى إحدى المناسبات على الناس ، فجاءت إليه طائفة وسألته نصيبها فى العطاء ، فقال : فرغ المال . فقالوا : رحنا نحن فى الباطل . فسموا الباطلية . وبهم تعرف الحارة المعروفة فى منطقة الأزهر ، وتسمى أيضا الباطنية . النجوم الزاهرة : ٤ : ٤٦ ؛ الخطط : ٢ : ٨ .

وجعل برجوانُ أبا العُلا ، فهد بن إبراهيم [النّصْرانى] ، كاتبه ، يوقّع عنه ، فنظر فى قصص الرافعين وظُلاماتهم ، وطالعه بما يحتاج إليه ، فرتّب الغلمان فى القصر وأكّد عليهم فى مُلازَمة الخدمة ، وتفقّد أحوالهم . وأزاح علل أولياء الدولة ، وتفقّد أمور الناس وأزال ضروراتهم ، ومنع من التّرجُّل له . وكان الناس يلقونه فى داره ، فإذا تكاملوا ركب وهُمْ بين يديه إلى القصر . ولقّب كاتبه فهد بن إبرهيم بالرئيس ، فكان يُخاطَب بذلك ويُكاتَب به ، ويركب أكثر الناس إلى داره حتى يخرج برجوان إلى القصر فيجلس فيه فى آخر دهاليزه ، ويجلس فهد فى الدّهليز الأوّل يوقّع وينظر ويطالع برجوان بما يحتاج له ، فيخرج الأمر بما يكون . فلم يزل الأمر على ذلك حتى انتهت مدّتهما .

وكان الحاكم يركب كلّ يوم إلى الميدان[1] ، فيجلس على سريره بالطّارِمة[2] فتعرض عليه الخيل ، والقرّاء بين يديه ، وربما أنشده الشعراء ؛ ثم ينصرف إلى القصر فيجلس برجوان وكاتبهُ لِأَخْذ رقاع المتظلمين وأرباب الحاجات ، فلا يزالان[3] حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يدخلان[4] . فإذا فرغ الحاكم من غدائه ورفعت المائدة تقدّم أبو العلا فجلس بين يديه وبرجوان قائم على رأسه ، حتى يقرأ جميع تلك الرقاع ويوقع عليها الحاكم فى أعلاها بما يراه ، ثم يَخرُج بها فتُفرَّق كلها ويُمضَى بها إلى الديوان ، فتُنفَّذ من غير مراجعة .

وكان الحاكم إذا جلس فى الطّارِمة وأنشده الشعراء تناول برجوان قصائدهم فجعلها فى كمه ؛

---

(١) كان فى مصر والقاهرة عدة ميادين منها ميادين ابن طولون ، الإخشيد ، قراقوش ، بركة الفيل ، القصر ، وغيرها ولعل المقصود هنا ميدان القصر ويقول عنه المقريزى إنه عمل عند بناء القاهرة بجوار البستان الكافورى وموضعه الآن حى الخرنشف ، ولم يزل ميدانا للخلفاء الفاطميين إلى أن زالت دولتهم فتعطل . الخطط : ٢ : ١٩٧ .

(٢) الطارمة : بيت من خشب ، فارسى معرب . مختار الصحاح . وكان بالقاهرة حى يعرف باسم خط اصطبل الطارمة يحدد المقريزى موقعه بأنه بين رحبة قصر الشوك ورحبة الجامع الأزهر ، ويقول : وكانت فيه طارمة يجلس الخليفة تحتها . الخطط : ٢ : ٣٥ .

(٣) فى الأصل : فلا يزالا .

(٤) فى الأصل : ثم يدخلا .

فإذا عرض رقاع الناس وفرغ من التوقيع قرأ القصائد وقد حضر من له تمييزٌ ومعرفة بالشعر. وكان الحاكم له من الحذق بذلك ما ليس لغيره ، فإذا أنشده الشاعر أو أنشد له أبو الحسن لا يُنْشدويُمرُّ بالبيت النادر أو المعنى الحسن إلاَّ نبّه برجوان عليه واستعاده مراراً ، ثم يوقع لكل واحد منهم بقَدْر استحقاقه ومبلغِه من صناعته ، فتخرج صلاتُهم بحسب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء تاسع شعبان أهدت ست الملوك[1] إلى أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثين فرسا مُسْرجة ، أحدها مرصع وآخر بلور ، وبقيتها ذهب ؛ وعشرين بغلة مُسْرجة مُلْجمة ؛ وخمسين خادما منها عشرة صقالبة ، ومائة تخت[2] ثياب ، وتاجا مرصعا ، وشاشية[3] مرصعة وأسفاطا كثيرة من طيب ، وبستانا من الفضة مزروعا من أنواع الشجر .

وفى رمضان سُومِح أهل القلزم بما عليهم من مكوس المراكب .

وصلى الحاكم بالناس صلاة عيد الفطر بالمصلى وخطب ، وأصعد معه المنبر الحسين بن جوهر والقاضى والأستاذ بَرْجَوان وجماعة .

وسارت قافلة الحاج من بركة الجب[4] بالكسوة للكعبة ، والزّيت والدقيق والقمح والشمع والطِّيب لمكة والمدينة ، فى تاسع ذى القعدة . وفيه خرج جيش بن الصمصامة إلى الشام مكان سلمان بن جعفر بن فلاَح ، فرحل ابنُ فلاح عن دمشق [٥٢ ب] فى يوم الثلاثاء سابع عشر ذى الحجة بعسكره وسار إلى الرّملة .

---

(١) ورد هذا اللقب فى الأصل بعدة صور : ست الملك ، سيدة الملك ، ست الملوك .

(٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب . القاموس المحيط .

(٣) الشاشية مايلبس على الرأس دون عمامة ، أو مايدار حوله العمامة ، من قاش الشاش المعروف .

(٤) لعل المقصود به جب عميرة الذى ورد ذكره فى الخطط ، وهو المكان الذى كان الحجاج يخرجون إليه ويتجمعون فيه فى المرحلة الأولى استعدادا للسفر للحج ، وهو فى الشمال الشرقى من القاهرة . وجب عميرة نسبة إلى عميرة بن تميم التجيبى : الخطط : ١ : ٤٨٩ ، ٢ : ١٦٣ - ١٦٤ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١١ ؛ معجم البلدان : ٣ : ٤٦-٤٧ ؛ قوانين الدواوين : ١١٠ .

وفيها صلّى الحاكم بالمصلّى صلاة العيد يوم النّحر بالناس وخطب على رسمه .

وورد الخبر من مدينة قوص بأنّ شدّةً نزلت بهم من برق ورعد ومطر وحجارة نزلت من السماء ، منها ما لم يسمع بمثله ، وأنهم زُلزلوا زلزلة شديدة قصفت النخل والجميز ، واقتلعت خمسمائة نخلة من أصولها . وانبثق بقوص وأعمالها زرقة خضراء على ظهر الأرض ، وغرقت عدة مراكب مشحونة بغلال تساوى أموالا كثيرة .

وفيها كتب الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعى علىّ بن عبد الله سجلّين لأبى مناد باديس ابن يوسف بن زِيرِى[1] ، أحدهما بولايته المغرب وتلقيبه نصير دولة الحاكم ، والثانى بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم وأخذه العهد على بنى مناد . فأُنزل وأُكرم وأُخذ العهدُ على جميع قبائل صنهاجة وعمومهم بالبيعة للحاكم فى جمادى الآخرة ، ثم عاد ، فقدم إلى القاهرة يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة بعد أن وصله نصير الدولة بمال جليل وثياب وخيول .

(١) ولد فى ربيع الأول سنة ٣٧٤ ، وبهذا نجده حين ولاه الحاكم بأمر الله ولاية المغرب شابا حدثا فى الرابعة عشرة من عمره ، ولعل سر ذلك أنه من أسرة بدأت مجدها فى طاعة الفاطميين ، وتولى رجالها الحكم فى صنهاجة والمغرب الأوسط ، وكانت عاصمتهم القيروان ، انظر معجم الأنساب لزامباور .

ودخلت سنة ثمان وثمانين وثلثمائة [1] .

فى المحرم كان غطا س النصارى [2] ؛ فضربت الخيام والمضارب والأشرعة فى عدة مواضع من شاطئ النيل ؛ ونُصبت أسِرَّةٌ للرئيس فهد بن ابراهيم وأُوقدت له الشموع والمشاعل ؛ وحضر المغنُّون والملهون [3] ، وجلس مع أهله يشرب إلى أن جاء وقت الغطاس فغطس وانصرف.

وورد سابق الحاج لثمان خلون منه .

وخلع على أبى الحارث فحل بن إسماعيل بن تميم بن فحل الكتامى ، وقِيدَ بين يديه ، وحمل إليه ، وقُلّد صُور [4]

وخلع على أبى سعيد ، وقلّد الحسبة . وخلع على أبى الحسن يانس الخادم الصقلّبى ، وقُلّد بسيف ودُفع إليه رمح وحُمل على فرس بمركب ذهب ثقيل ، وحمل إليه خمسة آلاف دينار وعدّة من الخيل والثياب ومائة غلام ، وسار لولاية برقة .

وخُلع على خود الصقلّبى وقلّد بسيف ، وحمل ، وقيد بين يديه فرس ، وحمل إليه ثياب ، وقلّد الشرطة السفلى . وخلع على قيد الخادم الأسود بشرطة القاهرة [5]

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث من يناير سنة ٩٩٨ .

(٢) وهو من أعياد النصارى ، ويقع فى الحادى عشر من شهر طوبة . ويحتفل به المسلمون والنصارى على السواء ، وكان للاحتفال به أيام الفاطميين أهمية خاصة إذ كان يحضره الخليفة بنفسه ومعه رجال الدولة ، وتوقد فيه المشاعل والشموع ، وتتكاثر فيه أنواع المأكولات والمشروبات.وكان من رسوم الدولة أنه يفرق على سائر أهل الدولة الترنج والنارنج والليمون وأطنان القصب والسمك برسوم مقررة لكل واحد من أرباب السيوف والأقلام : الخطط : ٢ : ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(٣) فى الأصل الملهيون ، وهى كذلك فى الخطط لنفس المؤلف .

(٤) من ثغور الشام الساحلية ، يصف ياقوت مناعتها فيقول إنها داخلة فى البحر مثل الكف على الساعد ، تحيط بها مياه البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع الذى منه شروع بابها ، بينها وبين عكا ستة فراسخ . معجم البلدان : ٥ : ٣٩٧ — ٣٩٨ .

(٥) كانت شرطة مصر منذ زمن الخلفاء الراشدين بالفسطاط ، فلما تأسست مدينة العسكر ، أيام العباسيين الأوائل ، أنشئت بها دار أخرى للشرطة عرفت بالشرطة العليا ، ولم تلبث هذه أن انتقلت إلى داخل القاهرة بعد استقرار الفاطميين ، وامتد نشاط شرطة الفسطاط ، الشرطة السفلى ، ليشمل العسكر والقطائع أيضا . صبح الأعشى : ٤ .

ووصلت قافلة الحاج سابع عشر صفر . وسار ميسور الخادم الصقلبي والياعلى طرابلس وخلع على فائق الخادم الصقلبي وجعل على الأسطول .

وفى سادس عشر ربيع الأول كان نَوْرُوزُ الفرس[1] ، فأهْدى الأتراك وقوادهم وجماعة الأولياء إلى الحاكم الخيل والسلاح الكثير ، فقبل يسيرًا منه وشكر ذلك لهم ، وردّ الباقى إليهم .

وفى أول ربيع الآخر قدم سلمان بن فَلَاح وأخوه من الرّملة .

وفى سادس عشر كان فصح النصارى ، فخلع على فهد بن إبرهيم خلعة حُمِلت إلى داره ومعها بغلتان[2] بمركبيهما وألف دينار . وخُلع على أبى سعادة أيمن الخادم ، أخى برجوان ، وقلّد غزّة وعسقلان فى سادس جمادى الأولى .

وورد الخبر بفتح صُور . وذلك أن أهل صور ثاروا على مَنْ عندهم من المغاربة وقتلوا منهم جماعة ، وقتلوا مَنْ بَقِى ؛ وغلب على البلد رجل من البجوية يقال له العلاقة وأرسل إلى الروم[3] ،فسيّروا إليه بمراكب فيها رجال ، فخرج إليهم عسكره، وسارت إليها المراكب من مصر فقاتلوا مَنْ بها من الروم فانهزموا عنها فى مراكبهم ، وبَدَت أهلُ البلد فألَحّ القتال عليهم حتى مُلِكت منهم . وامتنع العلاقة ومعهُ طائفه فى بعض الأبرجة ؛ ثم طلبوا الأمان . فانتُهِبَت المدينة وأُخذ منها ما لا يُعرف قدرُه كثرةً فى الرابع عشر من جمادى الآخرة . وحمل

---

(١) النوروز من المواسم الفارسية القديمة التى كان يحتفل بها عند ابتداء فصل الربيع . وقد أبطل المسلمون الاحتفال به فى أيامهم الأولى حتى جاء العباسيون وأعادوه إلى ما كان عليه . وفى مصر كان الاحتفال بالنوروز القبطى من أجمل أعياد الفاطميين يلعبون فيه الألعاب النارية ويطوفون بالأسواق ويوقدون النيران ، وكانت تطلق فيه الأعطيات والهبات على نطاق واسع من الدنانير والدراهم والكسى والعصائب وأنواع الثياب ، وكذلك من الرمان والبطيخ والبسر والتمر والسفرجل والعناب والهريسة المعمولة من لحم الدجاج ولحم الضأن ولحم البقر وغيرها . الخطط : ١ : ٤٩٣-٤٩٤ ؛ الفاطميون فى مصر : ٢٨٥ .

(٢) فى الأصل : ومعها بغلتين .

(٣) على زمن الإمبراطور باسيل الثانى .

العلاقة مُقيّدا ، وسيق فى جماعة معهم إلى القاهرة فشُهِّروا ، وقد أُلبِس العلاقة طرطورا من رصاص له عِظَم وثِقَل على رأسه ، وكاد أن يغوص على رقبته ؛ ثم قتل وصُلب وقتلت أصحابه[1].

وفى شعبان ورد الخبر من جَيْشٍ بمواقعة الروم على فامية[2] وأنطاكية . وذلك أن جيشا نزل على دمشق ، ونزل بشارةُ إلى طبرية أيضا ، لأربع خلوْنَ من رجب ؛ وكتب إلى بشارة بولاية دمشق فأقرّ عليها واليًا من قِبَله ؛ وسار بعساكره ، هو وجيش ، فى رابع عشرِهِ إلى فامية وبها الروم . فاشتدّ القتال بينهم وبين الروم ، فانهزم المسلمون وملك الروم سوادهم . ثم ثابوا وعادوا إلى محاربة [٥٣ ا] الروم ، فواقعوهم ، فانهزم الروم وقتل منهم نحو خمسة آلاف وقُتل مُقدَّمُهم ؛ وذلك لتِسْعٍ بقين من رجب . ورجع المنهزمون إلى جيش ابن الصمصامة وقد خافوه ، فسار بهم إلى نحو مرعش[3] ، فأحرقوا ، وهدموا ولم يَلْقَهم أحد ونزل على أنطاكية فقاتل أهلها أياما ؛ ثم رحل عنها إلى شَيْزَر[4] .

وسار بشارة إلى دمشق ، فنزلها لِلنِّصف من شوّال على أنه قد وَلِي البلد ؛ فأقبل إليه جيش فنزل ظاهر المزة[5] ، لسبعٍ بقين من ذى القعدة ، وقد هجم الشتاء ؛ فوافى[6] الكتاب

---

(١) وكان على رأس الجيش الذى سار من مصر لحرب العلاقة أبو عبد الله الحسن بن ناصر الدولة وياقوت الخادم ، وفى الجيش جماعة من عبيد الشراء . وفى القاهرة سلخ جلد العلاقة وهو حى ، وحشى جلده تبنا وصلب . وكان العلاقة قد سك نقودا فى صور وكتب عليها : « عز بعد فاقة ، وشطارة بلباقة ، للأمير العلاقة » . نهاية الأرب للنويرى .

(٢) وبالهمزة أيضا ، مدينة وكورة من سواحل الشام ، كانت تعد من أعمال حمص . معجم البلدان : ١ : ٢٩٨ ، ٦ : ٣٣٤ – ٣٣٥ .

(٣) من مدن الثغور التى كانت تحجز بين البلاد الإسلامية وبلاد الروم فى منطقة الشام . بها حصن بناه مروان بن محمد ثم أكمل الرشيد بناء المدينة . وهى مدينة حصينة لها سوران وخندق . معجم البلدان : ٨ : ٢٥ – ٢٦ .

(٤) قرب معرة النعمان ، بينها وبين حماة ، وكانت تعد من أعمال حمص ؛ ويمر نهر الأردن بوسطها . معجم البلدان : ٥ : ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ وانظر أيضاً : الاعتبار لأسامة ابن منقذ ؛ تهذيب تاريخ ابن عساكر ؛ مقدمة كتاب لباب الآداب .

(٥) قرية كبيرة وسط بساتين دمشق ، بينها وبين المدينة نحو نصف فرسخ . معجم البلدان : ٨ : ٤٧ . وهى بكسر الميم ثم التشديد .

(٦) رسمت فى الأصل : فوافا .

من مصر بعزل بشارة عن دمشق وولايته طبرية ، واستقرار جيش على ولاية دمشق ، فدخلها واستقر بها .

وفى شهر رمضان صلى الحاكم بجامع القاهرة بالنّاس بعد ما خطب وعليه رداء، وهو متقلّد سيفا وبيده قضيب ، وزُرِّر عليه جلال القبة لما خطب . وقال خطبة مختصرة سمعها من قرُب منه . وهى أوّل جمعة صلّاها ؛ ثم صلى جمعة أخرى[1]، وصلى[2] صلاة عيد الفطر فى المصلّى ، وخطب على الرسمِ المعتاد ، وحضر السماط .

وأحضرت امرأة من الشام فى علبة طولها ذراع واحد من غير زيادة ، وافت من خراسان ، ومعها أخ لها فى قدّ الرجال ، فأُنزِلت بالقصر وأُقيم لها ولمن معها الأَنْزال ، وكانوا عدة ، وقُطع لها فى وقت واحد مائة ثوب مثقل وحرير . وكانت مليحة الكلام نظيفة ،ولبثت بضعة وثلاثين يوما وماتت ، فكانت لها جنازة عظيمة .

وسارت قافلة الحاج فى ثالث عشر ذى القعدة بالكسوة والصِّلاتِ على العادة . وصلّى الحاكم يوم عيد النحر بالمصلّى وخطب .

ووصل خود من قِبَل جيش بن الصمصامة فى عشرى ذى القعدة ومعه عدة أسارى ورءوس كثيرة ، فطِيفَ بهم فى البلد ، ثم عُفِى عن الأَسرى وأُطلقوا .

(١) جاء فى النجوم الزاهرة ، نقلا عن ابن عبد الظاهر ، بشأن خطبة الجمعة أنه كان من عادة الخليفة أن « يخطب فى شهر رمضان ثلاث خطب ، ويستريح فيه جمعة ، وكانوا يسمونها جمعة الراحة » . ولصلاة الجمعة وخطبتها مراسم خاصة تجد تفصيلها فى النجوم الزاهرة : ٤ : ١٠٢ – ١٠٤ . وعن صلاة الجمعة انظر أيضا : الخطط : ٢ : ٢٨٠ – ٢٨٢ .

(٢) فى الأصل : وصلا .

سنة ثمان وثمانين وثلثمائة (١)

فى حادى عشر المحرّم ورد سابقُ الحاج فأخبر أن عدن احترقت كلُّها وتلف فيها من المال مالا يعرف له قيمة لكثرته .

وفى ليلة الرابع [من صفر(٢)] مات قاضى القضاة محمد بن النعمان فركب الحاكم وصلى عليه . وله من العمر تسع وأربعون سنة إلا يوما ؛ ومولدُه لثلاثٍ خلون من صفر سنة أربعين وثلثمائة ؛ وكانت مدّةُ ولايته القضاء بمصر وأعمالها أربع عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام . ودُفن بداره ثم نقل إلى القرافة ؛ وقيدت دوابه إلى الاصطبل . وترك عليه دينا للأيتام وغيرهم عشرين ألف دينار ، وقيل ستّة وثلاثين ألف دينار ؛ فبعث برجوان كاتبه أبا العلاء [فهد بن ابراهيم] فختم على جميع ما ترك القاضى ، ولم يمكّن ورثته من شئ ، وباع ذلك كله . وطالب الأُمناء والعدول بأموال اليتامى المتبقّية عليهم فى ديوان القضاء ، فزعموا أن القاضى قبضها ، وأقام بعضُهم بيّنة على ذلك وعجز بعضهم ، فأُغرم من لم يُقم بينة ما ثبت عليه . فاجتمع من البيع والأُمناء ثمانية عشر ألف دينار ، أخذها الغرماءُ بحق النصف مما لهم . وأمر الحاكم ألاَّ يُودَع عند عدل ولا أمين شئ من أموال اليتامى ، وأن يكتَرُوا مخزنا فى زقاق القناديل(٣) وتودع فيه أموال اليتامى ، فإذا أرادوا دفع أموال اليتامى حضر أربعة من ثقات القاضى ، وجاء كل أمين فأُطلق لمن يلى عليه رزقه بعد مشورة القاضى فى ذلك ، فكتب على الأمين وثيقة بما يقبضه من المال لمن يلى عليه .

ورجم فى ولايته رجلا زنى فى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة . وكان أكثر أيامه

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ٩٩٨ .

(٢) مابين الحاصرتين غير موجود بالأصل ، وقد زيد استعانة بما سيجئ بعد كلمات .

(٣) كان زقاق القناديل من الدروب الشهيرة التى سكنها الأعيان بمدينة الفسطاط زمن انتعاشها ، وقد زال بزوالها . ومكانه اليوم أرض فضاء مجاورة لجامع عمرو بن العاص من جهة الشرق .

عليلا بالنقرس والقولنج[١] ؛ وكان برجوان ، على كلالته يعوده إذا مرض فمن دونه . وكان يكاتَب بقاضي القضاة . وعلت منزلته حَتّى جاز حد القضاة ، وكانت النعمة تليق به ؛ وعمّ إحسانُه سائر أصحابه وأتباعه . وكان حَسَن الخلق ، ندِيّ الوجه ، فاخر الزّى يلبس الدرّاعة والعمامة بغير طيلسان[٢] ، كثير الاستعمال للطِّيب والبخور فى مجلسه ؛ وإن أَعْطَى أعطى كثيرا وافرا .

ولما مرض رأى كأن الحق تعالى نزل من السماء ، فلما بلغ باب داره مات ؛ فقال له ابن قديد عابر الرؤيا موت الحق إبطاله ، والله هو الحق ، ولا يزال الحق حيًّا حتى يصير إلى بابك فيموت ، فمات هو بعد ذلك بقليل .

ومن شعره [٥٣ ب] :

أيا مُشْبِهَ البدر بدر السماء ... لسبعٍ وخمسٍ مضت واثنتينِ
ويا كامل الحسن فى نَعْتِه ... شغلت فؤادى وأَنْهَرتَ عينى
فهل لِىَ من مَطْمع أرْتجيه ... وإلا انصرفتُ بخفَّىْ حُنينِ
ويشمت بى شامت فى هواك ... [٣] صفر اليَديْين
فإمّا مننْتَ وإمّا قتلتَ ... فأَنت القديرُ على الحالتينِ

ومنه :

تـأَمل لذى الدنيا ، تجدهامشُوبةً ... سرورا بحزن فى تقلّب أَحوال
وقد قُسمت أشياؤها بين أهلها ... فمالٌ بِلا أمنٍ ، وأَمنٌ بِلا مال

---

(١) مرض يصيب المعى ، وقد يؤدى إلى انسدادها فترة ، ويعسر مع هذا المرض خروج الثقل والريح . القاموس المحيط .

(٢) الطيلسان ، مثلثة اللام ، والطيلس والطالسان : لباس يختص به العلماء – عادة – وهو خال من التفصيل والخياطة. لسان العرب .

(٣) بياض فى الأصل لم أهتد إلى ما يكمله .

وأقامت البلد بعد موته تسع عشرة ليلة بغير قاض .

وفي ثالث عشر منه استدعى برجوان أبا عبد الله الحسين بن على ، ابن النعمان، إلى حضرة الحاكم بأمر الله ، وأضعف له أرزاق عمّه وصِلاتِه وإقطاعاته ، وقال له : قد أرحت عليك، فلا تُوجدْ لى سبيلا إليك بتعرُّضِك لدرهم من أموال المسلمين فقد أغنَيْتُك عنها . ثم خلع عليه ثيابا بيضا ورداءً محشًّى مذهبا وعمامة مذهبة ، وقلّده سيفا وحمله على بغلة، وقاد بين يديه بغلتين بسروجهما ولُجُمهما ، وحمل معه ثيابا كثيرة صحاحا ؛ وردّ إليه القضاء بمصر وأعمالها ؛ ولم يَظُنّ ذلك أحد لضعف حاله - وكان الناس يتخيلون ولاية عبد العزيز بن محمد بن النعمان بعد أبيه لأنه كان يخلُف أباه - فنزل إلى الجامع العتيق ، وقرئ سجلُّه على منبره . فنظر بين الناس ، وأوقف شهادة جماعة من الشهود ، وندب أربعة لكشف أحوال الشهود ؛ وألزم وُلاة أمور الأيتام برفع حسابهم . وطالب عبد العزيز بن النعمان بما على أبيه من أموال الأيتام . وجعل موضعا بزقاق القناديل يكون مودعا لأموال الأيتام ؛ وجعل خمسة من الشهود يضبطون ما يرد إليه وما يخرج منه بحُجَجٍ يكتب فيها خطوطهم ؛ فاستُحْسِن ذلك من فِعْله . وهو أول من اتخذ مودعا للأيتام من القضاة .

واستخلف بمصر أبا عبد الله الحسين بن محمد بن طاهر ، وبالقاهرة أبا الحسن مالك ابن سعيد الفَارِق ؛ وعلى العَرْض والنظر بين المتحاكمين، إذا غاب، الحسن بن طاهر وأبا العبّاس أحمد بن محمد بن عُبَيْد الله بن العوام . واستكتب أبا طاهر زيد بن أحمد بن السندى وأبا القاسم علىّ بن عبد الرزاق ؛ وجعل إلى أخيه أبي النعمان المنذر بن على النظر فى العيار[(١)] ودار الضرب[(٢)] . واستخلف على الإسكندرية وأعمالها .

---

(١) هى المؤسسة المختصة بمعايرة الموازين والمكاييل وضبطها ، ومن حضر من الرعية إلى المستخدمين بها ورغب فى ابتياع شىء منها باعوه . وإذا وجدوا سنجة زائدة أو ناقصة استهلكوها . قوانين الدواوين : ٣٣٣ - ٣٣٤ ؛ الخطط : ١ : ٤٦٣ .

(٢) فيها يسبك مايحمل إليها من الذهب المختلف حتى يصير ماء واحدا جاريا ، يقلب قضبانا تقطع من أطرافها بمباشرة النائب فى الحكم (المدير المسئول) وتصير سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من جملتها أربعة مثاقيل ، ويضاف إليها من الذهب الحار =

وقوى أمره ، وتشدّد فى الأَحكام ، وقبل شهادة من أُوقف شهادته وعزل آخرين ؛ واتخذ حاجبا. وتولَّى أَمر الدعوة وقراءة ما يُقرأ فى القصر من مجالس الدعوة وكُتبها ؛ وعلت منزلته.

وفى خامس عِشْرِى صفر وصل حاج البيت . وصلّى الحاكم فى رمضان بالناس جمعتين ؛ وخطب وصلى صلاة عيد الفطر ، وخطب ، وأَصعد القَاضى معه فى جماعة ، وجلس على السماط .

وسارت قافلة الحاج أول ذى القعدة بالكسوة والصِّلات على العادة . وصلى الحاكم صلاة عيد النحر وخطب على الرسم ؛ وأَجرى الناس فى أَضاحيهم على عوائدهم . وعمل عيد الغدير على العادة ؛ وطاف الناس بالقصر على رسمهم .

= المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل ، ويعمل كل منها أربع ورقات . وتجمع الورقات الثمانى فى قدح فخار ، بعد تحرير وزنها ، ويوقد عليها الأتون ليلة ، ثم يعبر الفرع على الأصل ثم يضرب دنانير . ويعمل بالفضة مايشبه ذلك . قوانين الدواوين : ٣٣١ - ٣٣٣ ؛ الخطط : ١ : ٤٤٥ .

سنة تسعين وثلثمائة [1]

فى أول يوم من المحرّم ظهر الحاكم ودخل الناس فهنئوه بالعام .

كان سعر الخبز ستّة عشر رطلاً بدرهم . وسقط إصطبل فهد بن ابراهيم فمات له نحو ستين بغلة .

وفى حادى عشر صفر وصلت قافلة الحاج من غير أن يدخلوا إلى المدينة النبوية .

وفى سادس عشر من ربيع الآخر[2] أنهَد الحاكم إلى برجوان عشيّة يستدعيه للركوب معه إلى المقس[3] ، فجاء بعد بطء وقد ضاق الوقت إلى القصر ، ودخل بالموكب ورؤساء الدولة والكتاب إلى الباب الذى يخرج منه الحاكم إلى المقس ؛ فلم يكن بأسرع من خروج عقيق الخادم وهو يصيح : قُتِل مولاى ؛ وكان عقيق عينًا لبرجوان فى القصر وقد جعله على خزاناته الخاصّة . فاضطرب الناس وبادَرُوا إلى باب القصر الكبير فوقفوا عنده ؛ وأشرف عليهم الحاكم . وقام زيدان ، صاحب المظلة ، فصاح بهم : من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور ؛ فانصرف الجميع . وكان قتل برجوان فى بستان يعرف بدويرة التين [١٥٤ ا] والعناب كان الحاكم فيه مع زيدان فجاء برجوان ووقف مع زيدان . فسار الحاكم حتى خرج من باب الدويرة ، فعاجل زيدان وضرب برجوان بسكين كانت فى خُفّه ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من ديسمبر سنة ٩٩٩ .

(٢) فى نهاية الأرب للنويرى يحدد التاريخ بأنه الثالث عشر من ربيع الآخر .

(٣) ميناء القاهرة فى زمن الفاطميين ومكانها قرب موقع حديقة الأزبكية . وقد انحسر النيل عنها فى أواخر زمن الدولة الفاطمية فأصبحت بولاق ميناءها زمن الأيوبيين . الخطط : ٢ .

وابْتَدَره قوم ، وقد أعدوا له السكاكين والخناجر ، فقتل مكانه ، وحُزَّت رأسُه وطُرِح عليه حائط (١) .

وسبب ذلك أن برجوان لما بلغ النهاية قصر فى الخدمة ، واستقلّ بلذّاته وأقبل على سماع الغناء ؛ وكان كثير الطرب شديد الشغف به ، فكان يَجمع المغنّين من الرجال والنّساء بداره فيكون معهم كأحدهم ، ولا يخرج من داره حتى يمضى صَدرٌ من النهار ويتكامل الناس على بابه ، فيركب إلى القصر ، ولا يُمضى إلا ما يختارُ من غير مشاورة ؛ فلما استبد بالأمر تجرّد الحاكم للنظر .

وكان برجوان من استبداده يُكثر منَ الدَّالَّة على الحاكم ، فحقد عليه أُمورًا ، منها أنه قال بعد قَتله إنه كان سَيِّئَ الأدب جدا ، والله إنِّى لأذكر وقد استدعيته يوما ونحن رُكْبان فصار إلىَّ ورجلُه على عنق دابّته وبَطْنُ خُفّه قبالَة وجهى ، فشاغلته بالحديث ولم أُرِه فكرةً فى ذلك . وغير ذلك مما يطول شرحه .

وأنهد الحاكم بعد قتل برجوان فأحضر كاتبه فهد بن ابراهيم فى الليل وأَمَّنَه ، وقال : أنت كاتبى وصاحبُك عبدى ، وهو كان الواسطة بينى وبينك ؛ وجرت منه أشياء أنكرتُها عليه فجازيته عليها بما استوجبه ؛ فكن أنت على رَسْمِك فى كتابتك آمناً على نفسك ومالك .

فكانت مدة نظر برجوان سنتين وثمانية أشهر غير يوم واحد . وبرجوان بفتح الباء الموحّدة وسكون الراء وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون .

---

(١) يذكر النويرى صاحب نهاية الأرب أن زيدان الصقلى ، خادم الحاكم بأمر الله ، دس له عند الحاكم وكان من جملة ماقاله له : « إن هذا يقصد أن يفعل بك كما فعل كافور الاخشيذى فى أولاد سيده » . ويضيف النويرى أنه كان فى جملة ماوجد لبرجوان بعد مصرعه ألف سروال دبيقى بألف تكة حرير ، وعلق على ذلك بقوله : « وناهيك بموجود يكون هذا من جملته . والبستان المذكور الذى قتل فيه برجوان هوبستان اللؤلؤة وبه قصر اللؤلؤة من مبانى الفاطميين ويطل على الخليج ويشرف من شرقيه على البستان الكافورى ومن غربه على الخليج . الخطط : ١ : ٤٦٧ ، ٤٨٧ ، ٢ : ٤٢٧ .

وبكر الناس إلى القصر فوقفوا بالباب ، ونزل القائد أبو عبد الله الحسين بن جوهر القائد وحده إلى القصر وأذِن للناس ، فدخلوا إلى الحضرة ، وخرج الحاكم على فرسٍ أشقر ، فَوقف فى صحن القصر قائماً ، وزيدان عن يمينه وأبو القاسم الفارقى عن يساره ، والناس قيام بين يديه ؛ فقال لهم بنفسه من غير واسطة : إن برجوان عبدى ، استخدمتُه فنصح فأحسنت إليه ؛ ثم أساء فى أشياء عملها فقتلتُه ؛ والآن فأنتم شيوخ دولتى - وأشار إلى كتامة - وأنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم . والتفت إلى الأتراك وقال لهم : أنتم تربية العزيز بالله و [فى] مقام الأولاد ، وما لكل أحد عندى إلّا ما يؤثِرُه ويحبّه ، فكونوا على رسومكم ، وامضوا إلى منازلكم ، وخُذُوا على أيدى سفهائكم . فدعَوْا جميعا وقبّلوا الأرض ، وانصرفوا .

وأمر بكتابة سجلٍّ أنشأه أبو منصور بن سُورين كاتب الإنشاء ، قُرِىء بسائر الجوامع فى مصر والقاهرة والجيزة والجزيرة[(1)] ، نصُّه بعد البسملة :

« من عبد الله ووليّه ، المنصور أبى على ، الإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين ، إلى سائر من شهد الصلاة الجامعة فى مساجد القاهرة المعزّيّة ومصر والجزيرة : سلامٌ عليكم معاشر المسلمين المصلّين فى يومنا هذا فى الجوامع ، وسائر الناس كافة أجمعين ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلّى على جدّه محمد خاتم النبيين وسيّد المرسلين وعلى أهل بيته الطاهرين . أما بعد ؛ فالحمد لله الذى قال ، وقوله الحق المبين : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْش عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا

---

(١) المراد بها جزيرة الروضة . وقد عرفت فى أوائل العصر الإسلامى باسم الجزيرة لوقوعها فى مجرى النيل ، وبجزيرة مصر وجزيرة الفسطاط لوقوعها مقابل مدينة الفسطاط التى تطورت ونمت حتى عرفت باسم مدينة مصر . وعرفت كذلك باسم جزيرة المقياس حيث يوجد بها مقياس النيل الذى أنشأه أسامة بن يزيد التنوخى عامل الخراج زمن سليمان بن عبد الملك . وأصبحت تعرف أيضا بجزيرة الحصن منذ بنى ابن طولون حصنه بها سنة ٢٦٣ . ثم عرفت باسم جزيرة الروضة بعد أن أنشأ بها الأفضل بن بدر الجمالى بستانا سماه الروضة ، سنة ٤٩٠ . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٧٢ حاشية : ٢ .

يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُون »[١] يحمده أمير المؤمنين على ما أعطاه من خلافته ، وجعل إليه فيها دون بريته من الضبط والقبض ، والإبرام والنقض . معاشر الناس ، إن برجوان كان فيما مضى عبدًا ناصحا ، أرضى أمير المؤمنين حينا ، فاستخدمه كما يشاء فيما يشاء ، وفعل به ما شاء كما سبق فى العلوم وجاز عليه فى المختوم . قال الله عزّ وجل: «وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فى الْأَرْضِ ، وَلٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »[٢] ولقد كان أمير المؤمنين ملّكه ، فلما أساء ألبسه النقم ، لقول الله تعالى : «فَلَمَّا آسَفُونَا [٥٤ ب] انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ »[٣] وقوله عزّ وجلّ: «إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى» ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى[٤] » فحظره أمير المؤمنين عما صبا إليه ، ونزعه ما كان فيه ، وتمت مشيئة الله عزّ وجلّ ، ونفذ قضاؤه وتقديره فيه .«وَكَانَ ذَلِكَ فى الْكِتَابِ مَسْطُورًا»[٥] » فأقبلوا معاشر التُّجّار والرعيّة على معايشكم واشتغلوا بأشغالكم ، فهو أعْوَد لشأنكم ، ولا تَطْغَوا فى أمر أنفسكم ، فلأمير المؤمنين الرأى فيه وفيكم . فمن كانت له منكم مطالبة أو حاجة فلْيَمْضِ إلى أمير المؤمنين بها ، فإنه مباشرُ ذلك لكم بنفسه ، وبابه مفتوح بينكم وبينه . وَاللهُ «يَخْتَصُّ برَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[٦] » وأنتم رعايا أمير المؤمنين المفتّحة لها أبواب عدله وإحسانه وفضله . والله يريده فيما يريده ويعتمده من الخير لمن أطاعه من الأنام ، والحماية لحمى الإسلام ، «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»[٧] » . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب يوم الجمة لثلاث بقين من

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ — ٢٣ .

(٢) سورة الشورى : ٢٧ .

(٣) سورة الزخرف : ٥٥ .

(٤) سورة العلق : ٦ — ٧ .

(٥) سورة الإسراء : ٥٨ — مع إسقاط واو العطف .

(٦) سورة البقرة : ١٠٥ . فى الأصل: والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ثم شطبت الجملة الأخيرة وأضيف فى مكانها : « والله واسع عليم » . وليس فى كتاب الله آية بهذا النص فالعدول عن : « والله ذو الفضل العظيم » خطأ وتبدأ الآية كذلك : يختص برحمته . .

(٧) سورة هود : آية ٨٨ : « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . وسورة الشورى : آية : ١٠ : « ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب » .

شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة . وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الأخيار وسلم تسليما » .

وكتبت سجلات على نسخة واحدة ، وأنفِذت إلى سائر النواحى والأعمال .

ولثلاثٍ خلون من جمادى الأولى خُلع على القائد الحسين بن جوهر ثوب ديباج أحمر ، ومنديل أزرق مذهب ، وتقلد سيفا عليه ذهب ، وحُمل على فرس بسرج ولجام ذهب ، وبين يديه ثلاثة أفراس بمراكبها ، وخمسون ثوبا من كل فن . وردّ إليه الحاكم التّوقيعات والنظر فى أمور الناس وتدبير المملكة وإنصاف المظلوم . وخُلع على فهد بن إبراهيم ، وحمل على بغلة وبين يديه بغلة أخرى وعشرون ثوبا . فانصرف القائد ، وخلفه فهد وسائر الناس بين يديه ، إلى داره . وتقدّم إلى فهد بالتوقيعات فى رقاع الرافعين على رسمه ، وأن يعاضد القائد حسينا فى النظر ويعاونه ويخلفه إذا غاب . فكان القائد يبكر إلى القصر ومعه الرئيس فهد ، فينظران فى أمور الناس وينهيان الأمور إلى الحاكم ، والقائد متقدم وفهد يتبعه ، فإذا دخلا إلى حضرة الحاكم جلس القائد وقام فهد خلفه فيعرضان الكتب والرقاع عليه . وأمر القائد ألاّ يلقاه أحد من الناس على طريق ولا يركب إليه إلى داره أحد لقضاء حقّ ولا سؤال فى مصلحة ، ومن كان له حاجة يلقاه فى القصر(١) . ونهى الناس أن يخاطبوه فى الرقاع التى تكتب إليه بسيدنا ومولانا ، ولا يخاطبونه ويكاتبونه إلا بالقائد فقط ، ولا يخاطب فهد ويكاتب إلا بالرئيس فقط .

وحمل فهد إلى الحاكم هدية ، منها ثلاثون بغلة بألوان من الأجِلّة ، وعشرون فرسا منها عشرة مسرجة ملجمة وعشرة بجلال ملونة ، وعشرون ألف دينار ، وسفط فيه حلة دبيقية(٢) مذهبة لم يُرَ مثلُها ، ودرج فيه جوهر ، وأسفاط كثيرة فيها البزّ الرفيع ، وخزانة مدهونة .

---

(١) فى الأصل : فيلقاه .

(٢) نسبة إلى مدينة دبيق التى اشتهرت بصناعة الملابس الحريرية المزركشة ، وقد زالت . وكانت من أعمال الدقهلية عند بحيرة المنزلة .

وأمر أبو جعفر محمد بن حسين بن مهذب ، صاحب بيت المال ، بإحضار تركة برجوان فوجد فيها مائة منديل شرب ملونة معممّة كلُّها على مائة شاشية[1] ، وألف سروال دبيقى بألف تكّةٍ حرير أرمنى ، ومن الثياب المخيطة والصِّحاح والحلى والمصاغ والطيب والفُرُش مالا يحصى كثرة ، ومن العين ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، ومائة وخمسون فرسا لركابه ، وخمسون بغلة ، وثلثمائة رأس من بغال النقل ودواب الغلمان ، ومائة وخمسون سرجا منها عشرون من ذهب ، ومن الكتب شئ كثير .

لما ركب القائد حسين رأى جماعة من قواد الأتراك قياما على الطريق ينتظرونه فوقف وقال : كلنا عبيد مولانا صلوات الله عليه ومما ليكه ، وليس والله أبرح من موضعى أو تنصرفوا عنى ، ولا يلقانى أحد إلاّ فى القصر . فانصرفوا . وأقام خدما من الصقالبة بِنُوَبٍ على الطريق يمنعون الناس من المصير إلى داره ومن لقائه إلا فى القصر ، وجلس فى موضع رسم له بالجلوس فيه .

وتقدم حسين بن جوهر إلى أبى الفتوح مسعود الصقلبى صاحب الستر بأن يوصل الناس [١٥٥ ا] بأسْرهم إلى الحاكم ولا يمنع أحدا ، وأن يعرف رسم كل من يحضر ومن يجلس للتوقيع إذا وقع له . فدخل الناس ليأخذ رقاعهم وقصصهم ، ووقع فيها ، والحاكم فى مكانه جالس يدخل إليه أرباب الحوائج ويشاور فى الأمور المهمة .

ووصل إلى الحاكم جماعة ممن كان يدخل فى الليل إلى العزيز ، وأمِروا بملازمة القصر وقت جلوسه ودوام الجلوس بالعشايا ، فدخل أوّل ليلة ، وهى ليلة الأربعاء سابع جمادى الأولى ، القائد حسين والقائد فضل بن صالح والحسين بن الحسن البازيار . فجلس حسين بن جوهر من اليمين ، وإلى جانبه فضل بن صالح ودونه ابن البازيار ، وبعده أبو الحسن على بن

---

(١) مايلبس على الرأس دون عمامة .

إبراهيم المرمى ، ويليه القاضى عبد العزيز بن محمد بن النّعمان ؛ وجلس من اليسار رجاء ومسعود ابنا أبى الحسين ، ودونهما أبو الفتح منصور بن معشر الطبيب ، وأبو الحسين بن المغربى الكاتب وأخوه . ووقف عنده [عدّة][1] من الأقارب وجماعة من القواد ، منهم مَنْجُوتكين وغيره ، ثم دخل بعد ذلك جماعة منهم ابن طاهر الوزان . فجرى الرسم على ذلك إلى اثنى عشر جمادى الآخرة . ثم صار السلام يخرج فينصرفون إلاّ ابن البازيار وابن معشر الطبيب وعبد الأعلى بن هاشم من القرابة ، فإنهم يجلسون فربّما أطالوا الجلوس وربما خدموا .

وركب الحاكم عدّة مرار إلى ناحية سردوس[2] وإلى بركة الجب وإلى عين شمس وحلوان للصيد وغيره . وفى سابع عشرى جمادى الآخرة قرئ سجل على سائر منابر المساجد الجامعة بأن يلقب القائد حسين بن جوهر بقائد القواد . وخُلِع على جابر بن منصور الجودرى جبّةٌ مثقلة ومنديل بذهب ، وحُمِل بين يديه ثياب كثيرة وقُلِّد بسيف ، وندب ناظرا فى السواحل[3] والحسبة بمصر .

وأما الشام فإن جيش بن الصمصامة لما استقر بدمشق ، وقد خرب البلد وضعُف وقلّ ناسُه وطمعت رعيته ، فكان فيهم جهّال يأخذون الْخِفَارة ويَطْمَعون فى أموال أهل السّلامة ، فصارت لهم أموالٌ وخيول ومشى بين أيديهم الرجال ، وقويت نفوسهم ، وصاروا يوالون خروجهم مع جيشٍ فى وقائع الروم ؛ فوعدهم جيش بالأرزاق فاطمأنوا إليه . ثم إنه رتب جماعة وقبض على المذكورين وقيدهم ، وأمرَ بِهم فحبسوا ، وأفاض عليهم العذاب حتى سلبهم

---

(١) زيد مابين الحاصرتين لأن السياق يقتضيه أو نحوه .

(٢) فى الخطط للمقريزى وفى معجم البلدان وقوانين الدواوين أحاديث عن خليج سردوس يفهم منها أنه كان من الحوف الشرق ، أى من منطقة القليوبية وأطراف الشرقية الحاليتين ، ولا شئ غير هذا .

(٣) لمصر والقاهرة أكثر من ساحل أقدمها ساحل الجزيرة (جزيرة الروضة) ، ثم ساحل مصر على الجانب الشرق ، ثم ساحل المقس الفاطمى الذى كان فى موقع ميدان رمسيس حاليا .

جميع أموالهم ، وتتبَّع من استتر منهم فضرب أعناقهم وصلبهم على أبواب البلد فلم يبق منهم أحد .

فلمّا خلا له البلد من حُمّال السلاح طمع فى أهل القرى ، فعم كثيرا من الناس البلاء منه ، وشمل أهل المدينة والقرى ضررُه ، حتى غلق أكثر الأسواق ، وضج الناس إلى الله بالدعاء وهو يَعِدهُم بحريق البلد وبذل السيف فيهم ، فهرب كثير من الناس عن البلد .

ووصل الخبر بقدوم عسكر الروم ، فأخذ جيشٌ فى جمع العرب ؛ ونزل ملك الروم على شَيْزَر وفيها عسكر من قِبَل الحاكم ، فقاتلهم حتى ملكهم بأمان . ونزلت العرب الذين جمعهم جيش فيما بين حَرَسْتَا(1) والْقَابُول(2) ، وانتقل الروم من شَيْزَر إلى حمص فأخذوها وسَبَوْا أهلها وأحرقوا ؛ وذلك فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين ، وهى دخلة الروم الثالثة إلى حمص ، فأقاموا بها وقد اشتد البرد وغلت عليهم الأسعار حتى بيعت العليقة عندهم بدينار فرحلوا ، وقد مات أكثر دَوَابّهم ، إلى طرابلس ، فنزلوا عليها وهم فى ضيق ؛ ثم رحلوا عنها إلى مَيّافَارِقِين(3) وآمد(4) ، وهادَنُوهم . ثم ساروا إلى أرمينية .

وزاد جَوْرُ جيش وأسرف فى الظّلم ، وكان به طرف جذام فاشتد به ، وسقط شعر بدنه ، ورشح جسمه واسودّ حتى انمحت سِحْنَةُ وجهه وزاد وأروح سائر بدنه؛ فكان يصيح :

---

(1) قرية كبيرة وسط بساتين دمشق ، بينها وبين المدينة أكثر من فرسخ . وهناك قرية أخرى من بساتين دمشق تعرف باسم حرستا المنظرة . معجم البلدان : ٣ : ٢٥١ .

(2) هى القابون التى يذكر ياقوت أنها تبعد عن مدينة دمشق ميلا واحدا فى طريق القاصد إلى العراق فى وسط البساتين . معجم البلدان : ٧ : ٤ .

(3) أشهر مدينة بإقليم ديار بكر بأرض الجزيرة العراقية ، وكانت أصلا من الحصون الرومية ، ثم صار لها ولإقليم ديار بكر جميعه أهمية خاصة فى بعض عصور التاريخ الإسلامى كما فى أيام الأسرة الأرتقية بين سنتى ٤٩٥ — ٦٢٩ فى منطقة حصن كيفا . معجم البلدان : ٨ : ٢١٤ — ٢١٨ .

(4) أجل مدن ديار بكر وأعظمها تحصينا ، تحيط بها مياه دجلة كالهلال ، وبها عيون قريبة يتناول ماؤها باليد . معجم البلدان : ١ : ٦١ — ٦٣ .

ويْحَكم ! اقتلونى ، أريحونى !! إلى أن هلك يوم الأَحد لسبع خلَوْن من ربيع الآخر . فكان مقامه بدمشق ستة عشر شهرا وستة عشر يوما[1]. ووصل ابنه أبو عبد الله بتركته إلى القاهرة فخلع عليه الحاكم وحمله . ورفع زيدان إلى الحاكم دَرْجًا بخطّ جيش وفيه وصيّةٌ وثبتٌ بما خلّف مفصّلاً مشروحا ، وأنّ ذلك جميعه لأَمير المؤمنين الحاكم بأَمر الله [٥٥ ب] لا يستحق أحد من أولاده منه درهما ؛ وكان ذلك يبلغ نحو مائتى ألف دينار ، ما بين عين ورحْل ومتاع . وقد قال فيه جيش: لو زَيْدَان يتسلم ذلك فإنّه على بغالٍ تحت القصر بظاهر القاهرة. فأَخذ الحاكم الدَّرْج وأوصله لِابْنَىْ جيش ، وخلع عليهما ، وقال لهما بحضرة أولياء الدولة ووجوهها : قد وقفت على وصية أبيكما ، رحمه الله ، من عين ومتاع فيما وصّى به ، فخذوه هنيئًا مباركًا لكما فيه . فانْصَرَفا بجميع التركة .

وأقطعت سيدة الملك على عبرة[2]سنة تسع وثمانين الخراجية إقطاعا مبلغه مائة ألف دينار ، منها ضياع فى الصعيد وأسفل الأَرض ثمانية وستون ألفا وأربعمائة وخمسون دينارا ؛ منها بوتيج[3]ستة آلاف وسبعمائة وخمسون دينارا ، وصهرشت[4]سبعة عشر ألف دينار ، ودمنهور خمسة آلاف دينار ؛ وباقى ذلك ، وهو أحد وثلاثون ألفَ دينار وخمسمائة وخمسون دينارًا ، من دُورٍ وبساتين ورسوم .

---

(١) يقول ابن القلانسى : « وكان سبب هلاكه ناسور خرج فى سفله ، ولم يزل يستغيث من الألم ويتمنى الموت ويطلب أن يقتل نفسه فلا يتمكن ولا يمكن » . ذيل تاريخ دمشق : ٥٤ .

(٢) أى خراج السنة . يقال عبر المتاع والدراهم يعبرها : نظر كم وزنها وما هى . لسان العرب . انظر أيضا قوانين الدواوين : ٢٢١ ، ٤٥٧ .

(٣) من أعمال إقليم السيوطية ، وهى الآن أبو تيج .

(٤) لعلها صهرجت الحالية وهى اثنتان صهرجت الكبرى وصهرجت الصغرى ؛ والأولى بمركز ميت غمر على الشاطئ الشرقى لترعة الساحل وفى الجنوب الشرقى لمنية العز بنحو أربعة كيلو مترات ، والثانية بمركز منية سمنود فى الجنوب الشرقى لناحية بشلا بنحو ألف قصبة وفى الشمال الشرقى لناحية فيشة بنا بنحو ثلثمائة قصبة . قوانين الدواوين ، الخطط التوفيقية : ١٣ : ٢٧ .

وأما المغرب فإن الأستاذ برجوان لما وَلِى تدبير الدّولة ثقل عليه أبو الحسن يانس الصقلبى العزيزى[1]، فإنه كان ينافسه فى الرئاسة ، فتحيَّل حتى أخرجه إلى برقة كما تقدم ، فتوالت كتب تَموُصَلت بن بكار[2] يسأله أن يأتيه أحد ليسلمه مدينة أطرابلس ، وتقدم إلى الحضرة . فقصد برجوان إبعاد يانس ، فكتب إليه حتى سار إليها وقَدم إليها للنصف من جمادى الأولى سنة سبعين ، فسلَّمه تَموُصَلت البلد ومضى إلى القاهرة وقد تأخر أكثر عسكره مع يانس ، فاختلفوا مع أصحابه حتى اقتتلوا وخرجوا أقبح خروج إلى إفريقية ، وشكوا ما نزل بهم إلى نصير الدولة أبى مناد باديس[3]. فبعث القائد جعفر بن حبيب على عسكر، فقاتل يانس ، فقُتِل فى رابع ذى القعدة . وبادر فتوح بن على بن عِقيَّان من أصحاب يانس إلى أطرابُلس ، فدخلها، وانضم إليه بقية أصحابه وقاتل بها جعفر بن حبيب سنة إحدى وتسعين، واستمدّ الحاكمَ ، فأمدّه بيحيى بن على بن الأندلسى على عسكر ، فاختلف عليه أصحابُه وعاد أقبح عَوْدٍ إلى القاهرة . فأراد الحاكم قتله ، فأظهر كتاب زيدان صاحب المظلة بخطّه أن يدفع إليه المال من برقة ، وأنه قبض ذلك من مال الحضرة ، فلم يجد ببرقة مالاً ينفقه على العساكر ؛ فقبل هذا العذر وقتل زيدان على ما فعل .

وكان مع يحيى بن على عند خروجه من المغرب جماعة من بنى قُرّة ، فكسروا عسكره ورجعوا إلى موضعهم ؛ فبعث الحاكم يستدعيهم إلى القاهرة ، فخافوا وامتنعوا ؛ فأعرض عنهم مدة ثم كتب إليهم أمانا ، فبعثوا رهائن منهم ؛ فأمرهم بالوصول إلى الإسكندرية ليقفوا على ما يأمرهم به ، فحذِرَ أكثرُهم ، وقدمت طائفة إلى الإسكندرية فقُتلوا وحُملت

---

(١) خصى من خدام العزيز بالله ، أنابه فى الإشراف على القصور الفاطمية ، فلما توفى أقره الحاكم بأمر الله على ولايته وخلع عليه ، حتى نقل بعد ذلك إلى ولاية برقة . وإليه تنسب طائفة العسكر اليانسية الذين عرفت حارة اليانسية بهم . الخطط : ٢ : ١٦ .

(٢) هو تموصلت بن بكار ، وكنيته أبو محمد ، الأسود الحاكمى . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠٧ .

(٣) انظر معجم الأنساب لزامباور : ١٠٩ .

رءوسهم إلى القاهرة ، وقتل من كان بها من رهائنهم ؛ فنفرت عنه بنو قرّة ، وكان منهم ما يأتى ذكره من قيامهم مع أبى ركوة .

وفى ثالث رجب خلع على أبى القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ونزل إلى الجامع العتيق وبين يديه ثيابٌ صِحَاح ، وحمل على بغلتين مُسْرجتين مُلْجَمتين ؛ وقرئ له سجل بالنظر فى المظالم وسماع البينة فيها .

وحُمِل رَحْل برجوان إلى القصر على ثمانين حمارا . وقرئ سجلٌ بالقصر نصه بعد البسملة : « معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين : إن الله ـ وله الكبرياء والعظمة ـ أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة . فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبةٍ أو مكاتبةٍ لغير الحضرة المقدسة بسيدنا أو مولانا فقد أحَلّ أميرُ المؤمنين دمه . فلْيُبلِّغ الشاهد الغائب إن شاء الله » .

وأفطر فى رمضان مع الحاكم جماعة رُتِّبوا عن يمينه ويساره؛ وصلى فيه جمعتين بالناس، وركب لفتح الخليج .

ووصل تموصلت بن بكار الأسود ، عبد ابن زِيرِى[1]، وكان قد ولّاه طرابلس المغرب ، فَجارَ على أهلها وأخذ منها مالا كثيرا وفرّ خوفا من مولاه ؛ فسار من طرابلس المغرب ، ومعه نيّف وستون ولداً ما بين ذكر وأنثى ، فى عسكر كبير ، بعد أن مرّ ببرقة ، ودفع ليانس [٥٦ ا] العزيزى متولّيها ثلاثين ألف دينار لخاصّة نفقته ، وأنفق فى عسكره ورجاله مالا كثيرا ، وسلّم إليه مخازن فيها العسل والسّمن والقمح والشعير والزيت وغيره . فجلس له الحاكم وأجلسه ، فكان من كلامه للحاكم : قد وصلت إلى حضرة مولانا بالأهل والمال

---

(١) أبو مناد بن باديس ، ناصر الدولة ، من أسرة زيرى التى حكمت إفريقية والمغرب الأوسط فى ظل الفاطميين ، ثم استقلالا عنهم . معجم الأنساب .

والولد ومعى ما يكفينى ويكفى عقب عقبى ؛ ولكنّ الرجال الذين معى رجال مولانا ؛ وهو يحسن إليهم على ما يراه .

وأهدى إلى الحاكم مائة ألف دينار ومائة ألف درهم ، ونيفا وخمسين حملا من البزّ والطرف ، وثمانين فرسا منها أربعون بسُرُجها ولُجُمها ، وأربعين بغلا ، وخمسين بُخْتيًّا[1] بأكوارها[2] ، ومائتى جمل . فخلع عليه وعلى من حضر من أولاده ، وسار إلى دارٍ قد أُعِدّت له فيها خمس وثلاثون حجرة ، فى كل حجرة آلاتها وفرشها ، فبلغت النفقة على هذه الدار خمسة آلاف دينار .

وفى يوم عيد الفطر صلّى الحاكم بالناس بالمصلىّ ، وخطب على رسمه ، وأصعد ابن النعمان وعدة من القواد معه المنبر ، فجلس على الدرج .

ولخمس خلون من شوال أُذن لابن عمار فى الركوب إلى القصر ، فركب ونزلَ حيث ينزل سائر الناس ، وواصل الركوب إلى الرابع عشر منه ، فأُحضر عشيـة إلى القصر ، فجلس إلى بعد العشاء الآخرة ثم أُذن له فى الانصراف ؛ فلما انصرف ابتدره جماعة من الأتراك قد أُوقفـوا لقتله ، فقتلوه واحتزوا رأسه ودفنـوه هنالك ، ثم نقل إلى تربتـه بالقرافة ؛ فكانت مدة حياته بعد عزله ثلاث سنين وشهراً واحداً وثمانية عشر يوما .

وسارت قافلة الحاج لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة . وعزل خود عن الشرطة السفلى ، وجُمِعت الشرطتان لمسعود الصقلبى ، فنزل بالخلع والطبول والبنود إلى الجامع العتيق حتى قرئ سجلّه على المنبر .

---

(١) البخت والبختية ، بضم الباء فيهما ، الإبل الخراسانية ، والجمع بخاتى بالتشديد للياء ، وبخاتى بالقصر وبخات ؛ والبخات بتشديد الخاء مقتنيها . القاموس المحيط .

(٢) الكور ، بضم الكاف ، الرحل بأداته ، والجمع أكوار ، وأكور بضم الواو ، وكوران ، وكؤور . لسان العرب .

وفى ثالث ذى الحجة أمر الناس بتعليق القناديل على سائر الحوانيت وَأَبْواب الدُّور كلِّها ، وفى جميع المحال والسكك الشارعة وغير الشارعة ، ففعلوا .

وصلى الحاكم صلاة عيد النحر بالمصلى ، وخطب ، ونحر فى القصر على رسمه ، وجلس على السِّماط . وكان الناس بين عبد العزيز بن النعمان وبين قاضى القضاة الحسين بن النعمان فى شرور وبلاء ؛ وذلك أن عبد العزيز قبل شهادة جماعة اختارهم ؛ فكان مَنْ حاكم خصْمَه إلى الحسين اختار خصمُه بالمرافعة إلى عبد العزيز وبالعكس . وكان عبد العزيز إذا جلس للنظر فى المظالم حضر شهوده عنده وسمع شهادتهم وأشهدهم فيما يقول ويُمْضى ؛ ولا يحضر أحد منهم عند الحسين ولا يقرب داره ، ويقيد الشهود القدماء يشهدون عنده ، غير أنهم لا يحضرون مجلس عبد العزيز مواصلين لذلك ولا يركبون معه .

وفيها عقد ليانس الصقلبي على ولاية أطرابلس الغرب بعد موت المنصور بن بُلُكِّين ، فوصل إليها فى ألف وخمسمائة فارس وملكها . فبعث باديس بن جعفر بن حبيب على عسكر فلقيه على زنزوير ، واقتتلا يومين ، فانهزم عسكر يانس وقتل .

سنة احدى وتسعين وثلثمائة [1]

فى المحرم واصل الحاكم الركوب فى الليل فى كلّ ليلة ، وكان يركب إلى موضعٍ موضع وإلى شارعٍ شارع وإلى زقاقٍ زقاق . وأمر الناس بالوقيد[2]، فتزايدوا فيه بالشوارع والأزقة ، وزُيّنت الأسواق والقياسر[3] بأنواع الزينة ، وباعوا واشتروا ، وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل ، وأنفقوا الأموال الكثيرة فى المآكل والمشارب والغناء واللهو . ومَنَع الرّجالُ المشاةُ بين يدى الحاكم أن يقرب أحدٌ من الناس الحاكم ، فزجرهم ، وقال لا تمنعوا أحدًا ، فأحدق الناس به وأكثروا من الدّعاء له . وزينت الصناعة[4]، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج وغلب النساء الرجال على الخروج فى الليل ، وتزايد الزحام فى الشوارع والطرقات ، وتجاهروا بكثير من المسكرات ، وأفرط الأمر من ليلة التاسع عشر [٥٦ ب] إلى ليلة الرابع والعشرين فلما خرج الناس عن الحدّ أمر الحاكم ألا تخرج امرأة من العشاء ، فإن ظهرت نكّل بها . ومنع الناس من الجلوس فى الحوانيت .

وهبت فى أول يوم من طوبة سَمُومٌ لم يُعهد مثله .

وورد سابق الحاجّ ، ثم قدمت قافلة الحاج فى سادس عشر صفر .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الأول من ديسمبر سنة ١٠٠٠ .

(٢) وقدت النار – من باب وعد – توقدت وقودا بالضم ، ووقيدا بالفتح ، ووقدة بالكسر ، ووقدا ووقدانا بفتحتين فيهما . مختار الصحاح والمقصود تزيين المدينة بإضاءة الأنوار .

(٣) جمع قيسارية بمعنى السوق . قوانين الدواوين : ٣٨٧ ، ٤٥٧ . وأصل الكلمة إغريق ولا تبنى «Caesaria» نفس المصدر .

(٤) المكان المخصص لإنشاء السفن ، والحربى منها خاصة . وأول دار للصناعة أنشئت فى مصر على ساحل جزيرة الروضة ، ثم نقلت على عهد الاخشيذيين إلى ساحل مصر (الفسطاط) ، وانتقلت زمن الفاطميين إلى المقس فى موقع ميدان محطة مصر الحالية . وفى عهد الآمر الفاطمى أعيدت إلى موقعها السابق بساحل مصر الفسطاط . الخطط : ١ : ٤٨٢ ، ٤٨٣ ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٩ .

وفى خامس ربيع الأول أعتَق الحاكمُ زيدانَ ، صاحب المظلة[1]، وأمر أن يكتب على مكاتباته من زيدان مولى أمير المؤمنين .

وخلع على القاضى حسين بن النعمان وقِيدَ بين يديه بغلتان بسُروجهما ولُجمُهما ، وحُمِل إليه عدة ثياب لحضوره العتاقة .

وكثر وقود المصابيح فى الشوارع والطرقات ، وأمر الناس بالاستكثار منها وبكَنْسِ الطرقات وحفر الموارد وتنظيفها .

وخلع على فتح ، غلام ابن فلاح ، وندب إلى الخروج على الأُسطول .

وقبض على رجل شامى قال : لا أعرف على بن أبى طالب ، وأقول إن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل ، غير أنى لا أعرف علىّ بن أبى طالب . فحُبس وروجع ؛ فأَصرّ على أنه لا يعرف عليا ؛ فرفق به القائد حسين فلم يعترف بمعرفة علىّ رضى الله عنه ، فخرج الأَمر بقتله ، فضرب عنقه وصلب .

وفى سادس عشر جمادى الآخرة وصل رسول ملك الرّوم[2]، فحشدت له العساكر من سائر الأَعمال ، ووقفوا صفَّين والحاكم واقفٌ ليراهم . وسار الرسول بين العساكر إلى باب الفتوح ، ونزل ، ومشى إلى القصر يقبل الأَرض فى طول المسافة حتى وصل إلى حضرة

---

(١) المظلة ، ويعبر عنها أيضا بالجتر ، والطير ، والقبة : قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، بأعلاها شكل طائر من فضة وقد يطلى بالذهب . وعرفت زمن المماليك بالقبة والطير ، بينما كان يطلق عليها زمن الفاطميين المظلة. صبح الأعشى : ٤ « وكانت المظلة تتكون من اثنى عشر شوزكا ، عرض أسفل كل شوزك شبر وطوله ثلاثة أذرع وثلث ذراع ، وآخر الشوزك من فوق دقيق جدا ، فيجتمع مابين الشوازك فى رأس عمودها دائرة ، والعمود من الزان ملبس بأنابيب الذهب ، وفى آخر أنبوبة تلى الرأس فلكة بارزة قدر عرض إبهام ، فيشد آخر الشوازك فى حلقة ذهب ؛ وللمظلة أضلاع من خشب الخلنج مكسوة بالذهب على عدد الشوازك ، خفاف بطول الشوازك ، وفيها خطاطيف لطاف وحلق يمسك بعضها بعضا تنضم وتنفتح ؛ ورأسها كالرمانة ويعلوه أيضا رمانة صغيرة كلها ذهب مرصع بجوهر . . . » النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٤ – ٨٥ .

(٢) الامبراطور باسيل الثانى .

الحاكم بالقصر ، وقد فُرش إيوان القصر وعُلّق فيه تعاليق غريبة ، يقال إنه أمر بتفتيش خزائن الفُرُش إلى أن وَجد فيها أحداً وعشرين عِدْلا ذكرت السيّدة رشيدَةُ بنت المعز أنها كانت فى قطار الفُرُش المحمولة من القيروان إلى مصر مَعَ المعزّ فى جملة أعدال ، وأن كُتّاب خزائن الفُرُش وجدوا على بعضها مكتوبا الحادى والثلاثون والثلثمائة من عمل العبيد ، ديباج خزّ ومذهب ، ففرش منه جميع الإيوان وسُتر جميع حيطانه بالتعاليق ، فكان جميع أرضه وحيطانه رفيعًا دليلا على عظمته وسعته . وعُلّقت بصدر الإيوان العسجدة ، وهى درقة مطعّمة بفاخر الجوهر النفيس من كل أصنافه ، فأضاء لها ما حوله ، ووقعت عليها الشمس فلم تطق الأبصارُ تأمُّلَها كلالاً . فدخل الرسول وقبل الأرض ، ودفع الكتب وعرض الهدية .

وأنفذ الحاكم لأبى الحسن على بن إبراهيم النرسى ألف دينار وأربعة وعشرين قطعة ثياب مختارة ، وسُومِحَ بمبلغ ثلاثة آلاف دينار كانت عليه .

وجرى الرسم فى الفطر طول شهر رمضان على مائدة الحاكم كما تقدّم .

ولما كثر النزاع بين عبد العزيز بن النعمان والقاضى حسين بن النعمان كتب الحاكم بخطّه ورقة إلى الحسين ، نصُّها بعد البسملة : « يا حسين أحسن الله عليك . اتّصل بنا ما جرى من شناعات العوامّ ومن لا خير فيه ، وإرجافهم ، وأنكرنا أن يجرى مثله فيمن يَحِلّ محلك من خدمتنا ، إذ أنت قاضينا وداعينا وثقتنا . ونحن نتقدم بما يزيل ذلك ، ولم نجعل لأحد غيرك نظرًا فى شئ من القضايا والحكم ، ولا فى شئ مما استخدمناك فيه ، ولا مكاتبة أحد من خلفائك بالحضرة وغيرها وسائر النواحى ، ولا أن نكاتب أحدا منهم غيرك ؛ ومن تسمى غيرك بالقضاء فذلك على المجاز فى اللفظ لا على الحقيقة . وقد منعنا غيرك أن يسجل فى شئ فيتقدم إلى جميع الشهود والعدول بألاّ يشهدوا فى سجلّ لأحد سواك . وإن تشاجر خصمان فدُعى أحدهما إليك ودُعى الآخر إلى غيرك كان الدّاعى

إلى غيرك عليه الرجوع إليك طائعا مكرها فَاجْرِ على ما أنت عليه من تنفيد القضايا والأحكام مستعينا بالله عز وجلّ ، ثمّ بنا؛ولك من جميل رأينا فيك مايسعدك فى الدنيا والآخرة .وقد أذِنَّا لك أن يكاتِب جميعُ من يكاتب القاضى بقاضى القضاة كما جعلناك،وتكاتِب من تكاتبه بذلك وتكتب به فى سجلاتك . فاعلم ذلك ، وأشهِرْ أمرنا بجميع ما يقتضيه هذا التوقيع ليُمْتثل ولا يتجاوز. وفَّقَك الله لرضاه [٥٧ ا] ورضانا ، وأيّدك على ذلك وأعانك عليه إن شاء الله تعالى . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما » .

فقرأه القاضى على سائر الشهود ، وأمر أن يكتب فى سجلاّته قاضى القضاة ، وكوتب بذلك وكتب عليه .

وجرى الرسم فى ركوب الحاكم لفتح الخليج[1] وفى يوم العيد إلى المصلَّى على العادات .

وسارت قافلة الحاج للنصف من ذى القعدة بالكسوة والشمع والصِّلات ، وزينت البلد مرّةً فى شوال ثلاثة أيام ومرّةً فى ذى القعدة يوما . وجرى الرسم فى صلاة عيد النَّحر على ما تقدم ، ثم انصرف فنحر ودخل تربة القصر وحضر السماط .

وفيها توفى أبو الفضل جعفر بن الفرات[2] ، فى ثالث ربيع الأول ، عن اثنتين وثمانين سنة

---

(١) من مراسم احتفال فتح الخليج – نعنى رفع السد الواقع عند فم الخليج يوم وفاء النيل فى كل عام – أنه كان يحمل إلى المقياس (بجزيرة الروضة) من المطابخ نحو عشرة قناطير من الخبز وعشرة خراف مشوية ، وعشر جامات حلوى ، وعشر شمعات ؛ ويتوجه القراء إلى مسجد المقياس للقراءة حتى يتم الوفاء ، فيركب الخليفة بزيه الذى يتزيا به للعيد ، دون مظلة ومعه الوزير ، وينزل بالصناعة ، ثم يركب العشارى (سفينة خاصة لمثل هذه المناسبة) ومعه خواصه وخواص الوزير ، والكل قيام إلا الوزير الذى يجلس مع الخليفة ، ثم يمر العشارى بجانب المقياس ، ثم يحضر الخليفة تخليق المقياس (تطييبه بالزعفران والمسك) ، ثم يعود إلى العشارى الذىَ يحمله إلى المقس أو إلى القصر . النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٩ – ١٠٠ ؛ الخطط : ١ : ٤٧٠ ، ٤٩٣ .

(٢) أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات الوزير المحدث المعروف بابن حنزابة . برز فى مناصب الوزارة والكتابة والإشراف المالى منذ أيام الإخشيد ، وقبض عليه أكثر من مرة ، وكان على وزارة مصر عندما قدمها جوهر الصقلى الذى أقره على الوزارة . وحنزابة المرأة القصيرة ، وهى أم أبيه الفضل .

وثلاثة أشهر وخمسة أيام ، فصلى عليه القاضى حسين بن النعمان ، ودفن فى داره . وكان من الفضل والعلم والدين بمنزلة ، وحدّث وأسمع وأمْلَى مجالس ، وكتب على الصحيحين مستخرجا . وكان كثير البرّ والصلات والصدقة ، شديد الغيرة حتى إنه ليحجبْ أولاده الأكابر عن حرمه وأهله وعن أمهاتهم . فإنه بلغه عن بعض أولاده أنه وَاقَع أختًا له وأحْبَلها . وكان يتنسّك منذ تجاوز أربعين سنة . ثم حُمِل من مصر ودفن بالمدينة النبوية .

وفيها قتل الحاكم مؤدّبَه أبا القاسم سعيد بن سعيد الفارقى يوم السبت لثمان بقين من جمادى الأولى وهو يسايره ، بأن أشار إلى الأتراك بعينيه بعد أن بيّت معهم قتله ، فأخذته السيوف ، وكان قد داخل الحاكم فى أمور الدولة وقرأ عليه الرقاع واستأذنه فى الأمور كهيئة الوزراء .

سنة احدى وتسعين وثلثمائة (١)

فى المحرم قتل الحاكمُ ابنَ أبى نجدة ؛ وكان بقّالا فترَقّت أحوالُه حتى وَلِىَ الحسبة ودخل فيما لا يليق به ، وأساء فى معاملة الناس ، فاعتقل ، ثم قطعت يده ولسانه وشُهّر على جمل وضُربت عنقه .

وفى شعبان سارت هديّةٌ إلى المغرب فيها ثلثمائة فرس بجلال وعشرة بمراكب ، وخمسة وأربعون بغلا تحمل السلاح والكسوة ، وعشرون بغلا تحمل صناديق فيها ذهب وفضة .

وفى شهر رمضان خُلع على تَمُوصَلت بن بكار وقُلّد بسيف ، وحُمِل على عشرة أفراس بمراكبها ، وقُلّد إمارة الشام .

وجرى الرسم فى سماط رمضان وصلاتى العيدين وخروج قافلة الحاج على ما تقدم .

وفيها توفى أبو تميم سلمان [بن جعفر] بن فلاح فى ثامن جمادى الآخرة . وقُتِل عدة أناس

(١) هكذا ورد فى الأصل ، والواقع أن الحديث عن هذه السنة بدأ قبل ذلك بصفحات ، ويبدو أنه ألحق الأحداث المعدودة التى وردت هنا بعد هذا العنوان الجديد بالأحداث التى سبقت استدراكاً عليها خاصة وأن أول هذه الأحداث حدث فى شهر المحرم .

سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة (١)

فى نصف صفر قدم الحاجّ .

وفى ربيع الأول قرئ سجل برفع المنكرات وإبْطالِها وبمنع ذلك ، فَخُتم على عدة مواضع فيها المسكرات لِتُرَاق .

وابتُدِئ فى عمارة جامع راشدة[٢]، وكان مكانه كنيسة فبُنِى جامعًا، وأقيمت فيه الجمعة،

وفى ثامن جمادى الآخرة ضُربت رقبة فهد بن إبراهيم ، وله منذ نظر فى الرئاسة خمس سنين وتسعة أشهر واثنا عشر يوما . فحَمَل أخوه أبو غالب إلى سقيفة القصر من مال أخيه فَهْدٍ جراياتٍ فيها خمسمائة ألف دينار . فلما خرج الحاكم سأل عنها فعُرِّف خبرها ، فأعرض عنها ، وبقيت هناك مدة ثم أمر بها فرُدّت إلى أولاد فهد ، وقال إنا لم نقْتُله على مال ، فحملت إليهم ، ثم رفع أصحاب الأخبار عن أبى غالب كلمة تكلّم بها ، فقُتل وأُحرق بالنّار .

وخُلع على أبى الحسن على بن عمر بن العداس مكانه ، وخلع على ابنه محمد بن على ، وعلى الحسين بن طاهر الوزان ، وحُملوا فى رابع عشره .

وسار الأمير ياروخ متقلدا طبرية وأعمالها .

وقُبضت أموال من قبض عليه من النصارى الكتاب .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من نوفبر سنة ١٠٠١ .

(٢) ويذكر النويرى فى نهاية الأرب أن ابتداء عمارته كان فى سابع عشر ربيع الآخر سنة ٣٩٣ . ويذكر فى سبب إنشائه أن أبا المنصور الزيات الكاتب زرع هذا الموضع وبنى للنصارى فيه كنيسة ، فرفع أمره إلى الحاكم فأمر بهدم الكنيسة وأن يجعل موضعها مسجد ، ثم أمر بتوسعته فخربت مقابر اليهود والنصارى ، وبنى فيه منبر من طين . وعرف الجامع بهذا الاسم نسبة إلى أنه يقع فى خطة راشدة ابن أدب بن جديلة، من لخم، بالفسطاط ، وكانت بالجبل المطل على بركة الحبش وهو الجبل المعروف بالرصد . ولا وجود الآن لهذا المسجد وموقعه بحى « إسطبل عنتر » بأثر النبى . الخطط : ٢ : ٢٨٢ .

وأمر بإتمام بناء الجامع الذى ابتدأ بعمارته العزيز على يد وزيره يعقوب بن كلِّس خارج باب الفتوح من القاهرة ، فقدرت النفقة عليه أربعين ألف دينار ، فابتدى بعمله[1] .

وفى خامس عشر من شهر رجب ضرب عنق أبى طاهر محمود بن النحوى الناظر فى أعمال الشام لكثرة تَجَبُّره وعَسْفه بالناس .

وفى غرة شعبان جُمع فى الجامع الجديد بظاهر باب الفتوح .

وقطع الحاكم الركوب فى الليل .

وردّ إلى [٥٧ ب] أولاد فهد بن ابراهيم سُرُوجهم المحلّاة وأمروا بالركوب بها . وأطلق من اعتقل من الكتاب النصارى .

وصلى الحاكم فى رمضان بالناس أجمعين بعد ما خطب ؛ وصلى صلاة عيد الفطر وخطب على الرسم . وأكثر من الحركة فى شهرى رمضان وشوال إلى دمنهور[2] والأهرام وغيرهما .

وسافر الحاجّ للنصف من ذى القعدة .

وأما الشام فإنه لما مات جَيْش بن الصَّمْصامة فى شهر ربيع الآخر سنة تسعين ولِىَ دمشق شيخ من المغاربة يقال له فحْل بن تميم[3] ، فلبث شهورا ومات ؛ فقدم عند الحاكم على [ابن جعفر[4]] بن فلاح فنزل على دمشق ليومين بقيا من شوّال ، وأقام بها غير مُنْبَسطِ اليد

---

(١) بدأ العزيز بالله عمارته سنة ٣٨٠ ، وصلى الجمعة فيه فى الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ قبل أن تكتمل عمارته ، وموقعه بين بابى الفتوح والنصر داخل مدينة القاهرة ، وأشرف على بنائه الحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى ، أبو محمد ، وكان إمام زمانه فى علم الحديث وحفظه ، انظر نهاية الأرب للنويرى ؛ النجوم الزاهرة : ٤ (فى مواضع) ؛ الخطط : ٢ : ٢٧٧ . ويعرف أيضا باسم الجامع الأنور .

(٢) لعل المقصود بها شبرا دمنهور ، وهى التى أصبحت تعرف منذ زمن الأيوبيين باسم شبرا الخيمة .

(٣) فى ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ يذكر ابن القلانسى أن اسمه تميم بن إسماعيل المغربى القائد ويعرف بفحل . ويزيد النويرى فى ألقابه : المعزى .

(٤) مابين الحاصرتين من النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠١ ، ومن ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ .

فى ماله . فلمّا كان فى شهر رمضان ، سنة اثنتين وتسعين،قدم من جهة الحاكم داعٍ يقال له خَتْكِين[1] الملقَّب بالضَّيف إلى دمشق ، فبرز ابن فلاَح وأقام بظاهر دمشق . فأراد الضيف أن ينقص الجند من أرزاقهم ، فشَغَبوا وسارُوا يريدون ابن عَبْدون النصرانى ، وكان على تدبير المال وعطاء الأرزاق ، فمنعهم الضَّيف وأغلظ فى القول لهم ، وكان قليل المداراة ، فرجعوا إليه وقتلوه ، وانتهبوا دُورَ الكتّاب والكنائس . وتحالف المغاربة والمشارقة من العسكر على أن يكونوا يداً واحدة فى طلب الأرزاق ، وأنهم يمتنعون[2] مِمّن يطالبهم بما فعلوه ؛ وحلف لهم على [بن جعفر][3] بن فلاح أنه معهم على ما اجتمعوا عليه . فبلغ ذلك الحاكم فقال : هذا قد عَمِى . فبعث يعزلُه عن دمشق ، فسار عنها فى يَسير من أصحابه ؛ وذلك فى شوّال منها . وتأخر العسكر بدمشق ، فقدم إليها تَمُوصَلْت بن بكار من قِبلَ الحاكم ، فلم يزل عليها إلى أن وَلِىَ مُفْلح اللَّحْيانى[4] دمشق فى ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين . وكان خادما وفى وجهه شعر ، فسار إليها .

وفيها قتل أبو على الحسن بن عُسْلوج[5] فى المحرّم وأحرق .

وقتل على بن عمر بن العدّاس[6] فى شعبان وأحرق .

---

(١) أبو منصور ختكين العضدى القائد . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠٥ ، ٢٢٢ . يقول ابن القلانسى : واقتضى رأيه أن ينقص واجبات الأجناد ويغالطهم ويظهر شيئا من التوفير ، وترك أمر تدبير الأولاد لكاتب نصرانى يعرف بابن عبدون . ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ – ٥٨ . وهذا يتفق مع ماجاء هنا بالمتن .

(٢) فى الأصل : وأنهم يمتنعوا . .

(٣) ما بين الحاصرتين من النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٠١ ، ومن ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ .

(٤) كان قد تولى قبل ذلك مدينة صور . واسمه الكامل – طبقا لابن القلانسى – القائد أبو صالح مفلح الخادم اللحيانى . الخطط : ٢ : ٢٨٥ ؛ ذيل تاريخ دمشق : ٥٨ – ٦٢ .

(٥) لم أعثر إلاعلى عسلوج بن الحسن وكان قد أشرف على الأموال أيام المعز لدين الله مقاسمة مع يعقوب بن كلس، ثم عمل أيضا للعزيز بالله ، ولعله هو المقصود، ويرجح ذلك ما جاء فى الطيارة الملصقة بهذه الصفحة بالأصل ؛ انظر الصفحة التالية

(٦) أبو الحسن على بن عمر ، ابن العداس ، تولى الوزارة للعزيز بالله بعد وفاة يعقوب بن كلس . وتولى النظارة كذلك بعد مصرع فهد بن إبراهيم النصرانى أيام الحاكم وكانت رقبة فهد قد ضربت فى ثامن جمادى الآخرة سنة ٣٩٢ بعد أن مكث فى النظر خمس سنين وتسعة أشهر . انظر ما تقدم ، وكذلك النجوم الزاهرة : ٤ : ٥٢ .

وقتل الأُستاذ أبو الفضل زيدان ، صاحب المظلّة لعشر بقين من ذى الحجة ؛ ضُرب عنقه.

وفيها استأْذن عبدُ الأعْلى بن الأمير هاشم بن المنصور أن يخرج إلى بعض ضِياعِه ، فأذن له الحاكم ؛ فخرج بجماعة من ندمائه ؛ فبعث الحاكم عَيْنا يأْتيه بخبرهم ، فصاروا إلى مُتَنزَّههم فأَكلوا وشربوا ، وجرى من حديثهم أنْ قال أحد أولاد المُغَازلى المنجم لابن هاشم : لا بدّ لك من الخلافة ، فأَنت إمام العصر . فلمّا عادوا ودخل ابن هاشم على الحاكم وجلس أخرج الحاكم من تحت فراشه سيفا مجرّدا وضربه به ، فحُمِل إلى داره وكتب يعتذر عن ذنبه إن كان قيل عنه ، ويحلف ويذكر أن ضربته سالمة ، ويسأل الإذن فى طبيب يعالجه ؛ فأُجيب إلى ذلك .

فلمّا أفاق استأْذن فى الدخول إلى الحمام ، فأُذِن له ؛ فبعث الحاكم إلى الحمّام من ذبحه فيه وأتاه برأْسه . وبعث إلى من حضر المجلس فقُتلوا وأُحرقوا بالنار ، وفيهم أولاد المُغَازلى وابن خريطة وأولاد أبى الفضل بن الفرات وفتيانٌ من كتامة . وتتابع القتل فى الناس من الجند والرعية بضروب مختلفة(1).

---

(1) فى هذا المكان بالأصل طيارة جاء فيها « سنة أربع وتسعين وثلثمائة . قتل الحاكم بأمر الله جماعة منهم العسكرى منجمه ، وله أخبار ، وأبو على عسلوج ، وابن غرة الكتامى ، وعلى بن البدول الشاعر الأعمى ، وعباس بن زبيرى الكتامى ، والمقداد بن جعفر الكتامى ، وعلى بن سلمان الكتامى ، سقاه أخوه عقب خروجه من الحمام شربة سويق فمات عند وصوله إلى بيته ، وقال : قتلته قتلة مستورة وكانت أحب إلى من ضرب عنقه وإحراقه بالنار على عيون الأعداء . وقتل ابن أبى خريطة صاحب برجوان ، وابن المغازلى المنجم ، وجعفر بن محمد الدبيثى وأبو غالب أخو فهد بن إبراهيم ، وأبو إبراهيم سهل بن كلس أخو يعقوب الوزير ، ورشيق الحمدانى ، وإسماعيل بن سوار صاحب برجوان وابن حمود الكتامى ، ومخلف بن عبد الله بن الكتامى ، ويحيى بن سليمان الكتامى ، ومحمد بن على بن فلاح ، وابن قنطرية الكتامى . الحمد لله . القاضى الأجل أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبى يوسف الطائى ، توفى بطرابلس الشام ليلة السبت نصف رجب سنة أربع وستين وأربعمائة . أمير الجيوش المظفر مصطفى الملك عدة الإمام وسيفه منتخب الدولة أنوشتكين الدزبرى . . . . صمصام الدولة القاضى الأعز الأجل سند الحكام جلال الدولة وعمادها ذا المعالى صفى أمير المؤمنين القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن على بن عياض . الوزير الأجل شرف الوزراء تاج الرؤساء العادل الأمير الأوحد المكين معز الدين مغيث المسلمين عمدة أمير المؤمنين أبو الفضل يحيى بن أحمد بن المدبر ، تقلد الوزارة أولا سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . الوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصه أبو الفتوح محمد بن جعفر بن المغربى الأفضل عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم المعز بن باديس وزير مصر فى . . . » اهـ . ويبدو أن هذه الطيارة تتكون من بضع أحداث كان المؤلف يزمع اضافتها فى مواقعها ، وأن هذه المعلومات لم تكن قد اكتملت بعد .

سنة أربع وتسعين وثلثمائة [1]

فى محرّم خلع على مظفَّر الخادم الصقلبى ، وحمل على ثلاث بغلات بمراكبها ، ومعه ثياب كثيرة ؛ وندب لحمل المظلة . وخلع على مُتَوَلّى الأَسْوَد وحُمِل لواؤه ببرقة . وقبض على أبى داود بن المطيع . وخلع علىّ [صاحب][2]ديوان النفقات وضُرب عنقه بسبب أنه سرق مائتى ألف دينار ذهب .

وقدم مفلح اللِّحيانى إلى دمشق فى المحرّم، فسار عنها تَمُوصَلت يريد مصر ، ونزل بِدارَيّا[3]فمات بها فى ثانى صفر . فلما ورد خبر موته إلى الحاكم خلع على ولديه وحملهما .

وقدم الحاجّ فى رابع عشريه .

وفى ربيع الأَول أُلزم الناس بوَقُود القناديل باللَّيل فى سائر الشوارع والأَزقَّة بمصر .

وخَلَع على أبى يعقوب بن نَسْطَاس المتطبِّب وحمله على بغلتين ومعه ثياب كثيرة ؛ ومنحت له دارٌ بالقاهرة وفُرشت ، وأُلزم بالخدمة . وكان قد هلك منصور بن معشر [٥٨ ا] الطبيب .

وهدمت كنيستان بجانب جامع راشدة .

وفى جمادى الآخرة حُمِل إلى الشريف أبى الحسن على النرسى رسمُه يجارى به العادة فى كل سنة ، وهو من الثياب عشرون قطعة بنحو خمسمائة دينار .

وفى رجب قرئ سجلّان ؛ أحدهما فيه إنكار الحاكم على من يخاطبه فى المكاتبة بمولى الخلق أجمعين ؛ والآخر بمسير الحاج أول ذى القعدة[4].

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثلاثين من أكتوبر سنة ١٠٠٣ . ويلاحظ أن المؤلف قد أسقط سنة ٣٩٣ من الحديث بعنوان مستقل ، وإن كان قد ذكر بعض أحداثها فى أخبار السنة السابقة ٣٩٢ . وسيعود المؤلف إلى مثل هذا كثيرا .

(٢) ساقطة من الأصل والسياق يقتضيها .

(٣) قرية كبيرة بغوطة دمشق . معجم البلدان : ٤ : ٢٤ .

(٤) كانت العادة قبل ذلك أن يسير الحاج حول منتصف ذى القعدة ، وعندئذ لم يكن من السهل أن يدرك مناسك الحج والزيارة معا ، وسيتبين بعد سنوات أن مرسوما آخر سيصدر بضرورة سير الحاج فى منتصف شوال .

وقبض على ثلاثة عشر رجلا ضُربوا وشهّروا على الجمال وحُبسوا ثلاثة أيام بسبب أنهم صلُّوا صلاة الضحى

وفى شعبان خرج الكتاميون إلى باب الفتوح ، فترجّلوا وكشفوا رءوسهم ، واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين فأُوصِل إلى الحاكم جماعةٌ منهم ، فوعدهم ، وكُتب لهم سجلٌ قرئ بالقصر والجوامع بالرضا عنهم وإعادتهم إلى رسومهم فى التكرمة .

وأمِر بهدم جامع عمرو بن العاص بالإسكندرية .

وصلى الحاكم بالناس فى رمضان صلاة الجمعة مرتين وخطب[1] .

وفى سادس عشره صُرِف الحسين بن النعمان عن القضاء . وكان قد ضرب فى الجامع فندب الحاكم جماعة من شيوخ الأضْياف يركبون معه إلى كل مجلسٍ فيه جماعة من الخاصة وأمر أصحاب سيوف الحلى بالمشى بين يديه فى كل يوم.فكان إذا حضر إلى الجامع العتيق وقام يصلى وقف جماعة الأضياف صفًّا خلفه يستُرونه ، ولا يصلِّى أحد منهم حتى يفرغ من صلاته ويعود إلى مجلسه ؛ فإذا جلس فى مجلسه كانوا قياما عن يمينه وشماله . وهو أول قَاضٍ فُعل ذلك معه ، وأول قاض كتب فى سجلاته قاضى القضاة ؛ وعلت منزلته عند الحاكم وتخصص به . وكان له عند الحاكم جماعة يمدحونه ويبالغون فى الثناء عليه ، منهم ريحان اللحيانى وزيدان ومصلح اللحيانى ؛ فانبسطت يده وعظم شأْنه ؛ ولا عَنَ بين رجل وامرأته ؛ وتشدّد على الناس ؛ فكان إذا أبطأ شاهدٌ[2] يوم جلوسه فى الجامع عن الحضور إلى داره والركوب معه رسم عليه وأغرمه مالاً ليأْخذه . وألزم كُتَّابه بملازمة داره دائما . وكانت

---

(١) وكانت رسوم الفاطميين تقضى بأن يصلى الخليفة الجمعة ثلاث مرات ، ويستّريح الجمعة الرابعة .

(٢) كانت الشهادة وظيفة دينية يقوم بها الشهود المعدلون ، فإذا حضر القاضى للحكم جلس الشهود المعدلون حوله يمنة ويسرة على مراتبهم فى أقدمية تعديلهم . وكان الشهود المعدلون يعينون من قبل الخليفة . صبح الأعشى : ٣ : ٤٨٦ .

إليه الدعوة أيضا . وكان قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وقد أفضل على جماعة من أهل العلم والأدب والبيوتات .

فكانت مدّة نظره فى القضاء خمس سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما . ومولده لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ثمانٍ وخمسين . وهو أول قاضٍ أُحْرِق بعد قتله ، فإن الحاكم أحرقه بعد ما قتله فى سادس محرم الآتى ذكره .

وفى سادس عشر رمضان قُلِّد أبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان القضاء إلى ما بيده من النظر فى المظالم ، وخُلع عليه ، وقُلِّد سيفا محلًّى بذهب ، وحُمِل على بغلة وبين يديه سفط ثياب . فنزل فى موكب عظيم إلى الجامع العتيق ، فجلس تحت المنبر ورقى أبو على أحمد بن عبد السّميع وقرأ سجلّه . وانصرف إلى داره فنزلها وحكم ، واستخلف على الحكم أبا الحسن مالك بن سعيد الفارقى مضافا إلى ما كان مستخلفًا عليه من الحكم فى القاهرة . واستكتب أبا يوسف منال لِحضرته والتوقيعات عنه ، ثم كتب له سجل بأخذ الفطرة والنجوى[1] وحضور المجلس بالقصر وأخذ الدعوة على الناس ، وقراءة ما يُقرأ على من دخل الدعوة .

فحضر يوم الخميس الثانى عشر منه ، وقرأ ما جرى الرسم بقراءته فى القصر ، وأخذ النجوى والفطرة ، وأوقف سائر الشهود الذين قبلهم حسين فى أيامه ؛ وصرف عدّة من المستخلفين بالأعمال ، واستكتب أبا طالب ابن السندى فوقّع بين يديه ؛ واستكتب أبا القاسم علىّ ابن عمر الوراق ، وكتب السجلات وكتب القضايا والأحكام . ولزم حسينٌ داره وقد استبدّ خوفُه ، وحُملت كتب ديوان الحكم من داره إلى دار عبد العزيز .

---

(١) الفطرة والنجوى والخمس رسوم مالية تؤخذ ممن يعتنقون المذهب الفاطمى ، مع بعض رسوم أخرى تتفاوت بتفاوت مدى تعمق الأعضاء فى فهم الدعوة والعمل فى سبيلها . وكان يفرد لكل جماعة من الناس مجلس خاص يناسب مكانتها الاجتماعية والمذهبية . انظر فى الدعوة ورسومها ومراتبها : الخطط : ١ : ٣٩١ — ٣٩٥ .

وفيه قرئ سجل بالإنكار على الكتّاب ومن يجرى مجراهم فى أخذ شئ من البراطيل[1] ونحوها .

وركب الحاكم لصلاة العيد بالمصلّى ، فصلّى وخطب وحضر السماط بالقصر على رسمه فى ذلك .

وبرزت قافلة الحاج فى ثامن ذى القعدة بالكسوة والصِّلاتِ على العادة .

وصلّى الحاكم بالناس صلاة عيد النحر ، ونحر فى الملعب[2] .

وفيها قتل سهل بن يوسف [٥٨ ب] ، أخو يعقوب بن يوسف بن كلس الوزير ، بسبب قوة طمعه وكثرة شَرَهِه . وعندما قُدّم للقتل سأل أن يدفع السّاعة ثلثمائة ألف دينار عَيْنًا يفدى بها نفسه ، فلم يُجَب .

وقتل أيضا القائد أبو عبد الله الحسين بن الحسن البازيار ، من أجلِ أنه كان إذا دخل مِنْ باب البحر[3] تكون رِجْلُه على عنقِ دَابّتِهِ ويكون الحاكم فى المنظرة التى على بابه ، فتصيرَ رِجلُه إلى وجه الحاكم ؛ وكان ابن البازيار قد اعتراه وجع النِّقْرِس ، فعدّ ذلك الحاكم عليه دينا قتله به فى شوال لِسُوءِ التوفيق .

وفيها قدم من برقة عدّة من بنى قرّة إلى الإسكندرية ، فقُتِلوا عن آخرهم . وذلك أن يانس لما قُتل وصل عسكره إلى طرابلس ، فنازلهم القائد جعفر بن حبيب فزحف إليه فلفول

---

(١) البراطيل جمع برطيل بمعنى الرشوة . يقال برطل فلان فلانا : رشاه ، وتبرطل ارتشى وهو المقصود هنا . (البرطيل أيضا المعول) القاموس المحيط .

(٢) لعل المقصود به المنحر الذى اتخذه الفاطميون لنحر الأضاحى فى عيد الأضحى ، ولنحر غيرها فى عيد الغدير ، وموضعه أرض فضاء بالدرب الأصفر من حى الجمالية . النجوم الزاهرة : ٤ : ٩٨ : حاشية : ٧ .

(٣) باب البحر من أبواب القصر الغربية ، سمى بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه عندما يريد التوجه إلى شاطئ المقس للنزهة . وموضعه اليوم مدخل حارة بيت القاضى بشارع بين القصرين .

ابن خزرون ففرّ منه ؛ وخرج فتوح بن على ومن معه من أصحاب يانس إلى فلفول وملّكوه عليهم ؛ فقام بدعوة الحاكم ، وعقد الحاكم ليحيى بن على بن حَمْدُون الأندلسىّ على أطرابلس وكتب لبنى قرّة أن يسيروا معه ، فمضَوْا من برقة معه وخذلوه ؛ فعاد إلى القاهرة ورجع بنو قرّة إلى برقة وأظهروا الخلاف ، فأمّنهم الحاكم حتى قَدموا وحدهم إلى إسكندرية فقتلوا. واستقرت أطرابلس بيد فلفول وتداولها بنوه[1].

---

(١) بعد أن توفى فلفول سنة أربعمائة .

سنة خمس وتسعين وثلثمائة [1] :

فى سابع محرم قرئ سجل فى الجوامع يأمر اليهود والنصارى بشدّ الزُّنّار ولبس الغيار[2]، وشعارهم بالسواد شعار الغاصبين العباسيين .

وفيه فحش كثير وقدحٌ فى حقّ الشيخين رضى الله عنهما .

وقرئ سجل فى الأطعمة بالمنع من أكل الملوخية المحبَّبَةِ كانت لمعاوية بن أبى سفيان ، والبقلة المسماة بالجرجير المنسوبة إلى عائشة رضى الله عنها ، والمتوكلية المنسوبة إلى المتوكل[3] . وفيه المنع من عجْن الخبز بالرجل ، والمنع من أكل الدلنيس[4] ، والمنع من ذبح البقر التى لا عاقبة لها إلا فى أيام الأضاحى ، وما سواها من الأيام لا يذبح منها إلّا ما لا يصلح للحرث .

وفيه النكير على النَّخَّاسين والتشديد عليهم فى المنع من بيع العبيد والإماء لأهل الذمة .

وقرئ سجّل آخر بأن يؤذَّن لصلاة الظهر فى أول الساعة السابعة ، ويؤذَّن لصلاة العصر فى أول الساعة التاسعة . وإصلاح المكاييل والموازين والنهى عن البخس فيهما ، والمنع من بيع الفُقَّاع[5] وعمله ألبتَّة لما يؤثر عن علىّ رضى الله عنه من كراهة شرب الفقّاع .

وضُرب فى الطرقات بالأجراس ونودى ألا يدخل الحمام أحدٌ إلّا بمئزَر ، وألا تكشف امرأة وجهها فى طريق ولا خَلف جنازة ، ولا تتبرّج . ولا يباع شئ من السمك بغير قشر ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٠٠٤ .

(٢) تكرر هذا أيام الفاطميين ، فكان لايسمح لأهل الذمة باستخدام المسلمين فى الأعمال الحقيرة ، وفرض عليهم شد الزنار حول أوساطهم وحمل الصلبان أو القرامى بزنة خمسة أرطال فى أعناقهم .

(٣) عرف المتوكل بكراهة العلويين ، ومن صور ذلك أنه أمر بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وبهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى ، ويمنع الناس من إتيانه أو زيارته .

(٤) نوع من السمك الصغير لا قشر له .

(٥) شراب كالرمان ، سمى به لما يرتفع فى رأسه من الزبد . القاموس المحيط . ويصنع هذا الشراب من الشعير . النجوم الزاهرة : ٤ : ٩ .

ولا يصطاده أحد من الصيادين . وتُتُبِّعَت الحمّامات وقبض على جماعة وُجدوا بغير مئزر فضربوا وشُهِّروا .

وفيه برزت العساكر لقتال بنى قُرّة وسارت .

وكتب فى صفر على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق من ظاهره وباطنه فى جميع جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحُجَر والمقابر والصّحراء بسبّ السّلف ولَعْنهم ، ونقش ذلك ولُوِّن بالأَصباغ والذهب ؛ وعمل كذلك على أبواب القياسر وأبواب الدور ، وأُكْرِه على عمل ذلك . وأقبل الناس من النواحى والضّياع فدخلوا فى الدعوة ، وجعل لهم يوم وللنساء يوم ؛ فكثر الازدحام ومات فى الزحمة عدّة(١).

ولما دخل الحاجّ نالهم من العامة سبٌّ وبطش ؛ فإنهم طلبوا منهم سبَّ السلف ولَعْنَهم ، فامتنعوا .

ونودى فى القاهرة : لا يخرج أحد بعد المغرب [إلى] الطريق ولا يظهر بها لبيع ولاشراء فامتثل الناس لذلك .

وفى ربيع الأول تُتُبِّعَت الدّورُ وَمَنْ يُعرف بعمل المسكرات ، وكُسِر من أوعيتها شئٌ كثير.

وفيه أمر الحاكم بشونة تحت الجبل مُلِئَت بالسّنط والبوص والحَلْفاء ؛ فتخوّف الناس كافة ، مَنْ يتعلّق بخدمة الدولة من الأولياء والقواد والكتاب ، وسائر الرعية من العوامّ . وقويت الشّفاعات وكثر الاضطراب ، فاجتمع سائر الكتاب والمتصرّفين من المسلمين والنصارى ، وخرجوا بأجمعهم فى خامسه إلى الرياحين(٢) بالقاهرة ؛ ومازالوا يقبلون الأرض

---

(١) فى الخطط : ١ : ٣٩١ — ٣٩٥ تفصيل لمراحل الدعوة ومراسمها ومجالسها المختصة بكل جماعة بعينها والرسوم التى يدفعها المنتمون إليها . راجع أيضا : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية : محمد عبد الله عنان .

(٢) لعل المقصود بها الريحانية وهى حارة نسبت إلى جماعة الريحانية وهى فئة من عسكر الفاطميين نزلوا بها وقت إنشاء القاهرة فعرفوا بها . وقد اتخذت هذه الحارة اسم بهاء الدين قراقوش ، أيام صلاح الدين ، إذ أنه سكن بها .

حتى وصلوا إلى القصر ، [٥٩ ا] فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، ويضِجّون ويسألون العفو عنهم ، ومعهم رقعة قد كُتبت عن الجميع . ثم دخلوا باب القصر وهم يسألون أن يُعْفى عنهم ولا يسأل فيهم قول ساع يسعى فيهم . وسلّموا رقعتهم لقائد القوّاد ، فأوصلها إلى الحاكم ، فعفا عنهم وأمرهم على لسان قائد القواد بالانصراف والبكور لقراءة سجلٍّ بالعفو عنهم ؛ فانصرفوا بعد العصر . وقرئ من الغد سجلّ كتب نسخة للمسلمين ونسخة للنصارى ونسخة لليهود بالأمان والعفو عنهم .

وفى ليلة التاسع منه ولد للحاكم ولد ، فجلس فى صبيحتها للهناء ، وأمر بإحراق الشونة فأحرقت . وكان سابعُ المولود(١) ، فأُخرج على يد خادمٍ إلى قائد القواد ، فتسلّمه حتى أعد المزين شعره ، و ذبح عنه الشريف أبو الحسن النرسى العقيقة بيده ، وحمل عثمان الحاجب الدّم والعقيقة ، فأمر له بألف دينار وفرس ملجم وعدّة ثياب من أجل حَمْل الدم والعقيقة ؛ ودُفع إلى المزيّن مائتا دينار وفرس . وسُمّى المولود بالحارث وكُنّى بأبى الأشبال .

وخرج قائد القواد إلى سائر الأتراك والديلم والعرفاء وقال : مولانا يقرأ عليكم السلام ويقول قد سَمّيت مولاكم الأمير الحارث وكنّيْته أبا الأشبال . فقبّل الجميع الأرض وأكثروا الدعاء ، وانصرفوا . وزُيّنت البلد أربعة أيام .

وفيه رسم الحاكم لجماعة من الأحداث أن يتقافَزُوا من موضع عالٍ فى القصر ، ورسم لكل منهم بِصِلَة ؛ فحضر جماعة وتقافزوا ، فمات منهم نحو ثلاثين إنسانا من أجل سقوطهم خارجاً عن الماء على صخر هناك ؛ ووُضع لمن قفز مَالهُ .

وفى ربيع الآخر اشتد خوف كافة الناس من الحاكم ، فكتب ما شاء اللهُ من الأمانات للغلمان الأتراك الخاصة وزمامهم ومَنْ معهم من الحمدانية ، والبكجورية ، والغلمان العرفاء ،

---

(١) أى حل اليوم السابع .

والمماليك ، وصبيان الدار ، وأصحاب الإقطاعات ، والمرتزقة ، والغلمان الحاكمية القُدُم . وكُتب أمان لجماعة من خدم القصر الموسومين بخدمة الحضرة بعد ما تجمّعوا وساروا إلى تربة العزيز وضجّوا بالبكاء وكشفوا رءوسهم . وكُتبت عدة سجلات بأمانات للديلم والخيل والغلمان الشرابية ، والغلمان المرتاحية ، والغلمان البشارية ، والغلمان المفرقة العجم وغيرهم ، والنقباء ، والروم المرتزقة[1]. وكتبت عدة أخرى بأمان الزّويليين ، والمنادين ، والبطالين ، والبرقيّين ، والعطوفية ، والجوانية ، والجودرية ، والمظفرية ، والصنهاجيين ، وعبيد الشراء بالحسينية ، والميمونية ، والفرجية . وكتب أمان لمؤذنى أبواب القصر ، وأمانات لسائر البيازرة والفهّادين والحجالين ، وأمانات أُخَر لعدة أقوام ، كل ذلك بعد سؤالهم وتقرّبهم .

وفيه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منها ما لا يحصى حتى لم يبق منها بالأزقة والشوارع شئ ، وطرحت بالصحراء وبشاطئ النيل ؛ وأُمِر بكنس الأزقّة والشوارع وأبواب الدور فى كل مكان ، فَفُعل ذلك .

وفى جمادى الآخرة فتحت دار الحكمة[2] بالقاهرة ، وجلس الفقهاء فيها ، وحُمِلت الكتب اليها ، ودخلها الناس للنَّسخ من كتبها وللقراءة . وانتصب فيها الفقهاء والقرّاء والنُّحاة وغيرهم من أرباب العلوم ، وفُرِشت ، وأقيم فيها خدام لخدمتها ، وأُجريت الأرزاق على مَنْ بها من فقيه وغيره ؛ وجُعل فيها ما يُحتاج إليه من الحبر والأوراق والأقلام .

---

(١) هذا عنصر يستحق الاهتمام إذ أننا لانجد فى الجيش الفاطمى وحرس القصر جماعات تنتسب فقط إلى قبائلها كالكتاميين والزويليين واللواتيين ، أو إلى قادتها كالحمدانيين والبكجوريين ، أو إلى وظائف بعينها كالوزيرية والركابية ، وإنما نجد الجند المرتزقة الذين يتكسبون بالجندية مثل هؤلاء الروم المرتزقة والغز المصطنعة .

(٢) وتعرف أيضا بدار العلم . يقول المقريزى فى الخطط : ونقل إليها من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعا لأحد من الملوك ، وأباح ذلك كله للناس فحضرها الناس على طبقاتهم لقراءة الكتب أو للنسخ أو للتعليم ، وأحضر الحاكم إليها جماعات من أهل الحساب والمنطق والفقهاء والأطباء للمناظرة بين يديه ، فكانت كل جماعة تحضر على انفرادها . وأغلقها الأفضل بن بدر الجمالى ، ثم أنشئت دار أخرى جديدة سنة ٥١٧ ، أنشأها الوزير المأمون البطائحى . الخطط : ١ : ٤٤٥ ، ٤٥٨ — ٤٦٠ .

وفيه اشتد الطلب على الركابية[1] المستخدمين فى الرّكاب بعد أن قتل منهم فى يومين أكثر من خمسين نفسا فتغيّبوا ؛ وامتنع أحدٌ من الناس أن يمشى بين يديه غلامٌ أو شاكرى[2] ، فكانت القواد ومَنْ جرى رسمه أن يكونُوا بين يديه يسيرون وحدهم ، وإذا نزل أحدهم للسّلام أمسك خادمُه الدابة ؛ ثم عُفِى عنهم وكتب لهم أمان . وكتب لعدّة من الناس عدّة أمانات .

وفيه مُنِع كلٌّ أحدٍ مِمّن يركب أن يدخل من باب القاهرة راكبا ؛ ومُنِع المكاريّون أن يدخلوا بحميرهم ؛ ومُنِع الناس من الجلوس على باب الزهُومة[3] من التجار وغيرهم ؛ ومُنِع كلٌّ أحدٍ أن يمشى مُلاَصِقَ القصر من باب الزُّهُومة [٥٩ ب] إلى باب الزُّمرد . ثم أذن للمكاريين فى الدخول وكُتِب لهم أمان . وتخوّف الناس ، فخرج أهل الأسواق على طبقاتهم ، كل طائفة تسأل كتابة أمان ، فكتب ما ينيف عن المائة أمان لأهل الأسواق خاصة ، قُرِئَت كلُّها فى القصر ودُفعت لأربابها ، وكلُّها على نسخة واحدة . وهى بعد البسملة :

« هذا كتاب من عبْد الله ووَليّه المنصور أبى علىّ الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، لأهل مشهد عبد الله إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحقّ المبين ، وأمان سيّدنا محمد خاتَم النبيين ، وأبينا علىٌّ خير الوصيّين ، وذرية النبوّة المهديينِ آبائنا ، صلى الله على الرسول ووصيّه وعليهم أجمعين . وأمان أمير المؤمنين على النَّفس والأهل والدم والمال . لا خوف عليكم ، ولا تهديد بسوء إليكم ، إلاَّ فى حدّ يقام بواجبه ، وحقّ يُوجَد لمستوجبه . فليُوثَق

---

(١) الركابية والركابدارية الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان أو الخليفة فى المواكب ، وهم تابعون لبيت الركاب الذى تكون به السرج والجم ونحوها . والغاشية السرج أو الغطاء المزركش الذى يوضع على ظهر الفرس فوق البرذعة . صبح الأعشى : ٤ : ٧ ، ١٢ . والركابية أيضا المكارون العاديون فى الأسواق .

(٢) الشاكرى : الساعى أو الرسول الذى يحمل الرسائل .

(٣) من الأبواب الغربية للقصر الكبير ، سمى بذلك لأن اللحوم وحوائج الطعام كانت تدخل إلى القصر منه . والزهومة الزفر .

بذلك وليعوّل بأمان الله . وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . والحمد لله وصلى الله على محمّد سيد المرْسَلين ، وعلىٌّ خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوّة ، وسلّم تسليما » .

وفى يوم الأربعاء لعشرٍ خلون من رمضان وُلِد للحاكم ولد ذكر ، فجلس الحاكم يوم الخميس للهناء . وكان السابع يوم الثلاثاء ، فحمله شكر الخادم ، وحضر أبو الحسن على ابن إبراهيم النرسى وعقّ عنه ، وحضر المزيّن فحلق شعره وتناول ماله من الرسم . وسّماه الحاكم عليًّا وكناه أبا الحسن ، وهو الذى وَلِىَ الخلافة وتلقب بالظّاهر .

وفيه فُرِش جامع راشدة . وركب الحاكم يوم عيد الفطر وعليه ثوب مُصْمت[1] أصفر ، وعلى رأسه منديل منكر ، وهو محنك[2] بذؤابة والجوهر بين عينيه . وقِيدَ بين يديه ستّةُ أفراس بسروج مرصعة بالجوهر ، وست فِيَلَة ، وخمس زرافات ؛ فصلى بالناس صلاة العيد وخطبهم ، فلعن فى خطبته ظالمَهُ حقَّه والمرجفين به ؛ وأصعد معه قائد القواد وقاضى القضاة عز الدين .

وفيه اضطرب السّعر واختلف الناس فى الدّراهم والصرف ، فكانت المعاملة بالدراهم الزائدة والقطع ، واستقر سعرها على ستة وعشرين درهما بدينار[3] .

---

(١) الثوب المصمت الذى لايخالط لونه لون آخر . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٩٣ .

(٢) يعنى أنه أدار عمامته على حنكه كما تفعل بعض جماعات العرب والمغاربة .

(٣) يبدو أن التعامل بالدراهم ، فى مصر الفاطمية ، يرجع إلى عصر الخليفة الحاكم الذى توقع قلة الإنتاج من الذهب إزاء الزيادة فى استخدامه لأغراض مختلفة والإقبال الهائل على اختزانه ، فهداه تفكيره إلى إتخاذ هذه الخطوة حتى لاتفاجأ البلاد بأحداثقد تتعسر مواجهتها . وبذلك أصبحت مصر تستعمل نظام النقدين، وأخذت الدولة تحدد نسبة كل من النوعين للآخر طبقا للظروف وقد صحب استعمال هذه العملة النقدية الفضية الجديدة أزمة نقدية يبدو أن ماذكر هنا صورة لها ، وقد حدث مثلها فى سنة سبع وتسعين وثلثمائة فاضطرب سعر الدرهم المتزايد بالنسبة لسعر الدينار فبلغ — كما جاء فى المتن — ستة وعشرين درهما بدينار ، وبلغ سنة سبع وتسعين وثلثمائة أربعة وثلاثين درهما بدينار . فاضطربت أمور الناس وتدخلت الحكومة بصور متعددة لحماية نقدها . انظر حالة مصر الاقتصادية فى عصر الفاطميين لراشد البراوى : ٣٠٤ — ٣٠٥ .

وفى أول ذى القعدة برزت قافلة الحاجّ إلى مصلّى القاهرة ، ثم رُفِعت إلى جُبّ عميرة فى سابعه ، وسارت ليلة العاشر منه بالكسوة للكعبة والرّسُوم على العادة .

وفيه كُسِر الخليج والماء على خمسة عشر ذراعا وسبعة أصابع ، وهو آخر يوم من مِسْرى . وحضر الحاكم وعلى رأسه تاج مكلّل بالجواهر . ونُودِى فى الناس بأن يلعبوا بالماء فى النَّوْرُوز على عادتهم ، ففعلوا .

ونزل الحاكم يوم النَّحر إلى المصلّى ، فصلّى بالناس وخطب ، ونحر بها ثلاث بُدْن ، وعاد إلى القصر فحضر السِّماط ، ثمّ نَحر فى الملعب إحدى وعشرين بَدنةً ؛ وواصَلَ النحر أيّامًا .

وفيها قُتِل القاضى حسين بنُ النعمان ؛ ضُربت رقبتُه ثم أُحرق بالنار . وذلك أن مُتَظلّما رفع رقعةً إلى الحاكم يذكر فيها أن أباه تُوفّى وترك له عشرين ألفَ دينار ، وأنّها فى ديوان القاضى ، وقد أخذ منها رزق أوقاف معلومة ، وأنّ القاضى حسين بن النعمان عرّفه أن ماله قد نجز . فدعا به وأوقفه على الرّقعة ، فقال كقوله للرجل من أنّه قد استوفى مَالهُ من أجرة . وأمر بإحضار ديوان القاضى ، فأُحضر من ساعته ، فوُجد أنّ الذى وصل إلى الرّجل أيسرُ مالِه . فعدّد على القاضى حسين ما أقطعه وأجرى له وما أزاح من عِلَله لئلا يتعرض إلى ما نهاه عنهُ مِنْ هذا وأمثالِه . فقال : العفو والتوبة ؛ فأمر به فضُربت عنقه وأحرق .

وقتل عدّة أناس يزيد عددهم على مائة نفس ؛ ضربت أعناقهم وصلبوا ،

وقتل عبد الأعلى بن هاشم من القرابة ، لأنه كان يتحدث بأنه يلى الخلافة ، وأنه كان يجمع قوما ويعدهم بولاية الأعمال . وقد تقدّم خبره .

سنة ست وتسعين وثلثمائة (١) :

فيها ذكر المسبّحي خبر أبي ركوة الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموى(٢) وُلِد بالأندلس وقدم القَيْرَوان ، فانتصب يعلّم الصّبيان بها القرآن ، ثم دخل إلى مصر فأقام بها وبأرْيَافها يعلم الصّبيان مدّة ، ثم خرج إلى [١٦٠ ا] الإسكندرية وقد أكثر الحاكم من الإيقاع ببنى قرّة وأكْثَر من قَتْلهم وتحريقهم بالنار، فخلعوا طاعته . وسبب ذلك أن بنى قُرّة كان شيخهم مختار بن القاسم ، فلما بعث الحاكم يحيى بن على الأندلسى يخرج فلفول بن سعيد بن خزرون بطرابلس على صنهاجة ساروا معه إلى طرابلس ، وجرت الهزيمة عليه ورجعوا إلى برقة . فتنكر لهم الحاكم ، فامتنعوا عليه ، فبعث لهم بالأمان ؛ فقدم وفْدُهم إلى الإسكندرية فقتلهم عن آخرهم سنة أربع وتسعين . وكان عندهم معلّم القرآن واسمه الوليد بن هشام ، يُنْسَب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بنى أمية ؛ وكان يزعم أن له أثارَةً من علم ، ويخبر بأنه سيملك ما ملكه آباؤه ، وكان يقال له أبو ركوة . فدعاهم إلى نفسه فبايعوه ، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله .

ثم بعث إلى لواتة ومزانة وزناتة فاستجابوا له ؛ ورحل إلى برقة ، والناس يُبَاكرونه فى كلّ يوم فيُسلِّمون عليه بالخلافة ويقبّلون له الأرض ، فيجلس فى وسطهم ويقول : أنا واحد منكم وما أريد شيئا من هذه الدّنيا ، ولا أطلبها إلاّ لكم ، وليس معى مالٌ أعطيكم

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن من أكتوبر سنة ١٠٠٥ .

(٢) وكنى أبا ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره على طريقة الصوفية . ابن الأثير : ٩ : ٦٨ . « وقد تعاظم أمره على الحاكم حتى عزم على الخروج إلى الشام وبرز إلى بلبيس بالعساكر والأموال ، فأشير عليه بالعود إلى مصر ، فعاد » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢١٢ . ويذكر ابن القلانسى أن أبا ركوة كتب بأبيات شعرية إلى الحاكم وأرسلها مع ختكين الداعى استهلها بقوله : يا أمير المؤمنين إن الذنوب عظيمة ، والدماء حرام مالم يحلها سخطك ، وقد أحسنت وأسأت ، وما ظلمت إلا نفسى . وسلم ختكين الرقعة إلى القائد الحسين بن جوهر الذى رفعها إلى الحاكم . ولكن ذلك لم ينجه من مصيره . ذيل تاريخ دمشق : ٦٥ - ٦٦ .

وإنمّا لى عليكم طاعة ، وإن نصرتمونى نصرتم أنفسكم ، وإن قاتلتم معى أخذتم حقكم بأيديكم فيقولون له : يا أمير المؤمنين نحن مبايعون لأمرك مطيعون لك ، فمُرنا بأمرك .

فلم يزل معهم يطوف قرى برقة ويأخذ البيعة ، إلى أن عظم أمْرُه وهو فيما بين الإسكندرية وبرقة . فبعث إليه الحاكم جيشا عليه ينال الطويل التركى فى نصف شعبان سنة خمس وتسعين ، فواقعه أبو ركوة وقتله ومُعْظَمَ عسكره ، وظفِر من الأموال والخيل والسّلاح والنِّعم الجليلة بما قوى به ، واشتدّ بأسه .

وكان فى ظهور أبى ركوة طَلَع كوكب الذؤابة ، فكان يضئ كالقمر وله بريق ولمعان ، ويقوى ويكثرُ نوره وأمر أبى ركوة يشتد ويعظُم . فأقام هذا الكوكب شهورا ، ثم اضمحلّ نوره وضعُف لمعانه وأخذ أمر أبى ركوة ينقُص ويضعف إلى أن أُخِذا أسيراً ، فغاب الكوكب ولم يُرَ بعد ذلك ؛ فكان شأن هذا الكوكب فى دلالته على أبى ركوة من أعجب العجب .

وابتدأ الحاكم فى تجريد العساكر شيئا بعد شئ ، ونزل أبو ركوة بعد ظفره على برقة فحاصرها ، وصندل الحاكم أميرُها يقاتله ، حتى اشتد الحصار ومُنِع أهلُ برقة من الميرة ، ففرّ صندل ، ومعه شيوخ البلد ، إلى الحاكم ، وحثّه على بعث الجيوش ، وأعلمه بقوة أبى ركوة واستفحال أمره . ودخل أبو ركوة إلى مدينة برقة واستخرج الأموال ، وأقطع بنى قرّة أعمال مصر ، مثل دمياط وتنّيس والمحلة وغيرها ، وكتب خطه بذلك ؛ وأقطع دُورَ القواد والأكابر التى بالقاهرة ومصر ؛ وجدّد البيعة لنفسه . فندب الحاكم لقتاله القائد أبا الفتوح فضل بن صالح [1] فى ربيع الأول سنة ستٌ وتسعين ، وأتبعه بالعساكر فاجتمعت

---

(١) هو الفضل بن عبد الله بن صالح من الأمراء الذين كانوا يسيرون فى ركاب العزيز بالله ، وقد أصبح من القواد الكبار على زمن الحاكم . نظم فيه أبو القاسم عبد الغفار ، شاعر الحاكم ، أبياتا ضمن قصيدة فى مدح الحاكم ، منها :

إنما الفضل غرة فى وجوه المدائح
أريحى ، رياحه عبقات الروائح
كعبة الجود كفه بين غاد ورائح
إنما تصلح الأمور برأى ابن صالح

انظر : الفاطميون فى مصر : ١٥٨ - ١٥٩ .

بالإسكندرية ، وسار بها ، فلقيه أبو ركوة بذات الحمام[1] . وكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة العسكر والاحتواء على ما فيه من مال وسلاح ؛ فعظُم شأن أبي ركوة .

ووردت الجند على الحاكم بذلك للنِّصف من رمضان ، فكان من تدبير الحاكم أن دعا بوُجُوه رجاله وقُوّاده ، فأمرهم أن يكاتبوا أبا ركوة ويعرِّفوه أنَّهم على مذهبه ورأيه ، وأنه إنْ توجّه إليهم وقرب منهم صاروا فى جُمْلته وقاتلوا معه ؛ وذكروا ما يقاسونه من قَتْل وجوههم وأكابرهم ، وأنهم لا يأْمنون فى ليلهم ولا نهارهم ، مع ما يسمعونه من انتقاص الشرف ونحو هذا . فكتبوا بذلك وأنفذوا إليه عدّة كتب من كل واحد منهم كتابا مع رسوله .

فلما تواتر ذلك عليه وثق به ولم يَشُكَّ فيه ، وحشد جموعه ووعدهم بأموال مصر ونعمها ، وسار . فخلع الحاكم على أبى الحسن علىّ بن فلاح ، وسيّره إلى ضبط بِرْكة الحبش فى عسكر ، فأقام بها أياما ؛ ثم عدّى إلى الجيزة ، وتلاحقت به العساكر برًّا وبحرًا . واضطربت الأسعار بمصر ، وعدم الخبز وبيع مَبْلُولاً ستَّة أرطال بدرهم ، وكان يباع عشرة أرطال بدرهم ، وأنفق فى العساكر [٦٠ ب] المتوجهة لِكلٍّ واحد أربعةً وعشرين دينارا .

وكُوتِب على بن صَفُوح بن دَغْفل بن الجراح الطائى ، فحضر فى سابع عشر شوال ، وخُلع عليه ، وطُوّق بطوق من ذهب ، وحمل .

وتزايد سعر الدقيق والخبز وروايا الماء ، وازدحم الناس عليها .

وخُلع على القائد فضل بن صالح ثوبُ ديباج مثقل طميم أحمر ومنديل ذهب ، وقُلّد بسيف وحُمِل على فرس بمركب ذهب ، وبين يديه تسعة من الخيل وثلاثون بندا مذهبة

---

(١) هناك عدة قرى تحمل اسم الحمام ، منها واحدة بقسم أبنوب شرق النيل على مسافة ساعة منه وجنوب أبنوب على مسافة نصف ساعة ، ولذا يقال أبنوب الحمام ؟ وقرية أخرى جنوب مدينة أدفو من أعمال إسنا ، وثالثة فى أول بلاد الفيوم . الخطط التوفيقية : ١ : ٧٥ . وفى القاموس المحيط : ذات الحمام قرية بين الإسكندرية وإفريقية .

وأربعة عشر سفطا فيها أنواع الثياب . وسار إلى الجيزة ، وأكمل لكلٍّ واحدٍ من العساكر السّائرة خمسون دينارا . ونزلت إليه خزانة السلاح[1] .

وورد الخبر بنَهْب الفيّوم ، فجُهزت إليها سرية ، فأوقعوا بأصحاب أبى ركوة وبعثوا إلى القاهرة بعدّة رءوس طيف بها .

وسار القائد فضل من الجيزة فى رابع ذى القعدة والغلاء بالعسكر ، فبيعت الويبة من الشعير بخمسة دراهم والخبز ثلاثة أرطال بدرهم .

وأقام على بن فلاح فى مضاربه بالجيزة ، وحُمِل إليه خيمة وخمسة أفراس بمراكبها ، وسيف ، وألفا دينار وثلاثون ثوبا ، فأنفق فى أصحابه .

فلما كان فى ثامن عشر ذى القعدة وقع فى الناس خَوْفٌ فى اللّيل وضجيج ، فنزلت العساكر طائفة بعد طائفة ، والناس جُلُوس فى الشوارع وعلى أبواب الدُّور ليلَهُم كلّه ، يبتهلون بالدعاء بالنّصر ، فلحقت هذه العساكر بابن فلاح وهو بالجيزة ؛ فسيّر عسكرًا إلى الفيّوم ، وأقام على خوف ووجل . فبلغ أبا ركوة إقامة علىّ بن فلاح بالجيزة ، فأسرع إليه وكبس عسكره ونهب سواده ؛ وأخذت خزائن السلاح ؛ ووقع القتال الشديد فقُتل خلق كثير من أصحابه وجُرح خلق لا يحصى . ولما نزلت خزائن السلاح من عند الحاكم مع قائد القوّاد ، وعظم البكاء والضّجيج على شاطئ النيل لكثرة القتلى فى العسكر ، مَنَع ابن فلاّح من حمل الموتى إلى مصر ، وأمر بدفنهم فى الجيزة . وافتُقِد كثير من العسكر فلم يُعلَمْ لهم خبر ، ولم يَسْلَم من العسكر إلاّ القليل ؛ فغُلّقت الأسواق ، وجلس الناس بالشوارع

(١) خزانة السلاح كانت بالقصر الكبير فى صدر الشباك الذى يجلس فيه الخليفة تحت القبة . الخطط : ١ : ٤٠٧ . وكان الخلفاء يقومون بتفتيشها من وقت لآخر ، كما كانوا يقومون بتفتيش سائر الخزائن ، وفى مناسبات التفتيش يعطى لأمين الخزائن مبلغ معين تفضلا من الخليفة ، فكان أمين خزائن السلاح يحصل على خمسة وعشرين دينارا . الفاطميون فى مصر : ٢٦٥ نقلا عن خطط المقريزى .

غمًّا لما جرى على العسكر ؛ وتزايد البكاء من الناس على فقد آبائهم ومعارفهم . وباتوا وأصبحوا يوم السبت العشرين منه ، فورد الخبر بدخول أبي ركوة في جموعه إلى الفيّوم ؛ وسار فضل بن صالح لقتاله ، فالتقى معه في ثالث ذي الحجة وحاربه ، فكانت وقْعَةٌ عظيمة قُتِل فيها مالا يحصى كثرة . وانهزم أبو ركوة ، واستأْمن بنو كلاب وغيرهم من العرب . فسارت العساكر في طلب أبي ركوة ، وحضرت الرءوس من الفيوم ومعها الأسرى ، وهي تجاوز ستة آلاف رأس ومائة أسير ، فطيف بها بالبلد ، وقُتل الأسرى بالسّيوف بعد مالحقهم أنواع البلاء بيد العامة ، يَصْفَعُون أقفيتهم ويَنْتِفُون لِحَاهُم ، ويضربونهم ، حتى تفتّحت أكتاف كثيرٍ مِنْهم ، فكان أمرًا مَهُولاً . وتواتر مجيءُ من أُخِذ من عسكر أبي ركوة فجيءْ بخلق كثير وعِدّة رءوس .

ودخل ابن فلاح من الجيزة فَخُلع عليه . واستمر القائد فضل في طلب أبي ركوة وهو يبعث بمن قُبض عليه من الرجال وبرءوس من يقتلهم شيئا بعد شيءْ . وعاد عليّ بن الجراح من عند القائد فضل فخُلع عليه .

وفي الثاني من جمادى الآخرة سنة سبع وتسعين ورد الخبر من القائد الفضل بن صالح بحصول أبي ركوة ووقوعه في يده ، فابتهج الناس لذلك ؛ وخُلع على قَائد القواد وعلى أولاده وعلى البدويّ الذي خرج في طلب أبي ركوة حتى أدركه ببلد النوبة ؛ وعلى أبي القاسم عليّ بن القائد فضل ، وعلى ابنه . وذلك أن أبا ركوة دخل بعد هزيمته إلى بلد النوبة ، فتبعه القائد فضل وبعث إلى ملك النوبة بالقبض على أبي ركوة ، وسيّر إليه عسكراً مع الكِتَاب . فلما بلغوا أطراف النُّوبة وجدوا أبا ركوة قد اختفى بَديْرٍ هناك وله فيه أربعة عشر يوماً ، فدلّهم عليه رجل من العرب[1] ، فقبضوا عليه في ربيع الأول منها

(١) واسم هذا الدير دير أبي شنودة في أطراف النوبة وكان المساعد على القبض عليه الشيخ أبو المكارم هبة الله . ويذكر النويري ، نقلا عن بعض المؤرخين ، أنه اعتبرت الأكياس التي خرجت مع القائد فضل لما خرج للقاء أبي ركوة فكانت زنتها فوارغ خمسة وعشرين قنطارا ، وأن جملة ماأنفق في هذه الفتنة ألف ألف دينار . نهاية الأرب .

وأتوا به إلى القائد فضل . فسار به إلى مصر ونزل بركة الحبش(١) يوم الجمعة للنصف من جمادى الآخرة ، فخرج إليه قائد القواد بسائر [رجال] الدولة ، وسلم عليه ، وأبو ركوة [١٦١] فى مَضْرب ومعه القائد فضل ؛ فأقام هناك إلى بُكرة يوم الأحد سابع عشره ؛ فسار من بركة الحبش بعساكره وأبو ركوة على جمل فوق سرير ، وعليه ثوب مُشَهّر ، وفوق رأسه طرطور طويل ومعه رجل يمسكه . وذلك أنه لما أُلبِس الطرطور صاح : يافضل ، ياأبا الفتوح ، ما كذا ضَمِنْت لى . فصُفع صفعة منكرة وأمسك يديه هذا القائد خلفه ، وقد اجتمع الناس من كل جهة ، فكان جمعا لم يُرَ مثلُه كثرة ، وأُوجرت الدور والحوانيت بحمله(٢) وبات الناس على الطرقات حتّى وُصل به إلى القصر ، فأُوقِف ساعة على باب القصر وهو يشير بأصبعه ويطلب العفو ، والصفعُ فى قفاه ؛ ويقال له قبّل الأرض فيقبّل ؛ ثم سِير به إلى مسجد تِبَر . فلما خرج من باب القاهرة أشار إلى الناس يرجمونه بالحجر والاجرّ ، ويصفعونه وينتفون لحيته ، حتّى عاين الموت مرارا ، إلى أن بلغ مسجد تبر ، فضرب عنقه وصُلب جسده ؛ وحُمِل رأسه إلى الحاكم ؛ فخلع على القائد فضل وغيره من القوّاد والعرفاء الذين كانوا معه ، وخلع على قائد القواد . فكان يوماً عظيا مَهُولاً لكثرة اجتماع الناس .

---

(١) بركة الحبش وهى بركة المغافر وبركة حمير وبركة الأشراف ، واشتهرت ببركة الحبش ، وهى بركة لم تكن عميقة المياه ، وإنما كانت حوضا زراعيا يغمره النيل وقت الفيضان عبر خليج يعرف بخليج بنى وائل كان يستمد مياهه من النيل جنوبى الفسطاط ، فيتحول الحوض وقت الفيضان إلى مايشبه البركة . وعرفت ببركة الحبش لأنها كانت من ممتلكات بعض الرهبان الأحباش . النجوم الزاهرة : ٦ : ٢٠٨٣ . وأول من زرع هذا الحوض قرة بن شريك ، والى مصر ٩١ – ٩٦ هـ . وعرفت ببركة الأشراف لأنها صارت بعد الأمويين وقفا على الطالبيين . وكانت من أكبر منتزهات مصر . الخطط : ١ : ٤٨٦ ، ٢ : ١٥٢ – ١٥٧ ، قوانين الدواوين : ١٠٢ .

(٢) هكذا فى الأصل : فقد يكون المعنى : « وأثقلت الدور والحوانيت بحمل هذا الجمع » أو لعل صحة العبارة « وأجرت الدور والحوانيت بجملة » .

وأقاموا ليلتين فى الحوانيت والشوارع وعلى أبواب الدور يظهرون المسّرة والفرح[1] .

وأظهر أبو ركوة فى مواقف الألم صبرا وتجلّدا ؛ وكان لا يخاطب القائد الفضل إلا باسمه أو بكنيته . ولما أقام فى بركة الحَبَش ، وخرج الناس ورأوه ، كان يسأل من يلقاه عن اسمه وكان يتلو القرآن ويترحّم على السّلف . وكان شاباً أسمر تعلُوه حُمرة ، مُسْتَنّ الوجه طويل الجبهة ، أشهل[2] بزُرْقة ، أقْنى ، صغير اللحية ، أصْهَب[3] إلى الشُّقرة ظاهر القطوب تبين فيه الجِد ، لا يكاد يتجاوز ثلاثين سنة يوم قُتل . ويقال إنه وَلَدُ رجل من موالى بنى أمية ..

ولما قُتل أبو ركوة نفذت الكتب إلى الأعمال كلها بخبر الفتح . فلما كان فى رجب ورد شيوخ كل ناحية وقُضاتُها ، وقضاة الشام وشيوخه ، لتهنئة الحاكم بالظفر وأخذ أبى ركوة . وقدم أبو الفتوح حسن بن جعفر الحسنى أمير مكة فى شعبان لتهنئته ، فخلع عليه وأكرمه ، وأنْزل بدار بَرْجَوان .

وفيه أرجف الناس بأن القائد فضل بن صالح ينظر فى أمور الدولة وتدبيرها بدل قائد القواد حسين بن جوهر ، وكان بينهما فى الباطن تباعدٌ من جهة الرُّتبة والحسد عليها : وكان القائد فضل قد تفاقم وعظُم تِيهُه وترفُّعه على قائد القواد فى قوله وفعله : قال المسبحى : قال لى الحاكم بأمر الله وقد جرى حديث أبى ركوة : ماأردت قتله ولكن جرى فى أمره

---

(١) كان بالقاهرة شيخ يقال له الأبزارى إذا خرج خارجى صنع له طرطورا وعمل فيه ألوان الخرق المصبوغة ، وأخذ قردا وجعل فى يده درة يعلمه أن يضرب بها الخارجى من ورائه ، ويعطى فى سبيل ذلك مائة دينار وعشر قطع ثياب . وقد اشترك هذا الأبزارى مع قرده فى موكب التشهير بأبى ركوة . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢١٦ . ويذكر صاحب النجوم الزاهرة فى موته أن الحاكم أمر به أن يحمل إلى ظاهر القاهرة ويضرب عنقه على تل بإزاء مسجد ريدان ، فحمل إلى هناك ، ولما أنزل فإذا به ميت فقطع رأسه وحمل إلى الحاكم فأمر بصلب جسده . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢١٧ .

(٢) الشهلة فى العين أن يشوب سوادها زرقة .

(٣) الصهبة والصهوبة احرار الشعر .

ما لم يكن عن اختيارى ، فقلت له : ياأمير المؤمنين ، ما قصّر عبدك الفضل بن صالح فى خدمته ، قال : وإيش تظن أن فضل أخذ ؟ قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، هذا قول الناس . فقال : والله العظيم ما أفلح فضل فى حركته تلك ، ولا أنجح ميزاننا . أنفقنا ألف ألف دينار ذهبا صناعا ، وإنما أخذه ملك النوبة وأنفذ به إلىّ . فقلت صدقت يا أمير المؤمنين وعلمت أن هذا مما قرّر قائدُ القُوّاد الحسين بن جوهر فى نفسه ليبطل فعل فضْلٍ وخدمته، فاستقر .

وأما خبر القاهرة فإنه جرى الأمر فى يوم عاشوراء على العادة من تعطيل الأسواق وخروج المنشدين والنّاحة إلى جامع القاهرة[1]، فتظاهروا فيه بسبّ السّلف ، فقُبض على رجل ونودى عليه : هذا جزاء من سب عائشة وزوجها ، وضربت عنقه . وتقدّم الأمر إلى أصحاب الشرطة ألا يتعرّض أحد لِسَبِّ السّلف ، ومن فعل ذلك قُبض عليه ، فانكَفّ الرعاع عن السبّ والتعرّض للحاجّ .

وللنصف من صفر وردت قافلة الحاج .

وفى نصف ربيع الأول جمع الحاكم نحو ألفى باقة نرجس وأتحف بها الأولياء .

واستهل رجب بيوم الأربعاء ، فخرج أمر الحاكم إلى أصحاب الدواوين بأن يؤرخوه بيوم الثلاثاء .

وفيه هبّت ريح عاصفة ، ثم أرعدت ونزل المطر وفيه بَرَدٌ كهيئة الصفائح إذا سقط إلى الأرض تكسر ، فكان فيه ما يبلغ وزنه زيادة على أوقيتين ، وفيه ما هو قدرُ البيضة ، فغطى الأرض ، وأقام الناس أياما يتبعونه فى الأسواق . ولم يُعْهَد [٦١ ب] مثلُ ذلك بمصر .

---

(١) فى مناسبة ذكرى استشهاد الحسين ، رضى الله عنه ، وكان هذا الاحتفال الحزين يقام فى العراق أيضا على أيام بنى بويه .

وجرى الرسم فى شهر رمضان كل ليلة على العادة ، وصلى الحاكم فيه بالناس صلاة الجمعة وخطب ثلاث مرات . وصلى يوم عيد الفطر بالناس وخطب بالمصلّى على عادته .

وللنصف من ذى القعدة [1] سارت قافلة الحاج بكسوة الكعبة وصِلَات الأشراف وغيرها على [ماجرى به الرسم] [2] .

وفتح الخليج فى السابع والعشرين من مسرى [3] والماء على خمس عشرة ذراعاً وأصابع ، فلم يركب الحاكم لفتحه ؛ ولم يُوفِ ست عشرة ذراعاً إلى ثامن توت ؛ فخلع على ابن أبى الردّاد ، وحُمِل .

واجتمع الناس الذين جرت عادتهم بحضور القصر لسماع ما يُقرأ من كتب مجالس الدعوة ، فضُربوا بأجمعهم ، ولم يُقْرأ عليهم شىء .

وفيها رحل بَنُو قُرّة من البحيرة بأرض مصر إلى ناحية من عمل برقة مع كبيرهم مختار بن قاسم .

---

(١) كان الحاكم بأمر الله قد أصدر مرسوما فى سنة ٣٩٤ بأن يسير الحاج أول ذى القعدة بعد أن كانت العادة قد جرت بخروجه فى منتصفه ، وبهذا خرج الحاج هذه السنة فى الموعد القديم .

(٢) زيد مابين الحاصرتين استعانة بما ورد فى السنوات السابقة فى مثل هذه المناسبة وفى الأصل فراغ صغير بعد كلمة « على » .

(٣) ويوافق اليوم الثانى والعشرين من ذى القعدة . وكانت الشئون الزراعية تخضع لتوقيت السنة القبطية ، وهى ثلثمائة وستون يوما ، ومعها النسىء خمسة أيام وربع يوم تحل بعد انقضاء شهر مسرى ، وفى كل أربع سنين تكون النسىء ستة أيام وتسمى عندئذ الكبيس . قوانين الدواوين : ٣٥٨ .

سنة سبع وتسعين وثلثمائة [1] :

فى شهر ربيع الأول تزايد أمر الدراهم القطع المتزايدة ، فبلغت أربعة وثلاثين درهما بدينار ؛ ونزع السعر واضطربت أمور الناس . فرُفِعت هذه الدراهم ، وأُنْزل من بيت المال بعشرين صندوقا فيها الدراهم الجدُد لتفرّق على الصَّيارِفة . وقرئ سجلٌ برفع تلك الدراهم والمنع من المعاملة بها ، وأُنظِر مَنْ فى يده منها شئ ثلاثة أيام ، وأُمِر الناس بحمل ما كان منها إلى دار الضرب ؛ فقلق الناس ، وبلغ كل درهم من الجدد أربعة دراهم من القطع. وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم، فنودى أن يكون الخبز كل اثنى عشر رطلا بدرهم جديد، واللحم رطلين بدرهم ؛ وسُعِّر أكثر الأشياء ؛ واستقرّ كلُّ دينار بثمانين درهماً من الجدد . وسكن أمر الناس بعد ما ضُرب كثير من الباعة بالسّياط وشُهِّروا . وقُبِض على جماعة من أصحاب الفُقّاع والسَّمّاكين ، وكُبِست الحَمّامات ، وضُرب جماعةٌ لمخالفتهم ما نُهوا عنه وشُهِّروا .

وفى تاسع ربيع الآخر أمر الحاكم بِمَحْوِ ما هو مكتوبٌ على المساجد والأبواب وغيرها من سبّ السّلف ، فمُحِى بأسره ، وطاف متولىّ الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه .

وقُرِئ سجل بترك الخوض فيما لا يعنى ، واشتغال كل أحد بمعيشته عن الخوض فى أعمال أمير المؤمنين وأوامره .

وجرى الأمر فى الفطر على السّماط لياليَ رمضان ، وفى صلاة الحاكم بالناس يوم الجمعة على ما تقدّم .

(1) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٠٦ .

وركب الحاكم لفتح الخليج فى ذى القعدة والماءُ على أربعة عشر ذراعا وأصابع ، وهو تاسع توت ، فانتهى بعد فتح الخليج ماءُ النيل إلى ستة عشر أصبعا من خمسة عشر ذراعا ، ثم نقص ، فتحرك السعر وازدحم الناس على شراء الغلال وابتدأت الشدة .

وفيها مات يعقوب بن نَسْطَاس النّصرانى ، طبيب الحاكم ، سكران فى بركة ماء ، فحُمل إلى الكنيسة فى تابوت ، وشُقّ به البلد ، ثم أعيد إلى داره فدفن بها ، وسائر أهل الدولة فى جنازته ومعه شموع كثيرة تَتَّقِدُ ، ومداخن عدّة فيها بخور . وكان طبيب وقته ، عارفا بالطب ، آية فى الحفظ ، ما يُغَنّى له قط صوت إلا حفظه . ولو غنّاه مائةُ مغنٍّ فى مجلس واحد لَحَفِظَ سائر ما غنّوه به وتكلم على ألحانها وأشعارها . وكانت له يدٌ فى الْمُوسِيقَا ، وانفرد بخدمة الحاكم فى الطِّبِّ فأثرى ، وترك زيادة على عشرين ألف دينار عينا ، سوى الثياب وغيرها .

وتوفى الأمير مَنْجُوتكين لأربع خلون من ذى الحجة ، فصلى عليه الحاكم .

سنة ثمان وتسعين وثلثمائة [1] :

فى المحرم ابتدأ نقص ماء النيل من ثامن عشر توت ، فاشتدَّ الأمْرُ ، وبيع الخبز مبلولا ؛ وضُرب جماعة من الخَبَّازين وشُهِّرُوا لتعذُّر وجود الخبز بالعشايا .

ووصل الحاجّ لثمان بقين من صفر .

وفى ربيع الأول خلع على علىّ [بن جعفر] بن فلاح بولاية دمشق حربا وخراجا[2] .

واشتد الغلاء . فلما كان ليلةُ عيد الشعانين[3] مُنِع النّصارى من تزيين كنائسهم على ما هِيَ عادتُهم ، وقبض على جماعة منهم فى رجب ، وأمر باحضار ما هو معلَّقٌ على الكنائس وإثباته فى دواوين السلطان ، وكُتب إلى سائر الأعمال بذلك . وأُحرِق صلبان كثيرة على باب الجامع وفى الشرطة .

وفى يوم الجمعة سادس عشر رجب وَلِي مالك بن سعيد الفارقى القضاء وخُلِع عليه فى بيت المال قميص مُصْمت وعمامة[٦٢ ا] مذهبة وطيلسان محشى مذهب ، وقُلد بسيف . وقرأ سجله أحمد بن عبد السميع وهو قائم ، فخرج وبين يديه سفط ثياب ، وحُمل على بغلة وبين يديه بغلتان . وكان مالك بن سعيد لما قُرِئ سِجلُّه قائماً على قدميه ، وكلما مرّ ذكر

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من سبتمبر سنة ١٠٠٧ .

(٢) بعد عزل أبى صالح مفلح المحيانى الذى كان يعاونه فى شئون الخراج والمال الكاتب النصرانى منصور بن عبدون . ذيل تاريخ دمشق : ٦٢ - ٦٦ .

(٣) عيد الشعانين هو عيد الزيتونة ، ومعنى الشعانين : التسبيح ، ويكون فى سابع أحد من صومهم . وسنتهم فيه أن يخرجوا سعف النخل من الكنيسة ، ويرون أنه يوم ركوب المسيح العنو (الحمار) فى القدس ودخوله إلى صهيون وهو راكب والناس بين يديه يسبحون وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان هذا العيد من المواسم التى تزين فيها كنائس النصارى بمصر . وفى رجب سنة ٣٩٨ ، هذه ، منع الحاكم الاحتفال به وقبض على عدد ممن وجدهم يحملون الخوص . الخطط : ١ : ٢٦٤ .

أمير المؤمنين قبّل الأرض. ثم سار من القصر إلى الجامع العتيق ، وكلما مرّ بباب من أبواب القصر نزل عن بغلته وقبّل الباب. فلما وصل إلى الجامع وقف خلف المنبر قائما حتى انتهت قراءة السجلّ ، وقبّل الأرض كلما ذكر أمير المؤمنين . ثم عاد إلى داره بالقاهرة وتسلم كتب الدّعوة التي تُقْرأ بالقصر على الأولياء.[١]

وفى يوم الجمعة سابع شعبان اجتمع أهل الدولة فى القصر بعد ماطُلِبوا لذلك، وأُمِروا ألايُقام لأحد ، فخرج خادم وأسرّ إلى صاحب السِّتر كلاما ، فصاح : صالح بن علىّ ؛ فقام صالح بن علىّ الرّوزبارى ، فأخذ بيده ولا يعلم أحد ما يُراد به . فأُدخل إلى بيت المال ، ثم خرج وعليه دُرّاعة مصمتة وعمامة مذهبة ، ومعه مسعود صاحب الستر ، فجلس بحضرة قائد القواد ، وأخرج سجلاً قرأه ابن عبد السميع ، فإذا فيه رَدُّ سائر الأمور التى ينظر فيها قائد القوّاد حسين بن جوهر إليه . فعندما سمع فى السجل صالحٌ ذِكرَه قام وقَبّل الأرض . ولما انتهى ابن عبد السميع من القراءة قام قائد القواد وقبل خدّ صالح وهنأه وانصرف . فخرج صالح وبين يديه عدة أسفاط وثلاث بغلات بسروجها ولُجُمها . قال المسبّحى : قال لى الحاكم بأمر الله ، أحْضَرتُ ابن سُورين وحلفته على الإنجيل أن يكتب سجِلّ صالح بن علىّ ولا يُطْلِع عليه أحدا من ابن جوهر ولا غيره ، وقلت له إنك تعرف ما أُجازى به من يخالف أمرى فكُنْ منه على يقين . فوالله ما اطلع عليه أحد غيرى وغيره ، حتى كان .

وجلس صالح فى مجلس قائد القواد من القصر ، ووقّع عن الحاكم : ورفع إليه الأولياء وسائر المتصرّفين قصصهم وأحوالهم ؛ ونفّذ أوامر الحاكم ، وطالعه بما تجب مطالعته به . وقلّد ديوان الشام ، الذى كان يتولاه ، لأبى عبد الله الموصلى الكاتب . وخلع على الشريف

---

(١) راجع : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، للتعرف على طبيعة هذه الدعوة ورسومها ومجالسها وكذلك : الخطط للمقريزى ، الذى يفصل الحديث عنها ويطيله .

أبى الحسن على بن إبراهيم النرسى لنقابة الطالبيين وحُمل على فرسين ، وقرئ سجله فى القصر والجامع .

وخلع على صقر اليهودى وحمل على بغلة ، وقِيدَ إليه ثلاث بغلات بسروج ولُجُم ثقال وحُمِل معه عشرون سفط ثياب ، وأُنْزل فى دار فُرشت وزُينت ، وعُلق على أبوابها وحجرها الستور ، وأعطِى فيها جميع ما يحتاج إليه ، وقيل له هذه دارك ؛ فحصل له فى ساعة واحدة ماقيمته عشرة آلاف دينار . واستقر طبيب الحاكم عوضا عن ابن نسطاس.

وورد الخبر بأن ابن الجراح فرّ بعد قتل جماعة من أصحابه . وخلع على يَارُوخ وسار إلى دمشق وتبعه عسكر كثير .

واستهل رمضان ، فحضر الأسماط مع الحاكم القائد صالح قائد القواد[1]، والقاضى مالك بن سعيد ، وجلس فوق القاضى عبد العزيز بنْ النعمان . وقد صلىّ الحاكم بالناس صلاة الجمعة فى جامع راشدة ؛ وصلى صلاة عيد الفطر وخطب على ما جرت عادته به ، وأصعد معه المنبر وقت الخطبة قائد القواد صالح بن علىّ ومالك بن سعيد القاضى والشريف النرسى وجماعة .

وفى ثالث شوال أمر الحاكم قائد القواد [السابق][2] حسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز بن النعمان بأن يلزما داريهما[3]، ومُنعا من الركوب وسائر أولادهما ، فلبسوا الصوف وامتنع الداخل إليهم ، وجلسوا على الحصر .

وفى ذى القعدة ولى غالب بن مالك الشرطتين والحسبة والنظر فى البلد ، وقرئ سجله بالجامع العتيق وجامع ابن طولون ، وصرف خود ومسعود .

---

(١) فى الأصل : وقائد القواد ، وهو خطأ لأن صالحا هو نفسه قائد القواد وقد سبق ذكر ذلك فى الأسطر القليلة السابقة ، وسيرد كذلك بعد أسطر .

(٢) زيد مابين الحاصرتين للتوضيح .

(٣) فى الأصل : دورهما . ولعل هذا يشبه عقوبة تحديد الإقامة التى تتبع فى الدول الحديثة فى أيامنا هذه .

وفى ثالث عشرهِ سارت قافلة الحاج .

وفى تاسع عشرهِ عفا الحاكم عن قائد القواد والقاضى عبد العزيز ، وأذن لهما فى الركوب فركبا إلى القصر بزيهما من غير حلق شعر ولا تغيير حال .

وتوقفت زيادة النيل ؛ فاستسقى الناس ، وخرجوا ومعهم النساء والصبيان مرتين .

وقرئ سجلٌ بإبطال المكوس والمؤن التى تؤخذ [٦٢ ب] من المسافرين عن الغلال والأرز .

وصلَّى الحاكم صلاة عيد النحر ، وخطب ونحر فى المصلى والملعب على عادته ورَسْمِه

وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم . وتعذّر وجوده. وجرى الرسم فى عيد الغدير على عادته . واشتد تكالُبُ النَّاس على الخبز ، فاجتمعوا وضَجُّوا من قلَّته وسواده ؛ ورفعوا للحاكم قصة مع رغيفة ، وكانت الحملة الدقيق[١] قدبلغت ستة دنانير .

وفتح الخليج فى رابع توت والماء علىخمسة عشر ذراعا ، فبلغ التلّيس[٢]أربعة دنانير والويبة من الأُرز بدينار ، واللّحم كلّ رطلين بدرهم ، ولحم البقر رطلين ونصفا بدرهم ، والبصل عشرة أرطال بدرهم والخبز ثمان أواق بدرهم ، وزيت الوقود الرطل بدرهم .

وفيها خرج النصارى من مصر إلى القدس لحضور الفصح بقُمامة[٣]على عادتهم فى كل

---

(١) الحملة من الدقيق توازى ثلثمائة رطل مصرى ، والرطل يساوى اثنى عشرة أوقية زنة كل منها اثنا عشر درهما . قوانين الدواوين : ٣٦٥ ، ٤٥٥ .

(٢) التليس يزن مائة وخمسين رطلا ، أو نصف حملة . قوانين الدواوين ٣٦٥ .

(٣) المقصود بها كنيسة القيامة بالقدس ، وقد أمر الحاكم بهدمها فى هذه السنة فكتب بذلك أمر فيه « فليصر طولها عرضا وسقفها أرضا » نهاية الأرب .

وأصل تسميتها بالقمامة تاريخى يرجع إلى أن القبر المقدس بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج سور بيت المقدس ، وهو الموضع الذى يزعم أن المسيح صلب فيه . معجم البلدان : ٧ : ١٥٨ — ١٥٩ .

سنة بتجمّل عظيم كما يخرج المسلمون إلى الحج ، فسأل الحاكم ختكين الضيف العضدى[1] ، أحد قوّاده ، عن ذلك لمعرفته بأمر قمامة ، فقال هذه بيعة تعظمها النصارى ويُحجّ إليها من جميع البلاد ، وتأتيها الملوك ، وتُحمل إليها الأموال العظيمة ، والثياب والسُّتور والفُرُش والقناديل ، والصلبان المصوغة من الذهب والفضة ، والأوانى من ذلك ؛ وبها من ذلك شئ عظيم . فإذا كان يومُ الفصْح واجتمع النصارى بقُمَامة ، ونُصِبت الصُّلبان ، وعُلِّقَت القناديل فى المذبح ، تحيَّلوا فى إيصال النّار إليه بدهن البيلسان مع دهن الزئبق ، فيحدث له ضياء ساطع يظن من يراه أنها نار نزلت من السماء . فأنكر الحاكم ذلك ، وتقدّم إلى بِشْر بن سُورين كاتب الإنشاء ، فكتب إلى أحمد بن يعقوب الدّاعى أن يقصد القدس ويهدم قُمامة ويُنْهِبَهَا الناس حتى يعفى أثرها . ففعل ذلك . ثم أمر بهدم ما فى أعمال مملكته من البيع والكنائس ، فخُوِّف أن تهدم النصارى ما فى بلادها من مساجد المسلمين فأمسك عن ذلك[2] .

(١) وكان قد عزل عن دمشق سنة ٣٩٦ بعد أن فشل فى تنفيذ سياسة توفير الأموال بإنقاص مرتبات الأجناد . انظر ذيل تاريخ دمشق : ٥٧ – ٥٨ .

(٢) جاء فى نهاية الأرب : « وفيها فى تاسع عشر ذى الحجة أمر الحاكم بهدم كنائس القنطرة التى فى طريق المكس وكنائس حارة الروم ، فهدم جميع ذلك » .

سنة تسع وتسعين وثلثمائة [1] :

فى ثالث المحرم نظر أبو نصر بن عبدون الكاتب النصرانى فى ديوان الخراج بانفراده من غير شريك .

وفى تاسعه ، وهو نصف توت ، أُشيع وفاء النيل ، وخُلع على ابن أبى الردّاد[2] ،فابتدأ فى النقص قبل أن يوفى ستة عشر ذراعا من تاسع عشر توت ؛ فأُمر الناس كافّةً بألا يتظاهر أحد منهم على شاطئ النيل بشى من الغناء ، ولا يسمع فى دار ولا يشرب فى المراكب . وكبست عدّةٌ دور ، وقُبض على جماعة .

وقدم الحاجّ فى حادى عشرى صفر .

ونودى ألا يدخل أحد الحمام إلا بمِئْزر ، ولا يمشى اليهود والنصارى إلا بالغيار ، وضربوا على ترك ذلك . وكبست الحمامات وأُخذ منها جماعة وشُهّروا من أجل أنهم وُجدوا بغير مِئزر .

ومُنع أن يدخل أحد إلى سوق الرقيق إلا أن يكون بائعا أو مشتريا ؛ وأُفرد الجوارى من الغلمان ، وجعل لكل منهم يوم .

ومنع من نصب الشّراعات التى كانت النساء تنصبها فى المقابر أيام الزيارة . وأشيع بين الناس بأن النبيذ يُمنع من بيعه ، فازدحموا على شرائه ، وبيع منه شئٌ كثير ، فعزّ حتى بيع كل عشر جِرارٍ بدينار ، ولم يوجد لكثرة طلابه .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من سبتمبر سنة ١٠٠٨ .

(٢) المشرف على مقياس النيل ؛ وكان هذا الإشراف فى أسرته من أيام بكار بن قتيبة قاضى المتوكل الذى تلقى كتابا من الخليفة يأمره ألا يتولى أمر المقياس إلا مسلم يختاره ، فاختار أبا الرداد عبد الله بن عبد السلام المؤدب وأجرى عليه الرزق سنة سبع وأربعين وتوارثه أولاده . قوانين الدواوين : ٧٥ — ٧٦ .

ومنع كلّ أحد من الناس أن يخرج من منزله قبل صلاة الصبح وبعد صلاة العشاء(١)، واشتد الأمر فى هذا ، واعتُقل جماعة خالفوا ما أمر به .

وقرئ سجل بترك الخَوْض فيما لا يعنى ، والاشتغال بالصّلوات فى أوقاتها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وألا يخوض أحد فى أحوال السلطان وأوامره وأسرار الملك .

وقرئ سجل فى ربيع الأول بالمنع من حمل النبيذ والموز، وحذّر من التظاهر بشئ منه أو من الفقاع ، والدّلينس ، والسمك الذى لا قشر له ، والتّرمس المعفّن .

وقرئ آخر فى سائر الجوامع بتسكين قلوب الناس وتطمينهم ، لكثرة ما اشتُهر عندهم وداخَلهم من الخوف بما يجرى من أوامر الحضرة فى البلد .

وفى حادى عشر جمادى الآخرة قبض على عبد العزيز بن النعمان ؛ وطُلب حسين بن جوهر ففرّ هو وابْنَاهُ [٦٣ ا] وجماعة . وكثر الصّياح فى دار عبد العزيز ؛ وغلّقت حوانيت القاهرة وأسواقها . فأُفرج عن عبد العزيز ونُودى فى القاهرة بألا يغلق أحد . ثم رُدّ حسين بعد ثلاثة أيام بابنيه ، وصاروا إلى الحاكم فأمرهم بالانصراف إلى دورهم ؛ وخُلع عليه وعلى عبد العزيز وعلى أولادهما ، وكُتب لهما أمانان .

وفى رجب كثرت الأمراض فى الناس ، وفشا الموت . وتخوّف الناس من الحاكم فكتب عدة أمانات لأناس شتى . وأقطع مالك بن سعيد ناحية برنشت(٢) .

---

(١) ما أشبه هذا بما يحدث فى أيامنا هذه حين يصدر قرار بمنع التجول فى الدول العصرية فى أوقات الفتن . وقد سبق إلى مثل هذه الخطوة زياد بن أبيه ، ابن أبى سفيان ، فى العراق ، إذ قال فى خطبته البتراء : « فإياى ودلج الليل فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . . . » وقد أتى برجل ظهر أنه خالف قرار منع التجول ، فاعتذر بأنه لم يعلم به لتغيبه بالصحراء فى طلب ناقة له ضلت ، فقال زياد : « والله إنى لا أظنك إلا صادقا ولكن فى قتلك صلاحا للأمة » . وأمر بقتله .

(٢) برنشت بفتح الباء والنون ، من أعمال الجيزية . قوانين الدواوين : ١١٧ .

وفى شعبان تراخت الأسعار .

وفى رمضان قرئ سجل فيه «يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون[١] ، ولايُعارض أهلُ الرؤية فيما هم عليه صائمون ، ويفطرون ؛ وصلاة الخمسين للذين بما جاءهم فيها يصلون وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولاَهُم عنها يُدفعون[٢] ؛ ويخمّس فى التكبير على الجنائز المخمّسون ، ولا يمنع من التربيع عليها المربّعون ؛ يؤذّن بحىّ على خير العمل المؤذّنون ، ولا يُؤْذَى من بها لا يؤذّنون ؛ لا يُسَبُّ أحدٌ من السّلف ، ولا يُحتسب على الواصف فيهم بما يصف ، والحالف منهم بما حلف ؛ لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاد» .

وفيه ركب سائر العرائف والأولياء وأكثر أهل البلد إلى القصر وقد عظمت الزّحمة ، واصطفت العساكر حول القصر بالسّلاح ، ولم يَعْرِف أحد ما هذا الاجتماع ؛ فخرج صالح ابن على بالخلع على فرس بسرج ولجام ذهب ، وبين يديه فرسان وسفط ثياب ، وسجلّ يتضمن أنه لقب بثقة ثقات السيف والقلم .

وأعيد عبد العزيز بن النعمان إلى النظر فى المظالم .

وتزايدت الأمراض وكثر موت الناس ، وعزّت الأدوية ؛ فبلغ السُكّر أربعة دراهم للرطل ، وبذر الرمان كل أوقية بدرهم ، ودهن البنفسج كل أوقية بدينار ، والعناب والإجّاص كل أوقيتين بدرهم وباقة لينوفر بدينار ، والبطيخة بثلاثة دنانير .

---

(١) لايقيد الفاطميون أتباعهم عند الصيام والفطر برؤية الهلال وإنما يحكمون الحساب وحده أو الحساب مع الرؤية ، ويقولون الرؤية والحساب كالظاهر والباطن ، فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد والحساب كالباطن لأنه معقول . ونرى هذا أيضا فى كثير من المناسبات حين يشاهد هلال شهر ما فيصدر قرار من القصر الفاطمى ببدء الشهر فى يوم آخر ، سابق أو لاحق ، وسنجد أمثلة لهذا فى خلال هذا الكتاب .

(٢) بهامش الأصل عبارة نصها : « وبخطه : صلاة التراويح أقامها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأمر الناس بها فى شهر رمضان سنة أربع عشرة بمجمع من الصحابة ، فأم الناس أبى بن كعب بالمدينة وكتب عمر إلى الأمصار بإقامة التراويح . واستمر الصحابة بعده يقيمونها ، وكان على رضى الله عنه إذا مر ليالى رمضان فرأى القناديل تزهر وسمع القرآن يقرأ قال : نور الله قبر من نورعلينا مساجدنا . وصليت عشرين ركعة لأنهم وزعوا القرآن عليها ليكون الختم فى آخر الشهر» .

ولم يركب الحاكم لصلاة عيد الفطر وصلى القاضى مالك بن سعيد بالناس فى المصلّ وخطب .

وفى ذى القعدة أعيدت المكوس التى كانت رفعت .

وسارت قافلة الحاجّ فى النصف منه .

وحمل سماط عيد النحر يوم التاسع من ذى الحجة على عادته ، غير أنه أبطل منه الملاهى والخيال واللعب الذى كان يعمل فى كل سنة .

وصلى القاضى بالناس صلاة عيد النحر وخطب .

وفى يوم عيد الغدير[1] منع الناس من عمله . ودرست كنائس كانت بطريق المكس وكنيسة بحارة الرُّوم من القاهرة ونُهب ما فيها . وقتل فى هذه الليلة كثير من الخدم والصَّقالبة والكُتَّاب بعد أن قُطعت أيديهم بالساطور على خشبة من وسط الذراع .

وفيها مات أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المنجم لثلاث خلون من جمادى الأُولى[2]، وقتل القائد فضل بن صالح ، ضُربت رقبته لِتِسْع بقين من ذى القعدة .

---

(١) يقول المقريزى إنه لم يكن عيدا مشروعا ولاعمله أحد من سلف الأمة ، وأول ماعرف بالإسلام فى العراق أيام معز الدولة على بن بويه سنة ٣٥٢ فاتخذه الشيعة من بعده عيدا لهم استنادا إلى حديث رواه البراء بن عازب ، رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى سفر عند غدير خم « إذ صلى عليه السلام ثم أخذ بيد على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه . قالوا : بلى . قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه . قال البراء : فلقيه عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فقال : هنيئا لك ياابن أبى طالب ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة . الخطط : ١ : ٣٨٨ .

(٢) هو أبو الحسن على بن أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى المنجم ، صاحب الزيج الحاكمى المعروف بزيج ابن يونس . يقول ابن خلكان إنه رآه فى أربع مجلدات . ويروى ابن خلكان عن غيره أن ابن يونس كان أبله مغفلا يعتم على طرطور طويل ويجعل رداءه فوق العمامة، رث الثياب . ويذكر أنه مع هذا كان له إصابة بديعة غريبة فى النجامة لايشاركه فيها غيره، وكان أحد الشهود، وكان متفننا فى علوم كثيرة ، يضرب بالعود، وله شعر حسن . وفيات الأعيان : ١ : ٤٧٤ - ٤٧٥ .

وقتل أبو أسامة جنادة أسامة بن محمد اللغوى[١] لثلاث عشرة خَلت من ذى الحجة ، ومعه الحسن بن سليمان الأنطاكى النحوى ، واستتر عبد الغنى بن سعيد ، وكان ذلك بسبب اجتماعهم بدار العلم وجلوسهم فيها .

وقتل رجاءُ بن أبى الحسين من أجل أنه صلىّ صلاة التراويح فى شهر رمضان .

وقُتِل أصحابُ الأخبار عن آخرهم لكثرة أذيتِهم الناسَ بالكذب عليهم وأخذهم الأموال من الناس .

وفيها قتل أبو على بن ثمال الخفاجى متولى الرحبة[٢] من قبل الحاكم ، وملكها بعده صالح بن مرداس الكلابى متملك حلب[٣] .

---

(١) هكذا فى الأصل ولم أهتد إلى التعريف به فيما لدى من مراجع ولعل صحة العبارة : وقتل أبو أسامة جنادة بن أسامة . . . الخ .

(٢) المقصود بها رحبة مالك بن طوق صاحبها أيام هارون الرشيد ، وهى على خمسة أيام من حلب وثمانية أيام من دمشق . معجم البلدان : ٤ : ١٣٦ - ١٣٨ .

(٣) أسد الدولة أبو على ، من بنى كلاب ، رأس الأسرة المرداسية التى حكمت حلب بين سنتى ٤١٤ - ٤٧٢ (١٠٢٣ - ١٠٧٩) بعد نزاع استمر فترة مع الفاطميين . معجم الأنساب لزامباور .

سنة أربعمائة[1] :

فى حادى عشر صفر صُرِف أبو الفضل صالح بن على الروزبارى ثقة ثقات السيف والقلم ، وقُرِّر مكانه أبو نصر بن عبدون الكاتب النصرانى ؛ فوقَّع من الحاكم فيما كان يوقِّع فيه صالح ، ونظر فيما كان ينظر فيه ، وأُذِن لصالح فى الركوب إلى القصر .

وسار ابن عبدون فى الموكب مع الشيوخ فى المنتهى وقال مِثلى لا يساير أمير المؤمنين بأعلى من ذلك .

وكتب من إنشاء ابن سُورين [٦٣ ب] لخدم قُمَامة بالقدس .

وأحدث الحاكم ديوانا سماه الديوان المفرد برسم من يقبض ماله من المقتولين وغيرهم .

ووصل الحاجّ فى حادى عشر منه .

وفى ربيع الأول كثرت الأمراض والموت ، وعزت الأدوية المطلوبة للمرضى .

وشُهِّر جماعة وُجد عندهم فقاع وملوخية وترمس ودلينس بعد ضربهم .

وهُدم دير القصير[2] ونهب .

ولُقب ابن عبدون بالقاضى ، وكتب له سجلّ بذلك ، وحُمل على بغلتين .

واشتدّ الأمرُ على اليهود والنصارى فى إلزامهم لبس الغيار .

وُردّ إقطاع حسين بن جوهر إليه وإلى أولاده وصهره عبد العزيز بن النعمان ، وقُرِئ لهم بذلك سجلّ .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من أغسطس سنة ١٠٠٩ .

(٢) دير القصير ، ضد الطويل ، ويسمى دير بخنس القصير ، ودير البغل ، ودير هرقل . فوق جبل المقطم على سطح قلته مطل على الصحراء والنيل ، مقابل قرية المعصرة . الخطط : ٢ : ٥٠٢ ، ٥٠٩ .

وصلّى القاضى بالناس صلاة عيد الفطر على الرسم .

وقرئ سجل بإبطال ما كان يوخذ على أيدى القضاة من الخمس والفطرة والنجوى .

فى تاسع ذى القعدة فرّ حُسين بن جوهر وأولاده وصهره عبد العزيز بن النعمان وأولاده بجماعة منهم فى أموال وسلاح ، وخرجوا ليلاً ، فلما أصبحوا سيّر الحاكم خيلا فى طلبهم نحو وجرة فلم يدركوهم . وأحيط بدورهم ، فأُخذت للديوان المفرد . وفرّ أبو القاسم الحسين بن المغربى[1] فى زىّ حَمَّالٍ إلى حسّان بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح .

وفيه قرئ عدّة أمانات بالقصر للكتاميين من جند إفريقية ، والأتراك ، والقضاة ، والشهود ، وسائر الأولياء والأمناء ، والرعية ، والكتاب ، والأطباء ، والخدام السود ، والخدام الصقالبة ؛ لكل طائفة أمان .

وحُمِل سائرُ مافى دُورِ حُسين بن جَوهر وعبد العزيز بن النعمان إلى القصر بعد أن احصاه القاضى مالك بن سعيد وضبطه .

وقرئ سجلٌ بقطع مجالس الحكمة التى كانت تُقرأ على الأولياء فى يومى الخميس والجمعة .

وقرئ سجلٌ فى الجامع العتيق بإقبال الناس على شأنهم وتركهم الخوض فيما لا يعنيهم وسجلّ آخر بردّ التثويب فى الأذان ، والإذن للناس فى صلاة الضُّحَى وصلاة القنوت . ثم جُمع فى سائر الجوامع وقرئ عليهِم سجلّ بأن يتركوا الأذان بِحىّ على خير العمل ، ويزاد فى أذان الفجر : الصلاة خير من النوم ، وأن يكون ذلك مِنْ موذِّنى القصر عند قولهم : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله ؛ فامتثل الناس وعُمل .

---

(١) واستجار بحسان بن الجراح فأجاره بعد أن استمع منه إلى قصيدة يمدحه بها ويؤكد فيها شهامته وكرمه مع المستجدين . وكان أبو القاسم عالما أديبا بليغا على ذكاء جم وبراعة فى الكتابة ، فأقام لدى ابن الجراح فترة ثم رحل إلى العراق على زمن القادر بالله ، وتولى الوزارة للأمير قرواش أمير بنى عقيل بالموصل . ودفن بالكوفة . ذيل تاريخ دمشق : ٦٢ : ٦٤ .

وسار محمد بن نزال بعسكر إلى الشام[١] .

وقرئ سجلّ مُندّد فيه بشرب النبيذ وجميع أنواع المسكر .

وصلّى الحاكم بالناس فى المصلّى صلاة عيد النحر ، وخطب ونحر ، وحضر السّماط على رسمه .

وقرئت عدة أمانات بالقصر .

وفيه سارت العساكر بعدة مواضع تطلب قائد القواد حسين بن جوهر وصهره عبد العزيز ، وشاع الخبر بأنه عند بنى قرة .

وقرئ سجلّ فى الجوامع بالرُّخصة فيما كان يُشدَّد فيه فى الجمعة الماضية من أمر النبيذ .

وقُتل فى هذه السنة عدّة كثيرة من الخدّام والفراشين والكتاب وغيرهم .

ومات أبو منصور بشر بن عبيد الله بن سُورين كاتب السجلات فى صفر . وتوفى صقر اليهودى ، طبيب الحاكم فى ربيع الآخر . وتوفى أبو عبد الله اليمنى المؤرخ ، وله تاريخ النحاة ، وسيرة جوهر القائد . وقُتل أبو الفضل صالح بن على الروزبارى ليلة الثانى عشر من شوال . وقُتل غالب بن هلال متولّى الشرطتين والحسبة فى شوال .

---

(١) والى عليها بعد عزل القائد حامد بن ملهم ، ولكنه لم يلبث أن عزل فى رمضان من نفس السنة (٤٠٠ هـ) . ذيل تاريخ دمشق : ٦٦ .

سنة احدى واربعمائة(١) :

فى رابع المحرم صُرف ابن عَبْدُون النَّصرانى ، وخُلع على أحمد بن محمد القُشورى الكاتب ، وقرئ سجله فى القصر بأنه تقلّد الوساطة والسِّفارة بين أولياء أمير المؤمنين الحاكم وبينه ، وأمْرَ الرّعايا ، وفُوّضت له الأُمور وعُوّل عليه فيها .

وكان سببُ صَرْفِ ابن عبدون عن الوساطة والسّفارة أنّ كُتُب الحاكم تكرّرت إلى قائد القواد حسين بن جوهر وإلى صهره عبد العزيز بن النعمان بأمانهم وعوْدِهم ، فأبى ابن جوهر أن يدخل وابن عبدون واسطة ، وقال : أنا أحسنت إليه أيام نظرى فسعى فىّ إلى أمير المؤمنين ونال منى كل مَنَال ؛ لا أعود أبدا وهو وزير . فصُرف لذلك ، وحضر حسين وعبد [١٦٤] العزيز ومن خرج معهما ، فنزل سائر أهل الدولة إلى لقائه ، وتلقّته الخلع ، وأفيضت عليه وعلى أولاده وصهره عبد العزيز ؛وقيد بين أيديهم الدواب . فعندما وصلوا إلى باب القاهرة ترجّلوا ومشَوْا ، ومشى معهم سائرُ الناس إلى القصر ؛ فمثلوا بحضرة الحاكم ، ثم خرجوا وقد عُفِى عنهم . وأُذِن للحسين أن يكاتَب بقائد القوّاد ، ويكون اسمه تالياً للقبه ، وأن يخاطب بذلك ؛ فانصرف إلى داره ؛ فكان يوما عظيما . وحُمل إليه جميعُ ما قبض له من مال وغيره ، وأنعم عليه . وواصل هو وعبد العزيز الركوب إلى القصر .

وكُتب لابن عبدون أمان خطّه الحاكم بيده ؛ وكان يقول عنه : ما خدمنى أحد ولا بلغ فى خدمته ما بلغه ابن عبدون . ولقد جمع لى من الأموال ما هو خارج فى أموال الدواوين ثلثمائة ألف دينار .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من أغسطس سنة ١٠١٠ .

وأقام ابن القشورى على رسمه ينظر عشرة أيام ، إلى ثالث عشرهِ ؛ فبينا هو يوقع إذ قُبض عليه وضربت رقبته من أجل أنه بلغ الحاكم عنه أنه يبالغ فى تعظيم حسين بن جوهر ، وأكثر من السؤال فى حوائجه .

وفى يومه أجلس أبو الخير بن زُرْعَة بن عيسى بن نَسْطُورس الكاتب النصرانى فى مكان ابن القشورى ؛ وأمر أن يوقِّع عن الحاكم فى أوامره ، فجلس ونظر فى الوساطة والسفارة بغير خِلَع . ومنع من الركوب فى المراكب بالخليج ؛ وسُدت أبواب القاهرة التى مما يلى الخليج ، وأبواب الدُّور والطاقات المطلَّة عليه والخُوَخ(١) .

وخُلع على قاضى القضاة مالك ، وقُلّد النظر فى المظالم مع القضاء ؛ وقرئ سجلُّه بالجامع .

وكُتِب سجلّ بإعادة مجالس الحكمة . وأُخذ النحوىّ(٢) . وشُدّد على النصارى فى لبس الغيار بالعمائم الشديدة السواد ، دون ما عداها من الألوان .

وفيه قُبِض على حسين بن جوهر وعبدالعزيز بن النعمان ، واعتُقِلا ثلاثة أيام ، ثم حلفا أنهما لا يغيبان عن الحضرة وأشهدا على أنفسهما بذلك ، وأفرج عنهما ؛ وحلف لهما الحاكم فى أمان كتبه لهما .

واعتُقل ابن عبدُون ، وأمر بعمل حسابه ؛ ثم ضُربت عنقه وقُبض مالُه .

---

(١) الخوخة بضم الخاء الأولى الكوة تؤدى الضوء إلى البيت ، ومخترق مابين كل دارين ماعليه باب . القاموس المحيط .

(٢) أبو ظاهر محمود بن محمد النحوى من أهل بغداد ، قدم إلى مصر وتعاون مع ابن العداس ضد فهد بن إبراهيم النصرانى حتى قتله الحاكم وولى ابن العداس مكانه فى النظر وولى النحوى الشام . ولم يلبثا أن صارا إلى ماصار إليه فهد . إذ دبر الحاكم قتل ابن النحوى بالرملة فضربت عنقه وأرسلت إلى مصر ثم ضربت عنق ابن العداس . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق : ٥٨ وما بعدها .

وفى سابع عشر صفر وصل الحاجّ من غير زيارة المدينة النبويّة ، فأُمر أن يكون مسير الحاج للنصف من شوّال[1] وأن يبدءوا بزيارة المدينة ؛ وكتب بذلك إلى سائر الأعمال .

وفى سابع ربيع الآخر خُلع على زُرْعَة بن عيسى بن نَسْطُورس ، وحُمِل ، وقرئ له سجلّ فى القصر لُقّب فيه بالشّافى .

وخلع على أبى القاسم على بن أحمد الزيدى ، وقرئ له سجلّ بنقابة الطالبيين[2] .

وقرئ سجلّ فى سائر الجوامع ، فيه النّهى عن مُعارضة الإمام فيما يفعله ، وترك الخوض فيما لا يعنى ؛ وأن يؤذّن بحىَّ على خير العمل ، ويُترك من أذان الصبح قولُ : الصلاةُ خير من النوم ؛ والمنع من صلاة الضحى وصلاة التراويح ؛ وإعادة الدعوة والمجلس على الرسم . فكان بين المنع من ذلك والإذن به خمسة أشهر .

وضرب جماعةٌ وشُهّروا لبيعهم الملوخية والسّمك الذى لا قشر له . وقبض على جماعة بسبب بيع النبيذ واعتقلوا ، وكُبست مواضع ذلك . ومنع النصارى من الغطاس فلم يتظاهروا على شاطئ البحر بما جرت عادتهم به .

وفى ثانى عشر جمادى الآخرة ركب حسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان على رسمهما إلى القصر ، فلما خرج المتسلم قيل لحسين وعبد العزيز و أبى على أخى الفضل ،

---

(١) كانت العادة قبل سنة ٣٩٤ أن يسير الحاج فى منتصف ذى القعدة ، فصدر مرسوم حاكمى فى سنة ٣٩٤ بأن يتقدم سيره إلى أول ذى القعدة ، وقد نفذ هذا سنتين ، فى سنة ٣٩٦ خرجت قافلة الحاج فى منتصف ذى القعدة ، ثم بعد ذلك حول هذا التاريخ ، حتى صدر مرسوم هذه السنة : ٤٠١ ، بأن تخرج القافلة منتصف شوال .

(٢) نقابة الطالبيين هيئة رسمية أنشأها الفاطميون للنظر فى شئون العلويين ، وكان يتولى رئاستها واحد من كبار شيوخهم وأجلهم قدرا ، يسهر على صحة الأنساب وإثباتها ورعاية مصالح العلويين وعود مرضاهم والسير فى جنائزهم . وعرفت هذه النقابة فيما بعد باسم نقابة الأشراف ، ولها نظير فى القسم الشرقى من البلاد الإسلامية ، فى ظل العباسيين . النجوم الزاهرة ؛ الحاكم بأمر الله لمحمد عبد الله عنان .

أطيعوا لأمر تريده الحضرة منكم . فجلس الثلاثة وانصرف الناس ، فقبض على ثلاثتهم وقُتلوا فى وقت واحد ، وأُحيط بأموالهم وضياعهم ودورهم ؛ فوجد لحسين بن جوهر فى جملة ما وجد سبعة آلاف مبطنة حريرا من سائر أنواع الديباج والعتّابى وغيره ، وتسع متارد صينى مملوءة حبّ كافور قنصورى وزن الحبة الواحدة ثلاثة مثاقيل . وأُخذت الأمانات والسجلات التى كتبت لهم . واستُدْعِىَ أولاد حسين وأولاد عبد العزيز ووُعِدُوا [٦٤ ب] بالجميل وخلع عليهم ، وحُملوا على دوابّ .

وفيه ذبحت نعجة فوجد فى بطنها حَمَل وجهه كوجه انسان .

وفى شعبان وقّع قاضى القضاةَ مالك إلى سائر الشهود بخروج الأمر العالى المعظم أن يكون الصوم يوم الجمعة والعيد يوم الأحد .

واشتد الأمر فى منع المسكرات ، وتتَبُّع مواضعها . وأُبطلت عدّة جهات من جهات المكوس والرسوم . ومُنع الغناء واللهو ، وأمر ألا تباع مغنية ؛ وألا يجتمع الناس فى الصحراء ومنع النساء من الحمام . وأن يكون الخروج للحجّ فى سابع شوّال .

وركب الحاكم لصلاة العيد على رسمه .

وفى ثانى شوال سار على [بن جعفر] بن فلاح بالعساكر لقتال حسّان بن علىّ بن مفرّج بن دغفل بن الجراح عند هزيمته يَارُوخ وقبضه عليه وعلى أصحابه بالرملة ؛ فقاتلهم فى ثالث عشره وقتل منهم وظهر عليهم ؛ وخلع طاعة الحاكم، وأقام الدعوة لأبى الفتوح حُسَين بن جعفر بن محمد بن الحسين بن محَمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الحسنى ، أمير مكة . وقتل يَارُوخ[1] .

---

(١) سبب خروج بنى الجراح أن ابن عبدون الكاتب النصرانى سعى ببنى المغربى عند الحاكم فقتل أخوى الوزير أبى القاسم وثلاثة من أهل بيته ولجأ الوزير إلى حسان بن المفرج بن دغفل بن الجراح ، ثم حسن له أن يخرج عن طاعة الحاكم ففعل هو وقومه وقتلوا عامل الحاكم على الرملة ، ودعوا للحسنى المذكور فى المتن ولقبوه الراشد بالله . فأرسل الحاكم إليهم جيشا بقيادة ياروخ المذكور الذى هزم بين رفح والداروم ، ونقل ياروخ إلى الرملة وقتل بها صبرا . فلجأ الحاكم إلى الدبلوماسية حتى نجح فى إصلاح الأمور . نهاية الأرب .

وفيه تأخر الحاجّ إلى نصف ذى القعدة ، فخرجوا فى سابع عشره ، ورجعوا فى ثالث عشريه من القلزم ؛ فلم يحجّ أحد من مصر فى هذه السنة .

وصلّى مالك بن سعيد بالناس صلاة عيد النحر ، وخطب ، ونحر فى المصَلّى والملعب مدة أيام النحر . ولم يركب الحاكم ولا نحر .

وفيها مات أبو الحسن على بن ابراهيم النرسى نقيب الطالبيّين فى رابع ربيع الآخر وقد أناف على السبعين .

وقتل فيها من الكتاب والرؤساء والخدام والعامة والنساء عدد كثير جدا ؛ قتلهم الحاكم .

وفيها خطب قَرْوَاش بن المقلّد بن المسيّب ، أمير بنى عقيل[1] ، للحاكم بالموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها ؛ فكان أول الخطبة : «الحمد لله الذى انْجلَت بنوره غمرات الغضب ، وانْهَدَّت بعظمته أركان النُّصب ، وأطلع بقدرته شمس الحق من المغرب » . ثم بطلت الخطبة بعد شهر وأعيدت لبنى العباس .

---

(١) قرواش بن مقلد بن المسيب العقيلى ثانى أمراء العقيليين الذين حكموا الموصل وما التحق بها بين سنتى ٣٨٦ – ٣٨٩ (٩٩٦ – ١٠٩٦) . ولقب قرواش بمعتمد الله ، أما أبوه مقلد ، أول أمراء هذه الأسرة ، فكان يلقب حسام الدولة . انظر : Mohammadan Dynasties . وقد أحضر قرواش الخطيب يوم الجمعة رابع المحرم وخلع عليه قباء دبيقيا وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين وقلده سيفا وأعطاه نسخة مايخطب به . وتجد نص الخطبة فى النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٢٥ – ٢٢٧ .

سنة اثنتين وأربعمائة[1] :

فى المحرّم قُلّدت الشرطتان لمحمد بن نزال ، وأُمِر بتتبّع المنكرات والمنع منها ، وألاّ يباع زبيب أكثر من خمسة أرطال ، ولا تباع الجرار . ومُنع النّصارى من الاجتماع فى عيد الصليب[2] ، وأن يظهروا فى المضِىّ إلى الكنائس .

وأوفى النيل ستّة عشر ذراعا فى رابع عشر صفر ، وهو سادس عشر توت .

وفى تاسع ربيع الآخر خُلع على غَيْن الخادم وقُلّد بسيف ، وقرئ سجلّه بأنّه لُقّب بقائد القواد فلْيُكاتَب بذلك ويكاتِب به ، وقِيدَ معه عشرةُ أفراس بسروجها ولُجُمها . وهلمت اللؤلؤة[3] .

وفى جمادى الآخرة مُنِع بيع قلِيل الزبيب وكثيره ، وكُوتِبَ بالمنع من حمْلِه ، وأُلقى فى النيل منه شئ كثير .

وفى رجب قُطع الرسم الجارى من الخبز والحلوى الذى كان يقام فى الثلاثة أشهر لمن يبيت بجامع القاهرة فى ليالى الجمع والأنصاف . وحضر القاضى مالك إلى جامع القاهرة فى ليلة النصف من رجب . واجتمع الناس بالقرافة[4] على عادتهم فى كثرة اللعب والمزاح .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من أغسطس سنة ١٠١١ .

(٢) ويحتفل به فى اليوم السابع عشر من شهر توت وكان من الأعياد المستحدثة، وسببه عندهم ظهور الصليب على يد هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين : الخطط : ١ : ٢٦٦ .

(٣) منظرة للفاطميين على الخليج كانت تعرف باسم قصر اللؤلؤة ، بالقرب من باب القنطرة ، وكانت من أبهى المبانى الفاطمية وأعظمها زخرفة كانت تشرف من شرقيها على البستان الكافورى ومن غربيها على الخليج الذى لم يكن فيه من المبانى شئ ، فكان الجالس فى المنظرة يشرف على البساتين المترامية وجميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق ، بناها العزيز بالله . الخطط : ١ : ٤٦٧ - ٤٦٨ .

(٤) هى فى الأصل المقبرة الإسلامية التى أنشأها ابن العاص بأمر ابن الخطاب فى سفح المقطم ؛ وكان المقوقس قد سأل ابن العاص أن يبيعه إياها بسبعين ألف دينار لأن بها غراس الجنة . والقرافة هم بنو غصن بن سيف بن وائل بن المغافر، وقيل قرافة اسم امرأة من بنى وائل . ويذكر ياقوت أن القرافة مقبرة عظيمة بمصر لقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة. =

وقرئ سجلّ فى القصر بأنّ أحداً لايلتمس من أمير المؤمنين زيادة رزق ولاصلة ولا إقطاع ولاغير ذلك من المنافع .

واستهلّ شعبان يوم الاثنين ، فأُمر أن يُجعل أوّله يوم الثلاثاء ؛ وأُخِذ جميعُ ماعند التجار من السلاح بثمنه للخزانة . ومُنِع النساء من الخروج بعد العشاء الآخرة .

وفى ليلة النصف من شعبان كثر إيقادُ القناديل فى المساجد ، وتنافس الناس فى ذلك .

وصلى مالك بن سعيد بالناس صلاة العيد .

وتشدّد الأمر فى الإنكار على بيع الفقاع والملوخية والسّمك الذى لاقشر له . ومُنع الناس من الاجتماع فى المـآتم ومن اتّباع الجنائز . وأحرق زبيب كثير كان فى محارق التجار . وجمع الشطرنج من أماكن متعددّة [١٦٥] وأحرق . وجُمع الصيادون وحُلِّفوا أنهم لايصطادون سمكا بغير قشر ، ومن فعل ذلك ضُرِبت رقبته . وتَوَالَى إحراقُ الزبيب عدة أيام بحضرة الشهود ، وتولّى مؤنة الإنفاق على حمله وإحراقه متولّى ديوان النفقات ؛ فأُحرق منه ألفان وثمانمائة وأربعون قطعة بلغت مؤنة الإنفاق عليها خمسة آلاف دينار فى مدة خمسة عشر يوما .

وقرئ سجلّ بمنع الناس من السفر إلى مكّة فى البرّ والبحر ، ومن حَمْل الأمتعة والأقوات إليها ؛ فرُدّ قومٌ خرجوا إلى الحجّ من الطريق .

=وقد أصبحت القرافة من المنتزهات الجميلة العامرة أيام الفاطميين ، ذلك أن الرؤساء كانوا يلازمون جامع الأولياء بها فى الصيف ويحضرون الحلوى والأشربة والجرايات ، فكثر الطفيليون به وانتشرت المساجد وعمرت المنطقة لأجل مايحمل إليها وما يعمل فيها من الحلاوات والحلومات والأطعمة وقد قيل فيها :

إن القرافة قـد حوت ضدين من دنيـا وأخرى ، فهى نعم المـنزل
يغشى الخليع بهـا السماع مواصـلا ويطوف حـول قبورها المتبتل

الخطط : ٢ : ٤٤٣ – ٤٤٥ .

ومرض غين الخادم ، فركب الحاكم لعيادته ، وسيَّر إليه خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا مُسْرجة مُلجمة ؛ وقلَّد الشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة ، والنظر فى جميع الأموال والأحوال . ونزل إلى الجامع العتيق ومعه سائر العسكر بخلعه ، وقرئ سِجِلُّه وفيه تشدُّدُه فى المسكرات والمنع من بيع الفقاع والملوخية والسمك الذى لاقشر له ، والمنع من الملاهى ومن اجتماع الناس فى المآتم واتباع الجنائز ، والمنع من بيع العسل إلاَّ أن يكون ثلاثة أرطال فما دونها .

وفى ذى الحجة وردت هدية تنِّيس على العادة فى كل سنة .

ولم يركب الحاكم لصلاة عيد النحر ، فصلى بالناس مالك بن سعيد وخطب . ولم يخرج من النساء إلى الصحراء فلم تُر امرأةٌ على قبر .

ومُنع من الاجتماع على شاطئ النيل ، ومن ركوب النساء المراكب مع الرجال وخروجهن إلى مواضع الحرج مع الرجال . وفيه عُمل عيد الغدير على رسمه وفُرّقت فيه دراهم كثيرة .

ومنع من بيع العنب وألاَّ يُتجاوَز فى بيعه أربعة أرطال ، ومنع من اعتصاره ، فبيع كلّ ثمانية أرطال بدرهم ، وطُرح كثير منه فى الطرقات ، وأُمر بدَوْسه ؛ ومنع من بيعه ألبتة ، وغُرّق ماحمل منه فى النيل . وبعث شاهدين إلى الجيزة فأُخِذ جميع ماعلى الكروم من الأعناب وطرحت تحت أرجل البقر لدَوْسه ، وبعث بذلك إلى عدة جهات . وتُتُبّع مَنْ يَبيعُ العنب ، واشتد الأمر فيه بحيث لم يستطع أحد بيعه ؛ فاتفق أنَّ شيخا حمل خمرا له على حمار وهرب ، فصَدَفَهُ الحاكم عند قائلة النهار على جسر ضيّق ، فقال له : من أين أقبلت ؟ قال منْ أرض الله الضَّيِّقة . فقال : ياشيخ ، أرض الله ضيقة ؟ فقال : لو لم تكن ضيّقة ماجمعتنى وإياك على هذا الجسر . فضحك منه وتركه .

وفيها أخذ بنو قرجه هدية باديس بن المنصور صاحب إفريقية وزحفوا إلى برقة ، ففرّ عاملها فى البحر وفتحوها . وفيه نزع السعر .

وفيها مات أبو القاسم ولىّ الدولة ابن خيران الكاتب فى شهر رمضان .

وانتهى ماء النيل فى زيادته إلى ستة عشر ذراعا ونصف [ذراع] [1] .

---

(١) فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر عقد القادر بالله ، الخليفة العباسى ، مجلسا أحضره عددا من العلماء والأشراف ببغداد للطعن فى صحة نسب الفاطميين إلى بيت النبوة و فشهدوا جميعا أن الناجم بمصر ، وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والخزى والنكال — ابن معد بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن سعيد — لا أسعده الله — فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدى هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس — عليه وعليهم اللعنة — أدعياء خوارج لانسب لهم فى ولد على بن أبى طالب . . . » ونجد تفصيل ذلك وقصته فى كتب كثيرة منها الجزء الأول من هذا الكتاب ، وفى النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٢٩ — ٢٣١ ، والكامل لابن الأثير : ٩ : ٨١ .

سنة ثلاث وأربعمائة[1] :

فى محرم خُتِم على مخازن العسل وجميع ما عند التجار والباعة منه ؛ ورُفعت مكوسُ الساحل . ومنع الناس من عمل حُزْن عاشوراء . وغُرِّق فى أربعة أيام خمسة آلاف وواحد وخمسون زيراً من أزيار العسل . ونَزَع السعر ، وكثرُ الازدحام على الخبز ، ففرّق الحاكم مالاً على الفقراء . وكثر ابتياع الناس للسُّيوف والسكاكين والسّلاح ، وحَمَله من لم يحمله قطّ من العوامّ والصُّنّاع ، وكثر الكلام فيه ، فقرئْ سجلٌ على منابر الجوامع بتطمين الناس وإعراضهم عن سماع أقوال المرجفين .

وفى ثانى ربيع الأول خُلع على أبى الحسن على [بن جعفر] بن فلاح ولقب قطب الدولة ، وقرئ له سجل بالتقدّم على سائر الكتاميين والنظر فى أحوالهم ، والسّفارة بينهم وبين أمير المؤمنين . وحُمل على فرس وبين يديه ثياب .

وهلك زُرْعَة بن عيسى بن نَسْطُورس من علّته فى ثانى عشره ؛ فكانت مدّة نظره فى الوساطة سنتين وشهرا ؛ فتأسف الحاكم على فقده من غير قتل ، وقال ما أسفت على شئْ قطّ أَسَفِى على خلاص ابن نسطورس من سيفى ، وكنت أودُّ ضَرْبَ عنقه ، لأنه أفسد دولتى ، وخاننى ونافق علىّ ، وكتب إلى حسّان بن الجرّاح فى المداجاة [٦٥ب] علىّ وأنه يبعث من يهرب به إليه .

وخُلع على إخوته الثلاثة وأقرّوا على ما بأيديهم من الدواوين . وأمر النصارى إلا الحبابرة بلبس العمائم السُّود والطيالسة السُّود ، وأن يعلّق النصارى فى أعناقهم صلبان الخشب ، ويكون ركب سُرُوجهم من خشب ، ولايركب أحد منهم خيلا ، وأنهم يركبون البغال

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٠١٢ .

والحمير ، وألاّ يركبوا السروج واللجم محلاّةً ، وأن تكون سُروجهم ولُجُمُهم بسيور سود ، وأنهم يشدون الزنانير على أوساطهم، ولايستعملون مسلما ، ولايشترون عبدا ولا أمة ؛ وأذن للناس فى البحث عنهم وتتبع آثارهم فى ذلك ؛ فأسلم عدّةٌ من النّصارى الكُتّاب وغيرهم . وشدد الأمر عليهم ، ومنع المكاريون من تركيبهم ، وأُخِذوا بتسوية السّروج والخفاف ومنعوا من ركوب النيل مع نواتية مسلمين .

واستدعى الحاكم حسين بن طاهر الوزان ـ وكان منقطعا إلى غين الخادم الأسود ـ وعرض عليه الوساطة فأجاب بشريطة أن يكون لكلٍّ قبيل من طوائف العسكر زمامٌ عليهم يرجعون إليه ، ويكون نظره على الأزمّة ، فيجعل لكل طائفة يوما ينظر فى أمورهم وخاصة زمامهم فقط ؛ ففعل ذلك ، وخلع عليه . وفوّض فى الوساطة والتوقيع ، وقرئ سجله بالقصر فى تاسع عشر ربيع الأول . وأمر الحاكم فنقش على خاتمه : بنصر الله العظم الولىّ [1] ينتصر الإمام أبو علىّ .

وفيه أُمِر النّصارى بعمل ركب السروج من خشب الجمّيز .

وقُبِض على جماعة بسبب اللعب بالشطرنج وضُربُوا وحبسوا .

وألزم النصارى أن يكون الصّليب الذى فى أعناقهم طوله ذراع فى مثله ، وكثرت إهاناتهم وضيّق عليهم ، وأمروا أن تكون زنة الصليب خمسة أرطال وأن يكون فوق الثياب مكشوفا ، ففعلوا ذلك . ولما اشتدّت عليهم الأمور تظاهر كثير منهم بالإسلام ، فوقع الأمر بهدم الكنائس[2] ، وأُقطعت بجميع مبانيها وبمالها من رباع وأراض لجماعة[3] ، وعملت مساجد وأذن فى بعضها وبيعت أوانيها . ووجد فى الْمُعَلَّقة[4] بمصر وفى كنيسة

---

(١) فى الأصل بنصر الله العظيم المولى . . . والمثبت هنا أولى وأيسر وهو مأخوذ عن الخطط : ٢ : ٢٨٧ – ٢٨٨ ، ويوافق ماجاء فى نهاية الأرب .

(٢) فسأل جماعة من النصارى أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم وأن يبنوها مساجد . نهاية الأرب .

(٣) من الصقالبة والفراشين والسعدية ، ولم يرد سؤال من سأله شيئا منها . نهاية الأرب .

(٤) كنيسة المعلقة بمدينة مصر فى خط قصر الشمع ، على اسم السيدة مريم العذراء . الخطط : ٢ .

بو شنوده مال جزيل من مصاغ وثياب وغيره . وتتابع هدم الكنائس ، وكتب إلى الأعمال بهدمها فهدمت .

وأشيع سير أبي الفتوح أمير مكة من الرّملة إلى الحجاز ، وكان قد قدم إليها فبايعه ابن الجراح ولقبه بالراشد بالله أمير المؤمنين ، ودعا له بالرّملة[1] .

وفى جمادى الأولى لُقِّب الحسينُ بن طاهر الوزان بأمين الأُمناء وكتب له سجل بذلك.

وظهر لحسين بن جوهر مال عظيم ، فأنعم به الحاكم على ورثته ولم يعرض لشئ منه .

وفى ذلك الحين كان وصُولُ أبي الفتوح إلى مكّة وإقامتُه الدعوة للحاكم بها ، وضربت السكّة باسمه . وابتدأ مالك بن سعيد بعمل رَصد[2] فلم يتمّ .

وفى جمادى الآخرة اشتد الإنكار بسبب الفقاع والزبيب والسمك . وقُبض على جماعة فاعتُقلوا وأمر بضرب أعناقهم ، ثم أطلقوا . وتشدّد فى [منع][3] ذبح الابقار السالمة من العيب ومنع النساء من الغناء والنشيد . وأُقطعت الكنائس والدِّيارات بنواحيَ بمصر لكلٍّ من التمسها .

---

(١) وكان أبو القاسم الوزير المغربى الذى خرج على الحاكم «قد خطب الجمعة التى بويع فيها لأبى الفتوح بالخلافة ، وافتتح الخطبة بالآيات الأولى من سورة القصص : « طسم تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . . . » الآيات وأشار إلى مصر ، يعنى الحاكم بأمر الله . وسبب عودة أبى الفتوح إلى مكة أن الحاكم لجأ إلى مفاوضة بنى الجراح بعد أن فشل فى محاربتهم ، فأدرك أبو الفتوح أنه لامقام له إذا تم الصلح فادعى أن أخاه قد ثار بمكة وأن واجبه يدعوه إلى العودة إليها لإخماد الثورة . انظر تفصيل ذلك فى نهاية الأرب .

(٢) الرصد مكان مرتفع يطل من غربيه على راشدة ومن قبليه على بركة الحبش ، يحسبه من رآه من ناحية راشدة جبلا ، وهو من شرقيه سهل يتوصل إليه من القرافة دون ارتقاء . وقد بدأ عمل الرصد فى عهد الحاكم لكنه لم يتم فأتمه الأفضل بن بدر الجمالى إذ أقام فوقه كرة لرصد الكواكب . وسبب اهتمام الأفضل بذلك أنه حمل إليه تقويم سنة خمسمائة للهجرة ، قيل مائة تقويم ، فوجد فيها اختلافا كبيرا ، فأنكر ذلك وجمع أهل العلم والحساب وسأل عن السبب فقيل له التقويم الشامى يحسب على رأى الزيج المأمونى المهجور ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكى وهو أحدث وأصح ، وأشاروا عليه بعمل رصد مستجد يصحح الحساب وتحصل به الفائدة والسمعة والذكر الباقى . فشرع فى ذلك وأتمه . الخطط : ١ : ١٢٥ — ١٢٨ .

(٣) مابين الحاصرتين زيادة يقتضيها السياق .

وفى رجب قرئ سجل بمنع الناس من تقبيل الأرض للحاكم ، وبمنعهم من تقبيل ركابه ويده عند السّلام عليه فى المواكب ، والانتهاء عن التخَلُّق بأخلاق أهل الشرك من الانحناء إلى الأرض فإنَّه صنيع الروم ؛ وأمروا أن يكون للسلام عليه : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . ونُهوا عن الصّلاة عليه فى المكاتبة والمخاطبة ، وأن تكون مكاتبتُهم فى رقاعهم ومراسلاتهم بإنهاء الحال ، ويقتصر فى الدعاء على سلام الله وتحيّاته وتَوَالِى بركاته على أمير المؤمنين ، ويدعى له بما سبق من الدعاء لاغير . فلما كان يوم الجمعة لم يقل الخطيب سوى : اللهم صلّ على محمد المصطفى وسلّم على أمير المؤمنين علىّ المرتضى ، اللهم وسلّم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على [١٦٦ ا] سرّك وخليفتك .

وأنزل من القصر سبع صناديق فيها ألف ومائتان وتسعون مصحفا إلى الجامع العتيق ليقرأ فيها الناس . وأحصيت المساجد التى لاغلّة لها فكانت ثمانمائة مسجد ونيِّف ، فأُطلق لهـا فى كل شهر تسعة آلاف ومائتا درهم وعشرون درهما ، لكل مسجد اثنا عشر درهما .

ومُنع من ضرب الطبول والأبواق التى كانت تُضرب حول القصر فى الليل ، فصاروا يطوفون بغير طبل ولابوق . وأُنزل إلى جامع ابن طولون ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفا . وأُبطلت مكوس الحسبة ، وأُذن للناس بالتأهب للحج فى البرّ والبحر .

وفى رمضان صلى الحاكم بالناس مرّة فى جامعه براشدة ، ومرة بجامعه خارج باب الفتوح

وفيه ظهر جراد كثير حتى أُبيع فى الأسواق . وصلّى بالجامع العتيق بمصر جمعة ، وهو أول من صلى فيه من الخلفاء الفاطميّين . ومُنع النساء من الجلوس فى الطرقات للنظر إليه . وأخذ القصص(١) بيده ووقف لأهلها وسمع كلامهم ؛ وخالطه العَوَامُّ وحالوا بينه وبين

---

(١) القصص هى الرقاع التى يكتبها أصحاب المظالم يحكون فيها ماوقع بهم من ظلم ويسألون رفعه .

موكبه . واسْتَماحهُ قوم فوصلهم بصلات كثيرة ؛ وأهدى إليه قوم مصاحف فقبلها وأجازهم عليها . ووقف عليه اثنان من تربة عمرو بن العاص وشكَوَا أن حَبْسهما قُبض عليه للدّيوان من أيام العزيز ، فخلع عليهما ووصلهما بألف دينار . وكثرت فى هذا الشهر إنعاماتُه ، فتوقّف أمين الأمناء حسين بن طاهر الوزان فى ذلك ، فكتب إليه الحاكم بخطّه بعد البسملة :

الحمد لله كما هو أهله .

أصبحت لا أرجو ولا أتّقى   سوى إلهى ، وله الفضل

جــدّى نبيّى ، وإمامى أبى   ودينىَ الإخلاصُ والعــدل

المال مال الله عزّ وجلّ ، والخلق عباد الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض . أطلقْ أرزاق الناس ولاتقطعْها . والسلام » .

وركب فى يوم الفطر إلى المصلّى بغير شئ مما كان يظهر فى هذا اليوم من الزينة والجنائب[١] ونحوها ، فكان فى عشرة أفراسٍ جيادٍ بين يديه بسرُوج ولُجُم مُحلاّة بالفضة البيضاء الخفيفة ، ومظلة بيضاء بغير ذهب ، وعليه بياضٌ بغيز طُرُز ولاذهب ولاجوهر فى عمامته ، ولم يُفْرَش المنبر .

وفيه وقعت فتنة بين طوائف العسكر شَهَرُوا فيها السّلاح ، فركب الحاكم وأصلح بينهم .

وولد لعبد الرحيم بن إلياس [ابن][٢] عم الحاكم مولود فبعث إليه ثلاثة أفراس مسرجة

---

(١) الجنائب جمع جنيب وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان أو الخليفة لاحتمال الحاجة إليها . انظر محيط المحيط ؛ *Dozy, Supp. Dict. Ar.*

(٢) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل والتصحيح استعانة بما سيجئ بعد قليل ، وبما جاء فى الخطط : ٢ : ٢٨٨ ؛ وبما جاء فى النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٣٥ .

ملجمة ومائة قطعة من الثياب وخمسة آلاف دينار عينا وسائر ما كان لأبيه أبى الأشبال المتوفى ، وكان شيخا جليلا .

ومُنع الناس من سب السَّلف وضُرب فى ذلك رجلٌ وشُهِّر ، ونودى عليه : هذا جزاءُ من سب أبا بكر وعمر ، وتبرأ الناس . فشق هذا على كثير من الناس ، وتجمعوا يستغيثون بباب القصر : لاطاقة لنا بمخاصمة أحد أو الصبر لكل ما جرى ؛ فصرفوا ونُهُوا ، فمضَوا وهم يستغيثون فى الطرقات . فقُرئ سِجلٌ بالقصر فيه الترحم على السَّلف من الصحابة والنَّهىُ عن الخوض فى مثل ذلك . ورأى فى طريقه وقد رَكِب لَوْحًا فيه سبٌّ على السلف فأنكره ووقف حتى قُلع . وتتبع الألواح التى فيها شئ من ذلك ، فقلعت كلُّها ، ومحى ما كان على الحيطان منها حتى لم يبق لها أثر . وشُدّد فى الإنكار على من خالف ذلك ، ووعد عليه بالعقوبة .

وسارت قافلة الحاجّ فى رابع عشر ذى القعدة إلى بِرْكَة الجُبّ ثم رجعوا من ليلتهم[1] .

وخُلع على قطب الدّولة أبى الحسن على بن فلاح وسار فى عسكر لقتال ابن الجراح . وَأَمْلَكَ ابنا عبد الرحيم بن إلياس بزوجتى حسين بن جوهر ، وقرئ كتابهُما فى القصر ، وقد كتبا فى ثوب مصمت وفى رأس كل منهما بخط الحاكم : « يعتمد هذا النكاح بمشيئة الله وعونه ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » . وخلع على ابنى عبد الرحيم وحمل عنهما المهر وهو ألفا دينار .

وصلّى الحاكمُ بالناس صلاة عيد النحر كهيئته فى عيد الفطر ؛ ونحر عنه عبد الرحيم والمؤذّنون يكبِّرون خلفه كما يفعلون بين يدى الحاكم ، والقاضى مالك إلى جنْبه ومعه الرُّمح

---

(١) لعل السر فى رجوع الحاج بعد خروجهم الفتنة التى وقعت بين طوائف العسكر وخوف استفحالها . أو لعل السبب أنهم خرجوا متأخرين عن الموعد الذى كان قد تحدد منذ سنوات والذى كان سبب تحديده أنهم كانوا إذا خرجوا متأخرين لايتمكنون من زيارة الروضة الشريفة . وقد صدر مرسوم سنة ٤٠١ بالخروج فى منتصف شوال وبالبدء بزيارة الروضة الشريفة .

[٦٦ ب] ، وكلما رمى الرمح لينحر به قبّله قبل أن ينحر به ؛ فعل ذلك ثمانية أيام ، فبعث إليه الحاكم ثياباً جليلة وجواهر ثمينة ، وحمله على فرس بسرج مرصع بالجوهر .

وواصل الحاكم الركوب إلى الصحراء بحذاء فى رجله ، وعلى رأسه فُوطَةٌ . وكان يركب كل ليلة بعد المغرب . ووقف إليه خراسانى يذكر أنه أُخِذ منه متاعٌ برسم الخزانة ولم يُدْفع إليه ثمنُه ، فدفع إليه جميع ما كان له وهو نحو خمسة آلاف دينار ، فشَقّ به البلد ، وكثر الدُّعاء للحاكم . وحُمل إلى عبد الرحيم عشرة آلاف دينار فى أكياس مكتوب عليها : لابن عمنا وأعزِّ الخلق علينا عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدىّ بالله ، سلّمه الله وبلّغَنا فيه ما نؤمِّلُه .

وبعث إلى ملك الروم هدية مبلغ سبعة آلاف دينار .

وفيها وصلت هدية الحاكم إلى نصير الدولة أبى مناد[١] مع عبد العزيز بن أبى كُدَيْنَةِ لثلاث عشرة خلت من المحرم ، ومعه سجلٌ بإضافة برقة وأعمالها إليه ؛ فخرج إلى لقائه ومعه القضاة والأعيان ، فكان يومًا مشهودا .

وفى أواخر رجب فُلج أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن ابى الحسين أمير صقلية[٢] ، فتعطّل جانبُه الأيسر ، فقام بالأمر ابنه أبو محمد جعفر بن يوسف وكان بيده سجَلّ الحاكم بولايته بعد أبيه ؛ ثم وصل إليه سجلٌ لقب فيه تاج الدولة وسيف الملك . ثم أُنفِذ إليه تشريفٌ ، وعقد له لواء ، وزيد فى لقبه الملك .

وفى ذى القعدة مات مفرّج بن دغفل بن الجرّاح برَمْلة لُدّ[٣] ، من فلسطين .

---

(١) أبو مناد باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيرى ، صاحب إفريقية فى ظل الفاطميين بين سنتى ٣٧٦ – ٤٠٦ (٩٩٦ – ١٠١٦) . معجم الأنساب .

(٢) يسميه زامباور فى معجم الأنساب ، اعتمادا على مصادر متعددة ، أبا الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن الحسن ، ويذكر أنه اعتزل سنة ٣٨٨ ليخلفه جعفر بن يوسف ، أبو محمد المذكور فى المتن . وهما من الولاة الكلبيين الذين حكموا صقلية بين سنتى ٣٣٦ – ٤٦٤ (٩٤٧ – ١٠٧١) مع شئ كبير من الاضطراب بسبب ضعف الفاطميين وتدخل النورمانديين .

(٣) يعرفها ياقوت بأنها قرية قرب بيت المقدس من أرض فلسطين . معجم البلدان : ٧ : ٣٢٦ – ٣٢٧ . وهى الآن مدينة عظيمة .

سنة أربع وأربعمائة[1] :

فى محرم أمر ألاّ يدخل يهودى ولا نصرانى الحمام إلاّ ويكون مع اليهودى جرس ومع النصارى صليب . ونهى عن الكلام فى النُّجوم ، فتغيب عدَّةٌ من المنجِّمين وبقى منهم جماعة وطُرِدُوا ؛ وحُذِّر الناس أن يخفوا أحدًا منهم ، فأظهر جماعة منهم التوبة فعُفِى عنهم ، وحلَفُوا ألاّ ينظروا فى النجوم .

وأمر بغلق سائر الدّواوين وجميع الأماكن التى تباع فيها الغلال والفواكه وغيرها ثلاثة أيام من آخر حزن عاشوراء ؛ فلما كان يوم عاشوراء أُغلقت سائر حوانيت مصر والقاهرة بأسْرها إلاّ حوانيت الخبّازين . ونزل الذين عادتُهم النزول فى يوم عاشوراء إلى القاهرة من المنشدين وغيرهم أفرادًا غير مجتمعين ولا متكلّمين ، فما اجتمع اثنان فى موضع . وخرج الحاكم فى أمره وبذيله القاضى إلى بلبيس ، فنظر إلى العسكر المجهّز مع علىّ بن فَلاّح ، وعاد من الغد ، ورحل العسكر .

وأكثر الحاكم فى هذا الشّهر من الصّدقات وإعطاء الأموال الكثيرة جدا . وأعْتق سائر مماليكه وجواريه . وفتح فيه الخليج يوم السابع عشر من مِسْرى والماء على أربعة عشر ذراعا وثمانية أصابع .

وفى أول صفر صُرف القائد غين عن الشُّرطتين والحسبة ، وتقلدها مظفر الصقلبى حامل المظلة . وأُذن لليهود والنصارى فى مسيرهم إلى حيث سارُوا من بلاد الروم . وورد الخبر بوصول عساكر مصر ودمشق إلى الرملة وخروج العرب منها . وأمر ببناء جامع الإسكندرية وأطلق مالا كثيرا للصدقة والتفرقة .

وفيه جُمع سائر الناس على اختلافهم بالقصر وقرئ عليهم سجل بأن أبا القاسم

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من يوليو سنة ١٠١٣ .

عبد الرحيم بن إلياس بن أبى علىّ بن المهدىّ بالله أبى محمد عُبيد الله قد جعله الحاكم بأمر الله ولىَّ عهد المسلمين فى حياته والخليفةَ بعد وفاته ، وأمِر النّاسُ بالسّلام عليه وأن يقولوا له فى سلامهم عليه : السلام على ابن عمّ أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين؛ وتعيّن له محل يجلس فيه من القصر . ثمّ قُرئ السّجِلُّ على منابر البلد وبالإسكندرية ؛ وبعث بذلك سجلاًّ إلى إفريقية ، فقُرِئ بجامع القيروان وغيره ، وأُثبِتَ اسمُه مع اسم الحاكم فى البُنود والسّكّة والطّراز . فعظم ذلك على نصير الدولة أبى مناد باديس وقال : لَوْلاَ أن الإمام لا يُعْترض عليه فى تدبيرٍ لكاتبتُه ألاّ يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بنى عمه .

وخُلع على عبد الغنى بن سعيد ودُفع له ألفٌ وخمسمائة دينار وخمس عشرة قطعة ثياب ، وحمل على بغلة [١٦٧] ولرفيقه مثل ذاك . وسُيِّر مع رسول متملِّك الروم بهدية عظيمة .

وبلغ الحاكم أن أبا القاسم على بن أحمد الزيدى النقيب عليه عشرون ألف دينار ، فوقّع له بها مما عَلَيْه من الخراج ، وبعث له بثلاثة آلاف دينار أخْرى .

وكثر ركوب الحاكم وهو بدُرّاعة صوف بيضاء وعمامة فُوطة ، وفى رجله حذاء عربى بقِبَالَين(١) ؛ فأقبل الناس إليه بالرِّقاع ما بين متظلِّمٍ أو مُسْتَمْنحٍ ؛ فأجزل فى الصّلاتِ والعطايا ما بين دُورٍ ودَرَاهمَ وثياب ، فلم يُرَدّ أحدٌ خائبا . وردّ ما كان فى الديوان من الضِّياع والأملاك المأخوذة لأربابها ، وأقطع كثيرا من الناس عدة آدُر . وفى ربيع الأول بسط الحاكم يده بالعطاء .

وفى ثامن عشر ربيع الآخر أمر الحاكم بقطع يَدَىْ أبى القاسم أحمد بن على الجرجرائى(٢) ، فقُطِعتا جميعًا ؛ وهو يومئذ كاتبُ قائد القواد غين . وسبب ذلك أنه كان فى خدمة ستّ

(١) قبال النعل ، ككتاب ، زمام بين الأصبع الوسطى والتى تليها . القاموس المحيط .

(٢) جرجرايا من أعمال النهروان بين واسط وبغداد فى الجهة الشرقية لنهر دجلة . ذكر ياقوت أنها كانت خربة فى زمنه . معجم البلدان : ٣ : ٨٠ .

الملك ، أخت الحاكم ، فانفصل عنها وهى غيرُ راضية عنه ، وخدم عند غين ؛ ثم بعث إليها رقعة يستعطفها ، فارتابت منه وسيّرَتْها فى طىّ دَرْجها[1] إلى الحاكم ، فأمر بقطع يديه وقد اشتد غيظُه . ويقال بل كان عقيل صاحب الخبَر يحملُ الرّقاع بالخبر إلى القائد غين ليوصّلها إلى الحاكم وهى مختومة ؛ فجاءه فى يوم بالرّقاع على عادته فدفعها غين إلى كاتبه أبى القاسم الجرْجَرائى حتى يجد فراغا فيحملها إلى الحاكم ، ففك الجرجرائى الختم وقرأها ، فإذا فى بعضها طعنٌ على غين وذِكْرُهُ بسوء ، فقطع ذلك الموضع من الرُّقعة وحكّه وأصلحه ، وأعاد الختم . فبلغ ذلك عقيلا فأوصله إلى الحاكم فأمر بقطع يديه .

وفى ثالث جمادى الأُولى قطعت يد غين بعد قطع يد كاتبه الجرجرائى بخمسة عشر يومًا ،وكانت يده [الأخرى[2]] قد قطعت قبل ذلك بثلاث سنين وشهر ، فصار مقطوع اليدين[3] . ثم إن الحاكم بعث إليه بآلاف من الذهب وعدة [أسفاط][4] من الثياب وأمر بمداواته . وأبطل عدة مكوس من جهات كثيرة . فلما كان فى ثالث عشره أمر بقطع لسان غين فقطع [5] .

وفى رجب أمر برفع ما يؤخذ من الشُّرطتين ؛ وقَتْلِ الكلاب ، فقُتلت بأجمعها ؛ وأبطل مكس الرطب ومكس دار الصّابون ، ومبلغه سنة عشر ألف دينار ؛ وأطلق أموالا جزيلة للصدقة . وأكثر من الركوب فى الليل . ونزل ليلة النِّصف من شعبان إلى القرافة ومشى فيها وتصدّق بشئ كثير ، وأبطل عدّة جهات من جهات المكس . ومنع النساء أن يخرجن إلى

---

(١) الدرج بالدال المفتوحة والراء الساكنة القرطاس الذى يكتب فيه ، ويحرك . القاموس المحيط .

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٣) « ولما قطعت يده حملت فى طبق إلى الحاكم فبعث إليه بالأطباء » . الخطط : ٢ : ٢٩٧ — ٢٩٨ .

(٤) مابين الحاصرتين مضاف من الخطط : ٢ : ٢٩٨ .

(٥) « وحمل إلى الحاكم فسير إليه الأطباء ومات بعد ذلك » . نفس المصدر .

الطُّرقات فى ليل أو نهار سواء أكانت المرأة شابةً أم عجوزًا ، فاحتبسْنَ فى بيوتهن ولم تُر امرأةٌ فى طريق ، وأُغلقت حماماتهن ، وامتنع الأساكفة[1] من عمل خفاف النساء وتعطَّلت حوانيتهم .

وفى سادس عشره وقع فى الناس خَوفٌ وفزع من شناعة القول وكثرة إشاعته بأن السيف قد وقعَ فى الناس ، فتهاربَ الناسُ وغُلّقت الحوانيت فلم يكن سوى القلب . وضُرب قوم خالفوا النهى عن بيع الملوخيّة والسمك الذى لا قشر له وشُهِّروا . وضرب كثير من النساء من أجل خروجهن من البيوت وحُبِسنَ . وقرئ سجلّ بالمنع من تفتيش المسافرين فى البحر والبرّ والنَّهى عن التعرّض .

وفى رمضان صلَّى بالناس فى الجوامع الأربعة : جامع القاهرة ، والجامع خارج باب الفتوح ، وجامع عمرو ، وجامع راشدة[2] ؛ وتصدّق بأموال كثيرة ؛ ودعا فوق المنابر بنفسه لعبد الرحيم بن إلياس ، فقال : اللهم استجب منّى فى ابن عمىّ ووَلىّ عهدى والخليفة من بعدى ، عبد الرّحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدىّ بالله أمير المؤمنين ، كما استجبت من موسى فى أخيه هرون .

وفيه ركب قائد القوّاد غين إلى القصر فى موكب عظيم ، فخلع عليه . وضرب على السكة اسم عبد الرحيم ولىّ عهد المسلمين . ومُنِع مَنْ عادتُه الطّواف فى الأعياد بالأسواق لأخذ الهبات من الرَّجَّالة والبوّاقين[3] . واجتمع الأولياء وغيرهم بالقصر فى يوم الخميس ثامن عشريه لسماع ما يقرؤه القاضى من كتب مجالس الحكم ، فمنعوا [٦٧ ب] من ذلك .

---

(١) الأسكف بالفتح والإسكاف بالكسر والأسكوف بالضم والسكاف كشداد والسيكف كصيقل : الخفاف . أو الإسكاف كل صانع سوى الخفاف فإنه الأسكف . القاموس المحيط .

(٢) جرت عادة الفاطميين على حضور ثلاث جمع فقط من رمضان ، وكانوا يرتاحون الجمعة الرابعة . وقد صلى الحاكم جمعتين فقط أكثر من مرة . أما هذه السنة فقد صلى الجمعة أربع مرات دون راحة .

(٣) نافخى الأبواق .

وركب لصلاة الجمعة بجامع القاهرة ، فازدحم الناس عليه بعد ركوبه من الجامع إلى القصر ، فوقف لهم وأخذ رِقَاعَهم ، وحادَثَهم ، وضاحَكهم ، فلم يرجع إلى القصر من كثرة وقوفه ومحادثته العوامّ إلى غروب الشّمس ، ووقّع صِلاتٍ كثيرة . وركب لصلاة العيد بغير زىّ الخلافة ، ومظلّتُه بيضاء ، وعبد الرحيم يسايره وهو حاملٌ الرمحَ الذى مِن عادة الخليفة حمله[1] ، وأصعده معه المنبر ودَعَا له . ولم يعمل فى القصر سماط ، ولا رُؤِيَتْ أمرأة ، ولا أبيع شئٌ ممَّا عادتُه يباع فى الأعياد من الُّلعب والتّماثِيل . واشتدّ الأمر فى منع النساء من الخروج ، وحُبس عدة عجائز وخَدَم وُجِدْنَ فى الطرقات .

وواصل الركوب فى الّنيل . وأطلق لخليج الإسكندرية خمسة عشر ألف دينار .

وقُرئ سجلّ بأن كلّ من كانت له مظلمة فليرفعها إلى ولىّ العهد ؛ فجلس عبد الرحيم ورفعت إليه الرقاع فوقّع عليها . وللنصف من ذى القعدة سار الحاجّ . وفى يوم النحر ركب عبد الرحيم بالعساكر إلى المصلّى فصلّى بالناس وخطب ، ونحر بالمصلّى وبالمَلْعَب ، ولم يُعْمل سماطٌ بالقصر .

وواصل الحاكم الركوب فى العشايا . واصطنع خادما وكاتبا أسود كناه بأبى الرضا سعد ، وأعطاه من الجواهر والأموال ما يجِلّ وصفُها ، وأقطعه إقطاعات كثيرة ؛ فقصده الناس لحوائجهم ولزموا بابه لِمُهِمَّاتِهم ، فتكلّم لهم مع الحاكم فلم يردّ سؤاله فى شئ . وكان مما يسأل فيه إقطاعات للناس تتجاوز خمسين ألف دينار .

وفيه بعث أبو منادباديس ، أميرُ إفريقية ، حميد بن تَمُوصَلْت على عسكر إلى برقة ، فخرج منها خود الصقلبى إلى مصر فتسلّمها حميد .

---

(١) وكان من بين مظاهر الزينة والأبهة كالسيف ، ولهما مكانة خاصة فى المواكب فالرمح « لطيف فى غلاف منظوم من لؤلؤ ، وله سنان مختصر بحلية ذهب ، وله شخص مختص بحمله » . و« السيف الخاص ، وجلبته ذهب مرصعة بالجواهر فى خريطة مرموقة بالذهب ، لايظهر سوى رأسه ، فيخرج مع المظلة ، وحامله أمير عظيم القدر وهو أكبر أمير » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٦ .

سنة خمس وأربعمائة[1]

فى المحرّم تزايد وقوع النار وكثر الحرق فى الأماكن ، فأُمِر النّاس باتخاذ القناديل على الحوانيت وعلى أريافها ، وطرحت السّقّائِف والرَّوَاشِن[2] وأُمِر بقتل الكلاب ، فقتل منها كثير. وعَظُم الحريق ، ووقعت فى أمره شناعات من القول ، فقرئ سجلٌّ فى الجوامع بزَجْرِ السُّفهاء والكفّ عن أحوال تُفْعَل ، وأن يدخل الناس إلى دُورِهم من بعد صلاة العشاء . فأغلقت الدُّورُ والحوانيت والدّرُوب من بعد صلاة المغرب وكثر الكلام وعظم الترّحم فى الليل .

وفيه وصل على [بن جعفر] بن فلاح من الشام. ووصلت قافلة الحاج فى تاسع صفر من غير زيارة المدينة ، وقد أصابهم خوف شديد ، وهلك منهم خلق كثير من الجوع والعطش[3] .

وفيه ركب الحاكم مرتين ، فرُفعت إليه الرّقاع ، فأمر برافعيها فحُبِسوا .

وحبس[4] عدّة قياسِر وأملاك مع سبع ضياع بإطفيح[5] وطوخ[6] على القراء والمؤذنين

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث من يوليو سنة ١٠١٤ .

(٢) السقيفة : الصفة . والروشن : الكوة . القاموس المحيط .

(٣) اضطرب الحج فى هذه السنوات بسبب اضطراب الأحوال فى الحجاز وخروج الأعراب على الحجاج ونهبهم وسلبهم ، وقد امتنع الحج من العراق لنفس السبب مرات ، مثلا فى السنوات : ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٦ ، وقبل ذلك أكثر من مرة .

(٤) حبس بمعنى أوقف . والقياسر جمع قيسارية وهى السوق .

(٥) إطفيح من أعمال مركز الصف بالجيزة الآن . وكانت عاصمة إقليم الإطفيحية الذى يمتد جنوبا شرق النيل . انظر : السلوك : ١ : ٨٤٣ ؛ قوانين الدواوين : ١٠٢ .

(٦) يورد ابن مماتى أسماء أربعة عشر موقعا تعرف باسم طوخ مضافا إلى اسم آخر . منها : طوخ الأقلام ، طوخ البتنون ، طوخ الجبل ، طوخ الخيل ، طوخ تنده ، طوخ دمنو . . . وغيرها .

بالجوامع وعلى ملء المصانع[1] والمارستان[2] وثمن الأكفان .

وفى ربيع الأول واصل الركوب وأخذ الرقاع ووقف مع الناس طويلا ، ثم امتنع من أخذ الرقاع وأمر أن ترفع إلى عبد الرحيم وإلى القاضى مالك ، وإلى أمين الأمناء ، فتناولوا الرقاع . وأكثر من الهبات والصِّلات والإقطاع والخلع .

فلما كان يوم السبت سادس عشرى ربيع الآخر ركب فى اللّيل على رسمه إلى الجُبّ[3] وتلاحق به الناس وفيهم قاضى القضاة مالك بن سعيد ، فلما أقبل على الحاكم أعرض عنه فتأخر ، وإذا بصقلبىّ يقال له غادى ، يتولى السّتر والحِجْبَة ، أخذه وسار به إلى القُصور وألقاه مطروحا بالأرض ، فمرّ به الحاكم وأمر بمُواراته ، فدفن هناك بثيابه وخُفّيه . وكانت مدّة نظره فى الأحكام عشرين سنة ، منها ستّ سنين وتسعة أشهر قاضى القضاة وباقيها خلافةٌ لِبنى النّعمان . وكان ينظر فى القضاء والمظالم والأحباس ، والدعوة ، ودار الضرب ، ودار العيار ، وأمر الأضياف ؛ فعلت منزلتُه وقصده الناس فى حوائجهم لكثرة اختصاصه بالحاكم وتزايُدِ إقطاعاته من الدّور بفُرُشها والضِّياع العديدة ، ومواصلة الركوب معه ليلا ونهارا ، ومشاورته فى أمور الدولة ونظره فى أمور الدواوين كلها . وكان سخيًّا جوادًا

(١) المصنعة بفتح الميم وضم النون وفتحها كالحوض يجمع فيه ماء المطر . مختار الصحاح .

(٢) المارستان : بيت المرضى ، معرب ، وأول من بنى المارستان فى الإسلام الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٨ هـ ، وجعل فيه الأطباء وأجرى عليهم الأرزاق ، وأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق . وألحق ابن طولون بجامعه خزانة للأدوية والأشربة يجلس فيها الطبيب يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة . وأنشأ مارستانا كاملا سنة ٢٥٩ وشرط ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك ، وأمر ألا يخرج المريض من هذا المارستان إلا إذا أكل فروجا ورغيفا علامة الشفاء . وتتابع إنشاء المارستانات بعد ذلك فنها فى مصر المارستان الكافورى ومارستان المغافر وغيرها . الخطط : ٢ : ٤٠٥ — ٤٠٧ .

(٣) من منتزهات القاهرة كان الخليفة الفاطمى يخرج إليه للنزهة راكبا ومعه النساء والحشم . وهو ينسب إلى عميرة فيقال جب عميرة بن تميم التجيبى . وتعرف هذه المنطقة أيضا ببركة الجب أو بركة الحجاج إذ يجتمع بها الحجاج قبل سفرهم . الخطط: ١ : ٤٨٩. وهذا الجب غير الجب الذى كان يحبس به الأمراء بالقلعة وقد عمره المنصورقلاون ٦٨١. الخطط : ٢ : ٢١٣.

فصيحا [١٦٨ ا] بليغًا ، لم يُضْبَطْ عليه قطّ صياحٌ ولا حدّة ، ولا سُمعت منه فى خطَاباته أبدًا كلمةٌ فيها فُحش ولا قذع ولا قبح .

وكان سبب قتله أنه اتّهم بموالاة سيدة الملك[١] ومراعاتها ، وكان الحاكم قد انْفَلَق منها فلما قُتل استدعى الحاكم أولاده وخاطبهم ، ولم يتعرّض لشىء من تركة أبيهم ؛ وأمر ابنه أبا الفرج أن يركب فى الموكب ، وأقرّه على إقطاعه ، ومبلغُه فى السنة خمسة عشر ألف دينار .

وفى جمادى الأُولى ردّ الحاكم على بنى عمرو بن العاص حبس جدّهم عمرو بن العاص ، ومبلغه فى الشهر نحو مائتى دينار .

وتزايد ركوب الحاكم حتى كان يركب فى اليوم الواحد عدة مرات ، وعظمت هباته وعطياته . ثم أمر بابتياع الحمير ، وصار يركبها من تحت السرداب[٢] إلى باب البستان إلى المقس ، ويغلق الأبواب التى يتوصل منها إلى المقس وقت ركوبه ، ومنع الناس من الخروج إلى هذه المواضع .

وفى جمادى الآخرة قدم رسول ملك الروم ، فاصطفت العَسَاكر من باب القصر إلى سقاية ريدان[٣] بِعُدَدِها وأسلحتها ، وركب الحاكم بصوفٍ أبيض وعمامة مفوّطة بمظلة مثلها ، وولىّ العهد يسايره وعليه ثوب مثقل ، ومعهم الجواهر . وأحضر الرّسُول ومعه

---

(١) هى الأميرة سلطانة ست الملك ، أخت الخليفة الحاكم بأمر الله .

(٢) أنشأه المعز بعد دخوله القاهرة وزعم أن طالعه قضى عليه بذلك ، وتوارى فيه نحو سنة أناب فيها العزيز بالله وعهد له . وكان المغاربة إذا رأوا غماما ترجلوا وسلموا يزعمون أن المعز فيه . ثم خرج المعز بعد ذلك وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت تلمع كالكواكب ، وجلس للناس كما كان يفعل . النجوم الزاهرة : ٤ : ٧١ ، ٧٤ .

(٣) كانت فى الأصل بستانا لريدان الصقلبى أحد خدام العزيز بالله ، وعرفت فيها بعد باسم الريدانية وهى قرب العباسية الحالية . السلوك : ١ : ١٣٧ : حاشية : ٦ .

عبد الغنى بن سعيد بهدية إلى القصر ، فخلع على عبد الغنى ، وأنزل الرسول فى دار بالقاهرة وبلغ الحاكم أن ثلاثة من الرِّكابِيَّة[1] أخذوا هبة من الرسول ، فأمر بقتلهم ، فقتلوا من أجل ذلك .

وفى جمادى الآخرة ركب الحاكم ومعه أمين الأُمناء ، الحسين بن طاهر الوزّان ، على رسمه ؛ فلما انتهى إلى حارة كتامة[2] خارج باب القاهرة أمر فضُرِبتْ رقبة ابن الوزّان ودُفن مكانَه . فكانت مدة نظره فى الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يوما ؛ وكان توقيعه عن الحاكم : الحمدلله وعليه توكلى . وتقدم الأمر لسائر أرباب الدواوين بلزوم دواوينهم .

واعتلّ الحاكم أياما فركب على حمار بشاشية مكشوفة ، وأكثر من الحركة فى العَشِيَّات إلى المقس والتَّعدية إلى الجيزة وهو على الحمار . وأكثر من الركوب فى النيل .

وفى حادى عشر شعبان أمر أصحاب الدواوين بأن يمتثلوا ما يرسم به عبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب ، متولّى ديوان النفقات ، وأخوه أبو عبد الله الحسين ، وجُعلا فى الوساطة والسفارة ، ثم قرئ لهما سجلٌ بذلك ، وخلع عليهما وحُمِلا ؛ فوقّعا ، وكان توقيعهما : الحمد لله حمدا يرضاه .

وفى حادى عشريه خُلع على أبى العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى العوّام ، وأُعْطِى سجلاً بتقليده قضاء القضاة ، وحُمل على بغلة بسرْج ولجام مصفَّح بالذهب ، وقِيد بين يديه بغلة أُخرى ، ونزل إلى الجامع فقرئ سِجلّه على المنبر ، وفيه : « فقلدك أمير المؤمنين القضاء والصلاة والخطابة بحضرته ، والحكم فيما وراء حجابه من القاهرة المعزيّة ،

---

(١) الركابية والركابدارية : العاملون فى بيت الركاب الذى تكون به السروج والجم ونحوها . صبح الأعشى : ٤ : ٧ ، ١٢ .

(٢) نسبة إلى قبيلة كتامة الذين كانوا يكونون العدد الغالب من جند الفاطميين فى العصر الأول ، وقد قدموا مع جوهر . وموضع هذه الحارة اليوم المنطقة التى تتوسطها حارة الأزهرى وعطفة الدويدارى وما يتصل بهما فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر . النجوم الزاهرة : ٤ : ٤٦ حاشية : ٤ .

ومصر وأعمالها ، والإسكندرية ، والحرمين ، وبرقة ، والمغرب ، وصقلية ؛ مع الإشراف على دُور الضرب بهذه الأعمال ، والنظر فى أحباس الجوامع والمساجد ، وأرزاق المرتزقة ووُجوه البر ؛ وتستخلف على الحكم » . ونقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق ، وهو أول من فعل ذلك من القضاة . وكانت دواوين الحكام فى دورهم فجعلها بالجامع ، وجعل جلوسه بالجامع العتيق يومى الاثنين والخميس ، وبالقاهرة يوم الثلاثاء ، ولحضور القصر يوم السبت .

وفى يوم الجمعة رابع رمضان ركب ولىّ العهد ، فصلى بالجامع الأنور[1] الجديد بباب الفتوح فى موكب الخلافة ، ثم صلَّى جمعة أُخرى بجامع القاهرة ثم جمعتين بالجامع الجديد . وفيه كثرت صِلاتُ الحاكم ومواهبه وإقطاعاته للناس حتى خرج فى ذلك عن الحدّ . وركب ولىُّ العهد يوم الفطر فى موكب الخلافة ، وصلى بالناس فى المصلى ، وخطب . وخرج الحاكم عن المعهود فى العطاء والإقطاعات حتى أقطع النواتية الذين يجدّفون به فى العشارى[2] ، وأقطع المشاعلية[3] ، وكثيرا من الوجوه والأقارب ، وبنى قُرّة ؛ فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها .

وفى نصفه قتل ابنا أبى السيد ، حسين [٦٨] وعبد الرحيم ، ضربت أعناقهما بالقصر؛ فكانت مدة نظرهما اثنين وتسعين يوما .

وواصل الركوب فى كل غداة وهو على الحمار . وقرئ سجل بأن يكون ما يرفعه الناس من حوائجهم فى ثلاثة أيام ، يوم السبت للكتاميين والمغاربة ، ويوم الاثنين

---

(١) هو جامع الحاكم ، وكان يعرف أيضا باسم جامع القاهرة .

(٢) العشارى ، والعشيرى ، نوع من السفن التى كان يركبها الخليفة فى النيل أيام النزهة والاحتفالات ، مثل احتفال فتح سد الخليج ، هيئ بحيث يجلس الخليفة فى وسادته يحيط به رجال الدولة والخواص فى بيت خشبى محكم على السطح ، بينما الأطعمة والحوائج والملاحون أسفل السفينة .

(٣) الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة ، وهم الضوية وأرباب الضوء : Dozy; supp. Dict, Ar.

للمشارقة ، ويوم الخميس لسائر الناس كافة ؛ وأن يتجنبوا لقاء أمير المومنين ليلاً ونهاراً بالرّقاع ، فما يتعلق بالمظالم فإلى ولىّ العهد ، وما يتعلق بالدعاوى فإلى قاضى القضاة ، وما استصعب من ذلك ينْتهى إلى أمير المؤمنين .

وفى سابع عشره تقلد أبو العباس فضل بن جعفر بن الفرات الوساطة ، ولم يُخلع عليه ؛ فجلس ووقّع ، ثم قتل فى اليوم الخامس من جلوسه .

وتشدّد الأمر فى منع النساء من الخروج فى الطرقات ومن التطلع فى الطيقان ، بأسْرهنّ (١) ، شبابهن وعجائزهن . ومنع مؤذنو القصر وجامع القاهرة من قولهم بعد الأذان : السلام على أمير المؤمنين ، وأن يقولوا بعد الأذان : السلام من الله .

وفيه غلب بنو قرّة على الإسكندرية وأعمالها . وأقطع القاضى ابن أبى العوام ناحية تلبانة عدى (٢) . وأكثر الحاكم فيه من الركوب ، فركب فى يوم واحد ست مرات ، تارة على فرس ، وأخرى على حمار ، ومرة فى محفة تحمل على الأعناق ، ومرّة فى عشارى فى النيل بشاشية لا عمامة عليها . وأكثر من إقطاع الإقطاعات للجند وعبيد الشراء . واستمر على مواصلة الركوب إلى ليلة النحر قرب العشاء ، وشق البلد والطّرادُون يفرقون الناس عنه . وصلى ولىُّ العهد صلاة عيد النحر ، ولم يضحّ بشئ ؛ ونُهى الناس عن ذبح البقر .

وفيه قُلّد ذو الرياستين قطب الدّولة أبو الحسن علىّ بن جعفر بن فلاح الوساطة والسفارة . وفيها بعث نصير الدولة أبو مناد باديس من إفريقية هديّةً عظيمة إلى الغاية للحاكم بأمر الله ، فوصلت إلى مدينة برقة لأربع عشرة بقيت من رجب ، وسارت منها فى

---

(١) فى الأصل : بأسرهم .

(٢) تلبانة عدى من نواحى المرتاحية ، وأخرى بنفس الاسم فى حوف رمسيس (ناحية البحيرة) وهما غير تلبانة الأبراج ، وتلبانة الواقعة بالشرقية بمركز منيا القمح . قوانين الدواوين : ١٢٢ ، ١٢٣ ؛ السلوك : ١ : ٣٥٣ ؛ الخطط التوفيقية : ٩ : ٤٠ - ٤١ .

سابع رمضان حتى وصلت لُكّ[1] فأخذها بنو قُرّة عن آخرها . وكانوا قد انتجعوا مع كبيرهم مختار بن قاسم من البحيرة ، ومَعَهُم مواشيهم ، وقصدوا مدينة برقة ، ففرّ منها حميد بن تموصلت إلى إفريقية ، فملك برقة مختار بن قاسم .

وفيها بعث الحاكم عبد العزيز بن أبي كُدَيْنة ، ومعه أبو القاسم بن حسن ، إلى إفريقية بخلع وسيوف وتشريف لمنصور بن نصير الدولة أبي مناد باديس لولاية ما يتولاه أبوه في حياته وبعد وفاته ، ولقبه عزيز الدولة .

---

(١) يذكر ياقوت فى التعريف بها أنها بين الإسكندرية وطرابلس الغرب ! ولم أجدها فى غيره . ورأيت فى المغرب للبكرى مدينة لكاى بالقرب من المهدية . ويعرفها الدكتور حسن إبراهيم حسن بما يشبه تعريف النويرى لها إذ قال : قرية قريبة من برقة . وهذا أقرب التعريفات لها بما يناسب الحادثة المذكورة هنا إذ هاجم بنو قرة المدية بعد أن ابتعدت عن مدينة برقة . معجم البلدان : ٧ : ٣٣٧ ؛ المغرب : ١٢٦ ؛ الفاطميون فى مصر : ٢٩٥ ؛ نهاية الأرب للنويرى .

سنة ست وأربعمائة[1] :

فيها عُرِض الاستيمار[2] على الحاكم بأسماء الفقهاء والقُرّاء والمؤذّنين بالقاهرة ومصر ، فكانت جملته فى كل سنة واحداً وسبعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وثلاثين دينارا وثلثى وربع دينار ؛ فأمضى جميع ذلك .

وفيها زاد ماءُ النيل وغرق الضياع ، وغلت الأسعار ، وهلكت البساتين ، وامتلأ كل مكان من المدينة ، وغرق المقياس وانتهت الزيادة إلى ثلاث أصابع من إحدى وعشرين ذراعا ؛ وبلغ المـاءُ إلى نصف النخل مما يلى بركة الحبش ، وغرق المعتوق[3] ! . ولم يبق طريق يُسلك إلى القاهرة إلاّ من الشارع والصحراء .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والعشرين من يونيو سنة ١٠١٥ .

(٢) فى اللغة الاستئمار : المشاورة . ويذكر المرحوم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أن معنى الاستيمار المجلس ، وذلك فى شرح قول المقريزى : « وفيها رسم بعمل استيمار يجمع أرباب الرواتب والرزق ليحضروا بتواقيعهم للعرض ، ويقطع من يختار منهم » اه . ويبدو أن المقصود – كما يفهم من هذا النص ومن المتن هنا – القائمة الرسمية التى تحوى أسماء . . . للاعتماد . ولعل هذا كان الأصل فى استعمال كلمة « الاستمارة » التى تستخدم حاليا فى أمور رسمية تستدعى الاعتماد والموافقة : مثل أستمارة المرتبات ، استمارة التقديم إلى المدارس ، استمارة التقدم لشغل الوظائف . راجع السلوك : ١ : ٨٥٠ .

(٣) هكذا فى المتن . وسيرد فى أحداث سنة ٤١٥ أنها من أعمال الكوم الأحمر عند فم الخليج على جانبه الغربى .

سنة ثمان وأربعمائة[1] :

قدم مصر داع عجمى[2] اسمه محمد بن اسماعيل الدّرزى واتصل بالحاكم فأنعم عليه . ودعا الناس إلى القول بإلهية الحاكم ، فأنكر الناس عليه ذلك ، ووثب به أحد الأتراك ومحمد فى موكب الحاكم فقتله ، وثارت الفتنة ، فنهبت داره وغلقت أبواب القاهرة . واستمرت الفتنة ثلاثة أيام قتل فيها جماعة من الدّرزية ، وقبض على التركى قاتل الدّرزى وحبس ثم قتل .

ثم ظهر داعٍ آخر اسمه حمزة بن أحمد ، وتلقّب بالهادى ، وأقام بمسجد تبر خارج القاهرة ، ودعا إلى مقالة الدّرزى ، وبث دعاته فى أعمال مصر والشام ، وترخّص فى أعمال الشريعة ، وأباح الأمهات والبنات ونَحْوَهن ، وأسقط جميع التكاليف فى الصّلاة والصّوم ونحو ذلك . فاستجاب له خلق كثير ، فظهر من حينئذ مذهب الدّرزية ببلاد صَيْدا وبيروت وساحل الشام[3] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثلاثين من مايو سنة ١٠١٧ . ويلاحظ أنه لم يتحدث عن سنة ٤٠٧ . وقد سبق مثل ذلك ، وسيرد مثله أيضا .

(٢) فى الأصل داعيا عجميا .

(٣) وهو أعجمى من الزوزن ويلقب باللباد وعرف بهادى المستجيبين ، واتخذ لنفسه رجالا لقبهم بألقاب خاصة منهم رجل يقال له سفير القدرة . نهاية الأرب للنويرى . ومسجد تبر المذكور خارج القاهرة، وكان يسمى أيضا مسجد التبن ، والبئر ، والجميزة ، أنشأه تبر أحد أمراء كافور الاخشيدى ، وقد اشترك فى مقاومة الفاطميين لدى دخولهم مصر ، وقبض عليه بالشام بعد أن فر إليها ، وضرب ، وقتل ، وسلخ ، وصلب . الخطط : ٢ : ٤١٣ .

[١٦٩] سنة تسع وأربعمائة[١] :

فى آخر شوال ركب الوزير علىّ بن جعفر بن فلاح إلى الْبِرَك التى قبَل الخليج خارج القاهرة ، فثار عليه فارسان ، فأخذه أحدهما فألقاه ، وفَرَّا ، فلم يُعرفْ خبرُهما ، وحمل إلى داره فمات من الأَخذ . وولى الوزارة بعده الظهير صاعد بن عيسى بن نَسْطُورس فأقام إلى رابع ذى الحجة . وقيل تولّى بعده شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان .

وفيها عزل الحاكم سديد الدولة[٢] عن دمشق ، وَوَلّيها عبد الرحيم بن إلياس ، وسار إليها لعشرين من جمادى الآخرة[٣] ، فبينما هو فى قصره إذ هجم عليه قوم ملثمون فقتلوا جماعةً من غلمانه ، ثم أخذوه ووضعوه فى صندوق وحملوه إلى مصر . فلم يكن بها أكثر من شهرين ، ثم أُعيد إلى دمشق فأقام بها ليلة العيد . وورد من مصر رجل يقال له أبو الداود المغربى ومعه جماعة ، وأخرجوا عبد الرحيم وضربوا وجهه ؛ وأصبح الناس يوم العيد وليس لهم من يصلى بهم . وعجب الناس من هذه الأُمور .

وفيها سومح ضامن الصعيد الأعلى بما عليه وهو أربعة وستون ألف دينار وسبعمائة وخمسة وستون دينارا .

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من مايو سنة ١٠١٨ .

(٢) سديد الدولة أبو منصور ، وكان قد وصلها واليا لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٨ فوصله كتاب العزل فى الخامس من ربيع الآخر سنة ٤٠٩ . ذيل تاريخ دمشق : ٦٩ .

(٣) يذكر ابن القلانسى أنه وصل دمشق لخمس بقين من جمادى الأولى سنة ٤١٠ ، وأنه ظل على ولايتها إلى يوم الأحد لثمان بقين من ربيع الأول سنة ٤١١ . وبهذا يكون قد بقى بها أكثر من الشهرين اللذين ورد ذكرهما فى المتن . ذيل تاريخ دمشق : ٦٩ : ٧٠ .

سنة عشر وأربعمائة[1] :

فيها اشتد الغلاء بديار مصر حتى أبيع الدقيق رطلا بدرهم واللحم أربع أواق بدرهم ، ومات كثير من الناس بالجوع . وبلغت عدة من مات فى مدّة رمضان وشوال وذى القعدة ، مائتى ألف وسبعين ألفا سوى الغرباء وهم أكثر من ذلك

وفى سنة عشر وأربعمائة سيّر الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن اليزيد إلى شرف الدولة الحاكمية أبى تميم المعزّ بن نصير الدولة أبى مناد باديس ، ومعه سيف مكلل بنفيس الجوهر وخلعة من لباسه ، فقدم المنصورية[2] لستٍّ بقين من صفر سنة إحدى عشرة . وتلقاه شرف الدولة ونزل إليه فقرأ عليه سجلاً عظيما ؛ فكانت أيام فرح . ثم ورد بعده محمد بن عبد العزيز بن أبى كدينة بسجل آخر ومعه خمسة عشر علما منسوجة بالذهب ، فخُلع على أبى القاسم ومحمد ، وحُملا ، وطيف بهما فى القيروان والأعلام المذكورة بين أيديهما .

ولليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة فُقد الحاكم . وسبب فقده أن أخته ست الكل سلطانة كانت امرأة حازمة ، وكانت أسَنَّ منه ، فدار بينها وبينه يوما كلام ، فرماها بالفجور وقال لها : أنت حامل . فراسلت سيف الدين حسين بن على بن دوّاس ، من مُقدّمى كتامة ، وكان قد تخوّف من الحاكم ، وتواعدا على قتل الحاكم وتحالفا عليه . فأحضرت ستّ الكل عبدين وحلّفتهما على كتمان الأمر ، ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلا الحاكم . فأصعد إلى الجبل فى الليل ، وكان الحاكم قد رأى أن عليه قطعا[3] ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع من مايو سنة ١٠١٩ .

(٢) أنشأها المنصور بن القائم سنة ٣٣٧ بالقرب من القيروان ، وبقيت عاصمة الفاطميين حتى انتقلوا إلى مصر فصارت حاضرة بنى باديس حتى خربت سنة ٤٤٢ . معجم البلدان : ٨ : ١٧٨ .

(٣) لم أهتد إلى مايقنع فى تفسير معنى « القطع » المذكور هنا . وقد ورد مثيل له أول قدوم المعز إلى مصر إذ كان مغرى بالنجوم ، فنظر فى طالعه ومولده فحكم له « بقطع » فيه ، فاستشار منجمه فيما يزيله عنه ، فأشار عليه أن يعمل سردابا تحت الأرض ويتوارى فيه إلى حين جواز الوقت ، ففعل ذلك . انظر النجوم الزاهرة : ٤ : ٧٠ — ٧١ .

فلما كان فى الليلة التى فيها قال لأمه : علىّ قطع فى هذه الليلة وعلامة ذلك ظهور كوكب الذنابة ؛ ودفع إليها خمسمائة ألف دينار ذخيرة لها[1] ، فمنعته من الركوب ، ونام . ثم انتبه آخر الليل وقام ليركب ، فتعلقت به ، فامتنع ومضى ، وركب الحمار إلى باب القاهرة ، ففتح له أبو عروس صاحب الشرطة الباب وأغلقه خلفه ، وخرج متبعا له . قال : فسمعتُه يقول : ظهر والله الكوكب ؛ ولم يكن معه سوى ركابىّ وصبىّ يحمل دواته . فعارضه وسط الجبل سبع فوارس من بنى قرّة ، فخدموه وسألوه الأمان وأن يسعفهم بما يُصْلح شأنهم ، فأمّنهم ، وأمر الركابى أن يحملهم إلى الخازن يدفع إليهم عشرة آلاف درهم . ودخل الشّعب الذى كان يدخله وقد وقف العبدان له ، فضرباه حتى مات ، وطرحاه ، وشقّا جوفه ولفّاه فى كساء ، وقتلا الصبى وغرّقا حماره ؛ وحملا الحاكم فى كساء إلى أخته فدفنته . وأقامت مدة ، وأحضرت الوزير خطير الملك وعرفته الحال ، وأمرته أن يكاتب عبد الرحيم بن إلياس يستدعيه من دمشق . فكتب إليه على لسان الحاكم يأمره بالمبادرة ، واستدعت ألف ألف دينار فرقتها فى الأولياء وبعثت قائد الساحل . فلما قدم عبد الرحيم عُدل به إلى تنّيس فقتل بها[2] .

واضطرب الناس لغَيْبة [٦٩ب] الحاكم ، فأرسلت إليهم : إنه أخبرنى أنه يغيب سبعة أيام ، وإنه يواصلنى بأوامره . ورتّبت رسلا يمضون عنها إلى الحاكم ويجيئون منه

---

(١) فى النجوم الزاهرة : « فلما كان فى تلك الليلة قال لوالدته على فى هذه الليلة وفى غد قطع عظيم والدليل عليه علامة تظهر فى السماء طلوع نجم سماه ، وكأنى بك وقد انتهكت وهلكت مع أختى فإنى ماأخاف عليك أضر منها . فتسلمى هذا المفتاح فهو لهذه الخزانة ، وفيها صناديق تشتمل على ثلثمائة ألف دينار ، خذيها وحوليها إلى قصرك تكون ذخيرة لك » . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨٧ .

(٢) فى النجوم الزاهرة أكثر من رواية عن صورة وفاة ولى العهد ، نقلها صاحبها عن عدة من المؤرخين . فنها أن صاحب تنيس بعث به إلى ست الملك فحبسته فى دار وواصلته بالملاطفات حتى مرضت فأحضرت الظاهر لإعزاز دين الله وحذرته منه ، وأرسلت معضاد الخادم لقتله ففعل . ورواية أخرى تقول إنه حبس فى داره مدة وحمل إليه يوما بطيخ ومعه سكين فأدخلها فى سرته حتى غابت ، ومات منتحرا . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٩٣ – ١٩٤ .

إليها . فى أثناء ذلك اشتدت شوكتها ، وكفّ الناس عن الاستقصاء فى المسألة . وأحضرت ابن دوّاس وواطأته على أخذ البيعة للظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم ، وأظهرته وعلى رأسه تاج جدّه العزيز . وقام ابن دوّاس فقال لمن حضر من أهل الدولة ، تقول لكم مولاتُنا هذا مولاكم فسلّموا عليه . وقبل ابن دوّاس الأرض ، فبايع الناس إلا غلاما تركيا كان عمل ليلا بين يدى الحاكم فإنّه قال : لاأبايع حتى أعرف خبر مولاى . فقتل ، وقام ابن دوّاس بتدبير الأمر . ثم إن ست الملك دسّت عليه وقتلته وقتلت جميع من اطّلع على سرها ، وقتلت جماعة خافتهم . ثم لم تطل أيامها وماتت بعد أيام .

قال ابن أبى طى لما ذكر هذا الخبر فى كيفية قتل الحاكم : وكان الحاكم شديد السطوة ، عظيم الهيبة جريئا على سفْك الدماء . خطب له على منابر مصر والشام وإفريقية . وكان يتشبه بالمأمون ويقصد مقاصده واشتغل بعلوم الأوائل ، واعْتدّ بعلوم النجوم ، وعمل له رصدا ، ووقف الكواكب ، واتخذ بيتا بالمقطم ينقطع فيه عن الناس ويخلو لمخاطبة الكواكب . وكان يركب الحمار وعليه ثياب الرُّهبان ، ووراءه غلام اسمه مفلح يحمل الدّواة والسّيف والورق فى كيس معلّق فى كتفه وهو يمشى وراءه ؛ فإذا مرّ بسوق انهزم الناس واستتروا عنه ، ويطرق أبواب الحوانيت فلا ينظرون إليه ، إلّا أن يكونَ لأحد منهم حاجة فإنّه يقف عليه ويكتب العبد بين يديه مايأمره به فى رقعةٍ إلى الوزير .

وكان لايحضره الجيش إلا فى الأعياد ، فيركب فى ذلك اليوم بثيابه على الفرس . وكان مُهَاباً عند أهل مملكته ، وكان لايحضر مجالس الجدل ويحتجب أياما كثيرة مشتغلا بما هو فيه ، وكان له سعىٌ فى إظهار كلمته ، فبعث دعاته إلى خراسان وأقام فيها مذهب الشيعة ، واستجاب له عالم عظيم ؛ فبعث إلى البلاد بالأموال فى استمالة الرجال إلى ما يريد .

وكان أبو عبد الله أنوشتكين النجارى[1] الدرزى أول رجل تكلم بدعوته ، وأمر برفع ماجاء به الشرع ، وسيّر مذهبه إلى بلاد الشام والساحل ، ولهم مذهب فى كتمان السرّ لايُطْلِعون عليه من ليس منهم . وكان الدرزى يبيح البنات والأمهات والأخوات . فقام الناس عليه بمصر وقتلوه ، فقتل الحاكم به سبعين رجلا . وأنفذ الدرزى إلى الحجر الأسود برجل ضربه وكسره ؛ وادعى الربوبية . وقدم رجل يقال له يحيي اللباد ، ويعرف بالزُّوْزَنى الأَخْرَم ،[2] فساعده على ذلك ، ونشط جماعة على الخروج عن الشريعة .

وركب يوما من القاهرة فى خمسين رجلا من أصحابه إلى مصر ، ودخل الجامع بدابّته ، وأصحابُه كذلك ، فسلم إلى القاضى رقعة فيها : باسم الحاكم الرحمن الرحيم ، فأنكر القاضى ذلك ، وثار الناس بهم وقتلوهم ، وشاع هذا فى الناس فلعنوه[3] . ويقال إنه خرج يوما وعليه قباء أطلس وفى وسطه سيف ، فخلع القباء وقال : هذا الظاهر قد خلعته ، ثم جرّدَ السيف وقال : هذا الباطن قد سللته .

قال : وفى السنة التى قتل فيها الحاكم أشاع أنه يريد أن ينزل فى أول رمضان إلى الجامع ومعه الطعام ، فمن أبى الأكل قتله . وكان دعاته إذا ركب يقولون : السلام عليك يا واحد يا أحد ، ويَغْلُون فيه الغلوّ المفرط . وادّعى أنه حصل له كتاب الجفر . ولما غلب على الحرمين وعد العلويين أهل المدينة إذا هم مكّنوه من فتح دار جعفر بن محمد الصادق بوعود كثيرة ، ففتحها ، وكانت مغلقة ، فإذا فيها قعب خشب ومصحف وسرير سعف وقدرة ؛ ولم تكن

---

(١) ولقب نفسه سند الهادى وحياة المستجيبين . نهاية الأرب .

(٢) فى نهاية الأرب أن الأخرم شخص آخر يسمى حسن بن حيدرة الفرغانى ، وقد ظهر قبل أنوشتكين النجارى ، فى سنة ٤٠٩ ، وبينما كان يسير فى موكبه فى أحد الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ وأوقعه عن فرسه ووالى الضرب عليه حتى قتله ؛ فأمر الحاكم بقتله لوقته . ونهب الناس دار الأخرم بالقاهرة . نفس المصدر .

(٣) واسم القاضى – قاضى القضاة – أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى العوام . توفى سنة ٤١٨ . النجوم الزاهرة : ٤ ، ١٨٣ : حاشية ٣ نقلا عن الكندى .

فتحت قبل ذلك[1] ، فرأى بالسرير » وأخذ أعداءه وهدم بيعة قمامة فى سنة ثمان وثمانين وثلثمائة » ؛ وخرج رسمه إلى الوزير على لسان خادم أن يكتب : أمرت حضرة الإمامة بهدم قمامة ، وأن يُجْعل علُّوها خفضا ، وسماؤُها أرضا .

وبلغه [١٧٠ ا] أن المغاربة تلعنه ، فقرب الفقهاء المالكية وأمرهم بتدريس مذهب مالك بن أنس فى الجامع . وكان يحب العلماء ويقدم مايرد فيه ، وإذا رأى رأيا عزم عليه وأمضاه . وكتب إليه رجل : إن فلانا مات وخَلّف مالا ، فوقع بخطه على ظهر الرقعة : السعاية قبيحة إن كانت صحيحة . وكتب إليه آخر : إنَّ فلانا مات وخلف بنتا ، وقد أخذت جميع مال أبيها ، فوقع على ظهر الرقعة : المال مال الله ، واليتيم جبره الله ، والسّاعى لعنه الله ، وعلى مذهبنا يجوز أن ترث البنت جميع مال أبيها . ومنع النساء الخروج من البيوت ، فقيل إن فيهنّ من لاتجد من يقوم بشأنها فتموت جوعا ، فأمر الباعة بالتطواف فى السكك وأن يبيعوهن من خلف الأبواب ويناولوهن بمغارف طوال السّوَاعد . وكان أمر ألاّ يكشف مغطًّى ، فسكر رجل ونام فى قارعة الطريق وغطى نفسه بمنديل ، فصار الناس يمرّون به ولايقدر أحد أن يكشف عنه . فمرّبه الحاكم وهو كذلك، فوقف عليه وقال له : ما أنت ؟ فقال : أنا مغطًّى ، وقد أمر أمير المؤمنين ألاّ يُكشَف مغطًّى . فضحك وطرح عنده مالا ، وقال : استعن بهذا على ستر أمرك . وقرر الحاكم بعد ابن الفرات ذا الرياستين قطب الدولة أبا الحسن على بن جعفر بن فلاح ، واستمرّ إلى أن قتل الحاكم .

انتهى ماذكره ابن أبى طى ، وفيه تحامل شعر به واحد من مؤرخى مصر ذكره .

وقال الروحى على ماحكاه عنه ابن سعيد : ولم يزل الحاكم خليفة إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، فخرج ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال ، فطاف ليلته كلها على رسمه

---

(١) وقد حدث هذا فى سنة أربعمائة ؛ وكان الذى فتح الحجرة القائد ختكين الضيف العضدى الداعى ، وحضر معه إلى مصر جماعة من العلويين فرد الحاكم عليهم السرير وأخذ الباقى وقال أنا أحق به ، فانصرفوا داعين عليه . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٢٢ .

وأصبح عند قبر الفقاعى(١) ، ثم توجه إلى شرقىّ حلوان ، وتبعه ركابيان ، فأعادهما . وبقى الناس على رسومهم يخرجون يلتمسون رجوعه إلى يوم الخميس سلخ الشهر المذكور ، ثم خرج خواص من بطانته فبلغوا دير القُصير ، ثم أمعنوا فى الدخول فى الجبل ؛ فبينما هم كذلك إذ بَصُروا بالحمار الذى كان راكبه على قُنّة الجبل وقد ضربت يداه بسيف فأثر فيهما وعليه سرجه ولجامه . وتُتبّع الأثر فقاد إلى أثر الحمار فى الأرض وأثر راجل خلفه وراجل قُدّامه ؛ فلم يزالوا يقصّون هذا القصّ حتى انتهوا إلى البركة التى فى شرقىّ حلوان ، فنزل فيها رجل فوجد فيها ثيابه وهى سبع جباب ، ووجدت مزررة فيها آثار السكاكين ، فلم يشك فى قتله(٢) . فكانت مدته ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر ، وكانت ولايته خمسا وعشرين سنة وشهرا . وكسفت الشمس يوم موته . وكان جوادا بالمال سفّاكا للدماء قتل عددا كثيرا من أماثل دولته وغيرهم صبرا ، وكانت سيرته من أعجب السير .

قال : ومنع النساء من الخروج إلى الطُّرقات ليلا ونهارا ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف المنجدّة لهن ؛ فأقمن على ذلك سبع سنين وسبعة أشهر إلى خلافة الظاهر .

قال أحمد بن الحسين بن أحمد الروذبارى فى كتاب(١) الأُدباء على مانقله ابن سعيد : وقتل الحاكم ركابيا له بحربة فى يده على باب جامع عمرو بن العاص وشقّ بطنه بيده . وعمّ بالقتل بين وزير وكاتب وقاض وطبيب وشاعر ونحوى ومُغَنّ ومختار وصاحب ستر

---

(١) كان فى طريق الذاهب من القاهرة إلى ناحية البساتين ، وموقعه اليوم قرافة سيدى عقبة على بعد ٥٠٠ متر تقريبا غرب مسجد سيدى عقبة وقبلى مسجد الإمام الشافعى . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨٥ : حاشية : ٤ .

(٢) يقول ابن تغرى بردى فى صدد الخطة التى دبرتها أخت الحاكم لقتله إنها أعطت العبدين اللذين أحضرهما سيف الدولة ابن دواس سكينين من عمل المغاربة تسمى الواحدة منهما « يافورت » ولهما رأس كرأس المبضع الذى يفصد به الحجام . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٨٧ .

(١) فى الأصل هنا كلمة لم أهتد إلى قراءة سليمة لها حتى بعد الاستعانة بما لدى من مراجع .

وحمّامىٌ وطباخ وابن عم وصاحب حرب وصاحب خَبر ويهودى ونصرانى ، وقطع حتى أيدى الجوارى فى قصره . وكان فى مدته القتلُ والغيلة حتّى على الوزراء وأعيان الدولة يخرج عليهم من يقتلهم ويجرحهم . وخطفت العمائم جهاراً بالنهار ، وكان لعبيد الشراء فى مدته مصائب وخطوب فى الناس . وكان المقتول ربّما جُرّ فى الأسواق ، فأوقع ذلك فتنة عظيمة .

قال : كان الحاكم يركب حمارا يسمّى القمر ويعْبرُ به على النّاس . وكان له صوفيّة يرقصون بين يديه ولهم عليه جارٍ مستمر . ووقف رجل للحاكم فصاح عليه ، فمات لِوَقْته . وكانت غيبته إلى يوم جلوس ولده الظاهر ثلاثة وأربعين يوما .

قال ابن سعيد عن مجموعٍ وقف عليه : وواصل الحاكم فى ركوبه الوقوف على المعروف بابن الأزرق الشواء ومحادثته بدار فرح ، وخلع عليه وأجازه . وفى يوم استدعى الحاكم أحد الركابيّة السودان المصطنعة [٧٠ ب] ليحضر إلى حانوت ابن الأزرق الشواء ، فوقفه بين اثنين ورماه برمح ، ثم أضجعه ، واستدعى سكينا فذبحه بيده ، ثم استدعى شاطورا ففرق بين رأسه وجسده ، ثم استدعى ماء فغسل يده بأشنان ثم ركب . وحُمل المقتول إلى الشرطة فأقام ليلة ثم دفن بالصحراء . ثم بعث المؤتمن بعد ثلاثة أيام فنبشه وغسله وأنفذ إليه أكفانا كفن بها ، ثم أمر قاضى القضاة بالصلاة عليه ، وأمر ألا يتخلف أحد فحضر الشهود وأهل السوق ، وصلى عليه قاضى القضاة ، ودفن بالقرافة ، وواراه قاضى القضاة وجعل التراب تحت خده ، وأمر ببناء قبره وتبييضه فى وقته ؛ ففُعل ذلك . وتظلم إليه رجل فى ركوبه إلى مصر فى ناصح الركابى ، فوقف عليه وسأل ناصحا عن دعواه فظهر أنها صحيحة ، فأمر أن يدفع ماله إليه ، فلم يجد معه فى الوقت ذلك القدر ، فألزمه ببيع فرسه الذى كان راكبا عليه ، فباعه ووفّى الرجل ما كان له عليه ، كل ذلك بحضرته وهو واقف على ظهر دابته ، ثم سار .

وقال الفوطى : كان الحاكم أجود الخُلفاء بماله ، وبه تفشت حاله فيما سفكه من الدماء التى لايحصيها إلا الله . وكان الأمر فى مدة العزيز فيه انحلال وعفو كبيرعن الناس ، وظنوا أن ذلك يجوز فى مدة الحاكم وجروا على رسمهم ، فتجرّد له منهم مُطّلع على جميع أمورهم غير مُطّرح لعُقوبة ، فهلك الجم الغفير منهم . وكان فى مدة أبيه العزيز بالله قد تكشف على أقوام ممن يطعن فى الدولة ويسىء المقالة فيها ، فلما صارت له الخلافة انتقم منهم أشد انتقام وعمّهم بالعقوبة .

قال : ومن حكايته المشهورة فى العدل أن رجلا عربيا ورد على مصر من سجلماسة[1] يريد الحج ، فأودع ماله عند رجل فى السوق ، فلما عاد من الحجّ طلب ماله فأبى أن يدفعه إليه . فتوَصّل إلى أن أطْلَع الحاكم على أمره ، فقال له اجلس فى دكان مقابلا لدكانه ، فإذا جزت فى ذلك السوق فاعمل كأنك تعرفنى وكأنى أعرفك . فلما مر الحاكم وقف على الرجل وسأل عن حاله وأكثر معه الوقوف ، وانصرف فجاء الرجل الذى عنده الوديعة إلى الرجل وأكب عليه وسأله الصفح عما سلف منه ، وأحضر إليه جميع ماله . فعرف الحاكم بذلك ، فأصبح الذى أنكر الوديعة مقتولا معلقا برجله .

وكان نقش خاتمه : بنصر الولى العلى ينتصر الإمام أبو على[2] .

---

(١) مدينة فى جنوب المغرب الأقصى ، بينها وبين فاس عشرة أيام ، وتقع على طريق من يريد غانة التى كانت – ولا تزال – تعرف بإنتاج الذهب معجم البلدان : ٥ : ٤١ .

(٢) سبق فى أثناء الحديث عن سنة ثلاث وأربعمائة أن نقش خاتمه كان : « بنصر الله العظيم الولى ينتصر الإمام أبو على » .

وخطب له معتمد الدولة ، أبو المنيع قرواش بن المقلد[1] بالموصل والأنبار وقصر ابن هبيرة[2] والمدائن .

ومن خط ابن الصيرفى يروى أن الإمام الحاكم بأمر الله قال لبعض الأعيان الذين شرفهم بمجالسته وميزهم بمحاورته ، فقال : أكلت حتى شبعت ، وشربت حتى رويت ، والشّبعُ والرّىُّ غايتا الأكل والشرب ؛ فإذا قلتَ ونمت ، فنقول : حتى إذا أىّ شىْ جعلته غاية النوم ؟ فلم يحر جوابا ورغب إلى كرمه فى الإفادة ، فقال نمت حتى ريثت ، والروث غاية النوم ، وأنشد :

فأما تمـــيمُ بن مُرٍّ فألفاهُمُ القومُ روثاً نياما[3]

(١) رأس أمراء بنى عقيل ، أصحاب الموصل ؛ تولى الإمارة بلقب معتمد الدولة بين سنتى ٣٩١-٤٤٢ (١٠٠٠-١٠٥٠) وقرواش ، بفتح القاف ، معناه بالتركية عبد أسود . النجوم الزاهرة : ٥ : ٤٩ ؛ وضبطه ابن خلكان بكسر القاف ؛ Mohammadan Dynasties

(٢) تنسب إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الذى كان قد تولى العراق من قبل آخر الخلفاء الأمويين ، مروان بن محمد ؛ بنى هذا القصر قرب الأنبار ، وقد دخله السفاح بعد إعلان الخلافة العباسية وأتمه وسماه الهاشمية ، لكن الناس ظلوا يطلقون عليه اسمه القديم . معجم البلدان : ٧ : ١١٢ - ١١٣ .

(٣) هذا البيت غير مكتمل الاتزان عروضيا .

الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على ابن الحاكم بأمر الله أبى على منصور

أمه أم ولد تدعى رقية ، ويقال اسمها آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز ، وإنّ ست الملك سلطانة ، أخت الحاكم ، كانت تعادى آمنة هذه . ومولده بالقصر من القاهرة على مضى ثلاث ساعات من ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان ، سنة خمس وتسعين وثلثمائة ؛ وبويع بالخلافة فى يوم عيد الأضحى سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، وله من العمر ست عشرة سنة وثلاثة أشهر(١)

واتفق فى هذا اليوم أن صُلِّى للحاكم فى خطبة العيد ، ثم بويع الظاهر بعد عودة القاضى من المصلَّى ، فكان بين الدعاء فى الخطبة للحاكم وبين أخذ البيعة للظاهر ثلاث ساعات ، ولم يتفق مثل ذلك .

وتوفى ببستان الدكة(٢) خارج القاهرة ، فى ليلة الأحد النصف من شعبان سنة سبع

(١) قال صاحب النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٤٧ ، نقلا عن مرآة الزمان ، إنه ولى الخلافة وله من العمر ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام . وذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان : ١ : ٤٦٣ - ٤٦٤ أنه تولى بعد فقد أبيه بمدة ، لأن أباه فقد فى السابع والعشرين من شوال ، وكان الناس يرجون ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده الظاهر فى يوم النحر . ويذكر ابن الأثير : ٩ : ١١٠ أن الجند أقاموا خمسة أيام بعد غياب الحاكم ثم اجتمعوا إلى ست الملك وحدثوها فى أمر غيبته فأجلتهم يومين ؛ فلما كان اليوم السابع ألبست أبا الحسن على ابن أخيها الحاكم أفخر الملابس والجند مجتمعون للموعد المحدد ، ثم صاح الوزير : ياعبيد الدولة مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فبايعوا له ، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله . (ويلاحظ أن ابن الأثير يكنيه أبا الحسن ويكنيه ابن خلكان أبا هاشم ، ويذكر صاحب النجوم الكنيتين معا) .

(٢) الدكة كان مكانها بستانا من أعظم بساتين القاهرة فيما بين أراضى اللوق والمقس ، وبه منظرة للخلفاء الفاطميين تشرف طاقاتها على النيل الأعظم ولايحول بينها وبين الجيزة شئ . وقد زالت بزوال الدولة الفاطمية وبنى الناس فى موضعه . الخطط : ٢ : ١٢٠ - ١٢١ .

وعشرين وأربعمائة ، وعمره إحدى وثلاثون سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام . ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، كانت فيها قصص وأنباء .

ذلك أنه لمّا [١٧١] فقد الحاكم استدعت السيدة ست الملك سيف الدولة حسين بن على بن دوّاس الكتامى إلى حيث كانت جالسة وقالت له : المُعّول فى قيام هذه الدّعوة عليك ، وهذا الصبى ولدك ، وينبغى أن تتولى الخدمة إلى غاية وسعك وتبذل فيها كل ما عندك . فقبّل الأرض وشكر ودعا ، ووعد بالإخلاص فى الطاعة ، وبلوغ ما فى القدرة والاستطاعة . فأخرجت علىّ بن الحاكم بأمر الله ولقبته الظاهر لإعزاز دين الله ، وألبسته تاج المعز جد أبيه ، وهو تاج مرصع بالجواهر الفاخرة ، وجعلت على رأسه مظلة مرصعة . وأركبته فرسا رائعا بمركب ذهب مرصع ، وأخرجت بين يديه الأمير الوزير رئيس الرؤساء خطير الملك أبا الحسن عمار بن محمد ونسيماً صاحب السيف ، فى عدّة من الأستاذين[1] تخدم . فلما برز وشوهد تقدم الوزير وصاح : ياعبيد الدولة ، مولاتنا تقول لكم هذا مولاكم أمير المؤمنين فسلموا عليه ، فقبل ابن دَوّاس الأرضَ ومَرّغ خدَّيهْ بين يديْهِ ، وفعل ما يتْلُوهُ من سائر طبقات العسكر مثل ذلك ، وضربت البوقات والطبول ، وعلا الصياح بالتكبير والتهليل ، والظاهر يسلم على الناس يمينا وشمالا . وفتحت أبواب القصر ، وأُدخل الناس على العموم حتى سَلّموا ومدحوا ، ولم يزل واقفاً لهم إلى الظهر . ثم صُرفوا وجُمعوا من غد وأُخذت البيعة عليهم ، ووضع العطاء ، وأطلق مال الفضل للجند كافة ، ولم يجْرِ خلافٌ من أحد ، إلا أنَّ غلاما تركيا كان يحمل الرمح بين يدى الحاكم قال لا أُبايع حتى أعرف خبر مولاى ، فأُخذ وسُحب على وجهه وغرق فى النيل ، وقامت الهيبة .

---

(١) الأستاذون : الخدام والطواشية ، ومنهم أرباب الوظائف المختصون بشئون الخليفة واحتياجاته ، وأعظمهم مكانة الأستاذون المحنكون الذين يديرون عمائمهم على أحناكهم ، وهم أقرب الخدام إلى الخليفة ، ومنهم من يحمل رسائل الخليفة إلى الوزير ، ومن يشرف على إعداد مجلسه . . . الخ . . صبح الأعشى : ٣ : ٤٧٧ .

وكُتب إلى بلاد الشام والمغرب بوفاة الحاكم وقيام الظاهر ، ورسم لهم أخذ البيعة على نفوسهم ومَنْ عندهم من سائر طبقات الناس . وأقيمت المآتم على الحاكم فى القصور والقاهرة ثلاثة أيام . وجمعت السيدة عامة أهل مصر وخاطبتهم بالجميل والملاطفة ، ووعدتهم حسن السيرة والمعاملة ، وأمرتهم بذكر حوائجهم ومصالحهم فى كل وقت ، والمطالعة بِحَيْفٍ إن لحقهم من عامل أو ناظر ليفعل فى ذلك ما توجبه السياسة العادلة . وأطلقت للنساء الخروج من منازلهن والتصرّف فى أمورهن . وارْتجعت جواهر كان الحاكم وهبها ، وحلّت إقطاعا ، أقطعها ورتبت الأمور ترتيبا أصلحها وهذبها .

وزارت ابن دوّاسٍ فى منزله ، وجعلت مصادر التدبير على يده . فلما أحكمت ما أحكمته وأكّدَت ما أكّدته ، أحضرت ابن دوّاس وقالت له : قد علمَت ما بينى وبينك من المواثيق والعهود ، وأنا امرأة ، وإنما أريد هذا الملك لهذا الصبى ؛ وقد أحسن الله المعونة ، وأجرى الأمور على المحبة ؛ وأنت زعيم الدولة فيها والمنظور إليه منها ؛ وقد رأيت أن أُنجِزَ وعدك وأظهره ، وأَرُدّ إليك أمر السيادتين ، مضافا إلى الشرطتين ، وأجعل أمرك فى الأمور والخزائن نافذا ، ورأيك فى التقريرات والتدبيرات معتمدا ، إذ كنت المولى المخلص والشريك المخالط ؛ وأشرفك بِخِلَع وحُمْلان[1] يظهر للخاصّ والعامّ بها موضعك ومحلك ، وتخصّصك وتحققك . فادخل الخزائن واختر كل ماتريد لفخامته ولجلالته ، واطلب يوماً تختار لتفاض فيه عليك الخلع ويُقْرَأ العهد بتقليدك . فلما سمع من ذلك ما سمع سُرّ به وقبّل الأرض شكرا عليه . وشاع هذا الحديث فركب الناس إليه وهنئوه بالنعم المتجردة له .

وأحضرت السيدة بعد ذلك كاتب ابن دوّاس وقالت له : قد تقدمنا إلى سيف الدولة بما عرفته ، وبما اعتمد التخفيف فيما أطعِمه أو وقف فيه دون الغاية التى نريدها ، وينبغى لك أن تعمل أنت تذكرة بجميع ما يستوفى فيه شروط المنزلة التى قدمناه إليها ، والحال

---

(١) الحملان بالضم ، مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة . القاموس المحيط .

التى أَهّلناه لها ، وتستظهر له لا عليه فى ذلك ، وتحضرها لنقف عليها وننجز ما فيها . فقبّل الأَرض وقال : السّمع والطّاعة . فقالت له واكتُب أيضا رقْعةً واذكر فيها مبلغ جَارِيك لنوقع بإِضْعَافِه ، وقد أمرنا عاجلاً باعطائك ألف دينار وعشرين قطعةً ثياباً وبغلين بمركبين . فأَعاد الشكر والدعاء ، وصار إلى [٧١ب] ابن دواس فأَعلمه ما خوطب به وعومل به من حسن الاعتقاد فيه ؛ فتضاعف سروره بذلك ، ووافقه على ما كتب به التذكرة من الثياب ، والسيوف المحلاة ، والمناطق المرصعة ، والدواب والمراكب الذهب الثقيلة ، وغير ذلك من أسباب التشريفات الزائدة ؛ وعاد الكاتب بها فعرضها ، وتقدم باعداد جميع ما فيها ، وكتب له العهد . وأُحْضِر ابنُ دوّاس وبنو عمه وكاتبه ، وامتلأَ القصر بالخاصّة والعامة ، وخرج مِعْضَاد الخادم ، وكان قريبا من السيدة ، وهو أُستاذ الظاهر ، فحمل ابن دوّاس إلى الخزانة حتى يشاهد ما أُعد له ، وكان عظيما جليلا ، وقال له : السيدة تقول لك إن أَردت مزيدا فاطلبه ، فقبّل الأَرض ودعا ، وعاد فجلس فى صُفّة على باب السّتر ووجوه الدولة بين يديه ، وكل منهم يتطأْطأ له ويعطيه من نفسه كل ما يتقرب إليه به .

فلما تعالى النهار خرج نسيم الصقلبى صاحب الستر والسيف ، وبين يديه مائة رجل تعرف بالسّعدية ، يختصون بركاب السلطان ويحملون سيوفا محلاة بين يديه ، ويعرفون لأَجلها بأَصحاب سيوف الحلى ؛ وقد جرت عادتهم فى أيام الحاكم بأن يتولوا قتل من يُؤْمَر بقتله . وقال لابن دوّاس : أمير المؤمنين يسلم عليك . فقام وقبل الأَرض ، وفعل الناس مثل ما فعله ؛ وقال : قد جعل هؤلاء القوم – يعنى أَصحاب السيوف – برسمك إكراما لك وتنويها بك . فقبّل الأَرض ثلاثا ومرّغ خديه ، ودعا هو والحاضرون للظاهر بما يُدعى لمثله به ؛ ووقف القوم قياما بين يديه . فعاد نسيم فألْقى ماجرى ، فرسمت له السيدة أن يخرج ويضبط أبواب القصر بالخدم والصقالبة ، ففعل . وقالت له بعد ذلك ، اخرج وقِفْ بين يَدَىْ ابن دوّاس وقل : ياعبيد مولانا ، أمير المؤمنين يقول لكم هذا قاتل مولانا

الحاكم . وَاعْلُه بالسيف وأمر العبيد السعدية بأن يقتلوه . فخرج نسيم ومعه جماعة من الصقالبة وفعل ما أمر به ، وأخذ رأس ابن دوّاس ودخل به إلى حضرة السيدة فوضعه بين يديها .

فأمرته بإيفاد الصقالبة[1] إلى دُورِه والتوكيل به والقبْض على جميع أسبابه ، وقتل كاتبه ، وإخراج جثته ورميها على باب القصر ، ففعل جميع ذلك . ولم يعترض فيه معترض ؛ وتفرق الناس .

وأُحضِر مَوْجَودُ ابن دوّاس فوجدت فى بعض صناديقه السكين التى كان يحملها الحاكم فى كُمّه أخذت عند قتله . وأقامت جثة ابن دوّاس ثلاثة أيام ، ومناد ينادى عليها : هذا جزاء من غدر بمواليه ؛ ثم دُفِع إلى عبيده فدفنوه .

وقبضت السيدة بعد هذا على خطير الملك عمار بن محمد . وكان يتولى ديوان الإنشاء وإليه زم[2] المشارقة والأتراك ، وهو الواسطة بين الحضرة وبين هذه الطوائف ؛ ثم خلع عليه فى جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وأربعمائة ؛ ووقّع عن حضرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله على ما يوقع عليه الحاكم ، فجعل توقيعه : الحمد لله رب العالمين ، ثم قام بعد الحاكم بالبيعة لأمير المؤمنين الظاهر كما تقدم . وفى سنة اثنى عشرة خُلع عليه للوساطة وكتب سجله بذلك ؛ وزال أمره فى ذى القعدة من السنة المذكورة ، فكانت مُدّةَ سبعة أشهر وأياما ؛ وقتل فى الحج .

وولى بعده بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسن ، وكان يتولى الشرطة السفلى ثم خلع عليه أولا بالصعيد فى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة ؛ ثم ولى ديوان الإنشاء

---

(١) الصقالبة جماعة حمر الألوان صهب الشعور تجاور بلادهم بلاد الخزر (عند بحر قزوين – الخزر) وبعض بلاد الروم ، وكانوا يصلون إلى مصر مع النخاسين تجار الرقيق ، تكاثر عددهم أيام الفاطميين حتى أصبحوا يكونون عنصرا هاما من عناصر الجيش والحرس الفاطميين .

(٢) وظيفة الزمام من وظائف الأستاذين المحنكين يشرف شاغلها على ديوان بعينه أو على فئة بعينها من الخدم أو جماعة الحرس . . . الخ .

عوضا عن ابن خيران ؛ وخلع عليه للوساطة فى محرم سنة ثلاث عشرة عوضا عن خطير الملك ؛ ثم قبض عليه فى العشرين من شوال منها فى القصر ، فاعتقل وزال أمره ، وكانت مدة وساطته تسعة أشهر . ثم أخرج فى يومه مسحوبا ، وسجن ، ثم أخرج من الغد وقتل فى الفج ؛ فوُجد له من الْعَيْن ستمائة وعشرون ألف دينار .

وقَتَلت السيدة جماعة ممن كان اطّلَع على سرّها فى قتل الحاكم ، وعظمت هيبتها فى نفوس الأباعد والأقارب .

وفى سنة ثمان عشرة شرب الظاهر الخمر وترخّص فيه للناس وفى سماع الغناء وشرب الفقاع ، وأكل الملوخية وسائر أصناف السمك ، فأقبل الناس على اللهو .

وكان قد وَلِيَ حلب غلام يعرف بأمير الأُمراء عزيز الدولة أبى شجاع فاتك الوحيدى، غلام مَنْجُوتكين ، فى شهر رمضان سنة سبع وأربعمائة ، وكان أرمنيا ديّنا عاقلاً ؛ فولاه الحاكم بأمر الله [١٧٢] حلب وأعمالها ، ولقّبه أمير الأمراء وعزيز الدولة تاج الملّة . ودخل حلب يوم الأحد ثانى شهر رمضان منها ؛ وتمكن من البلد واستفحل أمره وعظم شأنه ، فعصى الحاكم(١)،ودعا لنفسه على المنبر ، وضرب السكة باسمه . فمات الحاكم عقب ذلك . فلاطفته السيدة وآنسته ، وواصلته بما مال إليه من حمل الخلع والخيول بالمراكب فى سنة اثنتى عشرة حتى استمالت قلبه . ولم تزل تُعمل الحيلة حتى أفسدت عليه غلاماً له يعرف ببدر ، كان يملك أمره وغلمانه تحت يده ، وبذلت له العطاء الجزيل على الفتك به ، ووعدته أن تقيمه مقامه فى موضعه . وكان لعزيز الدولة غلام هندى يهواه ويحبه حبا شديدا ؛ فاستَغْواه بدر وقال له : قد عرفتُ من مولاك ملالاً لك وتغيُّراً منه فيك ، واطّلعتُ منه على عَزْمةٍ فى قتلك ، ودفعته دفعات عنك لأننى لا أشتهى أن يتمّ مكروه عليك .

---

(١) فى الأصل : فعصى على الحاكم .

وتركه مدة ووهب له دنانير وثيابا ، وأظهر له المحبة ، وتوصّل إلى أنْ خلابه ثم قال له : إنْ علم نبأً التعير عزيزُ الدولة قتلنا ، وما إشفاق على نفسى وإنما إشفاقى عليك . فقال له الصبي : فأى شيء أعمل يامولاى ؟ قال : قدعرفت محبتى لك ، وإن ساعدتنى اصطنعتك وأعطيتك ، وعشنا جميعا فى خفض وأمن . قال له : فارسم ما شئت حتى أفعله ؛ قال : تحلف لى حتى أقول لك ؛ فاستحلفه وخدعه ، ووافقه على قتل عزيز الدولة . فقال له الصبي كيف أقتله ؟ قال : الليلة يشرب ، وسأزيد فى سقيه حتى أسكره ؛ فإذا استدعاك على الرسم لغمزه[1] ونام فقم كأنك تهريق ماء ، فخُذْ سيفه واضربه حتى تفرغ منه . فقبل الصبي وصيّته . وكان عزيز الدولة فى الصيد ؛ فلما عاد دخل الحمام وخرج منه فأكل ثم انتقل إلى مجلس الشراب ، وحضر من جرت العادة بحضوره من نُدَمائه ، ثم قام فى آخر وقت وقد تبين فيه السكر ، والصبي بين يديه يحمل سيفه حتى وَافَى إلى مرقده واستلقى على فراشه ؛ وأمر الغلام أن يغمزه . فلما مضى هزيع من الليل وثقل عزيز الدولة فى النوم وتحقق الصبي ذلك سلَّ السيف وضربه به ، وكان سيفا ماضيا ، ففلق رأسه ، وأتبع الضربة بأخرى فقتله . ودخل بدر وشاهده ميتا ، فصاح ، واستدعى غلمان الدولة وأمرهم بقتل الصبي ، فقتلوه ؛ وحَوّط الخزائن والقلعة .

وشاع قتل عزيز الدولة ؛ وكان ذلك فى ليلة السبت الرابع من شهر ربيع الاخر سنة ثلاث عشرة . وكتب بدر إلى السيدة بقتله ، فأجابته ، وأظهرت الوجد على عزيز الدولة ، وشكرت بدراً على ما كان منه فى ضبط الأمر وحراسة الخزائن ؛ ولقبته وفىّ الدولة ، وقلدته موضع مولاه ، ووهبت له جميع ما حازه .

---

(١) غمزه يغمزه مثل نخسه . القاموس المحيط . ولعل المقصود به مايسمى بالتكبيس الذى يقوم به بعض الخدم أو الجوارى للسادة قبيل النوم .

وكان سديد الدولة على بن أحمد الضيف ناظرا بالشام[1]، فتلطف ببدر غلام عزيز الدولة حتى تسلم البلد منه والقلعة ، وولاها أصحاب الظاهر . وسبب ذلك أن كتابا وصل إليه من الظاهر بخطه يطيّب نفسه ، وأظهر هذا الكتاب فى حلب، فى أيام الملك رضوان أخذه من بعض أهلها ؛ وكان فى ورق إبريسم أسمر عريض ، فيه ثلاثون سطرا بخط وسط . وكان صدر الكتاب : عرض بحضرتنا يابدر - سلمك الله - ما كتبت على يد كاتبك ابن مدبر ، وعرفنا ما قصدته ، ولم نُسِئ ظناً بك لقول فيك ولا شناعة ذكر . وقد بعثنا بأحد ثقاتنا إليك وهو على بن أحمد الضيف ليجدّد الأخذ عليك . فلما دخل ابن الضيف على بدر بالكتاب استرسل إليه وطرح القيد فى رجليه ، فقبض عليه وأنزله من القلعة . وأقام بحلب سنة . وسلمها موصوف الخادم إلى أصحاب الظاهر وثقاته .

وفى سنة ثمان عشرة وأربعمائة فى ذى الحجة والناس يطوفون بالكعبة قصد رجل دَيْلَمِى من الباطنية الحجر الأسود فضربه بدبوس فكسره ، وقتل فى الحال ، وقتل معه جماعة ذكر أنهم كانوا معه وعلى اعتقاده الخبيث[2] .

ولما تسلم بدر مدينة حلب من عزيز الدولة فاتك بقى بها سنتين ، ثم ملكها موصوف

---

(١) يعرف القلقشندى بوظيفة ناظر نظار الشام فيقول « وهو الذى يقوم مقام الوزير بالديار المصرية » السلوك : ١ : ٦٦٧ : حاشية : ٣ .

(٢) جاء فى النجوم الزاهرة : لما وصل الحاج المصرى إلى مكة المشرفة وثب شخص من الحاج إلى الحجر الأسود وضربه بدبوس كان فى يده حتى شعثه وكسر قطعا منه ، وعاجله الناس فقتلوه . ثم ينقل عن هلال الصابى كتابا كتبه الظاهر يبدؤه بالنعى على جماعة ذهبت فى الغلو فى على بن أبى طالب أمدا بعيدا وادعت فيه ماادعت النصارى فى المسيح ؛ ثم نجمت عنها فرقة وقالوا فى آبائه وأجداده منكرا من القول وزورا . . ثم يتبرأ الظاهر من هذه الاتجاهات ويتطرق إلى حادثة الحجر الأسود ويستنكرها ويتبرأ من مرتكبها ، ويختم الكتاب بقوله « لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيما ومقاما جسيما أذكر به ماكان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج - لعنه الله - من إحراق البيت وهدمه وإزالة بنيانه وردمه » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٤٨ - ٢٥٠ . انظر أيضا : الكامل : ٩ : ١١٤ - ١١٥ .

الخادم . واستدعى منتخب الدولة أَنُوشْتَكِين الدِّزْبَرى(١) من قيساريّة(٢) ؛ فلما كان فى الرَّمْلة خرج إليه توقيعٌ بولاية فلسطين ، فدخلها فى المحرم سنة أربع عشرة ؛ فخافهُ حسّان بن مفرج بن دغفل [٧٢ب] بن الجراح ؛ وجرت له معه وقائع وحروب انتصر فيها الدِّزْبَرى على حسان وعظُم أمره . فسعى إلى به الوزير فقبض عليه بعسقلان .

وكان قد ولى الوزارة الأمير شمس الملك المكين الأمين أبو الفتح مسعود بن طاهر الوزان بعد قتل بدر الدولة أبى الفتوح موسى بن الحسن فى المحرم سنة أربع عشرة ، ورُدّ إليه النظر فى الرجال والأموال .فجرى له مع نجيب الدولة على رسمه فيما يتولاه من ديوان تنّيس ودمياط ، والجيش الحاكمى ، ودواوين السيدة ست الملك ، ولا يكون لشمس الملك فى ذلك نظر .

وبعث الظاهر رسولا إلى بلاد إفريقية ، فقدم مدينة المنصوريّة لأربع بقين من جمادى الأولى ، ومعه تشريف جليل لشريف الدولة أبى تمم المعز بن باديس ، وثلاثة أفراس بسروج ثقيلة ، وخلعة ومَنْجُوقان(٣) قد نُسجا بالذهب على قصب من الفضة ، وعشرون بندا مذهبة ، وسجلّ لُقِّب فيه بشرف الدولة وعضدها . فتلقاه شرف الدولة ، وقرئ السجل بجامع القيروان .

---

(١) تحدث ابن القلانسى عن هذا القائد بتطويل فكان مما قال إنه تميز فى عمله بالشجاعة والشهامة وحسن السياسة والنصفة فى العسكرية والرعية وتشتيت شمل أولى الفساد من الأعراب وغيرهم . وذكر أنه لقب الأمير المظفر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالى . ومولده بلاد ماوراء النهر حيث سبي وبيع ، وتنقل فى الخدمة حتى وصل دمشق سنة ٤٠٠ فاشتراه القائد تزبر بن أونيم الديلمى . ثم انتقل إلى ملكية الحاكم سنة ٤٠٣ ، وصار يرتق حتى سيره مع سديد الدولة الضيف فى العسكر إلى الشام سنة ٤٠٦ . ثم تولى بعلبك ، ثم قيسارية ، ثم تنقل فى الوظائف حتّى انتهى إلى ولاية دمشق . ذيل تاريخ دمشق : ٧١ وما بعدها .

(٢) على الساحل الشامى ، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام . معجم البلدان : ٧ : ١٩٥ — ١٩٦ .

(٣) المنجوق . نوع من الأعلام والبنود .

وأهلَّ جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وأربعمائة بيوم الثلاثاء ، ففيه خلع على أبى الفرج بن مالك بن سعيد ثوب وعمامة مذهبان ، ورداء محشى مذهب ، وحمل على بغلة بسرج ولجام محلًّى ؛ وقلد قضاء تنّيس وسار إليها . وخلع على أحد أولاد ابن جراح ثوب مثقل مذهب وعمامة طائِرة ، وحمل على فرسين بسرجين ولجامين مذهبين . وفى غَدِه ركب الظاهر إلى نواحى القصور وعاد .

وفى ثالثه وصلت نحو المائة رأس من جهة ابن البازيار وشهرت .

وهلك محمدبن عبد الله بن المدبر بـأخذ الخطير عمار فى القصر . وفى رابعه وُكِّل بدكاكين الروّاسين فى جميع الأسواق ، وأخذ ما فيها من الرءوس[1]؛ وكان قد طلب خمسمائة رأس وألف رطل رقاقا .

وفى سادسه جلس الظاهر للسّلام ، ودخل الناس على رُسُومهم ، وانصرفوا . وفى ثامنه جُمع الناس كافةً إلى صحن الإيوان بالقصر ، وخرج رفق الخادم ومعه منشور وسجلّ ، فسَلَّم المنشور إلى أبى طالب على بن عبد السميع العباسى الخطيب ، فرقى المنبر وقرأه على الكافة . فتضمن أن جماعة من أوغاد الأرياف يرتكبون الجرائم ويَحْتَمُون بـأهل الدولة من الولاة . فنُهُوا عن حمايتهم . فلما فرغ من قراءته استُدعِى أبو عبد الله محمد بن على بن ابراهيم النرسى ، نقيب الطالبيين إلى الخزانة الخاصة ، فخلع عليه ثوب دبيقى مذهب مصفف بـأطواق ، ومن تحته ثوب مصمت مذهب وغلالة مذهبة ، وعلى رأسه عمامة شرب مذهبة . وخرج وفى يده سجل يتضمن استمراره فى النقابة على عادته ، وكان قد أرجف بصرفه عنها .

---

(١) يقع سوق الرواسين على رأس سويقة أمير الجيوش ، وقيل له ذلك من أجل أن هناك خانا تصنع فيه الرءوس . وكان من أحسن أسواق القاهرة ، فيه عدة من البياعين ، ويشتمل أيضا على نحو عشرين حانوتا مملوءة بأصناف المآكل . الخطط : ٢ : ٩٥ .

وفى تاسعه ركب الظاهر فى عساكره إلى عين شمس ، وعاد . وفى يوم الجمعة حادى عشره كان نَوْرُوز القبط ، وانتهت زيادة النيل فيه إلى أربعة عشر ذراعا وأصبع واحد .

وفيه خطب بجامع راشدة على منبره خطبتان فى وقت واحد . وذلك أن أبا طالب على ابن عبد السميع خطب بهذا الجامع بعد سفر العفيف البخارى إلى الشام بأمر قاضى القضاة، فسعى ابن عُصْفُورة ببعض الخدّام حتى خرج له الأمر بأن يخطب ، فخطبا معاً أحدهما دون الآخر . ثم استقرّ أبو طالب فى الخطابة وأن يخلُفَه ابن عصفورة .

وفى ثالث عشره ركب الظاهر لفتح الخليج وسدّ البلد إلى الصّناعة[1] ، فطُرِح بين يديه عشارى[2]. ثم سار على شارع الحمر إلى سدّ الخليج ، ففتح بين يديه ولعبت العشاريّات فيه ، وكان يوما حسنا . وكان عليه وقت نزوله إلى مصر قميص طميم مذهب ، وعلى رأسه شاشية مرصعة ، وعاد وعليه ثياب بيض دبيقية مذهبة وعمامة شرب مسكى مذهبة .

وفى ثانى عشريه وصلت هدية من المحدث بأسوان ، وهى عشرون فرسا ، وثمانون بُخْتِيًّا وعدّةُ عبيد وإماء سُودَان ، وفهد ، وغنم نُوبية ، وطيور ، ونسانس ، وأنياب فيلة .

وفى ثلاثة أيام ، آخرها سلخه ، انصرف ماءُ النِّيل انصرافاً فاحشا ولم تَرْوَ منه الضِّياع، وكثُر ضجيج الناس واستغاثتهم ، وخرج أكثرهُم بالمصاحف منشورةً إلى الجبل يدعُون الله

---

(١) المقصود فتح سد النيل عند منطقة فم الخليج . وقد تقدم شئ من التعريف بهذا الاحتفال .
والمقصود بالصناعة دار الصناعة « الترسانة » وهى المكان المخصص لإنشاء وتعمير السفن والمراكب بأنواعها: حربية وتجارية أو للنزهة . وقد نقلت دار الصناعة زمن الفاطميين إلى منطقة المقس فى موضع ميدان رمسيس ، أو محطة مصر ، الحالى . لكن يظهر من النص هنا أن هذا الاحتفال كان يقام فى موقع دار صناعة مصر (الفسطاط) التى كانت على ساحل مصر جهة الشرق وهى التى أنشأها الإخشيذ . وكانت أول دار للصناعة فى مصر الإسلامية بجزيرة الروضة على ساحلها الجنوبى الشرقى . الخطط : ١ : ٤٧٠ — ٤٩٣ .

(٢) العشارى سفينة صغيرة للنزهة وللخلافة بصفة خاصة ، وهى من طابقين أعلاهما لمجلس الخليفة ووزيره وخاصته ، وأسفلهما للحوائج والمأكولات والأدوات التى يحتاج إليها فى النزهة ، وللنوتية . وكان العشارى الذى يركبه الخليفة لفتح سد الخليج لا يحمل إلا الخليفة والوزير وعدة قليلة من الخاصة لا تجاوز أصابع اليد الواحدة . النجوم الزاهرة : ٤ : ١٠٠ .

فلم يُغَاثوا . وتعذر وجود [٧٣ ا] الخبز ، وازدحم الناس على شراء الغلال ، ووقف سعر التلِّيس على دينار إلا أنه لا يوجد إذا طلب ، وأبيع سراً التليس القمح بدينارين ، والحملة الدقيق بدينارين وربع ، والخبز أربعة أرطال بدرهم ، وثمن الحمل الدقيق بعشرين درهماً[١]

وأهلَّ شهر رجب بيوم الأربعاء . وفى ثالثه توجه أبو القاسم بن رزق البغدادى فى الرسالة إلى الحجاز .وفى خامسه خلع على داوود بن يعقوب الكتامى ثوب مثقل وعمامة ، وقلِّد الحسبة والأسواق والسواحل ، فنزل فى موكب عظيم وبين يديه اثنتا عشرة نجيبة تحيطُ به إلى مجلس الحسبة بمصر ، فنظر فى الأسعار عوضا عن ابن غرة فاستقامت الأحوال . وقُلِّد ذُو القرنين أبو المطاع بن الحسن بن حمدان الإسكندرية وأعمالها غربا وأُمِّر ولدُه فاضل ولُقِّب عظيم الدّولة ، واستقر عوضه والى البلد .

وفيه قرئ بالإشراق سجل برفع المناكر وترك التظاهر بشى منها ، وألا يخرج النساء من بعد العصر إلى الطُّرقات بالقرافة ، وأن تُنَزَّه هذه الأشهُر الشّريفة عن المناكير ، وألا يجتمع الناس كما كانوا يجتمعون بالجزيرة والجيزة وبالقرافة على شئ منها ومن المحظورات ، وأن يمنع الغناء ظاهرا إلا بالقضيب فإنه مباح .

وفى ثامنه قُلِّد محمد بن عبد الله بن مدبر ديوان الخراج شَرِكَةً . وركب الظاهر إلى مسجد تبر ، وعاد . وفى غده تعذَّر وجود الخبز ، وأُمِر ببلِّه فى الماء فى القصارى ؛ قيل وبيع ثلاثة أرطال بدرهم ، ثم وجد . وفتحت مخازن جماعة من أهل الدولة .

---

(١) التليس مائة وخمسون رطلا مصريا والحملة ثلثمائة رطل . قوانين الدواوين : ٣٦٥ . وهذا شئ غريب : أن يكون تليس القمح ، وهو مايوازى نصف حملة الدقيق وزنا ، بدينارين بينما تكون حملة الدقيق بدينارين وربع دينار . ويذكر ابن مماتى أن الرطل المصرى يساوى مائة وأربعة وأربعين درهما . قوانين الدواوين : ٥٤٥ .

سنة خمس عشرة وأربعمائة[1] :

أهلَّ المحرّم بيومِ السبت . وفى تاسعه أُخِذ رجلٌ يقال له أبو زكريّا ، كان نصرانيا فأسلم ، وكتب الحديث وقرأ القرآن ، وحجَّ ، ثم ارتد إلى النصرانية وقال : ما عمِل فىَّ سحرُ نبيكم ؛ فضرب عنقه بعد ما ثبت عليه هذا . وفى ثالث عشره أُخِذ كتابىٌّ يعرف بأحمد بن طاطوا وعليه أثر السَّفر ، فزعم أنَّه ورَدَ من الكوفة ،وأنه كان مع الحاكم بأمْر الله ، أرسله إلى الناس لينتْهوا عمّا هُم عليه ؛ فضرب عنقه .

ولسبع عشرة بقيت منه سار أبو القاسم بن رزق البغدادى إلى صِقِلِّيَة بسجلٍّ وهدية فيها مغنّيات من القصر . وفيه ركب الظاهر إلى نواحى عين شمس وعليه ثوب بِنْكِىٌّ[2] أحمر معلم[3] مذهب ، على رأسه عمامة شرب بِنْكِىّ مذهب ؛ وعاد .

ولِعشْر بقين منه امتنع شمس الملك الأمين المكين أبو الفتح مسعود بن طاهر الوزان من النظر فى الوساطة حنقا من الشريفين العجميين ، لأنهما يتولَّيان الأمر دونه ، ومكاتبة أعمال الشام وغيره ، وقراءة التَّخريج[4] ، وعَرْض كتب البريد وكتب المُطْلَقات ؛ وأقام فى داره ثلاثة أيام . فاستدعاه الظاهر وأمره بالعود إلى خدمته ، فعاد إلى النَّظر ، وجلس على رسمه على باب الذهب[5] يأمر وينهى .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من مارس سنة ١٠٢٤ . ويلاحظ أنه لم يرد ذكر مستقل للسنوات ٤١١ - ٤١٤ .

(٢) هذه كلمة إنجليزية الأصل تدل على اللون الوردى الخفيف Pink. وهذا تطويع للكلمة الأجنبية بتعريبها إذ لم يجد الكاتب بين يديه الكلمة العربية التى تحقق غرضه .

(٣) أعلمت الثوب جعلت له علما من طراز وغيره ، وهى العلامة . المصباح المنير .

(٤) لعل المقصود بالتخريج مايقوم به المستوفى الذى ينبه متولى الديوان على مايجب استخراجه من المال فى حينه ، ويقيم الجرائد ، ويقابل بكل مايرد عليه من حساب ، ويستوفيه ، ويخرج مايجب تخريجه فيه ، ويخرج الأموال ويعمل المطالبات . قوانين الدواوين : ٣٠١ .

(٥) من الأبواب الغربية للقصر الكبير الفاطمى ، وكانت تدخل منه المواكب وجميع أهل الدولة .

ولخَمْس بقين منه كان ثالث فِصْح النَّصارى ، فاجتمع بقنطرة المقْس من النَّصارى والمسلمين فى الخيام المنْصُوبة وغيرها خلق كثيرٌ طولَ نهارِهِمْ فى لَهوٍ وتهتّك قبيح ، واختلاط الرجال بالنساءِ وهم يعاقرون الخمر ، حتّى حُملت النساءُ فى قفاف الحمالين من شدة السكر ؛ فكان المنكر شديدا فى هذا اليوم .

وركب الظاهر فى موكب إلى المقس بعمامة شرب مفوطة بسواد ، وثوب دبيقى مُدَبَّر بسواد ، فدار هناك طويلا وعاد .

ولثلاثٍ بَقِينَ منه وردَ من أهل الريف زيادةٌ على خمسة آلاف رجل فارِّين من عُدّة الدولة وعمادها ، رفق الخادم ، متولى السيارة بأسفل الأَرض لعسفه . وقدم الخبر باجتماع العرب الهلاليين والكلابيين وبنى قرة وجهينة على الخارجى بالصعيد ؛ وبعث حيدرة بن نقْيايان ، مُتَولِّ الصعيد ، يطلب عسكرا ، فسُيِّر إليه خلقٌ من العبيد ، والباطلية ، والبرقية ، وغيرهم .

[وأهلَّ] صفر وأوله الاثنين . فى ثلاثٍ قدم الحاجّ وفيه خلائق من أهل خراسان ، معهم أمتعة ، ورسول صاحب خراسان[1] بهديَّةٍ إلى الظاهر ؛ فأُكْرِم وأُنزل . وكان من خبرهم أن حاجَّ خراسان تأَخَّر عن الحجّ فى سنتى عشرة وإحدى عشرة ، فاستغاث الناس بالسُّلطان يمين الدَّولة أبى القاسم محمود بن سُبُكْتكين[2] ، فتقدَّم إلى قاضى قضاة مملكته أبى محمد الناصحى فى الحج ، ونادى بذلك [٧٣ ب] فى أعمال خراسان ، وأَطلق للعربان ثلاثين ألف دينار سوى ما سَيَّرَهُ للصدقات ؛ فساروا وحجوا ، وعادوا سالمين . ثم حجُوا بعد ذلك فى سنة

---

(١) أبو على الحسن بن محمد المعروف بحسنك ، والى خراسان من قبل يمين الدولة محمود بن سبكتكين . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٦٠ .

(٢) صاحب غزنة . وكان قبل ذلك واليا بخراسان (قبل أن يخضعها سلاطين غزنة) . توفى سنة ٤٢١ (١٠٣٠) . معجم الأنساب ؛ Mohammadan *Dynasties*.

أربع عشرة ، ومنهم أبو على الحسن بن محمد المعروف بحَسَنَّك ، صاحِب عين الدولة والخصيص به ، وفى مهمته مايدفع إلى العرب فى طريق مكة وغيرها من رسومهم ؛ فدفع كلٌّ من استضعفه ، ووعدَ من قوِىَ جانبهُ وخِيفَت أذِيَّتَهُ بإزاحة عِلَّتِهم عند مرجعه ، واحتجَّ عليهم بالوَقْت وضِيقه وخِيفة الفَوْت ؛ فأخَّرُوا مطالبته . فلما قُضى الحجُّ وعاد بمن معه إلى المدينة النَّبوية اجتمع هو وأبو الحسن محمد بن الحسن الأَقساسى العلوىّ ، أمير الحاج البغدادى ، وعّدة من وجوه الناس ، للنظر فى أمر العرب ؛ فاستقر رأيهم على السير إلى الرَّملة من وادى القرى والمضىّ على الشام إلى بغداد . فساروا إلى الرَّملة ، وقدم الخبر بقدومهم إليها على الظاهر فى ثانىعشر صفر ،وقالوا إنهم فى ستين ألف جمل ومائتى ألف إنسان – بكتاب بعث به إليه الأَقساسى يستأْذِنهُ فيه على عبور بلاد الشام . فسُرَّ بذلك وكتب إلى جميع ولاة الشام بتلَقِّيهم وإنزالهم ، وإكرام مقدمهم ، وعمارة البلاد لهم بالطَّعام والعلف ، وإطلاق الصِّلات للفقهاء والقراء وإقامة الأَنْزَالِ الكثيرة لحَسَنَّك ، صاحب عين الدولة ، والتناهى فى إكرامه . وتقدم إلى مُقَدَّمى عساكر الشام بحفظهم والمسير فى صحبتهم، وأن يتسلمهم صالح بن مرداس[1] من دمشق ويوصلهم الرَّحبة[2]،ويدفع إلىالأَقساسى ألف دينار وعدَّةً كثيرة من الثياب ، وإلى حسنَّك مثل ذلك ؛ وقيد إليه فرسٌ بمركب ذهب . فساروا من الرَّملة مَوْفُورين مجبورين شاكرين حتى وصوا إلى بغداد ، وعرّج حسَنَّك عنها خوفا من الإنكار عليه . فاشتد ما فعله الظاهر على الخليفة القادر بالله ، وأنكر عودتهم على الشام ، وصرف الأَقساسى عما كان إليه وقبضه ؛ وأنكر علَى حسَنَّك ، وكتب فيه إلى عين الدولة ، واستدعى منه الفرس والقماش والخلعَ الواصلة إلى حسَنَّك

---

(١) أول أمراء الأسرة المرداسية التى حكمت حلب بين سنتى ٤١٤ – ٤٧٢ (١٠٢٣ – ١٠٧٩) .

(٢) هناك أكثر من رحبة من أشهرها رحبة مالك بن طوق على مسافة خمسة أيام من حلب وثمانية أيام من دمشق ومائة فرسخ من بغداد ، وهى على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا ، ولعلها المقصودة هنا . وهناك رحبة بضم الراء قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج إذا أرادوا مكة . معجم البلدان : ٤ : ٢٣٤ – ٢٣٩ .

لتُحرق ببغداد ؛ فبعث بها فى جمادى الآخرة سنة ست عشرة ؛ فأُحرقت بمحضر من الناس وسُبِك الذهبُ وفُرِّق على الفقراء . وغنم الظاهر حسن الثناء عليه من حاجّ خراسان وما وراء النَّهر ، لما كان من إحسانه إليهم وزيارتهم بيت المقدس .

وفى ثانى عشره وافى عماد الدولة رفق من السّيارة بعدة عظيمة وثلاثمائة رأس من الخيل والبغال فإنه أخذ كل فرس وجده ، وبين يديه سبعون بنداً مذهبة ، وعشرون مَنْجُوقاً ، فتلقاه جميع أهل الدولة . وكانت عدة من قتله فى هذه السفرة ، وهى خمسة وثلاثون يوما ، مائتين وثلاثة أنفس . وقدم زين الملك إبراهيم بن على بن مسعود مصروفا عن مدينة منور ، فتُلُقِّى وأُكرم .

وفى سادس عشره ركب الظاهر إلى ناحية عين شمس وعاد . وقدم الخبر من حسن بن جعفر الحسنى أنه أقام الدعوة للظاهر بعرفات وغيرها ، ومنع أهل خراسان من الدعوة لصاحبهم . ولثلاث عشرة بقيت منه ركب الظاهر إلى المشتهى[1] ، ودخل حمام نجاح الطولونى ، ثم ركب العشاريات فى النيل إلى المعتوق بالكوم الأحمر[2] ، وقطع له الجسر حتى عبره ، ثم عاد إلى القصر .

وفى يوم الجمعة لإحدى عشرة بقيت منه جُمع الناس كافَّةً إلى الإيوان بالقصر ، فلما اجتمع الناس فى صحن الإيوان خرج القائد أبو الفوارس معضاد ، الخادم الأسود ، وعليه ثوب طميم حسن وعلى رأسه عمامة شرب ، طائرة كثيرا ، بالذهب محرق اللون ، ومعه سِجِلٌّ قُرىء على العامّة والخاصّة بتلقيبه بالقائد عزّ الدّولة وسنانها أبى الفوارس معضاد الظاهرى ،

---

(١) المشتهى من المواضع التى أعدت للنزهة . الخطط : ١ : ٤٩٠ .

(٢) من أعمال الجيزية . قوانين الدواوين : ١٠٠ . وهناك مكان آخر عرف بالكوم الأحمر كان واقعا عند فم الخليج على جانبه الغربى ، ولعله المقصود هنا وقد سمى الكوم الأحمر من أجل أنه كان به أقنة الطوب . الخطط : ١ : ٣٤٥ – ٣٤٧ .

وأنَّ أمير المؤمنين لقَّبه وكناه ؛ وهو سجل بليغ . ثم حُمِل بعد قراءته على أربعة من الخيل بسروج مصفحة ثقال ، وعليه سيف ذهب تقلَّد به ؛ وخرج جميع المصطنعة وسائر القواد والناس معه إلى داره ؛ فكان يوما حسنا .

وفيه ورد الخبر بأن الثائر الذى قام بالصعيد الأعلى أنزل حيدرة بن نقيايان حتى حصل فى يده ، وكان شريفاً حسنيا ، فأقر أنَّه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرَّقوا [١٧٤ ا] فى البلاد ، فمنهم من مضى إلى برقة ومنهم من مضى إلى العراق ، وأنه أظهر له قطعة من جلد رأسه وقطعة من الفوطة التى كانت عليه . فقال له حيدرة ولم قتلته ؟ فقال : غِرْتُ لِله وللإسلام ؛ فقال : وكيف قتلته ؟ فأخرج سكينا فضرب بها فؤاد نفسه ، فمات بعدما قال هكذا قتلته . فقطع حيدرة رأسه وأنفذه إلى الحضرة مع ماوجده معه .

وقدم الخبر بوقوع الحرب بين بنى قُرّة ببرقة .

ولعشرٍ بقين منه جلس الظاهر فى قصر الذهب(1) بعد أن زُيِّن وبُسِط وعُلِّقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة ، وعُلق جميع السقائف كلها بالستور وفرشت بالفروش. وحضر أُمراء الأتراك وقد لبسوا أفخر ثياب من المثقل(2) والطميم ، وحضر جميع الكُتَاميين وسائر الجند ؛ ودخل الناس أجمعون ؛ ووقف شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان على يمين السرير ، وبقيةُ الناس وكافَّة عبيد الدولة قيام ، فلم يجلس أحد . وجى بالرسول الوارد من خراسان ومعه ابنٌ له صغير فقبّل التُّراب للظاهر ، ثم أمر أن يُطوَّف به القصر كلُّه ، فطاف جميع القصور المعمورة ؛ وقام الظاهر وانصرف الناس . ولثمانٍ بقين منه أهدى

---

(١) قصر الذهب هو قاعة الذهب ، إحدى قاعات القصر الكبير وكان يدخل إليها من باب الذهب ومن باب البحر ، وكلاهما من أبواب القصر الغربية . موضع القصر الآن خلف مدرسة النحاسين من شارع بيت القاضى وحارة بيت القاضى بحى الجمالية . النجوم الزاهرة : ٤ : ١١٣ . وكان الخلفاء يجلسون به للموكب يومى الاثنين والخميس وبه كان يعمل سماط شهر رمضان . الخطط : ١ : ٣٨٥ .

(٢) الثوب المثقل : المنسوج بخيوط الذهب .

هذا الرسول إلى الحضرة المطهّرة نحو خمس عشرة ناقة محمّلة ورَقاً طلحا وإهليلجا[١] وغير ذلك ، فقبل منه .

ولسبع بقين منه تُسُلّم ديوانُ الكتاميين من الأمير شمس الملك [مسعود بن طاهر] الوزان ، ورُدَّ النظر فيه إلى القائد عزّ الدَّولة معضاد ، فاستخدم فى تدبير أمواله أبا اليسر اصطخر بن مينا الأسيوطى شركةً بينه وبين صَدَقَةَ بن يُوسُف الفَلَاحى اليهودىّ الوافد ، ونظر هو فى أمر رجاله وفى التوقيع فى أيامهم . ثم بعد أيام أُخذ من شمس الملك بعض إقطاعه ، وقبض منه ، ورد إلى يمين الدولة سعادة وبقيت فى يده بقية الأعمال . وفى هذا الشهر سار ذو القرنين ابن حمدان[٢] إلى دمشق .

شهر ربيع الأول ؛ أوله الثلاثاء . فى خامسه وصلت هديّة والى الفيّوم ، وهى مائة وخمسون فرسا بأَجِلَّة . وفى سادسه خرج الأمر لابن خالد الغرابيلى ، متولىّ ديوان البريد ، بأن يُسلّم إلى صاحب ديوان الشام جميع ما يرد من حساب الشام ، ورُفِعت يد شمس الملك عنه . ورسم أن يكون الشيخ العميد محسن بن بدواس زماماً[٣] على أبى عبد الله مُحمَّد بن أحمد الجَرْجَرَائى فى ديوان الشام ، مفرداً عن نظر شمس الملك ؛ كما أُفْرد ديوان الكتاميين عن نظره. فصارت هذه العصبة منفردة بمَعْضَاد فى التَّدبير والتَّقْرير ، وهم الشريفان العجميان

(١) شجر عظام كالطلاح ، ككتاب ، والإهليلج شجر له ثمر ، منه الأصفر والأسود وهو النضيج ، ومنه كابل يحفظ العقل ويزيل الصداع وينفع فى الخوانيق . وكان بالقاهرة مكان يعرف بصحراء الإهليلج ، شرق الخندق ، تنتهى إليها عمارة خطة الحسينية بالقاهرة من جهة باب الفتوح ، وقد كثر بها شجر الإهليلج الهندى فعرفت به . الخطط : ٢ : ١٣٨ ؛ القاموس المحيط .

(٢) وهو الأمير وجيه الدولة أبو المطاع بن الحسن بن حمدان . وكان قد تولى دمشق قبل ذلك أيام الحاكم بأمر الله سنة ٤٠١ ، وتولاها للمرة الثانية سنة ٤١٢ ؛ وهذه هى المرة الثالثة . ذيل تاريخ دمشق : ٦٩ — ٧١ .

(٣) وهى وظيفة تشبه وظيفة المشارف ، واختصاصاته أن يكون عمل الديوان محوطا بضبطه ، محفوظا بخطه ، يكتب خطه على ما يرفع من الحساب وما يخرج من الوصولات .

والجرْجَرَائيان عصب الدولة أبو القاسم على بن أحمد وأخوه أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ومحسن بن بدواس (1) وابن خيران(2) . وفى رابع عشره خُلع على جناح بن يزيد الكتامى ، وحمل على فرسين ، وقُلِّد طبريّة .

وفى سابع عشرهِ ركب الظاهر وعاد . وفى هذا الشهر اشتد غلاء القمح ، وبيع التّلّيس بثلاثة دنانير ، والشّعير أربع ويبات بدينار ، والخبز رطلين ونصفا بدرهم . وعزّ وجود التبن فأُبيع الحمل بدينار ، وغلَت أصناف الحبوب وعامة مايؤكل . ولم يُرَ(3) النِّيل فيما تقدّم من السنين أقل نقصانا منه فى هذه السنة .

وفى ثالث عشريه ركب الظاهر إلى مسجد تبر ، وعاد . وفيه نزل القائد الأجل معضاد والشيخ العميد أبو القاسم الجَرْجَرائىّ ومحسن بن بدواس صاحب بيت المال إلى مصر ، فأثبتوا تركة (4) بنت أبى عبد الله بن نصر امرأة أبى جعفر (4) بن قائد القواد الحسين بن جوهر ، فوجد فيها (4) وبرادات مُكلَّلة بالجوهر ، وأمْرٌ جليل من المال والجوهر — لأن للسلطان منها الثلث .

وفى هذا الشهر أمر ببناء حظير دائرٍ على مقياس النيل بالجزيرة ، وَوُكل به الشريف أبو طالب محمد بن(4) العجمى متولى الصناعة ، فبناه بالحجر الأبيض ، وأنفق عليه مالا كثيرا . ونقل إليه الحجر من حَظير كبير كان مبنيا على الشاطئ بناحية طُرَا(5) .

---

(1) فراغ فى الأصل يسع نحو ثلاث كلمات .

(2) ولى الدولة أبو على بن خيران ، كاتب ديوان الانشاء : ذيل تاريخ دمشق : 80 .

(3) فى الأصل : ولم يزل النيل . . . والمثبت هنا أولى لمناسبته ارتفاع الأسعار وانعدام بعض الأصناف .

(4) مواقع هذه الكلمات بياض بالأصل كل منها يسع كلمة واحدة .

(5) فى الطريق إلى المعادى وحلوان . وكانت تعد من أعمال الإطفيحية التى تمتد جنوبا شرق النيل . انظر قوانين الدواوين : 82 – 83 ، 162 ؛ السلوك : 1 : 843 .

وفيه دخل كلبٌ إلى الجامع العتيق بمصر فطاف بالجامع بأسْره ، فقام إليه النّاس وقَتَلُوه فى الصّحن ، فجرى دمه على الحصر فغسلت بعد إخراجه من الجامع .

وقد وصلت هدّية من بلد النّوبة فيها عَبيد وإماء ، وخشب أبنوس ، وفيلة ، وزرافات

[٧٤ب] .شهر ربيع الآخر ، أوله الخميس . فى رابعه ورد الخبر بأن عبد الله ابن إدريس الجعفرى ومعه أحدُ بنى جرّاح طَرَقَ أيلة[١] ونهبها ، وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار وغلالا ، وسبى النساء والأطفال . وسبب ذلك أنه سأل حسّان بن جراح أن يُرَدّ إلى ولايته على وادى القرى[٢] ، ورغب أن يتوسط له مع الظاهر ، فلم يجبه ، ففعل ما فعل . فخرجت سريّةٌ من القاهرة لحربه .

وفيه نزل الظاهر إلى البيمارستان متنكرا فى عبيده ، فطافَهُ ، وأطلق لكلٍّ من المجانين خمسين درهما ، وللقيِّم عليهم خمسمائة درهم ؛ ورسم بعمارته وإجْراء الماء إليه على رسمه ، وأن يُطْبَخ للمجانين كلّ يوم ما يأكلونه بعد أدويتهم . وفى ثامنه قدم الخبر بنهب عبد الله بن إدريس بلد العريش وإحراقه وأخذ جميع ما كان فيه بمعاونة بعض أولاد ابن جراح . وفيه اجتمع فى قافلة المغرب خلق من التجار ومعهم من الأموال قريب من مائتى ألف دينار بالجيزة ، فأُنْذِرُوا بطائفة من العبيد والجّوالة والقيْصَرِيّة قد تجمعوا لنهبهم فبعث معهم نحو ثلثمائة فارس وأربعمائة راجل ، وساروا إلى المغرب .

---

(١) مدينة معروفة على قة القلزم ، أول حدود الحجاز ، كانت محطة للقوافل وجمع المكوس فى الأزمنة المتعاقبة ، بينها وبين القدس ست مراحل . من أخبارها أنه فى سنة ٥٦٦ كان الفرنج قد ملكوها وتحصنوا بقلعتها فأنشأ صلاح الدين سفنا وحلها مفصلة على الجمال ثم جمعها بعضها إلى بعض عند حصنها فى البحر فأكل حصارها حتى تمكن من فتحها . معجم البلدان : ١ : ٣٩١ ؛ كتاب الروضتين لأبى شامة ، الخطط التوفيقية : ٨ : ١٠٦ – ١٠٧ .

(٢) يطلق على البلاد الواقعة بين دمشق وأطراف الحجاز ، وقد يمتد هذا الإطلاق إلى أطراف المدينة المنورة . قارن معجم البلدان : ٨ : ٣٧٥ .

وفى ثامن عشره جلس الظاهر للناس فى المجلس الذى كان يجلس فيه أبوه بقصر الذهب ، ودخل الناس إليه من باب العيد على طبقاتهم . ودخل ناصر الدولة حسين بن الحسن ابن حمدان ، مُتَولى طرابلس ، وقد صرف عنها ، فتُلُقِّى بالبنود وعدّتها أربعون بنداً ملوّنة ، وخمس بنود مذهبة ، وعدة من الطبول ؛ فقبّل التراب ، ثم قبل يد الظاهر ، هو والشريف الحسنى ابن موسى المقيم بدمشق ؛ ووقفا ؛ فأُمِرا بالجلوس على يسار القائد معضاد فجلسا . ثم انقضى السّلام وانصرف الناس . فلما كان وسط النهار نزلت طائفة من جوارى القصر فى طائفة من الخدم إلى دار الجوهر ودار الصرف ودار الأنماط ، فابتاعوا ما أحبوا . وعادوا .

ولِسَبع بقين منه ركب الظاهر بغير مظلّة فى عساكره ومراكبه إلى مسجد تبر ، وعاد ؛ ثم نزل عقب ذلك مختفيا إلى الجزيرة والبساتين . وركب من الغد فى العشاريّات إلى الجيزة وماوالاها ، وعاد . وفى عشيّة السبت ، لِستٍّ بقين منه ، غرِق حَدَثٌ فى النيل ، فطرده الماء إلى الشط ، وأراد أهلُه حمله ، فمنعهم أصحاب الشريف أبى طالب العجمى ، متولّى الصناعة ، من ذلك ، وطالبوهم عنه بدينارين وقيراطين ، واجب الصناعة من حقّ مَنْ غرق فى النيل ، فدفع إليهم ذلك ، وحمل الرجل حتى غسل ودفن فى يوم الأربعاء .

ولليلتين بقيتا منه جلس الظاهر فى قصر أبيه بباب الذّهب على سريره المصقول المذهب ، وعليه ثوب دبيقى معلم ، وعمامة شرب مثقل مذهبة ، وتحته فرش دبيقى مذهب ، ودخل الناس من باب العيد فسلموا ، وجلس مَنْ عادتُه الجلوس ساعة ؛ ثم انصرفوا .

وفى هذا الشهر ارتفع السعر من أجل أن المراكب الواصلة بالقمح أُخذت كلُّها ورُفعت إلى القصر من المقس . وفيه طاف العامّة والسُّوقة أسواق مصر بالطُّبول والأبواق يجمعون من التُّجار والباعة ما ينفقونه فى مضيِّهم إلى سجن يوسف ، فقيل لهم شُغْلُنا بعدم الأقوات يمنعُنا عن هذا . فأَنْهَوْا حالهم إلى الظاهر ، فرسم لشاقى الدولة أبى طاهر بن

كافى ، متولى الشرطة السفلى ، بتقرير الرسم على التجار حتى يدفعوا إلى العامة ما جرت به رسومهم ، وأُذن لهم فى الخروج إلى سجن يوسف ، ووُعدُوا أن يطلِقَ لهم الظاهر ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبة ، فخرجوا .

[شهر] جمادى الأُولى ؛ أوله الجمعة . فيه ركب الظاهر مبكرا مع حرمه وخدمه إلى المشتهى فأقام يومه . وفى ثالثه ركب بعساكره إلى عين شمس وعاد .

وكان الشريف أبو طالب بن العجمى صاحب الصناعة قد تنكر على ابن أبى الرّدّاد ، وأهانه ، وتقابحا فى الخطاب ، فضربه الشريف واعتقله . فأقام قاضى القضاة أبو العباس أحمد بن أبى العوام مشارفين على ابن أبى الرّدّاد ، لِسؤاله القاضى فى ذلك ، وهما أبوالحسن سليمان بن رستم ، والخليل بن أحمد بن خليل ليُنْهِيا إليه مايصحّ من أمر المقياس ، فوجدا مجارى الماء مسدّدَة ، ووجدا ابنَ الرّدّاد يتناول فى كل سنة خمسين ديناراً لكنس المجارى ، ووجدا الماء قد [١٧٥] انتهى إلى حدٍّ ، فلما فتحت المجارى طلع الماءُ إلى حدٍّ أكثر من الحدّ الذى كان عليه

وفى رابعه نزل صقلبى من صقالبة القصر بمنشورٍ معظّم إلى قاضى القضاة ، وهو بالجامع العتيق ، فأمره بقراءته على المنبر ، فأراد أبو طالب على بن عبد السّميع العباسى أن يتولى قراءته دُونَ أخيه أبى جعفر ، وهو الأكبر ، وقد صرف عن قراءة السجلات وليس له إلاّ خطابة الجامع العتيق . فقال له أبو جعفر : ويحك : ماتحتشم منى لسِنّى ولأنّنى أخوك الأكبر ، ولأنّنى هُرِعتُ لمولانا الحاكم بأمر الله ، قدس الله روحه ، وقَدْهَمّ بضرب عنقك حتى خلّصتك من القتل وضمِنت له عَنْك التوبة والإنابة ! ! فدفع القاضى السجل إلى أبى جعفر ، فقرأه فوق المنبر على كافة الناس . ومضمونه أنه انتهى إلى أمير المؤمنين أن المستخْدَمين فى الصناعة يعتمدون تعويق من ينزل البحر من النّاس ، ويمنعون القوارب

من إنقاذ مَنْ يلتمس الخلاص منهم ليأخذوا على ذلك واجباً قد أقامه متولى الصناعة ، محمد الحسينى العجمى ، على كل غريقٍ دينارين ونصفا ؛ وأنّ ذلك لما أُنْهى إلى حضرة أمير المؤمنين أنكره وأكبره ، ومنع من أخذ درهم واحد فما فوقه عما هذا سبَبُه ، والمنع منه . فكثر الدعاءُ للظاهر .

وفى ثامنه ركب الظاهر فى خاصته وخدمه إلى الرُّمَيْلة بظاهر المقس ، فطاف طويلا ثم عاد .

وفى تاسعه ركب القائد الأجل عز الدولة ومصطفاها معضاد الخادم الأسود فى جميع الأتراك ووُجُوه القواد ، وشقَّ مدينة مِصر إلى الصِّنَاعة ، ثم خرج منها وعدّى بِمَنْ معه إلى الجيزة ، حتى رتب للظاهر عسكرا يقيم معه هناك ، وأخذ فى يوم الاثنين حادى عشره أربع عشاريات وأربعة عشر بغلا من بغال النقل ، ومعه خاصّته وحرمه إلى سجن يوسف . وعاد منه يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت منه . وركب فيه إلى مسجد تبر وعاد .

وأقام أهل الأسواق نحو الأُسبوعين يطوفون الشوارع بالخيال والسماجات والتماثيل ، ويطلعون إلى القاهرة بذلك برسم أمير المؤمنين ، ويعودون ومعهم سجلٌ قد كتب لهم بألّا يُعَارَض أحدٌ منهم فى ذهابه وعودته . و لم يزالوا على ذلك إلى أن تكامل جميعهم . وكان دخولهم من سجن يوسف فى سادس عشره ، فشقوا الشارع بالخيال والسماجات والتماثيل، وتعطَّل الناس فى ذلك اليوم عن أشغالهم ومعايشهم، واجتمع خلق كثير لنظرهم . وظل الناس أكثر هذا اليوم على ذلك ، وأطلق لهم ثمانية آلاف درهم وكانوا فى اثنى عشر سوقا .

وفى عشريه قَتَل طائفة من القَيصرية غلاما من الأتراك ، فركب الأتراك بالسلاح وقاتلوا القيصرية ، فتكَافُوا ، ولم يجسُر أحد منهم على الإيقاع بصاحبه . وفى ثانى عشريه ركب الظاهر النِّيل ومضى إلى بستان السّيّدة العمة ، ثم إلى خيمة وردان لأنّهم مقيمون

فى الجزيرة للتنزه هناك . ولم تزل العشاريات تلعب فى البحر الليل كله والمسرة متصلة بينهم ؛ فقدم فى آخر النهار مركب يحمل حطبا من الصعيد ، فقلب نُوتيّته وقطع الجسر ، وغرق مركبان منه ، وقطع ثلاث قطع ، وغرق عشاريان بمن فيهما .

وفى هذا الشهر كوتب أبو الحارث نقيان بن محمد بن نقيان الخيملى ، متولى حرب تنيّس ودمياط ، بالمسير إلى حلب ليتسلمها عوضا عن محمد سند الدولة أبى محمد الحسن ابن محمد بن نقيان الكتامى عند وصول هديته إلى الحضرة ؛ فسار . وكان من خبر مدينة حلب أن عزيز الدولة فاتكا لما قتل وأُقيم من بعده غلامه بدر مكانه ، ثم قَبض عليه علىّ بن الضيف ، وأقام بحلب سنة ، وولى سند الدولة أبو محمد الحسن بن نقيان فنزل صالح بن مرداس الكلابى على حلب ونازلها ؛ وقد كره الناس ابن نقيان وموصوفًا الخادم لسوء سيرتهما ، فسلّموا البلد إلى صالح . والتجأ ابن نقيان وموصوف إلى القلعة وتحصّنا بها ؛ فاستخلف صالح على مدينة حلب أبا منصور سليمان بن طوق ، ومضى إلى بعلبك فملك قلعتها بعد حرب ، وقتل جماعة من أصحاب الظاهر . واجتمع هو وحَسّان بن جَرّاح وإخوته ، وسنان ابن عليان على فلسطين وتحالفوا [٧٥ ب] على اجتماع كلمتهم ومحاربة الظاهر ، وتقاسموا البلاد كما سيأتى ذكره إن شاء الله .

وأما ابن طوق فإنه حصر قلعة حلب حتى أخذها بمباطنة من أهلها وأمسك ابن نقيان وموصوفا ، فقتل ابن نقيان فى يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الآخر من هذه السنة ، واعتقل موصوفا . فركب أبو الحارث بن نقيان البحر من تنيّس إلى طرابلس ، ودخل حلب يوم الأحد سابع عِشْرى جمادى الأُولى هذا ، وملكها ، وسمىّ سابق الدولة أبو طاهر بن كافى متولى الشرطة السُّفْلى بمصر من قِبَل بدر الدولة بأخذ تنّيس ودمياط ، واستخلف أخاه جلال الدين على الشرطتين العليا والسفلى من قبل بدر الدولة .

وفى رابع عشريه ركب الظاهر إلى طرف الخندق وعاد ؛ ثم ركب من الغد إلى مسجد تبر وعاد .

[شهر] جمادى الآخرة ، أوّله الأحد . فيه جلس الظاهر للنّاس للسّلام عليه ، فدخلوا على رسومهم ، فسلّموا وانصرفوا . وفى رابعه ركب إلى مسجد تبر فى عساكره ، وعاد ، فطلب الببغاء من الطّيور فحمل إليهم منها شىء كثير ، فابتَاع ما أحبّ بأَوْفَر الأثمان . وفى ثامنه جلس للسلام ، فدخل الناس فسلموا وانصرفوا ؛ ثم ركب إلى المشتهى . وركب فى ثانى عشره إلى مسجد تبر فى مواكبه ، فلقيه عند سقاية ريدان خادمٌ أسود يقال له عنبر ، كان مقربا للحاكم بأمر الله ، كثر كلامه فطردَتْه السيدة ، فقال : يا أمير المؤمنين خذ لنفسك ، فَوَحَقّ ما فى هذا المصحف ـ وأخرج مصحفا ـ إنّ أباك باقٍ ، وبعد قليل يجىء إلى قصْره ، وقد نصحتك . فقبض عليه واعتقل ، وقيل إنه اختلّ عقله .

وفيه قرر الشريف الكبير أبو طالب الحسنى العجمى القزوينى والشيخ نجيب الدولة أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدواس مع القائد الأجلّ معْضَاد أن يكون دخُولُهم على الظاهر الأخيرَ فى كل خلوة ، وأنّهم يكْفُونَه أمر الاهتمام بالدّولة ليتوفرّ على لذّاته ، وينفردوا بالتدبير . واستقر أمر الثلاثة على الدخول فى كل يوم على الانفراد وألاّ يُسْتَدعى معهم [أحد] . وصار شمس الملك مسعود بن طاهر الوزان ، ومظفّر صاحب المظلة ، وولى الدولة ابن خيران ، وداعى الدعاة ، ونقيب نقباء الطالبيين ، وقاضى القضاة ربما دخلوا فى كل عشرين يوما مرة ، وهؤلاء الثلاثةُ الذين يقضون ويُمضون ويشيرون ويفعلون فى أمر الدولة مايرونَه ، مع اجتماعهم بِمعْضَاد دونَ كلّ أحد .

وفى سابع عشره ركب الظاهر فى العساكر ورجال الدولة بأحسن زى وأكمل عُدّة ، وركب عبيد الدولة بالآلات والسلاح والطّريقة الحسنة والعُدّة الكاملة . وشقّ شارع مصر

إلى صناعة الجسر ، وعليه ثوب طميم مثقل وعمامة مذهبة طميم ، وعلى رأسه مظلّة حمراء مثقلة مذهبة ؛ فغيّر ولبس ثوبا دبيقيا أبيض مذهبا وعمامة شرب بيضاء مذهبة ، وركب فرسًا كُميْتًا وقف عند الصناعة ووجد الجدّ فى طرح مركب حربى جديد ، فتعذر طرحه ، فتركه وسار لفتح الْخَليج . فورد الْخَبر بأن سَيَّار الضيفَ متولى سد الخليج أمر بتخفيضه ليقرب أمره عند حضور أمير المؤمنين لفتحه ، فغلبه المـاءُ وانكسر السَّدّ . فلما وصل الظاهر إلى السّد وقف بجاذبه الشرقىّ ، وعبرت العشاريات مزينةً على العادة ، ولعبت ، ثم عاد إلى قصره ، فكان من الأيام المشهودة .

وفى تاسع عشره نودى فى مدينة مصر بألا يتعرض أحد لذبح شئ من الأبقار بوجه ولاسبب ، فإن مَنْ تعرّض لذلك حلّ دمه وماله ، لأن الناس عدموا العوامل[1] فى هذه السنة ، وكانوا على عادتهم فى ابتياع الفواكه والخمور والحيوانات ، إلا أنّ أمرهم فى ذلك كان أقلّ لِلْغَلاء وتعذُّر الأصناف . وضُرب فيه بالأجراس فى آخر النهار ألاّ يلعب أحد بالماء ببلد مصر فى يوم النَّورُوز ، ولا فى القاهرة . فطلع الجزّارون يستغيثون فى مَنْعهم من ذبح الأبقار ، وأن عندهم منها ما ابْتاعُوه وأنفقوا عليه فى عَلَفه حمل الدنانير ، وليس هو مايَعْمَل ولايصلحُ للزراعة ، فإن الرأس من البقر يُقوّم عليهم بمائة دينار وأكثر . وسألوا الإذن فى ذبح ما عندهم ، فأجيبوا إلى ذلك . وذبحوا فى هذه الثلاثة الأيام مالايحصى كثرة ، وبيع بطن البقر ولحمه رطلا بدرهم ، وازدحم الناس [١٧٦ ا] فى طلبه . فلما كان آخر

---

(١) المقصود بالعوامل مايصلح منها للحرث والسقى ونحو ذلك من عمل الفلاحة . وفى النجوم الزاهرة أنه كتب على لسان الظاهر فى هذا الصدد كتاب قرئ على الناس ، منه " إن الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الأنعام ، وجعل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض ، المذللة لمصلحة الخلق ، فإن فى ذبحها غاية الفساد ، وإضرارا بالعباد والبلاد " . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٥٢ . وقد أصدر الحاكم بأمر الله مثل هذا الأمر فى مناسبات مشابهة . وكان الحجاج ابن يوسف الثقفى من أوائل حكام المسلمين الذين اتخذوا مثل هذا القرار عندما ولى العراق للأمويين .

نهار الثلاثاء رابع عشريه ، وهو رابع النَّورُوز ، أحضر المحتَسِب الجزّارين والهرّاسين[1] ومنعهم من ذبح الأبقار ، فانقطع بيع لحمها من الأسواق .

وفي خامس عشريه ركب الظاهر إلى مسجد تبر في عساكره ، وعاد .

شهر رجب ؛ أوله الاثنين . في ثانيه ركب الظاهر إلى نواحي القصور وعليه عمامة ياقوتية مذهبة وثوب دبيقي بياضٌ مذهب بغير مظلة ؛ وعاد .

وفيه قدم الخبر بأن منتخب الدَّولة أنُوشْتكين الدِّزْبَرى متولى حرب فلسطين ، أنفذ إلى بيت جبرين[2] ، إقطاع حسّان بن جرّاح ، من قبض على أمواله ؛ فبعث إلى أعْوَان الدِّزبَرى وأخذهم وضرب أعناقهم . فلما بلغ ذلك الدِّزْبَرى قبض بالرملة على أبي الغول الحسن بن فيروز ، صاحب حسان ، وعلى كاتبه وسجنهما في حصن يافا مقيدين .

وفي رابعه زيَّن العامة أسواق البلد ، وخلَّقوا[3] وجوه الصبيان ، ونادوا بوفاء النيل ستة عشر ذراعا ، فخلع على ابن أبي الرّداد خلعا دبيقية مذهبة ورداءً محشوًّا مذهبا وعمامة شرب مذهبة ، وحمل على بغلين بسَرْجين ولجامَيْن مذهبين ، أحد السَّرجين مُصَفَّح ؛ وأُعْطِي ستَّ عشرة قطعة ثياب وثلاثة آلاف درهم . وبلغ الماءُ اصبعين من سبعة عشر ذراعا ، فكان يوما حسنا كثر فيه سرور الناس .

وفيه خلع على بقّ الخادم الأسود ، غلام بدر الدولة نافذ ، ثوب مثقل طميم وعمامة قاضي مذهبة ، وسيف ذهب ؛ وقُلِّد الشرطتين بمصر ؛ وحمل على فرس بسرج ولجام مذهب ،

---

(١) الذين يعملون الهريسة ، وهي اللحم المفرى . وكانت هذه الهريسة تعمل بكثرة في أيام الأعياد ، وفي القرافة في ليالي الصيف ، مع سائر المشروبات والحلوى المتنوعة وتباع مع الخبز بما يشبه " الساندوتش " في أيامنا هذه .

(٢) يعرفها ياقوت بأنها بليد بين بيت المقدس وغزة ، ومنها إلى القدس مرحلتان وإلى غزة أقل من ذلك ، وكان بها قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الصليبيين . معجم البلدان : ٢ : ٣٢١ .

(٣) الخلوق كصبور وكتاب ضرب من الطيب ، وخلقه بالخلوق طيبه وزينه . القاموس المحيط .

عوضا عن جلال الدولة[1] ابن كافى . ونزل إلى الشرطة السفلى فى جمع كثير ، فنظر فى الحسبة مضافا إلى الشرطتين ، وأمر أن يباع الخبز الجشكار كل خمسة أرطال بدرهم ، والحُوَّارَى أربعة أرطال بدرهم[2] . فغلقت الطواحين والحوانيت جميعها ، وأصبح البلد يوم الجمعة ، خامسه ، على حالٍ صعبة من تعذُّر الأخباز وعدم الدّقيق . فلما كان غداةَ يوم السبت ، سادسه ، أُعيد دوّاس بن يعقوب الكتامى للحسبة وصُرِف بقى عن الحسبة والشرطة ؛ فأقام يوما واحدا وانصرف . ونودى أن يكون الخبز الذى يباع فى الأفران خمسة أرطال بدرهم ، وتباع بقية الأخباز بغير تسعير ، فظهرت الأخباز بالأسواق ، وبيع الخبز السَّمِيد رطلين ونصفاً بدرهم ، وما دونه ثلاثة أرطال بدرهم .

وفى عاشره ركب الظاهر إلى نواحي القصور بغير مظلة ، وعاد .

وكانت ليلة النِّصْف من رجب ليلةً مشهودة ، حضرها الظاهر والسيدات وخدم الخاصة والمصطنعة وغيرهم ، وسائر العوام والرعايا ، وكان مجمعا لم يشهد مثله من أيام العزيز بالله . وأوقدت المساجد كلها أحسن وَقِيد[3] .

وفيه ورد الخبر بأن حسّان بن جرّاح [خرج] عن الطاعة . وكان سبب ذلك أنه فسد مابينه وبين الدّزْبَرى ، واستَوحَشَ كلٌّ واحد من الآخر ؛ فكتب الدّزْبَرى إلى الظاهر يذكُر له تغيُّر حسّان فى خدمته ، وفساد نيته فى طاعته ؛ ويستأذنه فى حَرْبه ؛ فكان ما تقدم

(١) بياض فى الأصل يتسع لكلمة واحدة .

(٢) الجشكار أردأ أنواع الدقيق والحوارى الدقيق الأبيض ، أو هو لباب الدقيق ، وهو العلامة أيضا .

(٣) يتحدث المقريزى عن ليالى الوقود (الوقيد) فيذكر أنه كانت توقد فيها التنانير والقناديل والشمع فى أماكن الاحتفالات ، ويصحب هذا بالإكثار من الأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة . ويذكر من ليالى الوقيد : ليالى الجمع والنصف من رجب ومن شعبان ، كما يتحدث عن مواكب الخلفاء والقاضى فى الموكب الرسمى ويصف هذا الموكب بما يدل على مدى احتفال الفاطميين بهذه الأعياد . ويذكر كذلك أن الحاكم بأمر الله أبطل مثل هذه الاحتفالات . كما يشير فى هذه المناسبة إلى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كان يصيح فى أهل مكة ويقول : يأهل مكة أوقدوا ليلة هلال المحرم فأوضحوا فجاجكم لحاج بيت الله واحرسوهم حتى يصبحوا . الخطط : ١ : ٤٦٥ – ٤٦٧ .

ذكره . ثم اتفق أن اعتلّ حسان علّةً أشْفَى منها ، وكثُر الإرْجاف به فيها ، وكتب أصحاب الأخبار بِذِكْرِها إلى الظاهر ؛ فكاتَب الدِّزْبَرِى بِقَصْده وانتهاز الفرصة فى أمره ؛ فسار إليه وهو بناحية نابلس . فبلغ حسان عن سيره ، وقد أبلّ من مرضه فاستنهض أهله وأصحابه ، وجمع نحواً من ثلاثة آلاف فارس ، وتلقى الدِّزْبرى ، فعاد إلى الرملة وحسّان فى إثره ، فحصره واستدعى رجاله من الجبال والشراة إليه ، فصار إليه منهم عدد كثير . وقاتله الدِّزبرى على باب الرَّملة ثلاثة أيام بلياليها بعد ما كبس حسّان طبرية ، ونهبها ، وقتل من بها ، وفرّ منها مُتولّيها مجد الدولة فتاح بن بويه الكتامى إلى عكا . فبلغ حسّان ، عن أخيه ثابت ، أنه انتهى إلى الدِّزْبَرى ، فبعث جريدة[1] كبست حلة ثابت ونهبتها .

وفيه أُفرد صَدَقَةُ بن يُوسف الفلاَحى بالنظر فى ديوان الكتاميين . وأقام الظاهر أياما لم يركب ولم يدخل إليه أحد .

وفى حادى عشريه ورد الخبر بأن حسّان بن جراح اجتمع مع سنان بن عليا ن بن البنا ، وانضم إليه سائر إخوته ، وساروا جميعا بظاهر فلسطين ؛ فقابلهم [٧٦ ب] الدِّزْبَرى كما تقدم ، إلى أن فارقه ثابت بن جراح ولحق بأخيه حسان . وقدمت نجدةٌ من صالح بن مِرْدَاس لحسّان ، فبعث الدِّزْبَرى يطلب من الظاهر نجدةً بألف فارس وألف راجل ، فجُرِّدت جماعة يسيرة ، ودُفع إلى كل فارس أربعون دينارا ؛ فاشتملت الجريدة على ألفَىْ فارس وراجل ، تولى النَّفقة فيهم معضَاد الخادم والشريف العجمى ونجيب الدولة الجرجرائى . فلم يخرج من الجريدة إلّا طائفة يسيرة مضَوْا إلى الريش ؛ وبطل أمر من تجرّد بعد ذلك .

وسُعِىَ بمحسن بن بدواس بأنه كاتب حسان بن جراح يحرّضه على الفتنة ، وكاتب ملك الروم[2] يُطْمعه فى الدولة . وانْتَصب له الطائفة التى تحضر عند الظاهر فى المعاملة .

---

(١) الجريدة الفرقة من العسكر الفرسان لا رجالة بينهم ، والفرقة من الجند إذا خرجت مسرعة من غير أثقال لمهمة تستدعى الإسراع فى الخروج . لسان العرب ؛ Dozy, Supp Dict. Ar.

(٢) وهو الإمبراطور باسيل الثانى .

وفى ثانى عشريه ورد الخبر بأن الدِّزْبَرى غُلِب عن مقاومة حسان ، ففرّ من الرملة آخر الليل فى عشرة من الغلمان الأتراك ، وسار فى ليلته إلى قَيْسَاريّة . وذلك أن حسّانا هجم برجاله على بعض حوانيت الرّملة ، وطرح النار ووضع السيف ، ثم دخل بجموعه ، بعد فرار الدِّزْبَرى ، إلى المدينة ، فنهبوا الأموال واستباحوا الحرم ، وقتلوا القتل الذريع . وعندما دخل حسّان إلى المدينة تَرجّل من باب البلد وقبّل التراب من باب المدينة إلى دار الإمارة ، ثم أحضر القاضى وشيوخ فلسطين وأشهدهم أنه عبد الدولة وخادمها وصنيعتها ، وداخلٌ تحت طاعتها ، وأنه لايبدأ أحداً من أهل البلد بسوء ، وإنما كره مقام الدزبرى فى الرملة ، وذكر سوء ما عامله به وأنّ ذلك أوجب قتاله ؛ وأن البلد لأمير المؤمنين يولىّ فيه من رغب فيه من عبيده ، فيسمع له ويطيع ، ويخدمه طاعة لله ولمولانا صلوات الله عليه . وأقام نصر الدين نزال واليا على الرملة ، وقال هذا عبد أمير المؤمنين وابن عبده ، يضبط البلد إلى أن يصل أمر أمير المؤمنين . فخُلع على القادم بهذا الخبر وكثُرَ السّرور به .

وفى ثالث عشريه خلع على سنىّ الدولة حمد ، ابن أخى الباهر ، وقلد سيارات أسفل الأرض عوضًا عن عدة الدولة بنى الخادم الأسود ، وحمل على فرس بسرج مصفح مغموس ، وألبس عمامة مذهبة وثوبا طميا .

وفى آخره ورد الخبر بأنّ حسّان بن جَراح إنما أظهر ماتقدّم ذكرُه حيلةً وخديعة . وذلك أنه أحضر العسكرية بالرّملة ، وقرأ عليهم ملطّفا وصل إليه من الحضرة يعتذر إليه فيه ، ويُعْلِم أنّ اعتقال أبى الغول وكاتبه لم يكن عن رأى أمير المؤمنين ، وإنما جرى من الدِّزْبَرى برأيه . فلما أوقف العسكرية على الملطف قبّلوا خطّ أمير المؤمنين وعرفوه ، أَمَرَهُم أن يسيروا به إلى عسقلان ويُوقِفوا أَهْلها عليه ، فإن كانوا تحت السمع والطاعة لِأَمْرِ أمير المؤمنين فليسلم الحسن بن سرور الأنصارى الكاتب إلىّ ، وإلاّ سِرْت إلى عسقلان ونقضتها حجرا حجرا ونهبتها وقتلت أهلها . فمضى العسكرية بالملطف إلى عَسْقَلان ،

وأوقفوا عليه الوالى والعسكر ، فسُلِّم إليهم أبو الغول ورفيقه . فلما وصلا إلى حسّان ركب لوقته وخَشَّبَ سبعين رجلا من العسكرية ، وقتل طائفة من الحمدانية وغيرهم ، ووضع السَّيْف والنَّهْب فى الرملة ، وأضرم النار فى الدور والحوانيت حتى جعلها دَكًّا ، وسبى النساء والأولاد ، وقبض على نحرير الوحيدى وأخذ منه أربعين ألف دينار . وأخذ من مبارك الدولة فتح ، المقيم بالقدس ، ثلاثين ألف دينار ، وأخذ جميع ما جَمَع الدِّزْبَرى .

وأُرْجف بمصر أن خمسمائة فارس بعثها حسّان إلى العريش ، ثم لم يُعْلَم أين قصدت ، فخاف الناس أن يَطْرُقهم فى القرافة ، فانتقل أهل القرافة إلى مصر ، وانتقل جماعة من بلبيس إلى مصر . فسار بديع الصقلبى فى الرسالة إلى حسّان . وتحرّك السعر بمصر ، واضطربت العامة . وندب مائة فارس من القيصرية للإقامة بالقرافة لحفظ الناس ، فإن الخوف اشتدّ حتى لم يَطْلعُ أحد إلى القرافة ، وتحمّلوا منها ، فمُنعوا من النُّقْلة وأُعيدوا إليها .

وجرت الأُمور فى هذه الشهور المباركة على ما كان الرسم جرى به من عمارة المساجد والجوامع وتكثير القناديل والزيت وكثرة [١٧٧ ا] الوقيد . وقد دخل الشريف العجمى إلى الظاهر ، فأظهر أنه يراعى أمر الدولة ويتخوف ما يجرى من الفساد ، فأمر الظاهر بأن يجتمع مع الشيخ نجيب الدولة أبى القاسم الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدواس ، صاحب بيت المال ، وأن يدبّر الأُمور بما يراه . فاستدعى المذكورين وقال لابن بدواس : احمل المال الذى عندك لينفق فى الرجال . قال : ما عندى إلّا يسيرٌ ، ووالله لو طلبتم منى دينارا واحدا ما مكَّنْتكُم منه لأنه موفور لخواص مُهِمّات مولانا صلوات الله عليه . فقال الشريف : فتَقْتَرض من التجار وتُصادر من تجب مصادرته ، فقال الجرجرائى : وأىّ مال مع التجار وتجار مصر هَلْكَى من الغلاء ؛ لكن إن أردتم المال فمِنْ أُمّ الحاكم بأمر الله ، قدّس الله روحه ، وعمته ؛ وبالجملة فقد أغنى الله مولانا ، صلوات الله عليه ، بتَوافرُ أمواله وتراث آبائه الأئمة الطاهرين عمّا نراه نحن أو نقوله بآرائنا . فأمسك الشريف عن غير رضا .

وفيه سُيّر جماعة من المجرّدين فى المراكب الحربية لحفظ حصون الشام ، فساروا إلى تنيس ودمياط ، ومضَوْا إلى صُور وطرابلس وغيرها . وجُرّدت طائفة إلى بلبيس لحفظها .

[شهر] شعبان ، أوله الأربعاء . فيه قدم أحد إخوة حسان بن جراح ، فتُلُقِّىَ وأكرم وأُنزل فى دار حسين بن جوهر ، وحمل إليه الفُرُش والآلات الفضة ، ونحو ذلك مما يصلح لمثله ، وأقيمت له الجراية . وضمن أنه يخرج مع العسكر إلى الرملة ، فخُلع عليه ، وحُمل على فَرسين ، وقُلّد بسيف ومنطقه ذهب .

وفى خامسه جلس الظاهر فى قصره للسلام ، ودخل الناس . فقال الكتاميّون : يامولانا ، صلوات الله عليك ، بلغنا شُغْل قَلب مولانا بأَمْر ابن جراح ، ومَنْ هذا الكلب حتى يُشغَلَ قلبُ مولانا ، صلوات الله عليه ، به وما مقداره ؟ ! والله يا مولانا إنَّ لك من العبيد ما لو أطلق مولانا سبيلهم عليه لقلعوه شعرة شعرة ، من عبيدك الكتاميين ، وعبيدك القيصرية ، والعبيد والباطلية والأتراك ، وسائر الطوائف والقبائل . غير أننا قد هلكنا والله يا مولانا فقرا وجوعا ، وليس لواحدٍ منا مالٌ يرجع إليه ، ولو كانت لنا أموال لكفينا هذا الأمر وغيره . فقال لهم : نسيم صاحبُ الستر : حسبُكم ياشُيوخ ، حسبكم ! فأمسكوا ، ولم يكن من الظاهر جواب .

وفيه ورد الخبر بأن حسّان بن جراح كتب إلى صالح بن مِرْدَاس يستدنيه ليقع الاجتماع على ما يدّبران أمرهما ، فسار صالح ونزل على حلب ونازَلَها وأخذها ، كما تقدّم ، وأخذ بعلبك ، وعظُم أمره . واجتمع هو وصمْصَام الدولة سنان بن عليان بن البنا على حسّان بفلسطين ، وتحالَفُوا على اجتماع الكلمة و أن يكونوا يداً واحدة على صاحب مصر ، وقسموا البلاد بينهم ، فصار لحسان الرملة إلى باب مصر ، ولمحمود أخيه طبرية وما يتصل بها

من الساحل ؛ ولسنان بن عليان دمشق وسوادها ؛ ولصالح ما بقى من الشام إلى عانة[1] . فاجتمع سنان مع صالح ومعهما حشود العرب ، وحصروا دمشق ونهبوا الغوطة[2] وسائر السواد ، وقتلوا فلاحى الضياع وانتهبوا أموالها ، وألحوّا فى قتال أهل دمشق . فاجتمع الناس بدمشق إلى ذى القرنين ابن حمدان ، متولّيها ، وقرروا أن يكون القتال يوّما يكون أمره [إليهم] ويوما يقاتل فيه عسكر السلطان . فاتصلت الحرب كل يوم ، وقتل من العسكر ومن أهل دمشق ومن العرب خلائق . ونُهِبتْ مواشى الناس من الضِّياع وغَلاّتهم وأموالهم ؛ فأُخذ لمعتمد الدولة .[3]   من ضياعه عشرة آلاف غرارة من القمح . وبعث حسان نجدة من رجاله إلى سنان ، وكان الشام بأسره قد اضطربت أحواله . وتغلبت العُرْبان على البلاد ، ونهبوا عامّة أموال أهلها .

وفيه قدم صاعد بن مسْعُود ، عامل الصعيد الأعلى ، باسْتدْعاء ، فغدا فى سادسه شريكا لصَدَقة الفلاحى فى ديوان الكتاميين .

وفى ثامنه قدم الخبر من دمشق بأن سنان بن عليان بن البنا لما وصلت إليه سريّة حسان ابن جراح ، وهى نَحْو الثلاثة آلاف فارس، طلب من أهل دمشق ثلاثين ألف دينار يقومون له بها معجلة ومؤجلة[4]، فمنعهم القاضى الشريف فخر الدولة [٧٧ ب] أبو يعلى حمزة ابن الحسن بن العباس بن الحسن بن أبى الجِنّ الحسين بن على بن محمد بن على بن إسماعيل ابن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ورأى أن يجمع ذلك

---

(١) عانة : بين الرقة وهيت مشرفة على الفرات ، كانت تعد من أعمال الجزيرة ، وبها قلعة حصينة . معجم البلدان : ٦ : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) الغوطة الكورة التى منها دمشق ، تحيط بها جبال عالية لاسيا من جهة الشمال ، ومياهها تخرج من هذه الجبال وتنحدر إلى الغوطة فى عدة أنهر ، والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة ، قل أن يكون بها مزارع للمستغلات . نفس المصدر : ٦ : ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) بياض بالأصل يتسع لكلمتين .

(٤) فى نهاية الأرب للنويرى : " فأجابه أهل البلد إلى ذلك فمنعهم الشريف ابن الحسن " .

وينفقه فى قتال العرب ؛ فوافقوه على ذلك وحلف الناس . وهدم دروب البلد وحملها إلى الجامع حتى لايمتنع أهل البلد بالدُّرُوب ويُخَلُّوا بين العسكر والعرب . ورُجِف بالناس، فاشتدّ القتال بينهم وبين العرب، وقُتِل من العرب نحو المائتى فارس، وأُصيب سنان بسهم، فطلب من الناس الصلح على ترك الحرب أربعين يوما . فلما تقرر ذلك خرج إليه الشريف ابن أبى الجن وشيوخ دمشق ووجوه الجند، وحَلَّفوا سنانا ووجوه العرب، فاستقرّ الأمر بينهم على هذا .

وورد الخبر بأن بنى قُرّة أقاموا إنسانا دَعَوْه بأمير المؤمنين ببرقة ، وحملوا على رأسه المظلة . وفيه ظهر فى النيل بأعمال أسفل الأرض فرس البحر .

وفيه ورد الخبر بأن التَّجريدة التى توجهت إلى تنِّيس طلبوا أرزاقهم وضيقوا على العامل ففرّ منهم إلى دمياط ، فعاثوا فى البلد وأفسدوا ، وقطعوا من يد عامل السلطان خمسة وعشرين قطعة ، وأخذوا من المودع ألفا وخمسمائة دينار . فخرج إليهم عنبر ، الزِّمام ، فى خمسين فارسا من عرفائهم للقبض على الجناة وتأديبهم واسترجاع ما أخذوه .

وقدم الخبر بأن حسان بن الجراح كتب إلى سنان يُوَبِّخهُ على ما فعل ويَحثُّه على معاودة الحرب ، ويَعِدُه بالمدد ؛ فعاد إلى قتال أهل دمشق بعد ما كان قد انصرف عنها . فإن حسانا بعد ما نهب الرملة وحمل منها أربعمائة جمل مُوقَرة مالاً وثياباً ومصاغا وغير ذلك ، بعثها إلى حِلَله وأضرم النار فى شوارعها ، وكسر الأمتعة ، حتى كان الناس يمشون فى بحَار من الصابون والزيت فى أسواق مدينة الرملة . ثم وصل كتابه يسأل فيه إضافة القُدس ونابلس إلى إقطاعه مُصانعةً له على الكفّ عن القتال ، وأن يُنْفَذ إلى أبى الغول ثياب من ثياب الظاهر التى يلبسُها وشاشيّة من شواشيه . فأُنفِذ إليه ذلك وأُجيب إلى إقطاع نابلس مضافا إلى إقطاعه ، ولم يُجَب إلى القدس .

وفى يوم السبت ثامن عشره دخل نسيم صاحب الستر بطائفة من الصقالبة إلى بيت المال

والشيخ العميد محسن بن بدواس جالس وبين يديه حُسْبَانَاتُه ، فقال له : اجمع يا شيخ هذه القراطيس واختمها . فجمعها وختمها بخاتمه ، ثم أقامه وختم الخزائن، وأخرجه راجلاً ، فاعتقله بحجرة من القصر . وركب رفق فختم بيت المال والخزانة الخاصة ودار ابن بدواس وسائر ما يتعلق به . فلما كان العشاء أخرج ابن بدواس فضُرِبت عنقه وهو يصيح : والله ما خُنت ولاسرقت ولاغشَشت ، وهذه منصُوبة نُصِبت علىّ . وقيل إنه وُجِد عنده خطُّ حسان بن جراح ، وخطُّه عند حسان يحثُّه على الإيقاع بالدولة . وقيل إن هذا صُنع عليه من أعمال الشريف العجمى . وقيل فى سبب قتله مُعانَدتُه لمعضاد وعُدولُه عنه إلى رفق الخادم وأنه كان استشار خليل الدولة محمد بن على بن العداس صديقه لمَّا عاداه هذه الطائفة ، فأشار عليه أن يباينهم بالعداوة ويكاشفهم بها . واستشار أيضا شمس الملك مسعود بن الوزان ، مع ما بينه وبينه من العداوة ، فأشار عليه بمثل ذلك . وقيل إن الظاهر أخرج كتابا مختوما إلى الشريف العجمى فنظره ، ثم رفعه إلى أبى القاسم الجرجرائى فنظره ثم قال : هذا خطُّ ابن بدواس ، فقرئ ، فإذا فيه طعْنٌ على الدولة ، وبآخره : إذا وافيت بالعساكر لم تجد أحدا تلقَّاك ولايمانعُك ، وإذا كاتبتنى فلا تُنْفِذ كتبك إلاَّ على أيدى الرّهبان فإنهم الثقات المأمونون . فقال الظاهر : أىّ شئ يستحق هذا ؟ فقال الجرْجَرَائى : مولانا مالك العفو والسيف . فقال : انصرفوا . فلما خرجوا أمر بضرب عنقه . وقيل إنه وُجد أغْلَف لأنه كان نَصْرانيًّا . ومن العجب أنه كان فى غاية التحفظ والتحرز ، وكان يخاف أن يقتله الحاكم بأمر الله فنجا منه ، ثم لما أمن واطمأن كان حتفه .

فى يوم الثلاثاء لليلة بقيت منه أحضر عزُّ الدَّولة معضاد الكتاميين وأمرهم بالبُكُور من الغد ، وأمر الأتراك [١٧٨ ا] وجميع العسكر بلبس السلاح ، وأن يتسلموا من الخزانة ما يخرج لهم من ذلك ، ويقف الجميع حول القصر حتى يؤمَرُوا بما يفعلونه . فوقفوا من الغد بأجمعهم حول القَصْر إلى ضَحْوة النهار ، فجاءهم الأمر بأنَّ مولانا صلوات الله عليه يركب

فى غد ، فليحضر من ليس له منكم سلاح ليُدْفَع إليه من الخزانة ؛ فقال الكتاميون قد شَغَلَنا الجوع وطلبُ الخبز عن هذا . فلما كان آخر النهار حُمِل قومٌ من مترجِّلَة الكتاميين على سبعين فرسا ، وفُرِّق فيهم وفى غيرهم السلاح .

شهر رمضان ، أوله الخميس . فيه ركب الظاهر فى عساكره وعليه قميص مُدَنَّر مذهب دبيقى وعمامة مثله ، وعلى رأسه المظلة المذهبة يحملها بهاء الدولة مظفر الصقلبى ، وخلفه ابن فتوح الكتامى يحمل الرمح ، وبين يديه الأتراك والكتاميون والقيصرية والعبيد والباطلية والديلم وسائر الطوائف ؛ وركب رجال الدولة خلفه مع نسيم الصقلبى ، وسار إلى مسجد تبر ، وعاد . وكان يوما حسنا من توافر الناس وكثرة الجمع والزى الحسن .

وفى يوم الجمعة ثانيه ركب أيضا إلى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر ، وعليه طيلسان شرب مُفَوَّط بعمامة بياض مذهبة ، وثياب دبيقية ، والمظلة دبيقية مذهبة ، وطلع معه المنبرَ قاضى القضاة أحمد بن أبى العوَّام وإبراهيم الصانع المؤدب المعروف بالجليس ، فأرخيا عليه سجف القبة التى فى أعلا المنبر ، وهى مغشاة بمصمت بياض ، والعنبر يُبَخَّرُ بين يديه فى المباخر الذهب والفضة والجوهر . فخطب ، ثم كشف عنه القاضى ونزل ، فصلى وعاد إلى قصره .

فى رابعه ورد الخبر بانصراف صالح بن مِرْدَاس عن دمشق إلى حلب ، وأنَّ كاتِبه باع جميع ما كان له بحلب من غلة ودار وآلة ، وخرجَ فجمع العرب وقصد حصار المدينة.

فى خامسه ولى طيب الخازن بيت المال ، وخلع عليه ، وحمل على بغلة بسرج ولجام ؛ وخلع على ميسرة الخازن ، وحمل على فرس بسرج ولجام مذهب ؛ وولى خزانة الخاصة وجعل عدّة الدولة رفق الخادم الأسود ، يخرج إليهما بالأوامر ويدخل . وخلع على ثلاثة من أولاد ابن جراح وحملوا على ستة أفراس .

وفى ثانى عشره أُخذ ديوان الشام من محمد بن أحمد الجرجرائى ورُدّ إلى أبى طالب الفرابيلى .

وفى يوم الجمعة سادس عشره ركب الظاهر إلى الجامع الأنور[1] خارج باب الفتوح وعليه رداء بياض محشّى قصبا ، وثياب بياض دبيقية ، وعمامة بياض مذهبة ، وفى يده القضيب الجوهر ، وعلى رأسه مظلة مديّرة فخطب ، ثم صلى ، وعاد .

وقدم الخبر بأن أهل دمشق هادَنُوا سنان بن علوان إلى آخر الكوانين[2] . وقدم كتاب حسّان بن جَرّاح بأنه تحت الطّاعة ، فلا يجب أن يَشْغَل السلطان قلبه بأمر الشام ، وأنه يقوم بأمر فلسطين ويجبى خراجه وينفقُه فى رجاله ، ودمشق فيها ابن عّمه سنان ، صَمْصَام الدّولة ، وحلب مردُودٌ تدبِيرُها إلى صالح بن مِرْدَاس أسد الدّولة ؛ وأنه قد كَفَى السّلطان أمر الشّام كلهّ . فطُرِد رسولُه ولم يُكتب له جواب .

وفى خامس عشريه زيد فى لقب منتخب الدولة أنوُشْتكِين الدّزْبَرى أمير الأمراء[3] . وفى سابع عشريه هرب ابْنَا جراح ولحقا بحسان بن جراح ، وأخذا جميع ما كان فى الدار التى أنزلا فيها[4] ، وتركا أخاً لهما مريضا ، فوكل به .

فى سلخه حمل نجيب الدولة أبوالقاسم على بن أحمد الجرْجَرَائى سماط العيد على العادة ، وفيه مائتا قطعة من التماثيل السكر ، وسبعة قصور كبار من السكر ، وشقّ البلد بالخيال والطّبّالين والفرحية .

---

(1) وهو جامع الحاكم وجامع القاهرة .

(2) هما كانونان : الأول يعنى شهر ديسمبر والثانى يعنى شهر يناير .

(3) وكانت ألقابه قبل ذلك : الأمير المظفر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالى . ذيل تاريخ دمشق : ٧١ . وزيد على ذلك أيضا مصطفى الملك ، عدة الخلافة . نفس المصدر : ٧٤ .

(4) فى الأصل : التى أنزلوا فيها .

[شهر) شوال ، أوّله السبت . فيه ركب الظّاهرُ فى عساكره ، وبين يديه فيلٌ وزَرَافات وبُنُود مذهبة بقصب وفضة ، والطبول تضرب والجنائب تُقَادُ أمامه ، وجميعُ قواد الأتراك والمُصْطَنعة فى السّلاح ، وعليه ثوب خز بعمامة نظيره ، وفى يده القضيب ، وعليه السّيف ومعه الرمح ، وعلى رأسه المظلّة المذهبة يحملها مظفر ، وبين يديه الخدم السُّودان وعليهم أصناف المذهبات — إلى المصلّى . فصلَّى ورقى المنبر ، واستدعى قاضى القضاة ، فطلع ؛ ثم استدعى إبراهيم الجليس المؤدّب ، فطلع ؛ ثم استدعى شمس الملك [٧٨ ب] أبا الفتح مسعود بن طاهر الوزّان ، فطلع ، ثم استدعى تاج الدولة(١) ابن أبى الحسين ، صاحب صقلّية كان ، ثم استدعى زين الملك على بن مسعود بن أبى الحسين ، ثم استدعى علىّ بن فضل ، ثم عبد الله بن الحاجب ؛ ثم جُلِّل بالبندين المنصُوبَيْن على المنبر(٢) ، وخطب ، ثم نزل وعاد إلى قصره .وأحْضِر السّماط فحضر أهلُ الدولة ، ولم يحضر الظاهر ، وكان فى منظرة يشاهدونه . وفى ثامنه صرف نجيب الدولة مجلى بن نسطورس عن ديوان الأَحْبَاس بأَبى غالب الصَّينىّ النصرانى كاتب ديوان الخراج . فيه ضربت خيمة بظاهر باب الفتوح ؛ ووَقَع الاهْتِمَامُ بتجريد العساكر إلى الشام .

وفى هذا الشهر تحرك السعر ، وبلغ التلّيس القمح دينارين وثلثين ، والتلّيس الشعير دينارا واحدا ، والخبز رطلين بدرهم . وقدم الخبر بأن الحرب بمكة قامت بين الحسنيين والصليحيين ، فخرج منها أبو الفتوح حسن بن جعفر ؛ وأن الغلاء بها شديد .

---

(١) بياض فى الأصل يتسع لنحو كلمتين .

(٢) كان من مهام الوزير فى أيام الجمع والعيدين أن يزر القبة على المنبر أثناء الخطبة . وكان يتدلى على جانبى المنبر لواءان لستر الخليفة فى أثناء الخطبة ، فإذا صعد الخليفة المنبر وقف على جانبى الدرج الوزير وقاضى القضاة وصاحب الباب وأسفهسالار العساكر وصاحب السيف وصاحب الرسالة وصاحب دفتر المجلس ونقيب الأشراف الطالبيين . فإذا نهض الخليفة لخطبة أشار الوزير إلى كل واحد من هؤلاء فيأخذ كل واحد نصيبا من اللواء الذى يحاذيه فيسترون الخليفة ويستترون . الخطط ؛ النجوم الزاهرة : ٤ .

وقدم الخبر بمحاربة الدِّزْبَرى لأصحاب حسّان بن جراح على عسقلان ، وأن عِدّة جند الدِّزْبَرَى خمسة آلاف قد نهكتهم الحرب والغارات . وقبض على رجل قدّمه حسان بن جراح إلى بنى قُرَّة بالبحيرة يدعوهم إلى نُصْرته ويَعِدُهم مواعيد كثيرة ، فأجابوه بالموافقة ؛ وأخذت منه الكتب وحبس .

وكانت ليلة الميلاد(١) فى يوم الخميس عشريه ، فاشتغل الناس عما كانوا يبتاعونه فيها من الفواكه والحلوى بما هم فيه من الأمراض ، وتَواتَر الموتُ ، بحيث لم تخل دارُ أحَد من عدّة مرضى من الدّم وأوجاع الحلق ؛ وبلغت الرّمّانة ثلاثة دراهم ، والبطيخة البرلسى ثلاثين درهما ، والأوقية الشراب بدرهم ، والقمح ثلاثة دنانير التّلّيس ، والأردب الشعير بدينار ، والرطل اللحم ثمانية دراهم . وعز وجود شىْ من الحيوان مثل الدجاج والفراريج ؛ وبلغت راويَةُ الماء ثلاثة دراهم . فتهالك الناس من كل جهة ، وكسرت الأسواق ، فكانت الثياب والأمتعة ينادى عليها فلا يُوجَد من يدفع درهمًا فما فوقه .

وفيه قطع على حاجّ المغاربة الخارجين فى البَرّ عند تعذّر أمر الحج ، فتقدمت جماعة من المغاربة القادمين من بلاد المغرب بغير أمير ، فلما جاوَزُوا بِرْكة الجُبّ قُطع عليهم الطَّرِيق وأخذت أموالهم ، فهلك منهم عدة وعاد من بقى .

ذو القعدة ؛ أوله الأحد . فيه اشتدت عقوبة جوارى محسن بن بدواس فى طلب المال . وكانت ليلة الغطاس(٢) فى ليلة الأربعاء رابعه ، فجرى مَنْ هو صحيحٌ على العادة فى شراء

---

(١) الميلاد اليوم الذى ولد فيه المسيح ، عليه السلام ، ويحتفل به نصارى مصر فى التاسع والعشرين من كيهك . وكان من رسوم الفاطميين فيه أن تفرق فيه الجامات المملوءة من الحلاوات القاهرية ، والمتارد التى فيها السمك ، وقرابات الجلاب ، وطيافير الزلابية والبورى . الخطط : ١ : ٤٩٤ .

(٢) ليلة الغطاس من أعياد النصارى التى كان يشارك فيها الفاطميون وإن كان الاحتفال بها جاريا قبل قدوم الفاطميين إلى مصر ، ويحتفل بها فى الحادى عشر من شهر طوبة يخرج الناس فيها – مسلمين ونصارى – إلى النيل ويوقدون المشاعل والشموع ويركبون الزوارق ويضربون الخيام على الشاطئ ويكثرون من إحضار المآكل والمشارب فى آنية الذهب والفضة=

الفواكه والحملان وغير ذلك . ونزل الظاهر إلى قصر جده العزيز بالله بمصر لنظر الغطاس ، شكراً ، مع حرمه ، بعد ما نزل القائد عدة الدولة رفق بأصناف الفُرُش لبسطه ، ونقل جميع المجاورين له ممن يسكن على النيل بالقرب منه ، وأزال المراكب المرساة هناك . وضرب بدر الدولة نافذ الخادم الأسود متولّى الشرطتين ، خيمة عندرأس الجسر ، وجلس على مرتبة مثقلة ومرتبة ديباج ؛ ووقف ابن كافى متولى الشرطة السفلى بين يديه . ونودى فى الناس ألاّ يختلط المسلمون مع النّصارَى عند نزولهم فى البحر بالليل . وأمر الظاهرُ القائِد نافذاً أن يزيد فى وَقِيد النّار والمشاعل فى الليل ، ففعل ، وكان وقيداً طويلا . وحضر القسّيسُون والشّمّاسة بالصُّلبان والنيران فقَسَّسُوا طويلاً وانصرفوا إلى حيث يغطسون . فمات فى هذه الليلة للظاهر طفلة سِنُّها ثلاث سنين وشهور ، وهى آخر ولد بقى له ، فعاد من آخر الليل إلى قصره بالقاهرة ، فشاهد فى طريقه عدة أموات على الطرقات ، فأمر لهم بخمسمائة شُقّة(١) لأكفانهم ، والنّفقة عليهم حتى يُدْفنوا .

وفى ثامنه حُنِّك ثلاثة من الخدم(٢) وألبسوا العمائم الشرب البيض ، فتشبهوا بمن تقدَّم من مُقَدَّمى قُوّاد الخدم كميمون وبدر ونصر العزيزى ونظرائهم . وهؤلاء المتَوَّدُون هم مِعْضاد ومناد ورفق ، وأضيف إليهم فاتك ورجاء وسرور النصارى ، ونامق ؛ فجلسوا بحضرة الظاهر وهنأهم الناس بذلك .

وفيه اجتمع وفدالحجاز بباب القصر واستغاثوا ، [١٧٩] وقالوا : يا قوم قد جئناكم

=وتكثر الملاهى والأغانى والعزف ، ويغطس المحتفلون فى النهر ويزعمون أن ذلك أمان من الداء والأمراض . وكان من رسوم أهل الدولة أن يفرق فيهم الترنج والنارنج والليمون وأطنان القصب والسمك برسوم مقررة لكل أرباب السيوف والأقلام . الخطط : ١ : ٤٩٤ — ٤٩٥ .

(١) الشقة : بكسر الشين ، شق من الثياب باستطالة ، وبالضم الثوب المستطيل . القاموس المحيط .

(٢) لبسوا العمامة وأداروها حول أحناكهم ، وبهذا صاروا من الأستاذين المحنكين ، أى من كبار الخدم المختصين بالخليفة لقضاء حوائجه .

وفارقنا أهلينا وقد هلكنا من الجوع ، فإن لم يكن لكم حاجة بإقامة الدعوة بمكّة والمدينة فاصرفُونا فإنا قد بُذل لنا الرغائب فى إقامة الدعوة لغير إمامِكُمْ فلم نأخذها ، ونريد إنسانا يكلّمنا . فلم يُجَابوا بشىء . وكانوا قد مضَوْا قبل ذلك إلى رجال الدولة ، كمعضاد وغيره ، فصار يدفعهم هذا إلى هذا . فلمّا انصرفوا عن باب القصر خائبين بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلبى ، صاحب المظلة ، ألف دينار من ماله ، فقالوا : لا نـأخُذُ إلاَّ ما يصلُنا به أمير المؤمنين ، وهذه الصِّلة قد قبلناها ، والله مجازيك عليها ، ونحن نفرقها على ضعفائنا وعبيدنا ؛ ففرّقوها على خمسمائة نفس ، لكل واحد ديناران .

واشْتدَّ الغلاء والقحْطُ بمصر ، فبيع الخبز السميد رطلين بدرهم ، والحملة الدقيق بأربعة دنانير وثلثين ، والتلّيس القمح بثلاثة دنانير ، واللحم أربع أواقٍ بدرهم . وعظُم الموت سيما فى الفقراء ؛ وبلغ بالناس الجهد حتى إن جزّاراً طرح عظما لكلب فطرد رجل الكلب وأخذ العظم منه وابتلعه نيئا ؛ وأكل المساكين الصماليخ من القنبّيط[1] واقتاتُوا باليسير من كُسْب الوز وكُسْب السمسم ، وغلت عامّة الحبوب . وغلا الماء لتعذر علف الدّواب وعدم من يستقى عليها ؛ وبيعت راوِيةُ الجمل بثلاثة دراهم ، وراويةُ البغل بدرهمين ؛ واشتدت المسْغبَة . وقدم الخبر بشدة الموت بدمشق ، فمات من أهلها ألوف .

وفى نصفه ركب الظاهر وشقّ مدينة مصر ، وخلفه المقوَّدُون والمصطنعة ، وبين يديه الرقاصون ، فاستغاث الناس بضجة واحدة : الجوعَ يا أمير المؤمنين ، الجوع ؛ لم يَصْنعْ بنا هكذا أبوك ولاجدّك ؛ فالله اللهَ فى أمرنا . فارْتَجّت البلد بالضجيج حتى نزل إلى قصر العزيز على البحر ، فحضر أبو عبد الله محمد بن جيش بن الصّمصامة الكتامى وقد اختلّ

---

(١) لعل المقصود به مايسميه أساتذة الأحياء الشماريخ ، جمع شمراخ ، وهو الدعامة البيضاء التى تتجمع زهرات القنبيط فى قتها .

عقله وحاله ، فوقف تحت القصر وشتمه أقبح شتم ، وبالغ فيما شتم به ، فضربه الرقاصون حتى سقط ، وجروه برجله وسحبوه إلى السجن بالشرطة ، فضربه متوليها ثلاثين درة واعتقله .

وتزايد أمر الغلاء ، ونزل دواس المحتسب برجاله ومعه السعدية ، وكتب مائة وخمسين مخزنا قمحا وختم عليها ؛ فأصبح الناس يوم الاثنين سادس عشره على أقبح صورة ، وكثر الصياح : الجوع الجوع ؛ ولم يظهر خبز ولادقيق . وبيع الدقيق رطلا ونصفا بدرهم ، والخبز الأسود رطلين بدرهم وربع .

وفيه خرج حاجّ المغاربة إلى مكة ، فلم يصحبهم أحد من أهل مصر ؛ وعندما عدّوا بركة الجب خرج عليهم طائفة من القيصرية والعبيد ، وكانت بينهم وقعة هزمهم فيها المغاربة وجرحوا كثيرا منهم .

وفيه طُلب المحتسب إلى القصر ، وهُدّد ، وقيل له : قد قتلت الناس جوعا وخربت البلاد على مولانا ، وهذا خطُّك بضمانك عمارَةَ البلد بالأَخْبَاز والقمح إلى حين إدْراك الغلّة . فوعد بتلافى الأمر ، ونزل ، وأطلق القمح من المخازن للطّحّانين ، وسُعِّر عليهم دينارين ونصفا للتليس ، وأمرهم ببيع الحملة الدقيق بأربعة دنانير ، والخبز رطلين ونصفا بدرهم ، فسكن الحال قليلا(١) .

وفيه أفْرج عن محمد بن جَيْش بن الصَّمْصَامة .

وفى عشريه ركب الظاهر إلى الصّيد بسرْدُوس(٢) ، وعاد . وفى ثالث عشريه عاد

---

(١) ليس هناك كبير فرق بين هذه الأسعار وما ذكر قبل أسطر فى الحديث عن شدة الغلاء إذ بلغت حملة الدقيق عندئذ أربعة دنانير وثلثين وتليس القمح ثلاثة دنانير .

(٢) من أعمال القليوبية قرب مدينة قليوب ، وهناك خليج حفر أيام الفراعنة عرف باسم خليج سردوس . الخطط ؛ النجوم الزاهرة ؛ قوانين الدواوين : ٢٠٥ .

منْ خرج من حاج المغاربة بعدما نُهِبوا وجُرحوا وسُلبوا ، فلم يحجّ أحد فى هذه السنة من مصر .

وفيه قرئْ سجل بحَطِيطَة جميع مُكوس الغَلّة المباعة بساحل مصر ، وأن يبيع الناس بغير تسعير . وكثرت الأخباز ، وبيع القمح بدينارين ونصف وربع للتليس ، والخبز السميد رطلان بدرهم وربع ؛ والخبز الحُوّارى رطلان بدرهم . وضُرب عدّةٌ من الخبّازين على خلطهم الطَّفْل المسحوق فى الأخباز .

وقدم الخبر أنّ حسّان بن جرّاح أنفذ ألْفَى فارس فلم يُعلَم جِهةُ قصدهم ، فاضطرب الناس لذلك ، ثم تبيَّن أنها وردت إلى الفَرما مع أَبِى الغُول ، ففرّ الناس فى المراكب إلى تنيّس ، وأخذ النّاس بمصر فى إحراز أموالهم ، وفقد الخبز القمح والدقيق . ونفذت الكتب إلى الحوف (١) بدخول الرّجّال الجوّالة إلى الحضرة لتجدّد عسكراً لحفظ [٧٩ ب] البلاد ، ثم أُبْطِل ذلك خوفاً من نَهْبهم المدينة وكثرة كلفتهم .

ذو الحجة ، وأوله الثلاثاء . فى رابعه ركب الظّاهر فى خاصّته إلى عين شمس وعاد . وفى خامسه أطلق لوفد مكة ألفُ دينار يرتفقون بها وأَمَرَتْ لهم أمُّ الظاهر أيضا بشئْ من عندها . وكثرت نُقَل الناس خوفاً من النّهب فى يوم الأضحى . وعُمِل سماط العيد السّكر من عند نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى ، وعددُ قطعه وتماثيله مائة وسبع وخمسون قطعة وسبعة قصور كبار ، كلُّها من السكر ، وحُمل فى تاسعه إلى القصر ومعه الفَرحيّة الطبّالون ، وأفراس الخيل ، والسُّودان والصَّقَالبة على العادة .

---

(١) كان الوجه البحرى ينقسم إلى أربع نواح : الحوف الشرقى ، وكان يشمل عين شمس ومحافظتى القليوبية والشرقية الحاليتين ومدينتى الفرما والعريش ، وبطن الريف وكان يشغل مايسمى الآن محافظة الدقهلية وجزءا من شمال مديرية الغربية ، والجزيرة وهى بقية الأرض الواقعة بين فرعى النيل ، والحوف الغربى أى مديرية البحيرة . اتعاظ : ١ : ١١٨ : حاشية : ١ نقلا عن صبح الأعشى .

وفى عشية النهار تهارب الناس من دب عظيم سقط من الجبل إلى المقابر ، فانجفل النّاس فى درب الصحراء ظنا أن العبيد كبستهم ؛ فكان خوف شديد .

وفى يوم الخميس عاشره كان عيدُ النحر ، فركب الظاهر إلى المصلَّى من باب الفتوح على عادته بعد أن رسم لسائر العرائف أن تلزم كلّ عرافة مكانها وحارتها ، وتكون صلاةُ العسكر بأَجْمَعِهم فى حاراتهم مع أزمّتهم ؛ فامتثلوا ذلك . وصَلّى وخَطب بعد أن استدعى داعى الدعاة قاسم بن عبد العزيز بن النعمان وسَلّمه الثبت بأسماء مَنْ جَرَتْ عادته بطلوع المنبر ، فاستدعى شمس الملك ، وبهاء الدّولة مظفر صاحب المظلة ، وعلى بن مسعود ، وحسن ابن رجاء بن أبى الحسين ، وعلى بن فضل ، وابراهيم الجليس ، وعبد الله بن الحاجب ؛ وتأخر القاضى وغيره لمرضهم فلم يشْهَدُوا صلاة العيد . فلمّا انقضت الخطبة نزل الظاهر إلى الْمَنْحَر بالمصَلّى ، فنحر ناقةً وعاد إلى قصره ؛ ومشى إلى المنحر بصَحْن القصر تُجاه ديوان الخراج فنحر تسعاً من النُّوق ثم انصرف . فحضر أبو الحسن على بن محمد الطّريقى، كاتب قاضى القضاة ، لتفرقة لحم الأضاحى على أرباب الرسم ، فنهبته العسكر وجرى عليه كلُّ قبيح . ومُدّ السّماط بحضرة الظاهر ، فلما جلس أهلُ الدّولة عليه للأكل كبس العبيدُ القصر وهم يصيحون : الجوع ، نحن أحقّ بسماط مولانا عليه السلام ؛ ونهبوا جميع ماعلى السِّماط وضرب بعضُهم بعضًا والصقالبة تضربهم فلا يبالون . فكان أمراً صعباً وحَسْبُ الحاضرين أن نَجَوْا سالمين .

فلما كان الغد ركب الظاهر إلى الرّحبة فى القصر تجاه ديوان الخراج ، فنحر ثلاث عشرة ناقة ، وعاد ، ففرقها الطريقى . وشُدَّ من الغد ، ثالث عيد النحر ، فى مكان النحر خمس عشرة ناقة لتُنحر ، فلم يخرج الظاهر ، فخُلِّىَ عنها ، ثم شُدّ خمسُ نُوق غيرها نحرها الطريقى وفرّقها .

وقدم الخبر بنهب العبيد الجوالة بلداً بالأَشْمُونين ؛ حصل لرجل واحد تسعمائة رأس من البقر وثلاثة آلاف رأس من الضأن .

وفى ثالث عشره ورد الخبرُ بأن الدِّزْبَرِى أسرى من عسقلان وكبس حلّةً لحسّان بن جراح ، فقتل ثلاثين أسيراً وعدّةً من النّاس يبلغون آلافا ، ونهب نساء العرب ؛ وطلب نجدة ولو بألف فرس ؛ وأخبر أنه نزل فلسطين وصلّى بها العيد وهو خائفٌ من اجتماع العرب لِحرْبه . فأُخرج مضربٌ ظاهِرَ باب الفتوح لتُجرَّد العساكر ؛ فدافع أهل الدولة عن إمضاء ذلك . فورد الخبر بأن الدِّزْبَرِى بعد ماصلّى العيد بمدينة الرملة انتقل إلى لُدّ بعد ما أوقع بحلّةٍ فيها ولدٌ لأبى الغُول فقتله ، وضرب أعناق أربعين رجلا من الغمازين الذين كانوا يدلّون حسّان بن جرّاح على الناس ، وأنه ينتظر النجدة بلُدّ ، فلم يخرج إليه أحد .

وفى يوم عيد الغدير[١] ورَدَ الخَبَر بإقامة الدّعوة الظاهريّة بالبصرة والكوفة والموصل وعدة من بلاد المشرق ، وذلك لغَلَبَةِ الأتراك على بغداد وإخراج الدَّيْلم عنها إلى البصرة ؛ فدعا الدَّيْلم للظاهر بها وبالكرخ[٢] ، ودعا الأتراك ببغداد للقادر . وفيه جرى الناس بمصر فى عيد الغدير على رسمهم ، وتزيّوْا بأفخر زيهم ، وطلع المنْشِدُون إلى القَصْر يدعُون ويُنْشدون . وفيه نُصِبت خيمة خارج باب الفتوح ليخرج تجريدة الدِّزْبرى .

---

(١) تزعم الشيعة ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مر بوادى خم فى حجة الوداع وأمسك بيد على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، وقال : " من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه " . قارن الخطط : ١ : ٣٣٨ ، وفيه كثير من التفصيل .

(٢) الكرخ . لعل المقصود به كرخ بغداد وقد بدأ حيا فى وسط بغداد والحال حولها ثم تطورت أحوالها حتى صارت محلة وحدها ، وأهلها شيعية إمامية . معجم البلدان : ٧ : ٢٣٣ – ٢٣٤ .

وفى حادى عشريه نُهبت الدّوابّ بسفط ونهيا[1] من ثلاثين رجلاً من بنى قُرّة ، وقتلوا قاضى سفط ، واستاقوا مائة وخمسين فرسا لأهل الدولة ، وساقوا ثلاثمائة رَمَكَة[2] لمعْضَاد وأربعة آلاف رأس من الضأن ؛ فلم يخرج أحد لطلبهم ، ولا أُنكر شئ من ذلك . وفى ثانى عشريه خرج معضاد والشريفان [١٨٠ ا] وابن حمّاد الغرابيلى ونجيب الدولة الجرجرائى إلى الخيمة خارج باب الفتوح ، وحضر الكُتاميّون ، فَطُلِب منهم مائة فارس لِيُنْفق فيهم[3] ، فلم يحضروهم ، ونزعت الخيمة فعادوا أقبح عود .

وفى خامس عشريه سار وفد مكة وقد دُفع إليهم نصف واجبهم ، ولم يرسل إلى أبى الفتوح بشئ ، فمضوا غير راضين . وفيه حمل مظفر صاحب المظلة إلى الحضرة عشرة آلاف دينار قَرْضًا ؛ واستُدْعِى من الشريف أبى طالب العجمى متولّى الصناعة عشرة آلاف قرضا ، فدافع ثم أجاب إلى حمل خمسة آلاف بعد أن يُضْمَن له أمرُ عادتها إليه ، فضمن له الشيخ نجيب الدولة أبو القاسم على بن أحمد الجَرْجَرائىّ ذلك ، فحملها .

واشتد الغلاء ؛ فبيع القمح بأربعة دنانير وثلث التليس والحملة الدقيق بستة دنانير ، والخبز رطل وربع بدرهم ؛ ونزل بالناس مسغبة شديدة . وفى ثالث عشريه تجمّع العبيدُ ومعهم عدة من النّهابة ، فبلغوا نحو الألفين ، يريدون نهب مدينة مصر ، فركب إليهم بدر الدولة نافذ فى عسكر بالسّلاح ، وأُذِن للناس عامّة بأن مَنْ تعرض لهم من العبيد فليقتلوه؛ فتحفظ الناس واستعدّوا . ثم ركب معضاد ونسيم إلى حيث تجمع العبيد ، وأحضروا

---

(١) سفط اسم لعدة قرى تعرف بالإضافة منها سفط الحمار ، رشيد ، العرفاه ، أبى تراب ، اللبن ؛ ولعل الأخيرة هى المقصودة وكانت بالجيزية (الجيزة) فى الجنوب الغربى لناحية المتمدية بنحو ألفى متر ، وفى الشمال الغربى لكفر طهرمس بنحو ٧٠٠ متر . ونهيا غربى سفط ، وهى وسط الحوض لايوصل إليها زمن الفيضان إلا بالمراكب . الخطط التوفيقية : ١٧ : ٩ — ١٣ ، جـ : ٣٤ — ٣٩ ؛ قوانين الدواوين : ٣٥٢ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٩ .

(٢) الرمكة ، بفتحتين ، الأنثى من البراذين ، وجمعها رماك ورمكات وأرماك مثل ثمار وأثمار . مختار الصحاح .

(٣) استعدادا لتكوين التجريدة العسكرية لحفظ البلاد ، وهى الخطوة التى سبق ذكرها قبل قليل .

أزِمّتهم وألزموهم بعَوْد العبيد إلى حارتهم ؛ فقالوا : ماأردنا النَّهْب ، ولانريد إلا ما نأكله من الجوع فإن الجوع قد اشتد بنا وأكلنا الكلاب . فوُعدوا بالنفقة من الغد ؛ فعاد الجميع إلى حاراتهم . واجتمعوا من الغد وقصدُوا الساحل ، ونهبوا دُوراً وطرحوا فيها النَّار ، وأخذوا ماوجدوه فى السّاحل من القمح والشعير وغير ذلك مما فى الحوانيت ؛ ودخلوا إلى منازل أهل السّلاح فنهبوا ماوَجَدوا . فركب إليهم نافذ وقاتَلَهُم ، فجُرح له فرس وقتل فارس من غلمانه ، فانصرف عنهم . وخرج إليهم عامّة المصريِّين بالسلاح فقاتَلُوهم ؛ ورماهم النساء من أعلا الدُّور بالحجارة والطُّوب والجِرار ، حتّى هزموهم ؛ وأغلق الناس دورهم ، وحفروا دونها خنادق . وركب معضاد وجميع الصّقالبة والقُوّاد ، فطردوا العبيد عن البلد إلى المقس ، ولقُوا فى طريقهم قوماً معهم كثيرٌ من أمتعة النَّاس التى نهبت ، فقبضوا عليهم ، وضرب معضاد رقاب تسعة أنفس منهم ورمى جثثهم إلى الكلاب عند الحمراء والمشتهى . ثم لقى ستة نفر منهم فضرب رقابهم بالقاهرة .

وتعذّر وجود الخبز فلم يُقدر عليه ، وبيع رطلاً بدرهم . وبات الناس ليلة الجمعة على حرس ، وأصبحوا يترقبون المكروه ، فطاف النَّهَّابة أسواق القاهرة والسويقة التى عند باب زويلة ، فخرج إليهم حظِىّ الصقلبي ومعه سيف من الحضرة ، فقبض على طائفة منهم ، ضرَبَ رقابهم ورمى جثثهم إلى الكلاب على باب زويلة وعلى باب الفتوح وفى سوق السلاح وعند شرطة القاهرة ؛ وعدتهم اثنا عشر رجلا . ووجد كتاميا يُقال له سليمان ، قد أخذ حمارا محمَّلاً دقيقا ، فضرب عُنُقه . وأحضر عُرَفَاء العبيد إلى القصر وشدّد عليهم فى إحضار الجناة من العَبيد ، ووعدهم بالنَّفقة فى العبيد .

وأصبح الناس يوم الأحد سابع عشريه يستغيثون إلى متولّى الشرطة السفلى من العَامّة التى نهبتهم ، فقبض على طائفة منهم بكوم دينار ، وعُوقبوا حتى أقروا بما عندهم من النَّهْب ، فسيقُوا حتى أخرجوه من كوم دينار وأخذه أربابه .

وقدم الخبر من حلب بأن صالح بن مرْداس حاصر حلب ، ومازال بأهل البلد حتى فتحوا له أبوابها ، فدخل أصحابهُ وشرعوا فى هدم أبراج السور ، فظنَّ الناس أنه يريد بذلك أن يسلِّم حلب إلى الروم ، فاجتمعوا بِمَن فى القلعة ، وقد تحصَّن بها موصوف الصقلبى ، وحاربوا أصحاب صالح حتى أخرجوهم وقتلوا منهم مائتين وخمسين رجلا ، وامتنعوا منهم بالمدينة . ومن خبر ذلك أن صالح بن مرداس نزل على مدينة حلب فى جمع كثير من بنى كلاب وغيرهم ، فحصَرها أشدّ حصْر حتى أخذ المدينة صلحاً من أهلها ، ودخلها فى رابع عشر ذى القعدة سنة خمس عشرة هذه ، وتلقب بأسد الدولة . وامتنع موصوف [٨٠ ب] الصَّقلبى بالقلعة ، فاستخلف صالح على مدينة حلب كاتبه أبا منصور سليمان بن طوق ، ومضى إلى بعلبك فأخذها عنوة ، وقتل بها خلائق . واشتدت محاصرة سليمان بن طوق لقلعة حلب ، وصعد قلعتها حتى قلّ الماءُ والزاد بها ، فطلب موصوف منه أشياء اشترطها عليه وسلَّمه القلعة ، فأتى صالح حلب وصعد قلعتها ، وقتل موصوفاً ، ورتَّب أموره ، وصار بيده من بعلبك إلى عانة[1] .

وقدم الخبر بأن حسان بن جراح جمع من العرب خلائق وقصد الرملة ، فمضى الدّزبرَى إلى عسقلان وتحصّنَ بها ، فقبض حسان على جماعة من أهل الرملة ممَّن سعى به وبأصحابه إلى الدّزْبَرى ، وضرب أعناقهم ، وملك المدينة . فاجتمع الدّزبرى مع مبارك الدولة فتح ، مُتولِّى القدس ، وفتاح بن بويه الكتامى ، وصار إليهم نحو الخمسة آلاف مقاتل ، وأوقعوا بحلة كبيرة لإخوة حسان ، وقتلوا ولداً لعلى بن جرّاح ، وهزموا من بها »

وقال ابن الرقيق : وكان بمصر من الغلاء والشّدّة وعدم الأقوات مالم يُر مثلُه من زمن

---

(١) عانة : بين الرقة وهيت على نهر الفرات قرب حديثة النورة ، وبها قلعة حصينة وتعد من أعمال الجزيرة . معجم البلدان : ٧ : ١٠٢ - ١٠٣ .

بعيد . بلغ الخبز ، إذا وجد ، رطلا بدرهم ، واللحم أربع أوَاقٍ بدرهم ، والرمانة الواحدة بدينار . وكان الناس فى كل ناحية يصيحون بالجوع حتى يموتوا ؛ ويكون مع الرجل جملة من الدنانير فيطلب من يشبعه خبزا فلا يجده ؛ هذا مع الموت الذّريع والوباء الفظيع . ووَرَدَ كتاب بعض ثقات التجار يصف أنه أحصى مَن مات مِمّن عُرف وكُفِّن ودُفن من آخر شهر رمضان إلى بعض ذى القعدة فكانوا مائة ألف وسبعين ألف نفس ؛ وأما الغريب ومن لايُعرف ومن يُلقى فى النيل ولايجد مَنْ يقبره فأكثر من هذه العدّة أضعافاً لاتُحصى .

وبلغ ماء النيل ستة عشر ذراعا وثمان أصابع .

ومات فى هذه السنة ممّن له ذكر أبو جعفر بن الوزير أبى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، يوم الخميس سادس المحرم ؛ وكان يعمل بيده أعمالا متقنة . وفى يوم الأربعاء عاشر صفر توفى مفضّل بن أبى أحمد المهلبى بعد ماساءت حاله ؛ وكان أديبا جمّ الأدب غير مَنْكور السيرة . وفى سابع عشره توفى أبو محمد بن يحيى الدّقاق من شيوخ الحديث ومؤرخى أخبار مصر . وفى يوم الأربعاء ثالث عشرى ربيع الأول توفى ابن أبى الحسين بن زولاق ، وكان أديبا ، ذيّل على تاريخ أبيه المعروف بأبى الحسين . وفى يوم الخميس ثانى عشرى ربيع الآخر توفى أبو الحسن بن نحرير الشويزانى ، وهو أكبر منْ بقى من عُرَفاء الإخشيذيّة ، فبعث الظاهر لكفنه مائتى دينار وعدة ثياب وطيبا كثيرا . وفى يوم الأحد عاشر جمادى الأولى توفى النمل الشاعر ، واسمه : ومن شعره[1] :

وتوفى سند الدولة أبو محمد حسن بن محمد بن محمد بن نقيان الكتامى ، متولّى مدينة حلب ، بها ، فى يوم الخميس لثمان بقين من ربيع الآخر . وفى يوم الاثنين سادس

(١) قبل هاتين الكلمتين فراغ يتسع لاسم الشاعر الذى لم يذكره ، وبعدها فراغ يسع بضعة أبيات لم تذكر أيضا .

شعبان توفى عصب الدولة الحسين بن مفلح ابن أبى صالح القَلْعى ، وقد ساءت حاله وغلبه الدَّين . وفى ليلة الأحد تاسع عشره قُتل الشيخ العميد محسن بن بدواس مُتولى بيت المال وجابى الضرائب . وفى يوم الاثنين ثانى عشر شهر رمضان توفى نزار بن حُسَين بن يُمْن الكتامى ، مُتولّى الشرطة السفلى بمصر ، بعدما ساءت حاله . وفى رابع عشره توفى الشريف العبَّاسى الرابض لدواب الحاكم بأمر الله ، وكان شرّيرا ، فلم يَشْهد أحدٌ جنازته بغضًا له . وفى يوم الخميس سادس شوال توفى أبوعيسى ملامان بن محشاس بن بيوط الكتامى ، فصلّى عليه الظاهر . وفى تاسعه توفى مخلص الدولة منصور البكجورى ، أحد وُجوه القُوّاد الحمدانيّة القادمين من الشام ، وترك ستّين ألف دينار ورثها ابنُه ، فدفن فى مقابر القاهرة . وفى ثالث عشريه توفى الأمير أبو هاشم العبّاس بن شعيب بن داود بن عُبَيْد الله المهدى ، ولىّ عهد المؤمنين كان ، فدُفن فى تربة القصر ، وترك ولداً اسمه مسلم . وفيه توفُيت عائشة جاريةُ الأمير عبد الله بن المعز [١٨١] لدين الله ، وكانت من وُجوه عجائز القصر ، وخلّفت أربعمائة ألف دينار . وفى يوم السبت رابع عشر ذى القَعدة تُوفى جعفر بن أبى فروخ الكتامى الذى كان يتولّى الشرطة بمصر . وفى سابع عشريه توفى أبو الفتح منصور المعروف بالتينى الشاعر ، ودفن بمقابر القاهرة . ومن شعره :

شديدٌ من الدُّنْيا على الحرّ حاجة ... يُؤمّ بها مَنْ لَيْس من نُظرائه

وقال من أبيات :

وما الناسُ إلاّ كالنَّبات : مصوّح ... ليَذوى ، ومُخْضَرّ ليَنْمى ، ومعْشِب

يُسَرْبِلُه ماء الشَّباب نضارةً ... ويفرغ عنه حُسْنه حين يَنْضب

ومنها :

تَفرّقُ أنواعُ المذمّات فى الورى ... ويجمعُها خُلْقُ الفتى حين يَكْذب

إذا كانَ للإنسان عقلٌ ، فحيثُما ... توجّه لاَقاهُ صديقٌ ومكسب

ينالُ الفتى بالخَفْض بُلْغَة عَيْشِه   فيَسعى إلى شيء سواها ، وينصَب
يُخرِّب من أُخْرَاه مالَيْس فانياً   ويعْمُر من دُنْيـاه مايتخرَّب
على أنَّ فى الأيَّام للمرء واعظاً   بليغاً ، وفى صَرْف الزَّمان مؤدِّب

وماتت السيدة العزيزة ستُّ الملك ابنة العزيز بالله أبى منصور نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معدّ ، مستهل جمادى الآخرة[1] ، بعلة الذرب . وقد دبَّرَت أُمور الدولة بعد فَقْد أخيها الحاكم بأمر الله خمس سَنين وثمانية أشهر ، أعادت فيها للملك غضارته ، واستردَّت بهجته ، وملأت الخزائن بأصْناف الأمْوال ، وقلَّدت الأكْفَاء جلائل الأعمال ، واصطنعت الرجال[2] .

(١) وكان مولدها فى ذى القعدة سنة ٣٥٩ ببلاد المغرب . نهاية الأرب .

(٢) يوجد هنا بالأصل عبارة نصها : بياض نحو ثلث صفحة .

سنة ست عشرة وأربعمائة[١]

فيها أَمَر الظّاهر بنَفْى مَنْ وُجِد من الفقهاء المالكيّة وغيرهم . وأمر الدعاة أن يُحَفِّظوا الناس كتاب دعائم الإسلام[٢] وكتاب الوزير يعقوب بن كلس فى الفقه على مذهب آل البيت[٣] ، وفرض الظاهر لن يحفظ ذلك مالا . وجلس الدعاة بالجامع للمناظرة[٤].

سنة سبع عشرة وأربعمائة[٥]

فيها ثار بالناس فى مصر رُعَاف عظيم . وزاد النيّل فوق المعتاد حتى غرقت القرى[٦].

وفيها سقط الظّاهر عن فرس ، وأُرْجِف بموته ، ثم عُوفِى ، فتصدّق بمائة ألف دينار ، حُمل منها إلى مكة والمدينة أربعون ألف دينار ، وإلى بلاد الشام عشرون ألف دينار ، وإلى بلاد المغرب عشرون ألف دينار ، وفُرّق بمصر عشرون ألف دينار[٧].

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من مارس سنة ١٠٢٥ .

(٢) لأبى عبد الله محمد بن النعمان الفقيه الداعى الشيعى . نشره السيد آصف على فيظى بالقاهرة . سنة ١٩٥١ . ويقول عنه صاحب النجوم الزاهرة فى أثناء الحديث عن سنة ٤١٤ « وفيها توفى محمد بن محمد بن النعمان ، أبوعبدالله فقيه الشيعة وشيخ الرافضة وعالمها ومصنف الكتب فى مذهبها ، قرأ عليه الرضى والمرتضى وغيرهما من الرافضة ، وكان له منزلة عند بنى بويه وعند ملوك الأطراف الرافضة . قلت : كان ضالا مضلا هو ومن قرأ عليه ومن رفع منزلته ، فإن الجميع كانوا يقعون فى حق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . عليهم من الله مايستحقونه » . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٥٨ .

(٣) وكان يهوديا من أهل بغداد ، ثم انتقل إلى الرملة وعمل بها سمسارا ، ثم انتقل إلى مصر زمن الإخشيذيين وتولى الوزارة بها ، ثم هرب إلى المغرب وعاد إلى مصر فى ركاب الفاطميين ، وترقت أحواله حتّى تولى الوزارة للعزيز ، وألف كتابه هذا فى فقه الشيعة والدعوة الفاطمية ، وأنشأ فى قصره مكتبة ضخمة لخدمة مذهب الفاطميين ، وعقد به المجالس التعليمية لنشر هذا المذهب . وعندما مرض مرض الموت بكاه العزيز قائلا له " وددت أنك تباع فأشتريك بمالى وولدى " ودفنه العزيز فى قبة كان قد ابتناها ليدفن هو فيها ، وعطل الدواوين أياما لوفاته .

(٤) بهامش الأصل عبارة نصها : بياض نحو سطرين .

(٥) ويوافق أول المحرم منها الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٠٢٦ .

(٦) وصل النيل هذه السنة ست عشرة ذراعا وسبع أصابع . ويلاحظ أنه وصل فى السنة السابقة ست عشرة ذراعا وأربع أصابع ، وفى السنة التالية ، ٤١٨ ، ست عشرة ذراعا وثلاث عشرة إصبعا . النجوم الزاهرة .

(٧) بهامش الأصل عبارة نصها : بياض أربعة أسطر .

سنة ثمان عشرة وأربعمائة[1] :

فيها وقعت الهدنة بين متملِّك الروم[2] وبين الظَّاهر عن ديار مصر والشام ، وكتب بينهما كتاب ؛ وتفردت الخطبة للظاهر ببلاد الرُّوم . وفتح الجامع الذى بقسطنطينية ، وعُمل له الحصر والقناديل ، وأقيم به مُؤذِّن ؛ وعند ذلك أذِن الظاهر فى فتح كنيسة القمامة التى بالقدس[3] ، فحمل إليها ملوك النَّصارى الأموال والآلات ، وأعادوها ، وارتدّ إلى دين النَّصرانية كثيرٌ مِمَّن أسلم كَرْها فى أيام الحاكم بأمر الله .

وفيها عزل الظاهر عميد الدولة وناصحها أبا محمد الحسن بن صالح الروذبارى ، وولى عوضه الوزير الأجل الكامل أوحد أمير المؤمنين وخالصته أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى .

وفيها اجتمع عسكرُ مِصْر ، ورافع بن أبى اللَّيل مُقدَّم طائفة الكلبيين ، وأنُوشْتكين الدِّزْبَرى لحرب حسَّان بن جرّاح[4] ؛ فالتقَوْا لخمس بقين من ربيع الآخر على الأُقحُوانة[5] ؛ فقُتل صالح بن مِرْداس ، وانهزم حسَّان ، وقتل عدَّةٌ ممنّ معه ، واستَوْلى الدِّزْبَرى على البلاد. فقدم شبل الدّولة نَصْر ، ومعزّ الدّولة ثَمَال بعد أبيهما صالح بن مِرْدَاس ، وملكا أيضا الرَّحبة إلى بالس[6] ومنبج[7] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من فبراير سنة ١٠٢٧ .

(٢) وهو عندئذ الإمبراطور قسطنطين الثامن .

(٣) وكان الحاكم قد أمر بهدمها وإغلاقها سنة ٣٩٨ .

(٤) وخرج الظاهر بنفسه لتوديع الجيش المصرى عند خروجه ، واشترك صالح بن مرداس مع حسان بن مفرج فى مقاومة جيوش الظاهر . ذيل تاريخ دمشق : ٧٣ ؛ نهاية الأرب للنويرى . وسيرد ذكر هذه الحرب مرة أخرى سنة ٤٢٠ وهو تاريخها الحقيقى . قارن نهاية الأرب إذ تذكر فى سنة ٤٢٠ أيضا .

(٥) من أعمال دمشق وبلاد نهر الأردن على شاطىء بحيرة طبرية . معجم البلدان : ١ : ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٦) بين حلب والرقة ، كانت تقع على شاطىء الفرات ثم انحسر النهر عنها شيئا فشيئا حتى قال ياقوت إنها أصبحت على مسافة أربعة أميال من النهر فى زمانه . معجم البلدان : ٢ : ٤٦ — ٤٧ .

(٧) من إقليم العواصم ، بينها وبين حلب عشرة فراسخ ، ومنها إلى الفرات ثلاثة . نفس المصدر : ٨ : ١٦٩—١٧١ .

سنة عشرين وأربعمائة[1] :

فيها كانت فتنةٌ بمصر بين [٨١ ب] المغاربة والأتراك ، قتل فيها جماعة ، وكان الظّفر للأتراك ؛ ثم استظهَرَت المغاربةُ بمُعَاونة العامّة لهم ، فقتلوا عدّة كثيرة من الأتراك ، وأخرجوا مَنْ بقى منهم عن مصر . وكان خبط عظيم ، فأخرج الظّاهر رأسه من المنظرة وأشار إلى النّاس ، فتمبّلوا الأرض ؛ ثم بعث إليهم بالصّلح ، فمشى الدّعاة بينهم حتى اصطلحوا .

وفيه بعث المعزٌ بن المنصور بن بُلُكّين بن زيرى[2] هديّة فيها عشرون جارية لم يُر كَحُسْنهنّ ، وعلى نُهُودِهنّ حقاق الفضة ؛ وثلاثة أفراس ، فيها كميت بسرج ذهب زنته قنطار ذهب ، وأشقر بسرج لؤلؤ ، وأدهم[3] بسرج فضة زنتها قنطار ؛ وثلاثة آلاف منا[4] زعفراناً ؛ وخمسون دَرَقة بـأغشية ديباج ، واثنا عشر صقلبيًّا ؛ وعشرون خادما سُوداً ؛ وألف وخمسمائة ثوب خزّ وأربعمائة غفارة ؛ ورماح كثيرة جدا ؛ وألف قنطار شمعاً ؛ وثياب سُوسِيّة وصقلّيّة ؛ وعمائم عدّة ألوف . فجلس الظاهر فى الإيوان على السرير الذهب ، وقرئ عليه كتابُه ، وعُرِضت هديته فى يوم الأحد

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من يناير سنة ١٠٢٩ . ويلاحظ أنه لم يذكر عنواناً أو أخباراً لسنة ٤١٩ . وقد سبق مثل ذلك .

(٢) شرف الدولة المعز بن ناصر الدولة أبى مناد باديس بن عدة العزيز بالله المنصور بن يوسف ، ويعرف – شهرة – بالمعز بن باديس .

(٣) الكميت من الخيل بين الأسود والأحمر ، ويفرق بينه وبين الأشقر بالعرف والذنب ، فإن كانا أحمرين فهو أشقر وإن كانا أسودين فهو الكميت . والدهمة السواد ، ويقال فرس أدهم وبعير أدهم إذا اشتدت ورقته حتى ذهب بياضه . المصباح المنير .

(٤) المن : نوع من الأرطال وهو مائتا درهم وستون درهما . قوانين الدواوين : ٣٦٢ . والمنا الذى يكال به السمن وغيره ، وقيل الذى يوزن به ، رطلان . المصباح المنير . والمن : المنا ، وهو رطلان والجمع أمنان . مختار الصحاح .

ثامن شوال . وبعث إليه بهديّة من دَقّ تِنِّيس ودمياط وطرائف الهند واليمن ، وزرافة ، وبُخْتاً خُراسَانية تحمل قباباً فيها جوارى ، وأشياء عظيمة .

وفيها جهّز الظاهر أمير الجيوش أنُوشْتكين الدِّزْبَرى لقتال صالح بن مِرْداس ؛ فالتقيا بالأُقْحُوانة من عمل طبرّية على نهر الأُردن ، واقتتلا أشدّ قتال ؛ فقُتل صالح وولدُه الأصغر فى جمادى الأُولى من سنة عشرين هذه (١) ، وحمل رأساهما إلى القاهرة . ونجا شبل الدولة أبو كامل نَصْر بن صالح ، وأخوه أبو علوان عز الدّولة ثِمَال إلى حلب ، فملكاها شركة بينهما . فكانت مدّةُ ملك صالح لحلب أربعَ سنين وأشهرا .

---

(١) تقدم ذكر هذه الحرب فى أحداث سنة ٤١٨ . وهذا التاريخ ٤٢٠ هو زمن اشتعالها وهزيمة حسان ومقتل صالح. قارن نهاية الأرب للنويرى .

سنة احدى وعشرين واربعمائة[1] :

بايع النَّاسُ بولاية العهد للمُسْتنصر بن الظاهر ، وعمره ثمانية أشهر ؛ فخُلع على كافَّة أهل الدولة وعُمِل من الطعام ما كفى أهْلَ القاهرة ومصر والطَّارئين من البلاد ، ونُثِر مالٌ عظيم ؛ فلم يَبْقَ أحدٌ حتى وصل إليه من خير هذه البيعة . واجتمعت العامَّة تحت المنظرة من القصر ، واستغاثوا أن يَشْرُفوا برؤية أمير المؤمنين ، فأشرف عليهم الظَّاهر من المنظرة ، فقبَّلوا الأَرض وانصرفوا .

وكان مرتضى الدولة أبو نصر منصور بن لؤلؤ قد طمع فى حلب بعد تملُّك صالح بن مِرْدَاس لها ، فكاتب متملِّك[2] الروم يُرَغِّبه فى حلب ويَعِدُه ، إلى أن خرج من القسطنطينية فى هذه السنة ومعه ثلثمائة ألف ، حتى لم يبق بينه وبين حلب سوى يوم واحد اعتزل عنه ابن لؤلؤ ومعه رجل جليل من الروم يقال له ابن الدوقس فى عشرة آلاف ؛ فخاف متملِّك الروم ورحل ، ثم قبض على ابن لؤلؤ وابن الدوقس فى جماعة ووَلَّى منهزما لايلوى على شىء . وتبعه من عرب كلاب ونمير نحو الأَلْفَى فارس فى طائفة الأَرمن ، ونهبواالرومَّ ، فاخذوا من خاصِّ الملك أربعمائة بغلة تحمل المال والثياب ، سوى ما ظفروا به لعامّتهم ، بحيث أُبِيع البَغْلُ فى حلب بدينارين ؛ ولولا أن العرب تشاغلت بالغنيمة لما أفْلَت أحد من الروم . ووُجد من الروم آلافٌ كثيرة موتى عطشًا . وكانت هذه الهزيمة يوم السبت خامس شعبان .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع من يناير سنة ١٠٣٠ .

(٢) الامبراطور رومانوس الثالث .

سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة[1] :

فيها نقص النّيل نقصانا فاحشا ، فتحرك السعر ، وحملت غلال كثيرة من الشام إلى مصر ؛ ثم زاد النيل بعد أوان الزيادة بأربعة أشهر ، فكثر العَجَبُ من ذلك .

وكان الدّزْبَرى لمّا استرجع البلاد الشامية من أيدى المتغلّبين عليها ، إلاّ حَلَب فإنها بقيت بيد بنى صالح بن مرْدَاس ، انهزم حسّان بن جرّاح وإخوته من الدّزْبَرى ، ولم يجدوا ملجأ ، فحملهم ذلك على أن دخل حسّان فى طاعة ملك الروم ، وحمل على رأسه صليباً وصار فى جُملته . ثم سار فى هذه السّنة بعسكر الروم وعلى رأسه الصّليب ، ووصل إلى أَفَامْيَة ، وهى من عمل الدّزْبَرى ، فهزمها وسبى كثيرا منها . فنادى الدّزْبَرى بالغزاة ، وخرج ؛ فخافه نصر بن صالح وقرّر لملك الروم على نفسه خمسمائة ألف درهم ، صرف ستين درهما بدينار ، على أن يحميه ، وذلك فى جمادى الأولى ؛ فاتفق مرض الدّزْبَرى بدمشق ، وأُرْجف به ، ثم عوفى[2] .

[١٨٢] سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة [3]

فيها أمر الظاهر بقتل دُعَاتِه ، فاضطربت الرّعية وكثيرٌ من الجند لذلك ، وأخذ الدّعاة فى إفساد أمره والتحدّث بخلعه ؛ فأنفق أموالاً جمّة حتى استقرّ أمره[4] .

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٣٠ .

(٢) بهامش الأصل عبارة نصها : بياض سطر .

(٣) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٠٣١ .

(٤) بهامش الأصل عبارة تقول : بياض سطرين .

سنة أربع وعشرين وأربعمائة[1] :

ركب ولىُّ العهد ، ابن الظّاهر ، من القاهرة إلى مصر وقد زُيِّنت ، فكان إذا أقبل على الناس قبّلوا له الأرض . ونُثِر يومئذ على العامّة خمسةُ آلاف دينار ، ونُثر على الخاصّة عشرون ألف دينار ؛ فكان يوماً عظيماً .

وفى يوم الأحد ثامن عشر ذى القعدة قدمت هديّة المعز بن باديس ، وهى جليلة القدر[2] .

سنة خمس وعشرين وأربعمائة[3] :

فيها قدم الخبر باستيلاء الأتراك على الأمْر ببغداد ، وقلّت بها الأموال والرجال ؛ فبث الظاهر دُعاته فنشروا دعوته ببغداد فى الناس .

وفيها ظهرت الطائفة الدّرْزية بجبل السُّمّاق[4] من الشام يدعون إلى الحاكم بأمر الله .

فيها ظهرت الزلازل ببلاد الشام ، فخربت ريحا[5] ، ونصفُ الرملة وأكثرُ عكّا فى قرى كثيرة ، وبَعُد الماءُ من سواحل البحر المالح ساعتين ، ثم عاد كما كان[6] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع من ديسمبر سنة ١٠٣٢ .

(٢) بهامش الأصل : بياض سطر .

(٣) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٣٣ .

(٤) وزعيم هذه الطائفة حمزة بن على الدرزى ، الفارسى ، الملقب ولى الزمان وقائم الزمان . ودعا حمزة هذا إلى إلاهية الحاكم بأمر الله ، وقد وضع تقويما خاصا السنة الأولى منه توافق سنة ٤٠٨ هـ . وقد سبقت الإشارة إلى شئ من أمر هذه الطائفة فى موقعه . انظر فصلا خاصا بهذه الطائفة فى : الحاكم بأمر الله لمحمد عبد الله عنان . ٢٠٠ – ٢٠٨ . وجبل السماق من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن وقلاع كثيرة للإسماعيلية ، وفيه بساتين ومزارع كثيرة ، والمياه الجارية به قليلة إلا ماكان من عيون ليست بالكثيرة فى مواطن مخصوصة ، وبه تنبت جميع أشجار الفواكه وبعض القطن والسمسم ، وقيل سمى باسم السماق لأنه ينبت فيه بكثرة . معجم البلدان ؛ ٣ : ٤٩ .

(٥) ريحاء وأريحا مدينة قرب بيت المقدس فى غور الأردن ، بينها وبين القدس خمسة فراسخ ، اشتهرت بإنتاجها العظيم من الفواكه والموالح . معجم البلدان : ٤ : ٣٤٧ – ٣٤٨ .

(٦) بهامش الأصل : بياض أسطر .

سنة ست وعشرين وأربعمائة[1] :

فيها كثر الفأرُ بأراضى مِصر وأكل زُرُوعاً كثيرة . وفيها كثر الوباءُ بمصر .

وفيها قَتَل الدِّزْبَرى شِبلَ الدولة ثمال بن صالح بن مرْدَاس ، فى شعبان ، وملك حلب ، وبعث إلى الظاهر بهدايا جليلة[2] .

سنة سبع وعشرين وأربعمائة[3] :

فيها انْعَقدت الهدنة بين الظاهر وبين ميخائيل[4] ملك الروم عشر سنين متوالية .

وفيها توفى الظاهر عن استسقاء طال به من نيّف وعشرين سنة ، فى يوم الأَحد النِّصْف من شعبان ؛ فكانت مدّتُه خمس عشرة سنة وتسعة أَشهر وسبعة عشر يوما . وكانت أَيامه كلها سكونا ولينا[5] ، وهو مشغول بملاذِّه ونُزَهه وسماع المغنى ، وأُمورُ الدّولة بيد عمته السيدة العزيز ستّ الملك ، وهى التى عَدَلت بالخلافَة إليه عن ولىِّ العهد أَبى هاشم العبَّاس بن دواد ابن عُبَيْدِ الله المهدى ، وجىْ بأَبى هاشم فبايع والسَّيفُ على [رأسه] ، ثم جلس فكان آخر

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من نوفبر سنة ١٠٣٤ .

(٢) بهامش الأصل : بياض سطرين .

(٣) ويوافق أول المحرم منها الخامس من نوفبر سنة ١٠٣٥ .

(٤) ميخائيل الرابع .

(٥) فى هذا شئ من المبالغة فقد كثرت القلاقل فى عهده ، ولم تستقر شئون الشام دون فتن وحروب محلية ، وارتفعت الأسعار فى أكثر من مناسبة.. والصحيح هو ماذكره المؤلف بعد هذا مباشرة من أن الظاهر انصرف عن شئون الدولة إلى نزهه وملاذه وإلى سماع المغنى ؛ وللإنصاف لابد أن نذكر أنه كان معتل الصحة ضعيف البنية وهذا كان عقبة فى سبيل رعاية الدولة إلى جانب تكاسله وانصرافه إلى ملاذه . ويقول ابن تغرى بردى : " وكان الظاهر جوادا ممدحا سمحا حليما محبا للرعية ، ولابأس به بالنسبة لأبائه وأجداده " . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٥٤ . وقال النويرى : " وكان كريما مشتغلا بلذاته معولا على وزيره " . " وتوفى ببستان الدكة بالمقس فركب الوزير الجرجرائى إلى البستان وحمله إلى القصر " . " وكانت مدة عمره إحدى وثلاثين سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام " . نهاية الأرب .

العهد به . وكان يشارُ بالخلافة إلى عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدى ، فأُدخل عليه الشُّهود وهو يتَشَحَّط[1] فى دمه ، فأشْهَد أنه فعل ذلك بنفسه ، ثم قضى نحبه . وأقامت سيّدَةُ الملك سيف الدين الحسين بن دوّاس والوزير عمّار بن محمد فى تدبير الدولة عن رأيها ، حتى قتلت ابن دوّاس ، فانفرد عمّار بالأُمور إلى أن رَتَّبتْ له فى دهليز القصر مَنْ قتله . فتحدّث حسن بن موسى الكاتب ، والأمر لِستّ الملك ، ولسانُها ويدُها أبو القاسم على بن أحمد الجَرْجَرَائىّ . فلما ماتت السيدة ست الملك استقل الجرجرائى بالتدبير[2] .

(١) شحطه تشحيطا : ضرجه بالدم فتشحط تضرج واضطرب فيه . القاموس المحيط .
(٢) بياض نحو ثلثى صفحة .

المُسْتَنْصِر بالله أبو تميم مَعَدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبي على منصور

أمه السيدة رصد . وُلد يوم الثلاثاء السادس عشر من جمادى الأُولى سنة عشرين وأربعمائة بالقاهرة ؛ والطالع عند ولادته من برج السرطان ثمانِ دَرَج ؛ والشمسُ فيه على خمس عشرة درجة ، والمشترى فيه على ستٍّ درج ، وعطارد فيه على اثنتى عشرة درجة ؛ والقمر فى الدلو على ثلاث عشرة درجة ؛ وزُحل فى برج الثور على تسعٍ وعشرين درجة ؛ والمرّيخ فيه أيضا على إحدى عشرة درجة ؛ والزهرة فى برج الجوزاء على ثلاث عشرة درجة ؛ والجوزهر ؟ فى برج السُّنبلة على خمس وعشرين درجة . وبويع بالخلافة يوم الأَحد للنصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة[1] ؛ والطالع عند ولادته من برج السُّنبلة إحدى وعشرون درجة ، وزحل فى برج السنبلة على اثنتين وعشرين درجة ؛ والمشترى فى برج الدلو على ثمانى درج ، والمريخ فيه أيضا على اثنتى عشرة درجة ؛ والشمس فى برج الجوزاء على ثمانٍ وعشرين درجة ؛ [٨٢ ب] والزهرة فى برج السرطان على ثلاث درج ، وعطارد فى برج الجوزاء على ست عشرة درجة ؛ والقمر فى برج الجدى على ثمانى عشرة درجة والجوزهر فى برج الثور على إحدى وعشرين درجة . وأقام فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام .

وقام بأمره الوزير أبو القاسم الجرْجَرائى ؛ وأخذ له البيعة على النّاس ؛ وأطْلق للجند

---

(١) ويقول النويرى : بويع له صبيحة يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

أرزاقهم وشيئا آخر على سبيل الصِّلة ؛ وسكنت الأُمُور واستقامت الأَحْوال ؛ وكَتَب له المستنصر سجِلاًّ بإقراره على الوزارة .

وفيها سُيِّر من القاهرة مبلغُ ألنى دينار على يد بدوىّ لعمارة قنطرة الجاروفة التى منها شَرْب الكوفة ، وقد خربت وفَسَدت الجهاتُ التى تحتها بفسادها . وكانت تلك الجهات جاريةً فى إقطاع العُرْبان بالعراق ، فأُريد بذلك استمالةُ منْ هناك إلى الطَّاعة ؛ فقام بنو خفاجة مع البدوىّ فى الإنفاق على عمارة القنطرة . فبلغ ذلك الخليفةَ القادر بالله أبا العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر ، فلم يجد مالاً يبعثُه عوضاً من المال المذكور ، ولم يمكنه الردّ ، فدعته الضرورة إلى التَّغَاضى . فشرع البدوىّ فى العمل ، ثم مُنع بعد ماتمّ منه جانب كبير(١) .

(١) بهامش الأصل : بياض ثلاثة أسطر .

سنة ثمان وعشرين وأربعمائة[1] :

فيها فَسَد مابيْن نصر بن صَالح بن مرْدَاس وبين المستنصر ، فكاتب ملك الروم[2] ، وبعث إليه بما عليه من القطيعة مع هدّية[3] ؛ فأشار عليه بالدخول فى طاعة المستنصر[4] ، فقبل منه . وبعث بهدية جليلة إلى القاهرة مع وفد كبير ؛ فحصل الرّضا عنه ، وأضيف إليه أعمالُ حمص ، ولُقّب بمختصّ الأُمراء خاصَّة الإمام ، شمس الدّولة ومجدها ، ذى العَزْمتين . فشقَّ ذلك على الدّزْبَرى متولى دمشق ، وأخذ فى مُنَاكدة أصحاب نصر بن صالح[5] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٣٦ .

(٢) وهو الأمبراطور ميخائيل الرابع .

(٣) سبق فى أحداث سنة ٤٢٢ أن القطيعة التى قررها نصر بن صالح على نفسه عندئذ كانت خمسمائة ألف درهم بصرف ستين درهما للدينار الواحد .

(٤) وذلك لأن الروم كانوا قد عقدوا هدنة فى سنة ٤١٨ مع الظاهر ، تشمل مصر والشام . فعادت العلاقات بين الفاطميين والروم إلى المسالمة .

(٥) بهامش الأصل : بياض أربعة أسطر .

سنة تسع وعشرين (وأربعمائة)[1] :

فيها بعث الدِّزْبَرى عساكره إلى حماة ، فأخذها . وخرج شبلُ الدولة نصر بن صالح لدَفْعه ، فالتقيا بلَطْمِين[2] من عمل كَفَرْطَاب[3] ، فانكسر وقُتل فى يوم الاثنين نصف شعبان ، وحُمِل رأسه إلى دمشق . فبادر أخوه معزُّ الدولة ثمال بن صالح إلى حلب وملكها من الغد ، وأخذ قَلْعتها ، واستخلف فيها ابن عمه مُقَلَّد بن كامل بن مِرْداس ، وفى المدينة خليفة بن جابر الكعبى . وشرّق بأهله ليستنجد بأخواله بنى خفاجة ، فنزلت عساكر الدِّزْبَرى على حلب وأُخِذت المدينة ؛ ثم قدم إليها الدِّزْبَرى وتسلَّم القلعة فى يوم الثلاثاء ثامن رمضان ، وأخرج منها إلى دِرْبَاس ، واستولى على بَالِس ومَنْبِج ؛ وولى قلعة لغلاميه فاتك وسُبُكْتِكين . وعاد إلى دمشق يوم الخميس تاسع عشر ذى الحجة . وعمل فى طريقه على أخذ جَبَلَة[4] فلم يُطق .

وفيها ثار علىّ بن محمد بن على الصُّلَيْحى فى اليمن فى ستين[5] رجلا على رأس جبل ، وأقام دعوة المستنصر ؛ ومازال أمره يزيد حتى استولى على ممالك اليمن .

وفيها هادن المستنصرُ ملكَ الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليُمَكِّنَ من عمارة قُمامة التى فرّ بها الحاكم ، فأطلق الأسرى ، وعمر قُمامة ، وأطلق عليها مالاً جَلَّ وصفه[6] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٠٣٧ .

(٢) لطمين ، بفتح اللام و سكون الطاء وكسر الميم ، كورة من أعمال حمص ، وبها حصن ، معجم البلدان : ٧ : ٣٣٠.

(٣) بلد بين المعرة ومدينة حلب فى برية معطشة ليس لأهلها مورد ماء إلا مايجمعونه من الأمطار فى الصهاريج . نفس المصدر : ٧ : ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٤) من قلاع الساحل الشامى ، من أعمال حلب ، قرب اللاذقية . معجم البلدان : ٣ : ٥١ – ٥٤ (جبلة بثلاث فتحات متواليات) .

(٥) على بن محمد بن على ، أبو كامل ؛ كان يحج بالناس من اليمن على طريق السراة والطائف ، ثم تغلب على اليمن واتخذها إمارة له وجعل صنعاء حاضرتها ، وخطب على منابر اليمن لزوجته التى كانت تعرف بالملكة الحرة . الكامل: ٩ : ٢١٣ – ٢١٤ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١١٢ ؛ تاريخ اليمن لعمارة اليمنى .

(٦) بهامش الأصل : بياض ستة أسطر .

سنة ثلاثين وأربعمائة[1] :

سنة احدى وثلاثين وأربعمائة[2]

فيها أقيمت دعوة المستنصر بحران[3] :

سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة[4] :

فيها نقض ملك الروم الهدنة وأغار على بلاد حلب وعلى بلاد أفَامْية ، وكسر عسكر الدِّزْبَرى المقيم هناك ؛ فخرج إليه عسكر حلب فكسرهم على أرْمَنَاز[5] . وكان ثِمال بن صالح وعمّه المقلَّد بالرَّقَّة مالِكَين لها ، فبعثا إلى متملِّك الروم بمالٍ وثياب ، فطلب منهما ابتياعَ الرَّقة كما ابْتِيعَت الرُّهَا ؛ فضاق الدِّزْبَرى ذرعاً بذلك وكتب إليهما يرغِّبهما ويرهِّبهما ، فأجاباه بالاعتذار .

وكان قد مضى قوم من بنى جعفر بن كلاب إلى مضيق أفامية وعَاثُوا فى أعمال الروم ، فمكّن لهم الروم ثمّ أوقعوا بهم . فبعث الدِّزْبَرى عسكرا ، فلَقِيَ الرُّوم فيها بين حماة وأفامية ، فظهر المسلمون عليهم وقتلوا منهم عدة كبيرة ؛ فأجمع الدِّزْبَرى على النّهوض إليهم ، فهادَنُوه ومازالوا به حتى سكنت الحرب بينهم وبينه . ثم إن الجند طمعوا فى الدِّزْبَرى وهموا به فساروا له إلى حَمَاة ، فقضى عليه أهلها ؛ فكاتب مقلَّد بن منقذ ، فحضر إليه من كَفَرْطاب فى [١٨٣] ألفى راجل واجتمع به ؛ ومضى إلى حلب فأقام بها مريضا إلى أن مات يوم الأحد نصف جمادى الآخرة .

---

(١) بهامش الأصل : " وكذلك " ، يعنى : " بياض ستة أسطر " . ويوافق أول المحرم منها الثالث من أكتوبر سنة ١٠٣٨ .

(٢) ويوافق أول المحرم منها الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٠٣٩ .

(٣) حاضرة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم ، ومنها إلى الرقة يومان ، وهى على طريق الموصل والشام وبلاد الروم . معجم البلدان : ٣ ؛ ٢٤١ — ٢٤٣ .

(٤) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من سبتمبر سنة ١٠٤٠ .

(٥) من نواحى حلب وبينهما خمسة فراسخ . معجم البلدان : ١ : ٢٠٠ — ٢٠٢ .

سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة(1) :

وبعد ما أقام بحلب اثنين وأربعين يوما قدم إليها ثِمَال بن صالح وعمّه المقلّد ، وحصرا القلعة سبعة أشهر ، وتسلّماها فى صفر سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، وقتلا مَنْ بها . فلما بلغ ذلك المستنصر بعث إلى ثِمَال الخِلَع والتحف وسجلاً بتوليته ؛ وكان بقلعة حلب مائتا ألف دينار فأخذها ثمال .

وفيها توفّى شهم الدّولة ميمون ، صاحب السّيّارة فى أسفل الأرض ، فى شهر ربيع الآخر ، وحُمِل إلى مصر ، فوصلُوا به يوم الثلاثاء تاسعه ، ودفن بتربته بالقرافة . وكان من أهل الخير ؛ وحج بالناس من مصر فى سنة ست وعشرين وأربعمائة(2) .

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة(3) :

فيها خرج بالقاهرة فى شهر رجب شخصٌ اسمه سليمان كان يشبه الحاكم بأمر الله ، وأدّعى أنه الحاكم ، وبَثَّ دعاتِه سرًّا فى البلاد ، وقصد القصر وقت خلُوّه من العساكر ، وقال للخُدّام : قولوا هذا الحاكم . فارتاعَ مَنْ كان فى باب القصر وثارت ضجّة ؛ فقُبِض عليه ، وصُلِب ، وأخذت أصحابُه فقُتلوا ، ومن جملتهم محمد بن عانى الكتامى أحد دعاته(4) .

---

(1) ويوافق أول المحرم منها الحادى والثلاثين من أغسطس سنة ١٠٤١ .

(2) بهامش الأصل : بياض نحو ثلث صفحة .

(3) ويوافق أول المحرم منها الحادى والعشرين من أغسطس سنة ١٠٤٢ .

(4) بهامش الأصل فى هذا الموقع : " بياض نحو ثلث صفحة " . ويذكر النويرى أن اسم هذا المدعى سكين ، وأنه كان بمصر أقوام يعتقدون أن الحاكم حى وأنه غاب لرأى رآه . وكانوا يحلفون ويقولون « وحق غيبة الحاكم » . وأن أصحاب هذا المدعى صلبوا أحياء ثم رشقوا بالسهام حتى هلكوا . نهاية الأرب . واسمه فى الكامل أيضا سكين : الكامل : ٩ : ١٧٧ .

سنة خمس وثلاثين وأربعمائة (١) :

فيها قطع المعزّ بن باديس الخطبة للمستنصر ، ودعا ببلاد إفريقية للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، فبعث إليه الخلع من بغداد على طريق القسطنطينية(٢) .

سنة ست وثلاثين وأربعمائة (٣) :

فيها تُوفِّى الوزير الأَجَل أبو القاسم علىّ بن أحمد الجرْجَرَائى ، يوم الأربعاء سادسَ شهر رمضان . والحاصل يومئذ فى بيت المال البرّانى ، تحت يد أمين الدولة مسرّة الرُّومى ، برَسْم النفقات ، ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار وستّمائة دينار وواحد وعشرون ديناراً ونصف وثمن دينار . ووُجِد له سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ومائة ألف مثقال من العَنْبر ، وغير ذلك . وكان عالما فَطِنًا نحريرا ؛ وقّع مرة بين يدى الظّاهر لإعْزاز دين الله على مائة كتاب ، فلم تتشابَهْ فيها لفظَةٌ بلفظة . وكانت مدّة ولايته لِلظّاهر والمستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما(٤) .

ووَزَر بعده أبو على الحسن بن على الأنبارىّ ، فانْفَسد أمرُه بسبب أبى سعيد سهل بن

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العاشر من أغسطس سنة ١٠٤٣ .

(٢) بهامش الأصل : بياض نحو ثلثى صفحة .

(٣) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٠٤٤ .

(٤) وكانت مكانته عظيمة عند الظاهر لإعزاز دين الله بعد وفاة ست الملك أخت الحاكم . ويروى النويرى أنه كان بين الجرجرائى وخليل الدولة ابن العداس جفاء ، فحدث أن دعا ابن العداس الظاهر لزيارته ببركة الحبش ، واغتنم فرصة هذه الزيارة وأراد أن يحرك الظاهر ضد الوزير ، فسد الظاهر مسامعه وقال لابن العداس : إنى وإن رعيت حق تشريفى إياك بزيارتى فما أترك حق من ارتضيه لوزارتى ، ولابد أن أذكر له طرفا من ذلك ، فاذكر خيرا لأحكيه له . فكان ذلك سبب الصلح بينهما . وكانت مدة وزارته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما . ومن حسن تصرفه أنه بعد أن قطع الحاكم يديه مضى الوزير إلى ديوانه وجلس فيه ؛ فقيل له فى ذلك ، فقال . إن أمير المؤمنين أدبنى وما صرفنى . نهاية الأرب .

هرون التُّسْتَرى[١] وأخيه أبى نَمر إبراهيم ، اليهوديين . وكان من أمرهما أنَّ أبَا سعيد هذا كان قد استخدمه الظَّاهر لبُيُوعه ، فباع عليه فى جملة ما باع جارية سوداء تَحظَّاهَا الظاهر ، فولَدَت له المستنصر ؛ فراعَتْ ذلك لأبى سعيد وقدمّته عند ولدها المستنصر لَّما صارت الخلافة إليه ورتبته فيا يخصها ؛ فعَظُم شأنُه إلى أن صار ناظراً فى جميع أمور الدولة . فلمّا وَزَر الأنبارى قَصده أبو نَمر إبراهيم ، فجَبهه غلامٌ له ، فأحفظه ، وأعلم أخاه أبا سعيد ؛ فثَنَى رأى المستنصر عن ابن الأنباريّ لهذا السبب ، وأشار عليه أن يستَوزر أبا نصر صَدَقة بن يُوسُف الفلاَحى[٢] ، وكان يهوديًّا قد أسلم ، فاستوزره بعد الجرْجَرَائىّ فى يوم الثلاثاء حادى عشر شهر رمضان ، ولقّب بالوزير الأجَلّ ، تاج الرّئاسة ، فخر المُلْك ، مصطفى أمير المؤمنين . وكان يهوديًّا موصوفاً بالبراعة فى ضروب الكتابة . وَلِىَ أوّلاً نظر الشام ؛ ثم خاف أميرَ الجيوش أنُوشْتكين الدّزْبَرى ففرّ منه ؛ وقد اجتهد فى طلبه فلم يظفر به . وقدم إلى القاهرة ، فرعى له الجرْجَرائىّ حُرْمَة انفصاله عن الدّزْبَرى ، ورَقّاه ، وأشار فى مرضه بأن يُستَوزَر من بعده . فلما تقررت له الوزارة أملى سجلّ تقليده ليلة اليوم الذى خُلِع عليه فيه . وتولى أبو سعيد التُّسْترى الإشراف عليه . وقُبض على ابن الأنبارىّ ، وصُودِر ، حتى هلك تحت العقوبة ، ودفن بخزانة البنود[٣] وكان مسجوناً بها . وصار الفَلاَحى لايعملُ إلا بما يحدّه له أبو سعيد ويمثله .

وكان المستنصر قدْ بثّ دُعاته سرًّا إلى الآفاق يدعون إليه ، ويستميلون من تَصِلُ القدرة إلى استمالته . فلمّا كان فى هذه السنة دفع جماعةً منهم إلى ماوراء النّهر ، ودعَوْا هناك بعد أن

---

(١) يرد اسمه هنا بهذا الرسم : أبو سعيد ، وبرسم آخر : أبو سعد . وقد احتفظنا بالرسم الأول لوروده به فى أكثر من مصدر .

(٢) وكان الجرجرائى أيضا قد أوصى به وزكاه للوزارة قبيل وفاته . نهاية الأرب .

(٣) خزانة البنود وتعرف أيضا بدار البنود ، وكانت لحفظ الأعلام وكذلك لحفظ أنواع السلاح . معجم البلدان : ٤ : ٧ ؛ الخطط : ١ : ٤٢٣ — ٤٢٥ .

دَعَوْا بخراسان ؛ فاستجاب لهم طوائف من الناس . وحصلوا عند بَغْرَاخَان ، أخى [٨٣ ب] رَسْلاَن خان صاحب ما وراء النهر[1] . فلمّا علم بهم تلطّف فى الكشف عنهم بأن اسْتَمالهم وقرّبَهم ، وأطمعهُمْ أنّه يرُيد الدّخُول فيما هم فيه ؛ فأَنِسَ به طائفةٌ منهم ، وأرادُوا أن يأْخذُوا عليه العهُودَ والمواثيق ، فخدَعَهُم بإطلاق المال ، واستخْبَرَ به ما عندهم ، حيث إنّه أنفق عليهم فى مدة سنتين ثلثمائة ألف درهم ، حتى اطّلَع على عددهم ، وعرف مواضعهم ؛ وهم يطالبونَهُ باليمين والعهد إلى أن أجابهم على شَرْط أن يكتبُوا أيمانهم ، ويُطْلِعوه على باطنهم . فكتبوا ذلك ودفعوه إليه ليتفكّر به ، وقد كتبَ كتاباً على قدر كتابهم وشكله ، يقسم فيه بالأَيْمان المغَلَّظة أنه متى انكشف لهُ من أمرهم ما يدلُّ على الإلحاد والخروج عن تشريع الإسلام ذبَحَهُمْ بيده تقرُّباً إلى الله تعالى . ثم استدعاهم وأعلمهم استجابته إلى ما دعَوْه إليه ، وردّ إليهم الكتاب حتى شاهدوه وعرفوه ، واستعادَه ليحلف به . فلمّا حصل فى يده أخرج الكتاب الذى كتبه وحلَف أنه يَفِي بجميع ما تضمنّه ولا يعْدِلُ عنه ؛ فوثقوا بذلك ، وخفى عليهم فرق ما بين الكتابين .

ثم جمعهم وقال لهم ما أتمكّن من إظهار نفسى والمبَادَرَة بنُصْرتكم إلّا فى عددٍ قوى ، فإنّ بلاد التُّرك تشتمل على ثلثمائة ألف سيف مشهور تخالف هذا المذهب ؛ فإن كنتم فى عَدَدٍ قويتُ به . فذكروا له دعاتِهم ببلاد المشرق وسَمَّوهم له ، وأفضوا إليه بجميع سرِّهم ، ودفعوا إليه كُتُبَهم إلى جميع أصحابهم بما استقرّ العزْمُ عليه . ثم جمعهم وأحضر فقهاء بلده لمناظرتهم ، وفيهم عبد الملك بن محمد البلخى الفقيه بن محمد شيخ البلد ، ونَصْر بن عطاء ، وجعلهما

---

(١) بغراخان الثالث ، محمود (أو محمد) بن يوسف قدرخان حكم فى ماوراء النهر بين سنتى ٤٢٥ – ٤٤٩ (١٠٣٣ – ١٠٥٧) ، وهو أخو شرف الدولة أبى شجاع أرسلان خان الثانى بن يوسف قدرخان ، من أسرة إيلك خانات فارس التى حكمت ماوراء النهر بين سنتى ٣١٥ – ٤٤٩ (٩٢٧ – ١٠٥٧) ، وتفرعت عنها الجماعة التى حكمت بخارى ، فيما وراء النهر أيضا ، وتلك التى كانت فى كاشغر وخوتان وبلاساغون . معجم الأنساب . انظر أيضا :
Mohammadan Dynasties.

من وراء سِتْر ؛ فذكر الدُّعاة أسرار مذهبهم على غِرّة منهم وغفلة بما دُبّر عليهم ، وبَغْرَاخَان يستخبرُهُمْ حتى صرّحوا بعقائدهم . فأُخرج حينئذ عبدَالملك ونصراً ، وقبض على الدُّعاة وقيدهم ، ونادى فى الناس ليجتمعوا ، وقد نصب جذعا ، وصلب عليه الدعاة واحدا بعد واحد ، ورماهم بالنُّشّاب ، فقتل منهم ستة عشر رجلا ، وذبح منهم واحدا بين يديه ، ذبحه بعضُ عبيده فأعتقه ؛ وتصدّق بمائة ألف درهم . وتتبع كلَّ من فى أعماله من الدُّعاة ، فقبض على مائة وثلاثة وثلاثين رجلا ، وأَوْثَقَهم بالحديد ، وألقاهم فى جُبٍّ مظلم ؛ وكتب إلى جميع بلاد ما وراء النهر بقتل من عندهم من هذه الطائفة . وكتب إلى بغداد بما فعله ، فقدم رسوله فى هذه السنة ، فأُجيب بالشكر والثناء .

وفيها سيّر المستنصر إلى قرْواش [بن المقلد[1]] أعلاماً وخِلَعاً ، فلبسها ؛ فأنفذ إليه الخليفة القائم من بغداد يعاتبه على ذلك ، فاعتذر ، ولبس السَّواد ، ورجع عن دعوة المستنصر[2] .

---

(١) بياض بالأصل والتكلة استعانة بمصادر أخرى ، منها الكامل لابن الأثير والنجوم الزاهرة وذيل تاريخ دمشق — فى مواضع — وهو معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلد العقيل ، من العقيليين أصحاب الموصل . زامباور ؛ Mohammadan Dynasties.

(٢) بهامش الأصل : بياض ثلاثة أرباع صفحة .

سنة سبع وثلاثين وأربعمائة [1] :

اشتُهِر انتقاضُ الهدنة التى قرّرها الظاهر لإعزاز دين الله بينه وبين مُتَمَلِّك الروم ، وسعى الرُّسُل فى تقريرها بين المستنصر وبينه ؛ وكان انتقاضُها على الحقيقة من مدّة أربع سنين مَضَينْ . فلما كان فى ثامن ذى الحجّة وردت هديّة متملّك الروم من القسطنطينية إلى القاهرة ، وقيمتها ثلاثون قنطارا من الذهب ، والقنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومائتا دينار . وكان من جُملتها بغلٌ وحصان من أحسن الدواب وأعلاها قيمة ، كلٌّ منهما عليه ثوبُ ديباج رومىّ منقوش ثقيل ؛ وخمسون بغلا عليها مائة صُنْدوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بمِيناء ؛ وفيها من الدّيباج والسندس والإبريسم والعمائم المعلمة مالا يُقْدر على مثله . فعُوِّض عن هديته بمثلها من حقّ مصر ومن الجوهر والمسك والعود والطِّراز ، عمل تنّيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعثه[2] .

سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة [3] :

فى سادس عشر المحرم قتل أبو على الحسن بن على الأنبارى فى خزانة البنود بالقاهرة[4] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع عشر من يوليو سنة ١٠٤٥ .

(٢) بهامش الأصل : بياض نحو ثلث صفحة .

(٣) ويوافق أول المحرم منها الثامن من يوليو سنة ١٠٤٦ .

(٤) بهامش الأصل : بياض نحو ورقة .

سنة تسع وثلاثين وأربعمائة [1] :

فيها عَمِل الوزير أبو منصُور الفلَاحى على أَبى سعيد سَهْل بن هرون التُّسْتَرى اليهودى وقتله عند خان العبيد . وذلك أن أمَّ المستنصر كانت جارية أبى سعيد هذا ، فأخذها منه الظاهر وتَسرَّاها ، [١٨٤] فولدت له ابنه المستنصر ، فرقَّت أبا سعيد درجةً عليه بعد وفاة الظاهر[2] . وكان يخاف الوزير الجرْجَرَائىّ ، فلم يُظِهر ما فى نفسه . فلما مات الجرجَرَائىّ وتولَّى الفلَاحى انبسطت كلمةُ أبى سعيد فى الدّولة ، بحيث لم يبق للفلاحىّ معه فى الوزارة أمرٌ ولا نهى ، سوى الاسم فقط وبعض التنفيذ لا غير ، وأبو سعيد يتولَّى ديوان أم الخليفة المستنصر . فغصَّ الفلاحى بأبى سعيد وشَغَب عليه الجُنْدَ حتى قتلوه . وذلك أن بنى قرّة ، عرب البحيرة ، أفسدوا فى الأعمال ، فخرج إليهم الخادم عزيز الدولة ريحان ، وأوقع بهم وقتل منهم ، وعاد وقد عَظُم فى نفسه لمعالجة النَّصر على بنى قُرّة والظفر بهم . فثقُل على أبى سعيد أمْرهُ واستمال المغاربة وزاد فى واجباتهم ، ونقص من أرزاق الأتراك ومن يَنْضاف إليهم ؛ فجرى بين الطائفتين حرب بباب زَوِيلَة . واتفق مرض ريحان وموته ، فاتُّهم أبو سعيد أنه سَمَّه ؛ وتجمَّع الطوائف المنحرفة عنه على قتله . فركب مِنْ داره على العادة يريد القصر ، فى يوم الأحد لثلاث خلَوْن من جمادى الأولى ، فى موكب عظيم ؛ فلما قرُب من القصر اعترضه ثلاثة من الأتراك وضربوه حتى مات . فأمر المستنصر بإحضار مَنْ قتله ، فاجتمع الطوائف وقالوا نحن قتلناه . فلم يجد المستنصر بُدًّا من الإغضاء . وقطَّع الأتراكُ أبا سعيد قِطَعاً ، وتناولت الأيدى أعضاءه فتمزَّقت ؛ واشترى أهلُه ما قَدَروا على تحصيله من جثّتِه بمال . وجمع الأتراك ما قدروا عليه من أعضائه ورِمّته ، وحرقوا ذلك بالنار ، وألقوا عليه من التراب

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من يونيو سنة ١٠٤٧ .

(٢) وتولى ديوانها الخاص . وزاد ضرره واشتد أذاه للمسلمين حتى كانوا يحلفون : وحق النعمة على بنى اسرائيل . نهاية الأرب . وسيرد فى المتن بعد قليل مايفيد أن أبا سعيد هو الذى كان يحلف بهذه العبارة .

ما صار به تلاً مرتفعا . وضمّ أهلُه ما وصل إليهم منه فى تابوت وأسدلوا عليه ستراً ، وتركوه فى بيت مؤزّر بالسُّتُور وأوقدوا الشموع ، وأقاموا عزاءه . فتعلقت مِنْ بعض الشموع شرارة فى الستور التى هناك ومضت فيها ، فاحترق التابوت بما فيه .

وكان مقدار ماحصل فى بيت المال البرّانى على يَدَىْ أبى نَصْر صدقة الوزير وأبى سعيد إبراهيم التُّسترى من يوم مات الوزير علىّ بن أحمد الجرجرائى وإلى أن قُتِل أبو سعيد سبعمائة ألف دينار . والذى مات عنه الجرْجَرَائىّ ، وهو حاصل بيت المال المذكور برسم النفقات ، ألف وسبعمائة ألف وستمائة وواحد وعشرون ديناراً ونصفٌ ونصف ثمن دينار . فصار حاصلُ بيت المال بِرَسْمِ النَّفقات إلى أن قتل أبو سعيد ألفى ألف دينار وأربعمائة ألف دينار وستمائة دينار وواحد وعشرون ديناراً ونصف ونصف ثمن دينار .

وردَّ المستنصر لأبى نصر ، أخى أبى سعيد ، خزانة الخاصّ ، ولولَدَىْ أبى سعيد النظر فى بعض الدَّواوين . وحقدت أمّ المستنصر على الوزير أبى منصور صدقة بن يوسف الفلاحى بسبب قتل أبى سعيد ، ومازالت به حتى صرفته عن الوزارة واعتقلته بخزانة البُنُود . وقيل كان صَرْفُه فى سادس المحرّم سنة أربعين .

واتَّفق أنه لما قُبِض عليه وسُجِن بخزانة البُنود وأُمِر بقتْله بها ، حُفِرت له حُفَيْرة ليُوارَى فيها ، فظهر لِلْفَعَلَة عند الحفر رَأْس ، فلما رُفِع سُئِل عنه الفَلَاحى ، فقال هذا رأسُ ابن الأنبارىّ ، وأنا قتلته ودُفن فى هذا الموضع ، وأنشد :

رُبَّ لحدٍ قد صارَ لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضْداد

وكان أبوه أحد الكتاب البلغاء ، وتولى ديوان دمشق(١) .

---

(١) وهو أبو الفضل يوسف بن على ، وقد هجاه الواسانى بقصيدة أولها :

يا أهل جيرون ، هل بسامركم إذا استقلت كواكب الحمل

والواسانى هذا هو أبوالقاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد . انظر اليتيمة للثعالبى حيث تجد هذه القصيدة فى نحو ١٤٠ بيتا

ومن أحسن ما قيل فى أبى سعيد ، وقد كُرِه أذاه للمسلمين أنه كان يحلف : « وحقّ النعمة على بنى إسرائيل » ، قول الرضىّ فيه :

يَهودُ هذا الزّمان قد بلغوا ... غاية آمالهم ، وقد ملكـوا
العزّ فيهم والمالُ عنـدهـمُ ... ومنهمُ المستشـارُ والمـلك
يـأهْلَ مِصْر إنّى قد نصحْتُ لكم ... تهوَّدُوا قد تهوَّد الفـلَك

وفيها استقر فى الوزارة بعد الفلاحى أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمّد بن أحمد الجَرْجرائى ، ابن أخى الوزير صفىّ الدّين ، ولُقِّب بالوزير الأجلّ الكامل الأوحد ، علم الكفاة ، سيد الوزراء ، ظهير الأئمة ، عماد الرؤساء ، [٨٤ ب] فخر الأمة ، ذى الرئاستين ، صفىّ أمير المؤمنين .

وفيها ابتدأ أمر أبى محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليَازُورىّ . وكان من خَبَره أن أباه علىّ بن عبد الرحمن كانت له حال واسعةٌ ببلد يعرف بيَازُور(١) ، من ضِياع فلسطين ، وكان مقدَّماً فيها ؛ فلما كبرت حاله انتقل إلى الرّملة واستوْطَنها ، وصارت له وكلاء فى الضّياع . فاشْتُهِر هناك وعرف بالعِفَّة والصّدْق وسماح النفس ، فرُدّ إليه قضاءُ بعض أعمال الرملة . ونشأ له ابنان نجيبان ، وَلِى أحدُهما الحكمَ بعد أبيه إلى أن توفى ، ثم خلفه أخوه عبد الرحمن هذا من بعده ، فعُرِف بسعة النفس وسعة الأخلاق ؛ فاتصل بخدمة الوزير الجرجرائى ، فصار بذلك ممنوعاً ممّن يريدُه بسوء .

واتفق أنه حجّ قبل قدومه إلى مصر ، فلما زار قبر رسول الله نام فى الحجرة الشريفة ، فسَقط عليه خَلُوقٌ من الزّعفَران الملطّخ فى حوائط الحجرة ، فجاء بعض الخُدّام وأيقظه من نومه وقال : أيّها الرجل ، إنك تَلِى ولايةً عظيمة وقد بشّرتك ، فلِى منك الحِبَاء والكرامة .

---

(١) يازور قرية من قرى الرملة بفلسطين

ثم انتقل بتلطُّفه وكثرة مُدَاخلته إلى خدمة السيدة أم المستنصر ، فتقرّب بخدمتها ، ولازم بابها عندما صُرِف عن الحكم بفلسطين يسأل عَوْده إلى وطنه وخدمته فيها ؛ وهو مع ذلك يُواصل الوزير الفلاحى ويؤانسه ، فيبدَأه بما فى نفسه من أبى سعيد التسترى ، فيفاوضه فى التَّدبير على المذكور ، ويفتح له من العمل عليه ما يظهر له صوابه . فثَقلُ مكانُه على أبى منذر لقربه من أمّ المستنصر ولمُمَا لأته الوزير الفلاحىّ ؛ وهمّ به ، ثم تراخى عنه ، حتى كان من أمره ما كان ؛ وأَمْرُ اليازُورِى فى كل يوم يتزايد وحاله يقوى . إلا أن قاضى القضاة وداعى الدعاة قاسم بن تامِيلا كان يمتنع من ردّ الحكم إليه ببلده ، لِما يعلم من سُوء رأىِ أبى سعيد فيه ، وأنه يريدُ القبض عليه ؛ فكان ينحرف عنه ولا يلتفت إليه .

واتَّفق أنْ حضر قاضى القضاة ذات يوم بباب البحر من القصر ، على عادته فى كل يوم اثنين ، لتقبيل الأرض والسلام أو خروج السّلام عليه ، ويجلس معه من الشهود مَنْ جرى رسمُه بذلك . فلمّا جلس بباب البحر وخليفتاه القضاعى وابن أبى زكرى والشّهود دخل أبو محمّد اليَازُورى وجلس معهم ؛ فقال له قاضى القضاة : بأَمْرِ مَنْ جلست ههنا ! أتظنُّ أنَّ المجالس كلَّها مبذولةٌ لكلِّ أحدٍ أن يجلس فيها ؟ هذا مجلس لا يجلس فيه إلا من أَذِنَتْ له حضرةُ الإمامة وشرّفته به ؛ اخرج ، فوالله لاتَصَرَّفت على أيامى أبدا . فخرج ورجلاه لا تكادان تحملانه ، فوقف بباب البحر إلى أن خرج قاضى القضاة ، فسار وخليفتاه والشهود معه ، فسار فى أعقابهم ، وسبقهم ووقف بباب دار القاضى ؛ فلما نزل صنع له استعطافا ، فلم يُعِرْه طرفه وانصرف . فلقيه القضاعى وقال : يا أبا محمد ، كان يجب ألّا تُريه وجهك عقب ما جرى لك معه . وفارقه . فلقيه ابن أبى زكرى وخاطبه بجفاء . فرُدّ إلى داره مغمُوماً ، فوجد ثلاثين حِمْلاً من تفاح قد وصلت إليه من ضِياعِه لتُباع بمصر ، فأنفذ منها خمسة أحمال إلى الوزير ، ولقاضى القضاة خمسة أحمال ، وللقائد الأجلّ عُدّة الدولة رفق خمسة أحمال ، ولمعزّ الدولة مِعْضَاد خمسة أحمال ، ولابن أبى زكريّا ثلاثة أحمال ، وللقضاعى

خمسة أحمال ، وفرّق حِمْلَين على حرّاسِهم . فلم يلتفت أحدٌ منهم إليه ، ولا عطف عليه ، ما خلا القائد الأجلّ عدة الدولة رفق فإنه شكره وأثنى عليه . وهو مع ذلك يقف بباب البحر ، فإذا أقبل عدة الدولة رفق يريد القصر تلقّاه وسلّم عليه ، فيكرمُه ويسأل عن حاله ، ثم يدخل إلى القصر ؛ فإذا خرج وجده وَاقفاً على حاله فيسلم عليه ويتبعه إلى داره ؛ فإذا دخل انصرف عنه . فأقام على ذلك أياما ، فخفّ على قلبه ورغب فى اصطناعه ؛ فصار إذا وصل الى داره أمره بالنُّزول معه ، فينزل ، ويتحدثان ـ وكان حلو الحديث ـ فيطيل عنده ، ثم ينصرف . فصار يشتاقه إذا غاب ، ويمسكه إذا أراد الانصراف حتى تحضر المائدة .

وكانت أمّ المستنصر لمّا هَلَك أبو سعيد توقّفت أمورُ خدمتها ، فأحضرت [١٨٥] أخاه وأمرته بخدمتها ، فامتنع خوفا من الوزير والأتراك ؛ واستمرت ثلاثة أشهر تسأله وهو يمتنع . فحضر أبو محمد اليازُورِى يوماً ، فجلس عدة الدولة رفق ، وجرى بينهما امتناعُ أبى نصر ، أخى أبى سعيد ، من خدمة أم المستنصر ، فقال له رفق : أرى أن تكتب رقعة تلتمسُ خدمتها وتعْرِضُ نفسك عليها . فقال أبو محمد : قد كنت أظن جميل رأيك فىّ وإيثارك مصلحة حالى ، وأكذبنى ظنّى . فقال : بماذا ؟ فقال : الهزء بى ، فإنّى قد أجْهَدت فى العود إلى قريةٍ كنتُ فيها فبُخل علىّ بها . فكيف أتعرّض لهذا الأمر الكبير ومُنَاوَأة الوزراء ! فقال له : أما ترضانى سفيراً لك فى هذا الأمر ، وعلىّ استفراغ الوُسْع فيه ، لوُجُوب حقّك علىّ ، فإن قضت الأقدار ببلوغ الغرض فى ذلك فقد أدركنا ما نُؤثره ، وإن تكن الأخرى فقد أكثر من العطلة ماتحصّل . فأجاب إلى ذلك ، وكتب إلى السّيدة رقعة يعرضُ نفسه وماله عليها ، ويخطب خدمتها ، ويبذُل الاجتهاد فيها ؛ وأخذها منه رفق .

فلما كان من الغد ركب إلى القصر ، ودخل إلى السيدة وقد أحضر أبو نَصْر ، وعَاوَدتْهُ الخطاب فى خدمتها وهو يمتنع ؛ حتى أضجرها ، فانتهز عز الدولة رفق الفرصة بضجرها وقال : يامولاتنا ، قد طال غَلْق بابك ووقف خدمتك فى امتناع الشيخ أبى نصر

ممّا نريده منه ، وههنا من أنت تعرفينه ، وهو رجل مسلم وقاضٍ ، وكبير المروءة ، وهو مستغنٍ بمالِهِ وأملاكه عن التعرُّض لما لِكِ ، وهو ثقة ناهض كافٍ فقالت : من هو ؟ فقال القاضى أبو محمد اليَازُورِى ، وهذه رقعته . فأمرته بتسليمها إلى أبى نصر ، وقالت : ما تقول فيه ؟ فلم يصّدق بذلك . فقال يا مولاتنا ، هو والله الثقة الأمين الناهض الذى يصلح لِخْدمتك ، وفيه لها جمال ، وما تظفرين بمثله . فوقع ذاك منها بالموافقة . فقال لرفق : قل له يجلس فى داره غداً حتى أُنفذ إليه ، فسُرّ بذلك وخرج ، فإذا أبو محمد فى انتظاره على عادته ، فسار ، ولحق به أبو محمد ، فقال له : أقمح أم شعير ؟ فقال : بل برٌّ يوسفى ، وقصّ عليه الخبر . فلما كان الغدُ جاء الرسول مستدعياً له ، فركب إلى بابها ، فأحضرته وأدخلته وراء المقطع وردّت إليه أمر بابها والنظر فى ديوانها ، الذى هو باب الربح ، وجميع أحوالها ، ونزل . فبلغ ذلك الوزير ، فكبرُ عليه وأقلقه أن تمّ على غير يده ، وأنه لا يُقبَل قولهُ عند السّيدة لما فى نفسها منه لقتل أبى سعيد .

وأقبل الأمراءُ الأتراك إلى القاضى أبى محمد ، فهنئوه بما صار إليه ؛ فقام إليهم وتلقّاهم ، وأعظم سعيهم إليه وشكرهم ، وقال : ما أنا إلاّ خادم ونائب لموالى الأمر ، أسأل فى تشريفى بما يُعيِّن لهم من خدمة لأنهض فيها . ثم لما قاموا نهض قائما لوداعهم . وأخذ الوزير الفلاحى فى العمل عليه ، فلم يمض إلا أيام حتى قبض عليه وقتل .

سنة اربعين واربعمائة [1] :

فيها سار ناصرُ الدَّولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن الحسن بن حمدان ، أمير دمشق ، وشجاع الدَّولة جعفر بن كليد ، والى حمص[2] ، بالعساكر وقبائل العُرْبان إلى حلب لقتال أميرها ثِمالَ بن صالح بن مِرْداس . وذلك أن ثِمَال بن صالح كان قد قرّر على نفسه فى وزارة الفلاحى أن يحمل كل سنة عشرين ألفا ، فأخَّر الحمل سنتين ؛ وأخذ شجاع الدَّولة يُغرى الوزير على ثِمَال ويسهّل أمر حلب . فخرج الأُمر إلى ابن حمدان أن يسير هو وَوَالِي حمص بجموع العرب ؛ فنزل بمن معه على حماة وفتحها ، وأخذ المعرّة[3] ، وأقدم فنزل على حلب لخمْس بَقِينَ من ربيع الآخر . وحارب ابن مرداس حُروباً آلت إلى رحيل ابن حمدان بغير طائل ، فى سادس عشر جمادى الأُولى . فنى عَوْدِه أصابه سيل هلك فيه أكثر ما معه من الخيل والرِّجال والأَمتعة ، وعاد إلى دمشق . فبعث ثمال إلى المستنصر يسأل عفوه ، وكان المتوسِّط بينهما أبو نَصْر إبراهيم ، أخو أبى سعيد [التُّسْتَرى] ، فأُجيب إلى ذلك ؛ وانفصل رسولُه من الحضرة . فورد الخبر بأن ثمال بعث والياً إلى معرة النُّعمان ، وأنه أساء التدبير ، فانحرف عنْهُ الناس ، وفر منهم إلى حلب ؛ وأن جعفراً ، أمير حمص ، بادر إلى المعرّة ، فلقيه مُقَلَّد بن كامل بن مِرْداس وحاربه ، فقتل فى الوقعة [85 ب]

---

(1) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من يونيو سنة ١٠٤٨ .

(2) بهامش الأصل عبارة نصها : فى الأصل المنقول عنه بخط مصنفه ورقة فى هذا المحل يقول فيها : " وملخص أمر حلب أن ثمال بن صالح بن مرداس أخر حمل ماقرره على نفسه فى كل عام ، فأنفذ المستنصر لقتاله متولى دمشق ناصر الدولة الحسن بن الحسين بن حمدان وشجاع الدولة جعفر بن كليد متولى حمص ، فسارا بجميع عساكر الشام وفتحوا حماة والمعرة ونزلوا على حلب وقد استمد سعد الدولة ثمال وجمع خمسة آلاف من بنى كلاب وكلب وغيرهم ، وخرج وقاتلهم ، فانهزم أكثر أصحابه ، وثبت فى طائفة بقية نهاره ، وعاد إلى المدينة . وخرج من الغد وقاتل ، فصبر الفريقان صبرا طويلا وأبلوا بلاء حسنا ، ثم اقتتلوا فى اليوم الثالث فثبت ثمال ثباتا زائدا فرحل ابن حمدان " .

(3) معرة النعمان من أعمال حمص ، بين حماة وحلب ، تستقى من العيون ، وبها كثير من أشجار الزيتون . معجم البلدان : ٨ : ٩٦ - ٩٧ .

لِيستٌ بقين من شعبان ، وحُمِلَت رأسُه وشُهِّرت بحلب ، وأُسِر كثير من عسكره ؛ فبعث المستنصر إلى رسول ثمال وردّه ، وأفهمه ما ورد من المكاتبة .

ووجد الوزير أبو البركات السّبيل إلى الإغراء بأبى نصر إبراهيم ، فما زال يُبَلّغ المستنصر بأنه حملَهُ الحقد لقتل أخيه على السّعى فيما يضُرّ الدّولة من التوسُّط بين ثمال والحَضرة ، وأنَّ ابن حمدان أساء التدبير فى رُجُوعه عن حلب . فقبض على أبى نصر ، وأُخذت عامّة أمواله ، وعوقب حتى مات .

وولى دمشق بهاء الدولة مظفّر الخادم الصقلبى ، وخرج إليها على جرائد الخيل[1] ، فدخلها على حين غفلة ، وقبض على ناصر الدّولة ابن حمدان وحمله إلى صُور ، ونقله إلى الرّملة وصُودِر ، وأقام مظفّر الخدْمَة بدمشق . وقَبض على راشد بن سنان بن عليان ، أمير بنى كلاب ، واعتقله بصُور .

وخرج أميرُ الأمراء المظفر ، فخر الملك ، عدة الدولة وعمادها ، رفق الخادم ، فى ثامن عشر ذى القعدة بتجمُّل كثير وأُبّهة عظيمة ، وقوة قوية ، وعُدّة وافرة ، وآلات طبله ، وعساكر تبلغ عدتهم ثلاثين ألفا ؛ وكان المنفق فيه عيناً مع قيمة العُرُوض أربعمائة ألف دينار . فبرز ظاهِرَ القاهرة يريد حلب ، وخرج المستنصر لتشييعه ، وكتب لجميع أمراء الشام بالانْقِياد له والطّاعة لأمره ، وأن يترجّلُوا له إذا لَقُوه . وسار فَوَافَى الرّملة وقد وصل رسولُ صاحب القسطنطينية بالصُّلح بين المستنصر وبين بنى مِرْدَاس ، ففشل رفق وانخرقت حُرْمته ، وجرت بالرملة وبدمشق أمورٌ آلت إلى حرب بين العسكر عدة أيام ، فبات يوماً ظاهر دمشق .

---

(١) جمع جريدة ، وهى الفرقة من العسكر الفرسان لارجالة بينهم ، والفرقة من الجند إذا خرجت مسرعة من غير أثقال لمهمة تستدعى الإسراع فى الخروج . لسان العرب . انظر أيضا : Dozy; Supp. Dict. Ar.

وفيها قُتل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى يوم الاثنين ، النصف من المحرم ، بخزانة البنود ودفن فيها . واتفق فى وفاته عجب ، وهو أنه لما ولى الوزارة سَعى فى اعتقال أبى على الحسن بن على الأنبارىّ ، واعتقله بخزانة البنود ، ثم قتله ، فى سنة ستٍّ وثلاثين وأربعمائة ، ودفنه بخزانة البنود . فلما قبض عليه بعد صرفه عن الوزارة سُجن فى المكان الذى كان فيه ابن الأنبارى من خزانة البنود ، وقتل فيها ، ودفن معه . وكان ابن الأنبارى من جماعة الوزير الجرجرائى ورفيقاً للفلاحى وصاحبه ، ولما وَلِىَ الوزارة تخوّف منه ، وما زال يعمل عليه حتّى قتله ، كما تقدم .

وفيها أقبلت حال أبى محمد اليَازُورِى تزيد ، ومَنْزِلتُه ترتفع ، وخلع عليه ثانيا ، وأُمِر ألا يقوم لأحد إذا دخل عليه ولو عظُم قدره ؛ فكان يعتذر إلى من يَغْشَاهُ من الجِلَّة والرؤساء الأكابر ، وأنه لو مَلَكَ اختيارَهُ لبالغ فى تكرمتهم بما يستحقونه ؛ خلا القائد عُدّة الدولة الذى كان سفيره ، فإنه كان إذا أقبل وثب إليه قائما . فبلغ السيدة ذلك ، فقالت له : لا تتحرك لأحدٍ بالجملة ، فكان إذا جاءه اعتذر إليه . ولقب بالمكين عمدة أمير المؤمنين ؛ وترقّت أحواله حتّى صار يحضر بحضرة الخليفة إذا أراد أن يستدعى الوزير كما كان أبو سعيد مع الفلاحى . فعظُم ذلك على الوزير ، لأنه كان إذا حضر القاضى أبو محمد اليَازُورِى تحدّث طويلاً والسيدة من وراء المقطع ، ثم يستدعى الوزير فيعرض ما يريدُ من أمْرِ الدّولة ، ولا يكون المجيبُ له إلاّ القاضى أبو محمد ، فإذا أجابه الْتَفَتَ إلى المستنصر وقال أليس هذا الصّواب ؟ فيقول المستنصر نعم ؛ ثم يخرج الرّسُول من وراء المقطع ويقول هذا الصّواب . فكان الوزير كأنه يعرض على اليَازُورِى الأُمور دون الخليفة ، فيشُق عليه ذلك ، ولا يتمكن من مخالفته ، ولا يستطيع الصبر على ما به .

وكان من جملة أصحاب الدّواوين رجل يُعرف بالشيخ الأجل عبد الملك زين الكُفاة أبى المفضل صاعد بن مسعود ، وإليه ديوان الشام يومئذ ، وهو شيخٌ خود ؛ وكان الوزراء

يعتمدون عليه ويرجعُون إلى رأيه . فأحضَره الوزير ، وفاوَضه فى أمر اليَازُورِى ، وأخذ رأيه فيما يُعْمل معه ؛ فأشار عليه بأن يُحَسِّن للخليفة أن يقلِّده القضاء ، ظنًّا منه أنه إذا تقلَّد القضاء فإنه يقعُ فى أمر كبير ، ويشغلهُ ذلك عن مُلَازمة السيدة ، فيجد الوزير سبيلًا إلى استخدام ولده مكانه ، ويتقوَّى له الأمر فيه ، ويملك جهة الخليفة والسيدة . وكان قد تُكُلِّم فى قاضى القضاة من أيام أبى سعيد ، وذُكِرَ أنَّ [٨٦ ا] أُمورَ الناس ناقصةٌ فى حكوماته ، وأنَّ له غلمانا قد استَحْوذُوا على الحكم ، وهم الذين يُوقفون أُمُورَ النَّاس ؛ فاستخدم أبو سعيد شاهداً يعرف بابن عبدون ، خليفة القاهرة ، وتقدم إلى قاضى القضاة ألا يفصل حكما بين اثنين إلاَّ بحضوره . وضبط ابنُ عبدون أمر الحُكْم ضبطا شديدا ؛ وكان الخصوم يجتمعون بباب القاضى والشُّهودُ بين يديه ، فلا يُمضى حكما إلا فى دعوى بين اثنين ، ومايحتاج إليه من إقامة بينة ، أو منازعة امرأة مع بعل لها فى فرض ، ومايجرى هذا المجرى . وأمّا فى تثبيت أو قصص مستعجمة الحكم ، ومايُحتاج فيه إلى مناظرات ومنازعات فلا يتكلَّم فى شئ من ذلك إلا عند حضور ابن عبدون ؛ وحجج الناس يُحتاط عليها فى قمطر ، وتُحمل بين يدى القاضى ؛ فإذا حضر ابن عبدون أُحْضرت وفصل الحكم فيما بين أصحابها . ومازال كذلك حتى حضر إليه خصمٌ فى مرّات ، فخاف عليه وتشفع إليه بأصدقائه ، فلم يُعْرِهُ فرصة يوما حتى خرج من مجلس قاضى القضاة وركب ، فتقدم إليه وقبّل ركابه ، وخضع له وتلطَّف فى أمره ، فلم يلتفت إليه ؛ فعاد إلى مَنْ خرج إليه من الشهود وسألهم سؤاله ، فانتهره . فلما أيس منه وثب عليه بخنجر وخرق به بطنه ، فخرّ إلى الأرض ميتا . وأُخذ الرّجل إلى أبى سعيد ، فَنكَّل به وقطع يدَيْه ورجلَيْه ، وضرب عنقه . ثم استخدم أبُو سعيد بعدَ ابن عَبْدون القُضاعِيَّ وابن أبى زكرى وأقامهُما خليفتى قاضى القضاة ، وأمرهما بسلوك طريق ابن عَبْدُون فى الأحكام ؛ فلم يَقُوما مُقامه ، وكانا يجاملان القاضى ؛ فعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل ابن عبدون ، إلَّا فى فصل الأحكام فإنها كانت لاتنفصل إلاَّ بحضورهما . فثقُل ذلك على القاضى لاسْتيلاء غلمانه عليه ، واتّهامه أنَّ أمورَ الناس واقفة ، وأنَّه لاينفذ له حكم ولا أمرٌ ولا نهى .

وكان يحضُر مجلس الوزير يَوْمَ الخميس فى القصر بعد قَضاء خدمة المجالس ، ثم فى الدَّار يوم الاثنين مسلِّما عليه . فحضر دار الوزارة يومَ الاثنين على رغْمه ، فقرّبه الوزيرُ وسأَل عن حاله ؛ فأَجاب بأَنه لاحُكم لهُ ولاأَمر ، والأَحكامُ مردُودة إلى خليفتيه ولهما الحكم دونه ، فإذا حضرَا فُتح باب الحكم ، وإذا غابا أُغلق بابه . فقال له : كفيت ياقاضى القضاة . وخرج من عنده وحضر بعده القضاعى وابن أَبى زكرى ، فقال لهما الوزير : مالقاضِى القضاة يتضرَّر منكما ويشكو استيلاءكُما على الحكم دُونه ، وأَنَه لاتنفُذ أَوامرُهُ معكما ؟ فقالا : وأَىّ أَمر لنا دونه ، هل أَوقفنا أَمر أَحكامه ، أَولنا غلمان يمسكون حجج النَّاس حتى يُصَانعوهم عليها ؟ يعرِّضان بغلمان القاضى ! إنما نحن فى حضورنا كبعض الشهود والأَمر إليه فى إمضاء الأَحكام ؛ وإنا لنشاهد مالايتّسع لنا الكلام فيه . فقال : كُفيتُما أَيها القضاة . وانصرفا وقد انفتح له باب الحيلة فى صرف القاضى وتولية أَبى محمد اليازورى .

واتفق مع ذلك توعُّك أَبى محمد وانقطاعه أَياما فى داره عن مجلس الخليفة ، فخلا لهُ وجهُ السلطان وأَعاد عليه النَّوْبَةَ ، ثم قال له : أَنت ياأَمير المؤمنين لسان الشرع ، ومقيمُ مناره ، ومنفِّذ أَحكامه ؛ وقاضى القضاة إنما ينطق بلسانك ، وينَفُذ الأَحكام عنك ؛ فإذا اشْتهر فى الأَقطار مايتمّ على الناس فى أَحكامهم كان سُوءُ السمعة فى ذلك على الدولة ، وإثارةُ الشَّنَاعة القبيحة عليها ؛ وفى الخصوم مَنْ هو من المشرق والمغرب واليمن وماوراءه ، والرّوم؛ وفى استفاضة ذلك غضاضةٌ على الدّولة . ونحن إنَّما نَطُول على الممالك والدُّوَل بإقامة سنن الشريعة وإظهار العدل الذى عَفَت آثاره فى غيرها من الدّول ؛ وقد كبر قاضى القضاة واسْتَولى عليه غلمانه وغلبوا على أَمره . فقال المستنصر : نحن نحفظ فيه خدمة سلفه لنا ومهاجرتَهم معنا . فقال : ياأَمير المؤمنين ، حفظك الله وشكرك ؛ أَمَا كان من كرامة سلفه أَن يسْتَتِر حتى لايشيعَ هذا عنه ؟ ومازال حتى قال الخليفة : مَنْ فى الدولة يجرى مجراه ؟ فقال : ياأَمير المؤمنين : [٨٦ ب] عبيدك كثير ، ومع ذلك فبين يديك مَنْ يتحمَّل

الحكم به مع ثقتِهِ وأمانَته وقُرْبه من خدمتك ، القاضى أبو محمد . فقال : ذلك فى خدمة مولاتنا الوالدة، ولايفسح له فى ذلك. فقال : يا أمير المؤمنين، هى ـ خلّد الله ملكها ـ أغْيَر على دولتك وأحسن نظراً لها من أن تَحُولَ بينها وبين ما يجمّلها ؛ ومع ذلك ، فلم يُنْقل مما هو فيه إلى ما هو دُونَه ، بل إلى ما هو أوْفى منه . فأجاب إلى ذلك ، وقام ، فشرع فى كَتْبِ سجلّه وإعداد الخلع له . وسمع هذه النّوبة القائد عُدّة الدولة ، فأوفد إلى أبى محمد يخبره ، وقال له تلطّف فى أمرك كما تريد . فعظم ذلك عليه ، وخاف مِن بُعْده عن خدمة السيدة إذ كانت أجلّ الخِدَم ، فإنّ كلّ منْ فى الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج .

فلما كان عشاءُ الآخرة حمل على نفسه وهو محموم وركب إلى باب الرّيح[1]، ودخل ، وأنْفَذ يُعْلم السيّدة مكانه ؛ فَخَرجت وراءَ المقطع وسألته عن حال مرضه ، وما الذى دعاه للعَناء فى هذا الوقت . فقصّ عليها القصة وقال : إنما الغرض إبعادى عن خدمتك ليقع التمكّنُ منى . فقالت : وما الذى تكرَهُ من ذلك ؟ فقال : يا مولاتنا هوى الحكم واسع ، وأحوال قاضى القضاة ابن النعمان فيه مشهورة ، ولو كانت جارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك ، فكيف والحاجة داعيةٌ إلى إصْلاَحه وإحْكام نظامه ؛ وفى هذا شُغْل كبير . فقالت : لايَضِيقُ صدرك بهذا الأمر ، فبابى لك ، وخدمتى موفورةٌ عليك ، ولا أستبدل بك أبداً . فقال : يا مولاتنا قد قدّمتُ القول أن هوى الحكم كبير واسع ، وانشغالى به يحولُ بينى وبَيْن ملازمة بابك . فقالت : خليفتاك[2] فى الحكم ، القضاعى وابن أبى ذكرى ، هما ينفذان من الأحكام ما يجوز تنفيذه ، فإذا تحرّرت إلى فصل الأحكام نزلت ففصلت

(١) وهو الباب البحرى الوحيد للقصر الكبير ، وكان يواجه سور خانقاه سعيد السعداء على يمين السالك من الباب المخلق إلى رحبة باب العيد . وكان الخليفة يستعمل هذا الباب عندما يخرج بموكبه فى ثانى وثالث أيام عيد الأضحى . الخطط : ١ : ٤٣٥ .

(٢) فى الأصل : خلفاوك .

ذلك ، وقررت لنزولك يومين فى الجمعة لفصل الأحكام ؛ وإذا نزلت كان وَلَدَاك ينوبان عنك فى تنفيذ أُمور خدمتى ؛ وهذا التقرير لايغلبك فعله . فقبّل الأرض ، ودعا ، وشكر ، وانصرف .

وكانت إذا قالت قولًا وفَتْ به وثبتت عليه ، فإنها كانت وثيقة العقد ، حافظة العهد ، غير ناقضة له ، ولا متغيِّرة عنه مع مَنْ تَطَّلع من أمره على مايقتضى التغيير عليه ، فكيف بمن ترتضى طريقته ، وتحمد خلائقه .

وفيها وَلِىَ القائد بهاءُ الدولة وصارمُها ، طارق الصقلبى المستنصرى ، دمشقَ ، فقدِمَها صبيحة يوم الجمعة مستهل شهر رجب[1] ، وساعة وصوله دخل القصر وقَبَضَ على ناصر الدولة أبى محمد الحسن بن الحسين بن حمدان .

(١) وقرئ سجل ولايته بالمسجد والدعاء له فيه : " سلمه الله وحفظه " . ذيل تاريخ دمشق : ٨٤ .

سنة احدى وأربعين وأربعمائة [1] :

فى ثانى المحرم صرف قاضى القضاة أحمد بن عبد العزيز بن النعمان عن القضاء. وكانت هذه ولايته الثانية ، وله فيه ثلاث عشرة سنة وشهر وأربعة أيام . واستُدعِى إلى حضرة المستنصر القاضى أبو محمد اليَازُورى وخلع عليه مكانه فى رابع عشره ، وقُرِئ سجلُّه فى الديوان ؛ وخرج والدولة بأسرها بين يديه . واستناب ابنَهُ الأكبر أبا الحسن محمداً ولُقِّب بالقاضى الأجل خطير الملك ؛ وأقام ابنُه الآخر فى جهات السيدة .

وشرع الوزير فى الإرْسَال إلى السيدة بأَنْ يستقر ابنُه فى بابها ؛ فامتنعت من ذلك وقالت ما كنت بالذى يستبدل به بوجه ولا سبب . فسُقِط فى يده وقال : أردنا وضْعَه والله تعالى يريد رفعه . فقال له أبو الفضل : أمّا إذ جرى الأمر بخلاف ما ظننّاه فليس إلاّ مجاملة الرجل .

وكان أبو محمد اليَازُورِى لايسلِّم على الوزير ، ولايجتمعان إلاّ يومًا فى الشهر ، يحضر إلى دار الوزير ، فإذا حضر إليه احتجب عن كلّ أحد ، وتلقّاه قائما ، وأجلسه على مخدّة ، وأعطاه من المجاملة فوق ما يُؤْثِرُه منه ؛ وهو مع ذلك يُبْطن له السُّوء ، ويعمل فى التدبير عليه .

وكانت أيام الوزير كلها رديئة لكثرة القبض على الناس ،والمصادرات ، واصطفاء الأموال ، والنفى ، ونحو ذلك ؛ فكثر الذّامُّ له . وكان أيضا يَبْطش بِمَنْ يبطش به من غير علْم الخليفة ولا استئذانه ، فتغيّر خاطرُ الخليفة عليه ، وتكثّر منه تغيُّظه . إلا أنّ العادة جرت بألاّ يُعترَض الوزير فيما يفعله ، ويُمَدّ له فى النَّفَس ، ويُصْبَر [١٨٧] على ما يكون منه .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من يونيو سنة ١٠٤٩ .

وفيها قبض على أبى نصر إبراهيم بن سهل ، واتُّهم أنه مَالأ ثِمَال بن صالح حتى قتل جعفر بن كليد [صاحب حمص] ؛ وسُلِّم إلى الوزير أبى البركات الجرجرائى فضيِّق عليه وصادره حتى مات تحت العقوبة . وكان هو الذى سعى به إلى المستنصر فقال إنه عَيْنٌ لثِمال .

واتفق وصول الخادم رفق إلى دمشق وخروجه منها فى سادس صفر يريد حلب ، فوصل إلى جبل جوشن[1] فى ثانى عشرى ربيع الأوّل ، وأقام هناك ؛ ثم بدا له فبعث بما مَعَهُ من الأثقال إلى المعَرَّة ، فظنَّ مَنْ معه من العساكر أنّه يريد أن ينْهَزِم ، فأجدُّوا فى الرَّحيل وقد حاصر قلوبهم الوَجَل وداخلهم الخوف ؛ فأمر بردّهم إليه ، فأَبَوْا ذلك عليه . وفطن أهل حلب لهم[2] . فتبعُوهم ونهبوا ما قدروا عليه منهم ؛ وكانت بينهما حرب جُرِح فيها رفق فى عدة مواضع من رأسه وبدنه ، وأُسِر ، وانهزم العسكر بأسره . وحُمِل رفق على بغل وهو مكشوف الرأس ، ومعه جماعةٌ من وجوه عسكره ، فلم يحتمل ما أصابه ، واختلط عقله ، ومات بقلعة حلب بعد ثلاثة أيام ، فى مستهل ربيع الآخر ؛ واعْتُقِل عامّة من كان معه من القُوّاد والكُتَّاب بحلب .

فلما وَرَدَ الخبر بذلك على المستنصر أمر بالإفراج عن ناصر الدولة أبى محمد الحسن بن الحسين بن حمدان من الاعتقال ، وقَلَّد إمارة دمشق الأمير المؤيد مصطفى الملك معز الدولة ، ذَا الرئاستين ، حيدرة بن الأمير عصب الدولة حسين بن مفلح ، فى رجب ، وخرج معه ناظرا فى أعمال الشام أبو محمد الحسين بن حسن الماسَكى[3] .

---

(١) جبل مطل على حلب فى غربيها ، فى سفحه مقابر الشيعة ومشاهدهم ، ومنه كان يحمل النحاس الأحمر . يقول ياقوت : وقد بطل هذا إذ أصبح من عمل فيه لا يربح وفى قبلى الجبل مشهد يقال له مشهد السقط ، أو مشهد الدكة ، والسقط يسمى محسن بن الحسين ، رضى الله عنه . معجم البلدان : ٣ : ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) فطن به وإليه وله كفرح ونصر وكرم . القاموس المحيط .

(٣) لعل هذه التسمية نسبة إلى ماسكان من نواحى مكران وراء سجستان ، أو من نواحى سجستان المجاورة لإقليم مكران ، أو التى هى اسم لسجستان . هكذا عرف بها ياقوت فى اضطراب ، بمعجم البلدان : ٧ : ٣٦٥ . أو لعل أحد أجداده كان يسمى ماسك فنسب إليه ، كما هى الحال بالنسبة لأبى بكر محمد بن يعقوب ابن إسحاق بن ماسك الواسطى الماسكى . اللباب لابن الأثير : ٣ : ٨٣ .

ووجد أعداءُ الوزير أبي البركات الحسين بن محمد الجَرْجَرَائى سبيلًا إلى إغراء المستنصر به ، وأنه تسرّع فيما عادت مضرّته على الدولة من تجهيز العساكر إلى حلب . فحركت هذه الأقوال وما يشبهها عليه مايحقده الخليفة من استبداده بأُمورٍ من غير أمر ولااستئذان ، فأمر به فقُبِض عليه ونُفى إلى صُور فى منتصف شوال ، فاعتُقل بصور . فكانت وزارته سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام . ثم أفرج عنه ومضى إلى دمشق(١).

وبقى الأمر فى الوزارة عدة أيام والخليفة يعرض لقاضى القضاة أبي محمد اليَازُورى بالوزارة وهو يمتنع عليه ؛ فأُسْنِد إلى أبي الفضل صاعد بن مسعود ، من الأُمراء ، وأُقيم واسطةً لاوزيرا ، وخلع عليه ولُقِّب بعميد الملك زين الكفاة ، وجعل يُرْسم عليه عَرْض مايختص بالرِّجال دون الأموال . وكان إذا أراد الاستئذان على مايفعل جلس اليَازُورى بحضرة الخليفة واستُدعى أبو الفضل ، فعرض مايحتاج إليه ؛ فيتقدَّم إليه اليَازُورى بما يفعله . ويخرج وفى نفسه من اليَازُورِى ماكان يدُورُ بينه وبين الوُزَرَاء فى معناه . فأخذ يُحَمِّل عليه الرجال ويوهمهم أنه إذا سأل لهم فى زيادة أو ولاية يعترضه اليازُورِى ويفسد عليه. فلمّا كان فى بعض الأيام قال ناصر الدولة حسن بن حسين بن حمدان لبعض ثقاته : اعْلَم أنَّ القاضى له الثناء الجميل الكثير ، ونحن شاكرون له ، مُقيَّدون بجميله ، مُفْتَمِرون

---

(١) يوجد بالأصل هنا طيارة لم أستطع قراءة السطر الأول منها . وقد جاء بعده : " . . . فوصل رسوله إلى الرملة يوم وصول رفق إليها ، فبعث إلى القاهرة حتّى يبلغ الرسالة ، فتوقف الوزير أبو البركات الجرجرائى عن الجواب طمعا أن يملكوا حلب . فلما علم قسطنطين توجه العساكر من مصر بعث عسكرا إلى أنطاكية وعسكرا نحو أطراف حلب ولزم صالح بن ثمال مال وخلع . وخرج مقلد بن كامل بن مرداس إلى حمص وبها حسن الدولة حيدرة بن معروف القاضى وقد وليها بعد قتل جعفر بن كليد ، فحصرها حتّى أخذها بالأمان ، وخرب السور والقلعة . ونزل على حماة وأخذها وخرب حصنها ، وانتقل إلى المعرة وأخرب سورها . هذا وقد ظهر من فشل رفق ماأطمع الجند فيه ، فعاثت السنابسة وهو بالرملة فى طرف العسكر وفروا ، فاتبعهم بسر نفسه ، فعادوا وخربوها وأسروا الأمير مرادا ، فسير إليهم جعفر بن حسان بن جراح فاسترجع بعض مانهبوه فردهم فأعرضهم رفق وعليهم أكثر . . وعاد العساكر فرحل يريد دمشق فأندب جمعا من قبائل الكلبيين والطائيين ، فافترق عسكره فرقا واقتتلوا ، لأربع بقين من المحرم سنة اثنتين وأربعين فى يوم الجمعة ، فقتل من الكتاميين مائة رجل ونهبت الخيم . ثم عبروا من ذلك المكان ونزلوا على باب توما ثلاثة أيام وهم بغير قتال ، فخاف رفق ودخل بالخدام=

إلى جاهه فى جميع أمورنا ؛ واعْتفاوُه من هذا الأمر لايبرئه من ذمّنا إن وقفت حوائجنا ، ويكون الشكر فيه لغيره إن قُضِيت ؛ وهذا الرّجل عميد الملك هوذا يحمّل الرجال عليه ويُشْعِرهم أنه يجتهد فى قضاء حوائجهم ، وأنه يَعْتَرِضُه بما يُبْطِلها عليهم ؛ وفى هذا الأمر ما تعلمهُ . فقل أنت له عنى : ياسيّدنا ، إما أن تزيد شكر الرجال وسلامة صُدُورِهم لك وخَلَاصَ نياتهم فى طاعتك ، فادخُل فى هذا الأمر ، فإن أحسنت عرفُوا ذلك لك ، وشكروه منك وإن أسأْت كان عليك ضرره وشرّه ؛ وإلاّ فاعتزل جانبا ولاتلعب برُوحِك مع الرجال؛ وإلاّ أبلغك أبو الفضل . فبلّغه الرجل ذلك ؛ فقال : أمهلنى الليلة ثم بَكرٌ إلىّ . فلما كان فى السَّحَر بكر إليه ؛ فقال : أعِدْ علىّ قول ناصر الدولة ؛ فأعاده . فقال : أَقْرِه عنى السلام ، وقل له : والله الاّ أدخل فيه ويكون لى خيرُه وشرُّه . وأبلغ ناصر الدولة رسالته ؛ فقال : هذا هو الصَّواب .

= إلى القصر وترك مضاربه الخاصة بحالها ، وأصلح بين الطرفين . فتوقف الكتاميون حتى وصلهم بألوف دنانير دفعها فعلا لهم وعوض مانهب من خيامهم . فنهبت العرب أكثر غوطة دمشق وقرى عملها . ثم سار عن دمشق إلى حمص وأعرض العساكر بها ، وأثبت من الكلبيين ألف فارس أخرى . وكان راشد بن سنان بن عليان قد فر من سجنه بصور ونزل على دمشق واستولى على أكثر أعمالها ، فلما وصل رفق إلى حماة نهبت عساكره أعمال شيزر . ووصل إلى جبل جوشن ظاهر حلب يوم الأربعاء ثانى عشرى ربيع الأول ، ووقع الطراد ، فاستأمن سلطان القرمطى فى خمسمائة من الكلبيين إلى ثمال وكان أخوه . معتقلا بقلعة حلب فاقتتلوا يوم الجمعة واستراحوا يومى السبت والأحد . فرد رفق الخزانة السلطانية إلى خلفه وأمر العساكر برد أثقالهم ، فظنوا أنه يريد الهزيمة وأخذوا من منتصف الليل يرحلون ، فاتبعهم رفق برسله فلم يرجعوا . وأسفر الصبح فخرجت الخيل من حلب فنهبوا وأسروا ، وجرح رفق ثلاث جراحات وأسر وحمل إلى حلب مكشوف الرأس وقد اختلط عقله لأجل الجراحات التى فى رأسه ، فسجن ثلاثة أيام بالقلعة ومات وقد أناف على الثمانين فدفن بمسجد خارج حلب ، وأسرت الروم جماعة من العسكر فأنكر عليهم قسطنطين ذلك ورد الأسرى وكساهم » اهـ.

سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة(١) :

فى سابع المحرّم قُرِىء سجلٌ القاضى أَبِى محمد اليَازُورِى [٨٧ب] بالوزارة ، ولُقّب بالوزير الأَجلّ المكين ، سيد الوزراء ، تاج الأَصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدّعاة ، علم المجد ، خالصة أَمير المؤمنين ؛ وخلع عليه(٢) . فنظر فى الوزارة وليس من أَهلها ، ولامن أَرباب الكتابة ، فمضى فيها مُضىّ الجواد ، ونهض مسرعاً نهوضا عزّ بِه فى وُجُوهِ مَنْ تقدّمه ، مع ما بيده من قضاء القضاء ، والدّعوة ، والنظر فى ديوان السيدة . وكاتَبَ ملوك الأَطراف ، فأَجابوه ، بوفور حقّه ، إِلاّ معزّ الدولة بن بَادِيس الصِّنْهاجى صاحب إِفريقية(٣) ، فإِنه قصّر فى المكاتبة عما كان يكاتِب به مَن تقدّم من الوزراء ، فإِنّه كان يكاتب كلا منهم «بعبده» فجعل مكاتبته «صنيعته» . فاستدعى الوزير أَبا القاسم ابن الإِخوة ، وكيل ابن بَادِيس بمصر ، وعَتَب صاحبه عنده ، وقال : أَظنّ معزًّا ينقصنى عمّن تقدّمنى ؛ إِذا لم أَكن من أَهل صناعة الكتابة ، وإِنْ لم أَكن أَوْفى منهم فما أَنا دُونَهم ؛ ومَنْ رفعه السّلطانُ ارتفع وإِن كان خاملًا ، ومَنْ وضعه اتَّضع وإِن كان جليلا نبيلاً ؛ فاكتب إِليه بما يُرْجِعُه إِلى الصواب . فكتب إِليه بذلك ؛ وقد أَذكى الوزير عليه عيونا يُطالِعُونه بأَنفاسه . فلمّا وقف على كتاب ابن الإِخوة قال : ما الذى يريد منى هذا الفلاح ؛ لاكُنتُ عبده ولاكان ؛ هذا

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من مايو سنة ١٠٥٠ .

(٢) وخلع عليه المستنصر خلعا فاخرة : غلالة قصبا وطاقا وقيصا دبيقيا وطيلسانا وعمامة قصبا . وحمله على فرس رائع بموكب من ذهب وزنه ألف مثقال ، وقاد بين يديه خمسة وعشرين فرسا وبغلا بمراكب ذهب وفضة ، وحمل معه خمسين سفطا ثيابا أصنافا ، وزاد فى نعوته وألقابه ، وخلع على أولاده ، وكتب له سجل التقليد بإنشاء ولى الدولة أبى على ابن خيران ، وقرئ بحضرة المستنصر بالله بين قواده وخدمه ووجوه أجناده . ذيل تاريخ دمشق : ٨٤ — ٨٥ .

(٣) بهامش الأصل تعريف به نصه : " المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، صاحب إفريقية ، لقبه الحاكم بأمر الله شرف الدولة . ولد فى جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وملك بعد أبيه باديس لثلاث مضين من ذى الحجة سنة ست وأربعمائة وعمره ثمانى سنين وسبعة أشهر . وتوفى فى رابع شعبان سنة أربع وخمسين وأربعمائة . ولا يعرف له اسم سوى المعز ولا يعرف له كنية . وقطع خطبة المستنصر للقائم بأمر الله العباس .

لايكون أبدا ، وما كتبتُ إليه فكثير . فطالَعَهُ عيونُه بِقَوْله ، فأحْضَر ابن الإخوة وقال له : قد جرَى صاحبُك على عادته فى الجهل ، فاكتُب إليه بما يردَعُه فيه ، وإلَّا عرَّفتُه بنفسى إذْ لم يعرفنى . فكتب إليه بذلك ، فأجاب بما هو أقبح من الأوّل . فدسّ إليه الوزير مَنْ تلطَّف فى أخذ سكِّين دواته ، فلما وصلت إليه أحضر ابن الإخوة وقال له : كنت أظنّ بصاحبك أنّ الذى حملَهُ على ما كان منه ثروةُ الشَّبِيبَة ، وقِلَّة خُبْره بما تقضى به الأقدار ، وأنَّه إذا نُبِّه تنبَّه ، فإذا الجهلُ مستولٍ عليه ، وظنُّه أنّ بُعد المسافة بيننا وبينَه يمنعُ مِن الانتصاف منه والوُصُولِ إليه بما يكره ، وقد تلطَّفنا فى أخْذ سكين دواته ، وها هى [ذى] ، فأنْفِذْها إليه وأعلمه أنّا كما تلطَّفنا فى أخذها أنّا نتلطف فى ذبحه بها . ودَفَعَهَا إليه . فكتب ابنُ الإخوة بذلك ، فازداد شرًّا وبطراً . فدسَّ عليه من أخذ نَعْله ، وكان يمشى فى الأحذية السنديّة ، فلما وصلت إليه أحضر ابن الإخوة وقال له : اكتُب إلى هذا البَرْبرىّ الأحمق ، وقل له إنْ عقلت وأحسنت أدَبَك ، وإلاّ جعلنا تأديبك بهذه . فجرى على عادته فى القول القبيح .

وفيها توسّل ثِمَال بن صالح فى الصَّفح عنه وأَطْلَقَ المأسُورِين ، وسعى فى ذلك علىّ بن عياض قاضى صور ، وسَيَّر ثمال زوجته عليّة بنت وثّاب بن جعفر النُّميرى وولَدَه وثَّابًا إلى القاهرة ، ومعهما مَالُ سنتين ، أربعون ألف دينار . فقام اليَازُورى بأمْرِهم ، فقَبِلَهُم المستنصر ، وبالغ فى الإحسان إليهم ، وزاد فى ألقاب ثِمَال وألقاب مُقَلَّد ابن عمه ، ولقَّب قاضى صور عيْن الدولة .

وفيها ملك المستنصر حصن المنيعة بالشام .

سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة [١] :

فيها أظهر المعزّ بن بَادِيس صاحبُ إفريقية ، الخلاف على المستنصر ، وسيَّر رسولاً إلى بغداد ليُقيم الدّعوة العبّاسية ، واستدعى منهم الخِلَع ؛ فأُجيب إلى ذلك . وجُهِّزت الخلع على يد رسولٍ يقال له أبو غالب الشّيْزَرِىّ ، ومعه العهد واللّواء الأسود ؛ فمرّ ببلاد الرُّوم ليُعدَّى منها إلى إفريقية ، فقبض عليه صاحب الروم[٢] . وبلغ ذلك المعزّ بن بَادِيس ، فأرسل إلى قسطنطين ملك الروم فى أمره ، فلم يجبْه رعايةً لحقّ المستنصر . واتّفق قُدوم رسول طُغْرلبك[٣] يستأذنُه فى مسيره إلى مصر ؛ فأظهر المودّة التى بينه وبين المستنصر ، وأنه لايُرَخِّص فى أذيّته . واتفق قُدُوم رسول المستنصر إليه بهديّة عظيمة ، فبعث معه برسول القائم بما على يده ، فدخل إلى القاهرة على جمل ، وأُحْرِقَ العهدُ واللّواءُ والهديّةُ فى حُفْرةٍ بين القصرين ؛ وكان القادر قد فعل مع الظاهر والد المستنصر مثل ذلك بالْخِلْعة التى سيّرها إلى محمود بن سُبُكْتكين[٤] . ثم أقرَّ المستنصر ردّ الرَّسول إلى صاحب القسطنطينية .

وكان سبب عصيان [١٨٨] ابن بَادِيس ما تقدّم من تعصيره فى مكاتبة الوزير اليَازُورى وما دار فى ذلك[٥] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من مايو سنة ١٠٥١ .

(٢) وبعثه إلى المستنصر بالله ، فقدم الرسول إلى مصر وهو مجرس على جمل ، وحفر بين القصرين حفرة وحرق فيها العهد والخلع واللواء . نهاية الأرب . (والتجريس : التشهير ، وهو نوع من العقوبة شاع منذ ذلك العصر وكثر اللجوء إليه أيام المماليك . وطريقته فى بعض العقوبات أن يركب المشهر به جملا ويحمل فى يده جرسا يدقه ويعلن عقوبته وذنبه أو أن يركب معه شخص يمثل المحتسب أو صاحب الشرطة ليدق الجرس كذلك) انظر : سفرنامه : ٦١ .

(٣) أول سلاطين السلاجقة الذين ينتهى بدخولهم بغداد عصر نفوذ بنى بويه فى دولة العباسيين . واسمه ركن الدين طغرلبك أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق . توفى سنة ٤٥٥ .

(٤) وكان ذلك سنة خمس عشرة وأربعمائة . وقد أرسل الظاهر الخلع إلى حسنك لا إلى ابن سبكتكين ، فقبلها حسنك أولا ثم خاف الخليفة القادر فلم يدخل بغداد ، وأرسل الخلع - بأمر ابن سبكتكين - إلى القادر ، فأحرقها سنة ست عشرة وأربعمائة ، بمشهد من الناس ، وسبك الذهب وفرق على الفقراء .

(٥) يتحدث ابن الأثير عن اليازورى فى هذه المناسبة فيقول ضمن مايقول : ولم يكن من أهل الوزارة إنما كان من أهل التبانة والفلاحة . . . فكان المعز يخاطبه : بصنيعته ؛ لا : بعبده . الكامل : ٩ : ١٩٥ - ١٩٧ .

وكان بطرابلس الغرب وماوالاها زغبة ورياح ، وهما قبيلتان من العرب ، وبينهما حروب وعداوة ، فأحضر الوزيرُ مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن مُلْهم بن دينار العقيلى ، أحد أُمراء الدولة ، وكان رجلا عاقلا ، وسيّره إلى زغبة ورياح بخلع سنية وأنْعام كثيرة ، وأمره أن يصلح ذات بينهما ، ويتحمّل مابينهما من دِيَاتٍ ، ويَفْدِيه بالزِّيادة فى إقطاعاتهما . فلمّا تمّ له ذلك أمرهم بالمسير إلى المعزّ بن باديس ، وأباحهم دياره ، وتشدّد فى هذا الأمر حتى توجه المذكورُون إلى ديار ابن بَادِيس وملكوها ، وجمعوا ذُيُولَه عليه ، وقلّموا أظْفارَه ، وضيّقوا خناقَه حتى لم يتمكن من قتالهم إلاّ مستنداً إلى حيطان إفريقية . وذلك أنهم ملكوا برقة ، فسار إليهم المعزّ فهزموه ؛ وتبعوه إلى إفريقية ، وحصروا المدن ، فنزل بأهل إفريقية بلاءٌ لايوصف ، فخرج إليهم المعزّ فى أربعين ألفا وقاتلهم ، فَهزمُوه إلى القيروان . ثم جمع ثمانين ألفا وقاتلهم ، فهزموه ، وأكثروا من القتل فى أصحابه ، وحصروه بالقيروان . وأقاموا يحاصرون البلاد وينهبون إلى سنة تسع وأربعين ، فانتقل المعز إلى المهدية[1] فى شهر رمضان منها ، حتى نفدت أمواله ، وقلّت عُدَدُه ، وتَفلّتَ منه رجاله ، وأشرف على التّلف ؛ فلم يجد سبيلاً غير إعمال الحيلة فى خلاصه . فخرج متخفّياً فى زِىّ امرأة حتى انتهى إلى المهديّة ، فاستولت العُرْبان على حرمه وداره وغلمانه ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء ، وانتهبوا ماكان فى دُورِه وقُصوره ؛ وعاثوا فى البلد يَنْهبُون ويأسرون ويقتلون ، فخرِبت القيروان حينئذ إلى اليوم . ووصل كثير مما نُهب من قصور بنى بَادِيس من الأسلحة والعُدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة ، فكان لِيَوْم دخولها إلى القاهرة أمرٌ عظيم من اجتماع الناس واعتبار أهل البصائر بِتَقَلُّب الأحوال .

وكان من خبر دُخُول العَرب إلى المغرب أن بطون هلال وسليم من مُضَر لم يزالوا فى البادية ، ونجعُوا من نجد إلى الحجاز ؛ فنزل بنُو سليم مما يلى المدينة النبويّة ، ونزل بنو

---

(١) المهدية على مسافة ستين ميلا من القيروان ، أنشأها عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين . البكرى : ٢٩ ؛ معجم البلدان : ٨ : ٢٠٩ .

هلال فى جبل غزوان عند الطائف ؛ وكانوا يطرقُون العراق فى رحلة الشتاء والصيف فيُغيرون على أطراف الشام والعراق ؛ وكانت بنو سُليم تغير على الحاجّ أيام الموسم وزيارتهم المدينة . ثم تجهّز بنو سُليم وكثيرٌ من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم ، وصاروا جُنداً لهم بالبحرين وعُمَان ، وقدِموا معهم إلى الشام . فلما غُلبت القرامطة فى أيام المعزّ لدين الله أبى تميم مَعَدّ ، ثم فى أيام ابنه العزيز بالله أبى منصور نزار ، وانهزموا من الشام إلى البحرين نقل العزيز بالله مَنْ كان معهُم من بنى هلال وسُليم إلى مصر ، وأنزلهم بالجانب الشرقى من بلاد الصعيد . وأقاموا هنالك وأضرّوا بالبلاد إلى أن ملك المعزّ بن باديس القيروان فى سنة ثمان وأربعمائة ، وهو ابن ثمانى سنين ، من قِبَل الظاهر لإعزاز دين الله علىّ بن الحاكم بأمر الله ؛ فامتدَّت أيّامُه حتى قام فى الخلافة المستنصر بالله أبو تميم معدّ بن الظاهر ، واستوزر أبا محمد اليَازُورِى ، فأنِف من مكاتبته بالمولى ؛ وكان ما تقدّم ذكره .

فحلف المعزّ بن باديس لَيُحوِّلَنَّ الدّعوة إلى بنى العبّاس ، ولجَّ فى ذلك ، وقطع الدعاء للمستنصر ، وأزال اسمه من الطُّرز والرّايات ، ودعا للقائم أبى جعفر بن القادر فى سنة أربعين وأربعمائة ، وكتب إليه بذلك . فكتب إليه بالعهد صُحْبَة أبى الفضل بن عبد الواحد التَميمى ، فقرأ كتابه بجامع القيروان ، ونشر الرايات السُّود ، وهدم دار الإسماعيلية . ووصل الخبر بذلك إلى القاهرة ؛ فأشار اليَازُورِى بتجهيز أحياء هلال بن جُشُم . والأثْبَرُوزِينِية ورياح وعدى وربيعة إلى المغرب ، وتولية مشايخهم أعمال إفريقية . فقُبلت مشورتهُ . وأرسل إليهم فى سنة إحدى وأربعين ، وحُمل إلى مشايخهم الأموال ، وأنعم على سائرهم بفرو ودينار لكل أحد ، وأُبيح لهم حِمَى المغرب .

وكتب اليَازُورى إلى المعزّ بن باديس : « أما بعد ؛ فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا ، وأرسلنا عليها رجالا كهولا « لِيَقْضِىَ [٨٨ ب] اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً »[1] .

---

(١) سورة الأنفال : آية ٤٢ " . . . ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا . . . أو الآية : ٤٤ " وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا " .

فسارت العرب إلى برقة ، وفتحوا أمصارها[1] ، وكتبوا لإخوانهم الذين بشرقّ الصّعيد يُرَغِّبُونهم فى البلاد ، فأُعطوا من الدولة دينارين لكل واحد ، ومضوا إلى أصحابهم ، فتصارعُوا على البلاد ، فحصل لسُليم الشرق ، ولهلال المغرب . وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية[2] وسُرْت [3]. وأقامت بطون من سليم وأحلافها بِأرض برقة ، وسارت قبائل دياب وعرق وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر ، لا يمرّون بشىء إلا أتوْا عليه ، حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين . وكان أولُ من وصل منهم أمير رياح مؤنس بن يحى العنزى ، فاستماله المعزّ بن باديس ، وكثر عيثُهم فى البلاد ، ونادَوْا بشعار المستنصر . فبعث إليهم المعزّ العساكر فأوقعوا بها ، فخرج إليهم فى ثلاثين ألفا فهزموه ، وفرّ بنفسه وخاصته إلى القيروان ، فنهبوا جميع ما كان معه ، وقتلوا خلقا كثيرا ، وحصرُوه بالقيروان حتى هلكت الضَّواحى والقرى .

واقتسم العرب بلاد إفريقية فى سنة ستّ وأربعين ، وكان لزغبة طرابلس وما يليها ، ولمرداس بن رياح باجة وما يليها . ثم اقتسموا البلاد ثانيا ، وكان لهلال من قابس[4] إلى المغرب ، وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وترنجة والأثبج وشداد والخلط وسفيان .

وتصَوّحَ الملك من المعز بن بَادِيس فركب البحر فى سنة تسع وأربعين ، فدخل العرب القيروان واستباحوه وخرّبوا مبانيه ، فتفرّق أهلُه فى البلاد . ثم أخذوا المهديَّةَ وحاربوا

---

(١) يقول ابن الأثير : فلما حلوا أرض برقة وما والاها وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل لأن زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز . الكامل : ٩ : ١٩٦ .

(٢) يعرف بها ياقوت تعريفا مقربا فيقول إنها بين برقة وطرابلس المغرب ، بينها وبين زويلة مسيرة شهر ، تقع وسط صحراء ، آبارها منقورة فى الصفا ، ونخلها كثير ، وأهلها ذوو يسار وأكثرهم أنباط ، وبها نبذ من صرحاء لواتة ، ولها مرسى على البحر يعرف بالمادور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا . معجم البلدان : ١ : ١٢١ – ١٢٢ .

(٣) سرت بضم السين وسكون الراء : على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس تقع على الشمال من أجدابية . منها إلى طرابلس عشر مراحل وإلى أجدابية ست مراحل . معجم البلدان : ٥ : ٦٢ – ٦٣ .

(٤) غربى طرابلس على مسافة ثمانى مراحل منها ، وهى بينها وبين سفاقس . وتبتعد قابس عن الساحل نحو ثلاثة أميال ، ولها سور ضخم من الصخر . معجم البلدان : ٧ : ٢ – ٤ ؛ البكرى : ٣ : ١٧ – ١٩ .

زناتة من بعد صنهاجة ، وغلبوهم على الضواحى واتصلت الفتنة بينهم فخربت إفريقية بأسرها ، وصيروا البربر لهم خوَلاً . ومات المعزّ بن باديس سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وكان المستنصر لما بَعَثَهم إلى إفريقية جعل المؤنس[1] بن يحى المرداسى ولاية القيروان وباجة[2] ، وأعطى زغبة طرابلس وقابس ، وجعل الحسن بن مسرة فى ولاية قسنطينة ؛ فلما غلبوا صنهاجة مَلَكَ كل منهم ما عقد عليه ، فاشتدَّ عَيثُهم وإفْسادُهم .

وفيها كانت وقعة البحيرة . وذلك أنها فى إقطاع بنى قرة[3] وقد ملكوها وعَمرُوا ضياعها ، وكثرت فيها أموالهم واشتدت شوكتهم ، وخشُن جانبهم ، وكثر المقدَّمون فيهم حتى انتشر ذكرهم ، وذلَّ لهم عددهم ، وثَقُل أمرهم على الولاية بالإسكندرية ؛ فجاورهم الطَّلْحيُّون واستذَمُّوا منهم ، وكانت لهم واجباتٌ على الدولة من غير إقطاع ، وهم يأخذون واجباتهم محمولة مع واجبات العسكر بالإسكندرية عندما تُحْمَل إليها . فاتفق أن ناصر الدولة ابن حمدان أبا نصر الدولة حسين كان واليا بالإسكندرية . فاستحق الطَّلحيون على الدَولة ، عن واجباتهم المذكورة ، ثلاثة آلاف دينار ، فواصلوا اقتضاء ناصرِ الدولة إنْفَاقَهم فيهم ، فوعدهم؛ وكتب إلى الحضرة يَلْتمسُ ذلك ؛ فوعده الوزير أنه إذا حمل إلى رجال العسكر استحقاقهم حمل ذلك فى جُمْلته . وكان قد بقى على حَمْل المال شهران ، فاستبعدُوا الصّبر إلى ذلك الوقت وواصلوا مُطَالبتَه ؛ وحملوا القُرّيّين[4] على معونتهم

---

(١) فى الأصل : يونس ، والتصحيح استعانة بما سبق فى المتن ، وبما جاء فى الكامل : ٩ : ١٩٦ .

(٢) بجاية مرسى ومدينة ؛ وترجع أهميتها إلى مينائها الرئيسى ، وبالقرب منها منازل كتامة الأنصار الأوائل للفاطميين . البكرى : ٨٢ ؛ معجم البلدان : ٢ : ٦٢ .

(٣) بهامش الأصل تعليق نصه : " بخطه : بنو قرة بطن من سويد ، أى فى خزام ، وهم بنو سويد بن رشد بن مية ابن الضبيب بن برة بن سنير بن عبيد بن كعب بن على بن سعد بن إيامه بن غطفان ، وقيل إيامة بن عنيس بن غطفان بن سعد ابن إياس بن نمر بن خزام ؛ ومنهم بنو قرة بن عمرو بن ربيعة بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معد ابن بكر بن هوازن » .

(٤) فى الأصل القرين بتشديد الراء . ولعل المثبت أكثر صحة إذ هو جمع لقرى نسبة إلى بنى قرة .

عليه ، فاضطَرُّوه إلى المسير معهم إلى الحضرة لِالْتِماس ذلك ، فسار إلى الجيزة ، وطلع إلى الوزير وعرّفه الحال ؛ فقال ما أَخَّرنا ذلك عنهم إلاّ أنّ السَّنَةَ كثيرةُ النفقات والطوارئ ، وهذه ألف دينار أَنْفِقْها فِيهم إلى أن تَحمِل باقى مالهم مع مال العسكر . فأخذ الألْفَ وعرّفهم ما قال الوزير . فامتنعوا عن الأخذ ، وأَبَوْا إلاّ قبض الثلاثة آلاف ، وألزموه بالعَوْد . فعاد ، وعرّف الوزير ؛ فاغْتَاظَ ، وأمر لهم بألف أخرى . فنزل إليهم ، فأَبَوْا إلاّ أخذ الجميع ، وجَفَوْا فى الخطاب ؛ فعاد إلى الوزير ، وعرّفه ؛ فغضب وقال : إجابتُهم إلى ما التمسُوه دَفْعَةً بعد أخرى طَمَّعَهُم طَمَعَهُم ؛ والله لا أُطلق لهم درهماً واحداً . واستعاد الألْفَىْ دينار ، وتقدّم بتجريد العسكر لهم ؛ فتسرَّع يزحف مع ليث الدولة كافور الشرابى ، ونزل إليهم ؛ فإذا هُمْ قد تأَهَّبُوا للقائهم . فجرت بينهم وقفةٌ قتل فيها اثنان من العسكر وحجز بينهما الليل .

وبلغ الوزير ذلك ، فشقَّ عليه إقدامُهم على المحاربة ، سيّما بنو قرة فإنّهم صلُوا الحرب وكانوا فيها أشدَّ من الطَّلحيين . فأخذ الوزير يجرّد إليهم العساكر ، فانْطَرَدُوا وجمعوا حشودهم ، والتقَوْا بكوم شريك[1] ، وكانت الدائرة [١٨٩ ا] عليهم وقتل منهم خلق كثير . وانهزمُوا والعساكر تتبعهم ، فأحاطت بأموالهم من كلِّ مايملكونه ؛ وفرَّ بنو قُرَّة على وجوههم إلى برقة ومعهم الطلحيون ، فانقطع أثرهم من البحيرة إلى اليوم ، وصاروا مُطَرَّدِين فى قبائل العرب نحواً من أربعين سنة .

وكان كلٌّ من بالحضرة يُفنِّد رأى الوزير فى تجهيز العساكر إليهم ويحكمون بأنهم لايفارقون إلى البحيرة ، فجاء الأمر بخلاف ظنهم .

---

(١) من قرى إقليم البحيرة فى الطريق إلى الإسكندرية ، وتنسب إلى شريك بن سمى بن عبد يغوث الغطفى المرادى ، وكان قد لجأ إلى موقعه عندما هاجمه الروم وهو يتقدم جيش عمرو بن العاص إلى الإسكندرية ، واعتصم بهذا الموقع حتى أدركه عمرو وأنقذه . معجم البلدان : ٧ : ٣٠٢ – ٣٠٣ ؛ الخطط ؛ قوانين الدواوين .

ثم إنَّ الوزير رأى أن فى إقامة العساكر فى أعمال البحيرة كلفةً كبيرة ، فأرسل إلى بنى سنبس[1] ، وكانوا بالدَّارُوم[2] وفلسطين ، وقد ثقلت وطأتهم هنالك وصَعُب أمرهم ؛ فعدَّى بهم إلى البحيرة ، وهم أعداء قيس ، وأوطأهم ديارهم ، وأقطعهم أرضهم ، فمُحى اسم بنى قرّة من هناك .

وكان تجهيزه للعسكر فى شهر رمضان ، وتَسييرهُ لهم إلى بنى قُرّة فى مُسْتَهلّ شوال ، فخطَّأه الناس فى فعله ، وقالوا لم يجرَّدْ عسكرٌ قطْ فى شوّال ، فظنوا أنه لايؤمن على العسكر أن ينهزم وينكسر . وكان شمس الدولة زمام الأتراك والقيصرية ، وإليه زمّ القصور والخدمة فى الرسالة ، وليس أحد فى الدولة يجرى مُجْراه جلالةً وتقدُّما ، بينه وبين الوزير مباينة شديدة ويتربص به الدوائر ، ويغتال له الغوائل ؛ فكان ينتظر إنهزام العسكر ليقبض عليه . فلما أراد العسكر أن يسير من الجيزة ، ومقدَّمهُ ناصر الدولة ، قرّر معه لقاءهم فى اليوم الخامس من شوّال بطالع يخبره به ؛ وسيّر معه عدّة طيور من الحمام ليطالعه بما يكون يوما بيوم .

فلما كان فى ذلك اليوم ، وهو يوم خميس جلس فى داره وقد اشتد قلقهُ وكثُر اهتمامُه بما يكون من العسكر ؛ واحتَجَب عن النّاس لشُغْل سره ، وجلس ينتظر الطائر . فلم يزل كذلك إلى السّاعة الخامسة من نهاره ، فقام ليجدّد طهارة ، فعبَرَ البُستان وقد أطلق الماءُ فى مجاريه ، فرأى ورقة تمرّ على وجه الماء ، فأخذها مُتفائلاً بها ، فوجدها أوّل كتاب كان قد وصل من القائد فضل إلى الحاكم بأمر الله ، قد ذهبت طُرّتهُ وعنوانه وبقى صدرهُ ، وهو : « كتب عبد مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من المخيّم المنصور فى الساعة

---

(١) بهامش الأصل تعريف بهم نصه : " بخطه : سنبس بطن من بطون طيء ، وهم ولد سنبس بن ميمون بن جزول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أود " . اهـ .

(٢) قلعة بعد غزة بالنسبة لقاصد مصر ، يرى الواقف فيها البحر إلا أن بينهما نحو فرسخ . وتسمى أيضا الدارون . معجم البلدان : ٤ : ١٣ – ١٤ .

الخامسة من نهار الخميس الخامس من شوال ، وقد أظفره الله عز وجل بعدوّ الله تعالى وعدوّ الحضرة المطهرّة ، أبي ركوة المخذول ، وهو فى قبضة الأسارى والحمد لله رب العالمين » .

فلما وقف على ذلك سجد شكراً لله تعالى ، وعجب من موافقة اليوم وعدّة الأيّام من شوال والإعلام بالظفر . ثم تجهّز للصلاة ، فما فرغ حتى سقط الطائر بانكسار بنى قرّة وانهزامهم ، ومامَنّ الله تعالى به من الظفر بهم . فأخذ الكتاب والطائر وركب إلى القصر ، ودخل إلى المستنصر وأوقفه على الكتاب ؛ فسرّ بذلك ؛ وأراه الطير وقال : هذا أعجب يا أمير المؤمنين ؛ وحدثه بحديثه ، فعجب من هذا الاتفاق .

ثم تواصلت رسُلُ ناصر الدولة بالبُشْرى وشَرْح الحال فى الظفر وانهزام القوم ، فخُلع على الوزير ، وزيد فى ألقابه الناصر للدين ،غياث الدين ؛ فتمّ له النظر وقوى أمره ، وذلّ مَنْ كان يُعاديه ؛ فجرى على عادته فى العفو والمجاملة .

وكان أهل جزيرة صقلية قد خالفوا الدولة غير مرّة[1] ، لِما فيهم من الشرّ والغِلْظة ، وطردوا الولاة . وصار إليهم المعزّ ابن باديس ، فملّكوه عليهم وقد خرج عن طاعة الدولة ، فأساء السيرة فيهم ، وثَقُل عليهم ، فوثبوا عليه وأخرجوه منها . وكاتبوا ملك الروم[2] ، فسار إليهم بطريق كبير ، فولّوه أمرهم مُدّة ثم وثبوا به وأخرجوه عنهم . وبعثوا إلى الحضرة يسألون إقالة عثرتهم والعفو عنهم ويسألون إيفَادَ والٍ . وكان بصقلية بنو أبي الحسين ، لهم رئاسة وفيهم من يؤهل نفسه لولايتها ؛ فسارت الخلع إلى رجل منهم يعرف بمستخلص الدولة ؛ فمكث فيهم زمانا ، ثم نفروا منه ، وبعثوا يسألون تغييره عنهم . فسيّر الوزير

(١) وحكامها عندئذ من أسرة الكلبيين التى أسسها ٣٣٦ الحسن بن أبي على بن أبي الحسين الكلبي . وقد تغلب عليها فى هذه الفترة التى نتحدث عنها محمد ، ابن الثمنة ، القادر بالله ، المغتصب وقد استعان بالزيريين أيام المعز بن باديس ، ثم استعان بعده بالنورمنديين . معجم الأنساب .

(٢) وهو الإمبراطور قسطنطين التاسع .

رَجُلًا من أُمراء الدولة يعرف بصَمْصَام الدّولة ابن لؤلؤ ، وأسَرَّ إليه أن يتلطَّف فى إخراج بنى أبى الحسين من صِقِلية ويسيِّرهم إلى الحضرة . فدخل إليها ، وَسَاسَ أَمْرَه ، حتى بعث بجميع مَنْ كان فيها من بنى أبى الحسين . واستقام الأمر فى صِقليّة بخروجهم عنها .

وقام ببلاد اليمن رجل يعرف بعلىّ بن محمد [٨٩ ب] الصُّلَيْحى[1] يَتَشَيع ، فحسّن له الدعاة الدخول فى نصرة خلفاء مصر ، فأعلن [ذلك] بها ، ودعا أهل اليمن إليها ، وحمل تجارتهم مع هدية جليلة القدر تبلغُ زُهاء عشرة آلاف دينار إلى المستنصر . وكان أبوه قاضيًا باليمن سُنِّىَّ المذهب ، وزوجتُه أسماء ابنة عمّه شهاب ، وكانت أجمل خلق الله ، وهى أم الدّعاة باليمن ، وعُرِفَت بالحرّة . وكانت ذات عزٍّ وكرم ، وتفاخَر بنُوها بها ، ومُدحت .

وكان باليمن الدّاعى عامر بن عبْد الله الرَّوَاحى ، فاستمال أبا الحسن علىّ بن محمد بن علىّ الصُّلَيْحى ، وهو صغير ، حتى مال إليه ، فلما مات عامر أوصى له بكتبه وعلومه ، فدرسها حتى تضَلّع من معارفه وصار من فقهاء الشيعة ، وحج بالناس دليلاً خمس عشرة سنة . ثم ثار فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة ، وتزايد أمره ، ودعا للمستنصر ، وكتب إليه بما هو عليه ، واستأذنه فى المسير إلى تهامة ، فأذن له . ولم تخرج سنة خمسين وأربعمائة حتى ملك السهل والجبل الوعر من بلاد اليمن .

وجهّز الوزيرُ إلى النُّوبة ، فأضعَفَ عليهم البقط[2] ، وحملوه ؛ واستقر الأمر على ذلك .

---

(١) هو أبو كامل على بن محمد بن على ؛ كان أبوه قاضيا سنى المذهب . وكان على يحج بالناس خمس عشرة سنة على طريق السراة والطائف . وتغلب على اليمن حتى ملكه وجعل كرسى دولته بصنعاء ، وبنى عدة قصور بها ؛ وزوجته أسماء بنت شهاب المعروفة بالملكة الحرة خطب لها أيضا على منابر اليمن ؛ وكانت إذا ركبت ركب فى موكبها مائتا جارية بالحلى والجواهر ، وبين يديها الجنائب بالسروج الذهب . وفيات الأعيان ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١١٢ ؛ تاريخ اليمن لعمارة اليمنى . وتحدث عنه ابن الأثير فى الكامل فى أثناء تقريره عن حوادث سنة : ٤٤٧ . الكامل : ٩ : ٢١٣ — ٢١٤ .

(٢) الجزية التى كانوا يدفعونها للدولة فى مصر . وأصله معاهدة عقدت بين عبد الله بن سعد بن أبى السرح وملك النوبة ، ذات طابع سياسى اقتصادى ، كان من بين بنودها ألا يتعدى أحد الجانبين على الآخر ، وأن تقدم النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة ، وتقدم مصر قدرا من القمح والعدس وغيرها ؛ وعرفت هذه المعاهدة باسم البقط ، كلمة لاتينية بمعنى عقد أو معاهدة .

سنة أربع وأربعين وأربعمائة [1] :

فيها كتبت بغداد محاضر تتضمن القدح فى نسب الخلفاء المصريين ونَفْيَهم من الالتحاق بعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنه ؛ وجُمعَ سائرُ أعيان الفقهاء ببغداد وأشرافُها وقضاتُها ، وعَزَوْا نسبهم فى الدَّيْصَانية[2] من المجوس . وسُيِّرت المحاضر إلى البلاد ، وشُنِّع عليهم تشنيع كبير . وسبب ذلك الغضب ما عُمِل مع الرَّسُول المرْسَل من المعز بن بَادِيس ، فإنّه لما شُهِّر بالقاهرة على جمل مقلوب ، وكتاب العقد فى عنقه والهديّة بين يديه ، ثم أُحرقت الخلع والتقليد ، أُعِيدَ الرسول إلى ملك الروم ؛ فعزّ عليه ما فُعِل واعتذر إليه منه ؛ فإنه كان قد ضمن له من مصر إعادته إليه سالماً بعد ما جرت مخاطبةٌ فى طلبه . ثم أعاده ملك الروم إلى بغداد ، فوصل فى سنة أربع وأربعين هذه .

وسببُ عَوْدِه أنّ المعزّ بن باديس بعث رسوله أبا القاسم بن عبد الرحمن إلى بغداد فى ذلك ، فبعث معه الملك طُغْرِلْبك ، أبا علىّ بن كبير ليخاطب ملك الروم فى ردّ أبى غالب ، وكتب معه كتابا عنوانه : « من ركن الدين وغياث المسلمين ، بهاء دين الله وسلطان بلاد الله ، ومغيث عباد الله ، أبى طالب يمين الخليفة أمير المؤمنين ، إلى عظيم الروم » . ومضمونه بعد البسملة : « الحمد لله القاهر سلطانهُ ، الباهر برهانُه ، العلىّ شأْنُه ، السابغ إحسانُه » ؛ ثم مرّ فيه إلى أن قال : « وقد نَجَمَ بمصر منذ سنين ناجمُ ضلالةٍ يدعو إلى نفسه ، ويغترُّ بمن أغواه من حزبه ، ويعتقد من الدِّين ما لا يستجيزه أحد من أهل العلم فى الائمة الأُوَلِ وهذا العصر ، ولا يستحسنه عاقل من أهل الإسلام والكفر » . ثم ذكر الرسول أبا غالب وعاتَب فى أمره ، وطلب تسييرهُ مخفوراً إلى المعزّ بن بادِيس . فقدم إلى قسطنطين ، متملِّك

---

(1) ويوافق أول المحرم منها الثالث من مايو سنة ١٠٥٢ .

(2) نسبة إلى ديصان صاحب مبدأ عبادة إلهى النور والظلمة . وقد سبق هذا المجلس مجلس مشابه عقد سنة ٤٠٢ زمن القادر بالله العباسى .

الروم ، بالقسطنطينية فى صفر من هذه السنة ، فتلقاه الملك وأدخله عليه ، وسأله عن السلطان طُغْرُلْبك ؛ فذكر له الرّسالة ، وطلب منه مقاطعة صاحب مصر ، وإطلاقَ أبى غالب ، وإرْسال رسولِ المعزّ إليه . فقال له : صاحب مصر مجاور لنا [1] ، وبيننا وبينه عهود وهدنة ، وقد بقى منها سنتان ، ولا يمكن فَسْخُها ؛ وأما رُسُل المعزّ والرسل إليه فهم قومٌ يسعَوْن فى الفساد . وتردّد القول إلى أن أطلق أبا غالب وأجازه إلى المعز ، وعاد أبو على ورفيقه إلى بغداد فى بقية السنة .

وفيها قصر مدّ النيل[2] ، ولم يكن فى المخازن السلطانية شىْ من الغلال ، فاشتدت المسغبة بمصر . وكان لخُلُوّ المخازن السلطانية من الغلال سبب ، وهو أن الوزير اليازُورِى لما تقلّد وظيفة قضاء القضاة فى وزارة أبى البركات الجرجرائى كان ينزل إلى الجامع بمصر فى يومى السبت والثلاثاء من كل جمعة ، فيجلس فى الزيادة منه للحكم ، على رسم مَنْ تقدّمه من القضاة ، وإذا أقبل العصر طلع إلى القاهرة . وكان فى كلّ سوقٍ من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمورهم ؛ وكانت عادة أخْبازِ مصر فى أزمنة المساغبة متى بردت لايُرجع منها إلى شىْ لكثرة ما تُغَشّ به . وكان لعريف الخبّازين دكان وكان يبيع الخبز ، وبحذاها دكان لصُعْلوكٍ يبيع الخبز أيضاً ، وكان سِعْرُهُ يومئذ أربعة

---

(١) لصاحب النجوم الزاهرة رأى طريف فى مثل هذا اللقب جاء فيه " أول ماسمعنا من هذه الألقاب لقب بهاء الدولة ابن بويه (ركن الدين) . قلنا (القائل صاحب النجوم) لعل ذلك كان تعظيما فى حقه لكونه سلطانا ، فيكون هذا على هذا الحكم هو أول لقب لقب به فى الإسلام . والله أعلم . ومن يومئذ ظهرت الألقاب وتغالت فيها الأعاجم حتى إنهم لم يدعوا شيئا إلا وأضافوا الدين له . وأنا بالله أحلف لو ملكت أمرى مالقبت بجمال الدين ولا غيره وأكره من يسمينى بذلك ولا أقدر على تغيير الاصطلاح . وهذا لايكون إلا من ولى أمر أو حاكم بلدة " . اهـ . النجوم الزاهرة : ٤ : ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٢) كانت زيادة النيل فى هذه السنة سبع عشرة ذراعا وخمس أصابع . النجوم الزاهرة : ٥ : ٥٤ . وهذا ليس قصورا. يقول ابن مماتى : إذا أوفى النيل ستّ عشرة ذراعا فقد وجب الخراج ، وإذا زاد عن ذلك ذراعا زاد فى الخراج مائة ألف دينار ، فإن نقص ذراعا نقص الخراج مائة ألف دينار . قوانين الدواوين : ٧٦ . (ويذكر أيضا أن الذراع التى يقاس بها إلى اثنى عشر ذراعا ثمانية وعشرون إصبعا ، ومن بعد ذلك يكون الذراع أربعة وعشرين إصبعا . نفس المصدر) .

أرطال بدرهم وثمن . فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد [١٩٠] يبرد ، فخاف من كساده ، فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغّب الناس فيه ؛ فمال إليه الزّبُون فاشتروْا خبزه لأجل تَسَمُّحِه بثمن درهم ؛ وبار خبز العريف ، فغضب ووكل به عونين من الحسبة(١) أغْرَمَاه دراهم . ووافق ذلك نزول قاضى القضاة إلى الجامع ، فاستغاث به ، فأمر بإحضار المحتسب وأنكر مافعله ، واعتذر بأن هذا من العريف وأنه لم يتحقق باطن الحال . فأمر القاضى بصرف ذلك العريف وأن يُغَرَّم ما أخذ من الخباز ؛ والتمت إلى صاحب ديوانه ، وقال : ما معك فادفعه إلى هذا الخباز . فناوله قرطاسا فيه ثلاثون رباعيا ، فكاد عقله يطير فرحا . وعاد فنادى على الخبز خمسة أرطال بدرهم ، فمال إليه الناس ، وهو ينادى بزيادة رطل برطل ، إلى أن بلغ عشرة أرطال بدرهم . وانتشر ذلك فى البلد جميعه ، وتسامع الناس به فتسارعوا إليه ، فلم يبق فى البلد خباز حتّى باع عشرة أرطال بدرهم .

وكانت العادة أن يُبْتَاع فى كلّ سنة غلّة للسلطان بمائة ألف دينار ويمحل متجرا(٢) . فلما عاد القاضى إلى القاهرة مثل بحضرة الخليفة وعرّفه ما مرّ به فى يومه من إرخاص السعر بغير موجب ؛ وقال : يا مولانا ، إن المتجر الذى يُتَّام بالغَلّة فيه مضرة كبيرة على المسلمين ، وربما انحطّ السّعر عن مشتراها فلا يمكن بيعها ، فتتغير فى المخازن وتتلف ، وأنه يقام متجر لا كلفة على الناس فيه ، ويفيد أضعاف فائدة الغلّة ، ولا يُخْشى عليه من تغيُّرٍ فى المخازن ولا انحطاطِ سعرٍ ؛ وهو الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل وما أشبه ذلك . فأمضى الخليفة مارآه ، وبطل المتجر فى الغلة وتوسع الناس بذلك .

---

(١) الحسبة وظيفة دينية فى أساسها مدنية اجتماعية فى طبيعة اختصاصها إذ كان المحتسب يشرف على أرباب الحرف والمعايش ليطمئن على سلامة قيامهم بوظائفهم ، وعلى الحمالين رفقا بالحيوانات ، وعلى الطرق يمنع من المضايقة فيها ، وعلى مكاتب الصبيان ليحذر المعلمين من ضرب الصبيان ضربا مبرحا ، وعلى المكاييل والموازين ، وعلى الآداب العامة ... الخ وللمحتسب معاونون يختارهم ويقومون منه مقام رجال الشرطة أحيانا لمراقبة تنفيذ أوامره ولمؤاخذة المخالفين .

(٢) المتجر – كما يعرفه ابن مماتى – مايبتاع للديوان من بضائع التجار الواردين مما تدعو إليه الحاجة وتقتضيه فى طلب الفائدة المصلحة : قوانين الدواوين : ٣٢٧ .

سنة ست وأربعين وأربعمائة [1] :

فيها أيضا قصر مدّ النيل[2] ، ونزع السعر ، ووقع الوباء . ولم يكن فى المخازن السلطانية إلاّ ما ينصرف فى جرايات مَنْ فى القصور ومطبخ الخليفة وحواشيه لاغير ، فورد على الوزير مِنْ ذلك ما أهمّه . وصار سعر التلّيس ثمانية دنانير ، واشتد الأمر على الناس . وكان التجار بين نار المعامِلين وضيق الحال عليهم فى القيام للدّيوان بما يجب عليهم من الخراج ، ومطالبة الفلاحين بالقيام به ، يبتاعون منهم غلاتهم على أن يصبروا عليهم إلى حين إدراكه بسعر يربحون فيه . فإذا استقرت مبايعتهم لهم حَضرُوا معهم للدّيوان ، وقاموا عنهم للجند بما يجب عليهم ، وكتب ذلك فى روزنامج الجند مع مبلغ الغلة ؛ فإذا أدركت الغلة وصارت فى الأجران يكتالُونها ويحملونها إلى مخازنهم . فمنعهم الوزير من ذلك ، وكتب إلى العمّال بجميع النّوَاحى أن يستعرضوا روزنامجات الجهابذة[3] ، ويحضروا منها ما قام به التجار من المعاملين ، ومبلغ الغلة الذى رفع الإيقاع إليه ، وأن يقدّموا للتجار ما وزنوه للدّيوان ويُرْبحُوهم فى كل دينار ثمن دينار ؛ ويضعوا ختومهم على المخازن ويطالعوا مايَحْصُل تحت أيديهم بها . فلما تحصّلت بالنواحى جهّز المراكب بحمل الغلات ، وأودعها المخازن السلطانية بمصر ، وقرر ثمن كلّ تلّيس ثلاثة دنانير بعد أن كان ثمانية دنانير . وسلم إلى الخبازين مايبتاعونه لعمارة الأسواق ووظّفَ ماتحتاج إليه القاهرة ومصر ، فكان ألفَ تلّيس فى كل يوم ، لمصر سبعمائة وللقاهرة ثلثمائة[4] . فقام بالتدبير أحسن قيام مدّة عشرين شهرا ، حتى أدركت الغلة فتوسع الناس بها ، وزال عنهم الغلاء .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى عشر من إبريل سنة ١٠٥٤ وقد أسقط سنة : ٤٤٥ .

(٢) كان الفرق بين الزيادة فى هذا العام وفى عام ٤٤٤ إصبعا واحدة ، إذ كانت الزيادة سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع . ومرة أخرى هذا لايعد قصورا .

(٣) جمع جهبذ وهو كاتب يختص برسم استخراج المال وقبضه وكتب الوصولات به ، وعليه عمل المخازيم والروز نامجات والختمات وتواليها ، ويطالب بما يقبضه ويخرج ما يرفعه من الحساب اللازم له . قوانين الدواوين : ٣٠٤ .

(٤) ولهذا التوزيع دلالته على مدى كثافة السكان فى كل من مصر (الفسطاط وملحقاتها) والقاهرة . وقد اشتملت القاهرة فى تخطيطها الأول – وهو التخطيط الذى صبغها بصبغته العامة طوال العصر الفاطمى – على قصور الفاطميين ودواوين الحكومة وتجمعات الجند فى حاراتهم (مثل حارات زويلة وكتامة والأتراك . . . إلخ) ، بينما احتشد السكان فى مصر الفسطاط وملحقاتها .

وكان عند استمرار الهدنة مع قسطنطين ملك الروم ، فى أيام وزارة أبى نصر الفلاحى ، قد وصل رسولان أحدُهما هو المتكلم المترجم ، وكان داهيةً أديبا شاعرا نحويا فيلسوفا وُلد بالرّوم ونشأ بأنطاكية ، ودخل العراق ، ولَقِنَ من العلوم والآداب مابعُدَ به صيتُه ، وكان يعرف بابن أصطفانوس ؛ والآخر متحمّل الهدية ، وهو صاحب حرب يعرف بميخائيل . فرأيا[1] من حسن زىّ الدولة وجميل سيرتها ماأعجبا[1] به ، لاسيا [٩٠ب] ميخائيل ، فإنه أطربه مارأى وحَسُن موقعه فى نفسه . وسارا وقد امتلأت قلوبهما بمحبة ماشاهداه . فاتفق ملك الروم وتمليك ميخائيل هذا ، فبلغه مابمصر من الغلاء ، فحمل إليها مائة ألف قفيز قمحا ، وقدم كتابه أمامها يعيّن الغلة والكيل الذى تستوفى به إذا وصلت ؛ فانتهت إلى أنطاكية . وأعدّ هدية الهدنة على ماجرت به العادة ، وهديةً من ماله . فلما رأى الرُّوم ذلك ظنُّوا به الميل إلى الإسلام ، فقتلوه فى ثامن شوال ؛ فكانت مدة ملكه اثنتى عشرة سنة وسبعة أشهر ، وعمرُه أربع وخمسون سنة وشهر واحد . وأقاموا رجلا يعرف بابن سقلاروس من أهل أنطاكية ، وكان لَجُوجًا خبيثاً حديدا ، فاعترض الهديتين وأخذهما ، وقال : أنا أنتفع بهما وأُنفِقُ ثمنهُما على قتال المسلمين .

وكانت للوزير بالقسطنطينية عيون ، فكتبوا إليه بذلك ، فسيّر مكين الدولة الحسن ابن على بن ملهم الكُتامى إلى اللّاذقية فى عسكرٍ لحصارها والتضييق على مَنْ فيها ؛ فحاصرها حتّى اشتد على مَنْ فيها الأمر . فكتب ابن سقلاروس ، متملك الروم ، إلى الحضرة يستوضح ماالذى أوجب ذلك ؛ فأُجيب أن الذى أوجبه ماكان فَعَله فى نَقْض ما استقرّ مع مَنْ تقدّمه من الهدنة ، وقبض الهديّة ، والهديّة التى ليست من ماله . فأجاب بأنه يحمل الهديّة ؛ فاشتُرِط عليه إطلاقُ مَنْ فى بلاد الروم الأسرى . فأجاب بأنه إذا أُطلِق مَنْ لهم فى بلاد الإسلام من أسرى الرّوم أَطْلَق من [فى] بلاد الروم من أسرى المسلمين . فأُجيب بأنه

---

(١) فى الأصل : فرأوا . . . وما أعجبوا . . . وهكذا فى بقية أفعال هذه الجملة وضمائرها .

لايصح التماسه لذلك ، لأنّ من أسر من بلاد الرّوم تفرقوا فى الممالك بالعراق والدولة الفاطمية والمغرب واليمن وغير ذلك ، ولاحكم للحضرة على جميع الممالك ، ويُرْتَجع منها ما صار فى أيدى أهلها ؛ وبلادُ الروم بخلاف ذلك ، ومن حصل فيها من المسلمين كَمَنْ هو مُعْتقلٌ فى دارٍ واحدة لايمكنه الخروج منها إلاّ بإذن أهلها ؛ وبين الحالَيْن فرقٌ كبير . فأجاب بأنه لايطلق مَنْ فى بلاده من أسرى المسلمين . فاشترط عليه النُّزول عما صار فى أيدى الروم من الحصون الإسلامية ؛ فامتنع من ذلك وقال إذا سُلّم إلينا ما صار فى أيدى المسلمين من حصون المسلمين من حصون الروم سَلَّم ما فى أيديهم من حصون المسلمين . فبدل الجيش بجيش آخر ، وخرج مع متقدّمه الأمير السعيد ليث الدولة ، فنازل اللّاذقية حتى فتحها ، ووقع العنفُ فيها . وأُجيب بأنه لايصح أن يسلَّم إليهم ما صار فى أيدي المسلمين من الحصون لأنهم قد أنبتوا فيها العقارات وأنشئوا فيها البساتين . فقال : يُدفع لهم عن أملاكهم وما أنشئوه من البساتين وغيرها ، وما أنفقوه فيها ، وينتقلون عنها إلى غيرها من بلاد المسلمين . فأجابوا إلى أن يسلموا ما فى أيديهم من الحصون الإسلامية .

وكانت العادة جارية بأنه إذا وصلت هديّة من الرّوم إلى الحضرة تُقوَّم ويحمل إليهم هدية موضعها بثُلُثَىْ قيمتها ، ليكون للإسلام مزية عليهم بالثلث ؛ فاشْتُرِط أن يكون قيمة ما يُحْمل إليهم من الهديّة عوضًا عن قيمة هديتهم النِّصف ؛ فأجابوا إلى ذلك أيضا . فاشترط عليهم أنْ يردّوا كلَّ من تَضُمّه دار البلاد ، التى هى دار الملك ومحلُّه ؛ فامتنع من ذلك . فأمدّ الجيش بجيش ثالث وعليه أميران ، هما موفق الدولة حفاظ بن فاتك وأبو الجيش عسكر بن الحلى ، وَمَقَادُ جميع الجيش إلى الأمير مكين الدولة وأمينها ابن ملهم . فأوغلوا فى بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويأسرون حتى أَعْظَموا النكاية فيها ، والرسل والمكاتبات تتردد ، إلى أن استقر القيام بالجزية التى التمسها أُمراء البلاط ، وجهزت الهدية . وبلغت الجزية المذكورة نيفا وثلاثين ألف دينار .

وحمل ذلك إلى أنطاكية ؛ فبلغهم قتل الوزير ، فأُعيدت إلى القسطنطينية . وزُينت بلاد الروم لموته ، وكثر ابتهاجُهُم بما صُرِف عنهم من خشونة جانبه عليهم ، وشدة شكيمته .

وأما ابن ملهم فإنه لما أوغل فى بلاد الروم وقارب أفامية وجال [١٩١ ا] فى أعمال أنطاكية نَهب وسبى ، فقدمت من القسطنطينية قطائع يقال إن عدتها ثمانون قطعة ، فكانت بينها وبين ابن ملهم حروب آلت إلى أن أُسِر هو وجماعة من أعيان العرب فى آخر ربيع الآخر .

وفيها استُدْعىَ راشد بن عليان بن سنان ، أمير الكلبيين ، فاعتُقل بالقاهرة ، وردّت إمارة بنى كليب لنبهان القريطى . وقبض على إقطاع راشد وأخيه مسمار ، وهو مقيم بظاهر دمشق ، ففرّ إلى غالب بن صالح . فكتب المستنصر إلى ثّمَال ينكر عليه تسيير هدية إلى ملك الروم ، فتحيّر فى أمره واعتذر .

سنة سبع وأربعين وأربعمائة [1] :

فيها سيّر المستنصر إلى كنيسة قُمامة ، فأحتاط بجميع مافيها . وذلك أن القاضى أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه من عند الخليفة برسالة إلى متملّك الروم ، فقدم وهو بالقسطنطينية رسول السلطان طُغْرِلْبك بن سَلْجُوق يلتمس من الملكة تُيودُورا[2] أن تمكن رسوله من الصّلاة فى جامع قسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك ؛ فدخل إليه وصلّى به ، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى . فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فأحاط بما فى قُمامة وأخذه ، وأخرج البطرك منها إلى دارٍ مُفْرَدة ؛ وأغلق أبواب كنائس مصر والشام ، وطالب الرهبان بالجزية لأربع سنين ، وزاد على النصارى فى الجزية . وكان هذا ابتداء فساد ما بين الروم والمصريين .

وفيها تجمّع كثير من التركمان بحلب وغيرها ، وأفسدوا فى أعمال الشام[3].

وفيها تزايد الغلاء ، وكثر الوباء ، وعم الموتان بديار مصر .

وفيها سار مكين الدولة الحسن بن على بن ملهم من القاهرة بالعساكر ، ونودى فى بلاد الشام بالغزو والجهاد . واستدعى راشد بن عليان بن سنان إلى القاهرة ، وقُرر معه أن يسير فى قومه الكلبيين مع ابن ملهم ، ثم قبض عليه . وعقدت إمارة الكلبيين لنبهان ، وقيل لسنان ، فنزل ابن ملهم أفامية ، ثم سار إلى حصن قسطول فحصره عشرين يوما حتّى أخذه

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى من إبريل سنة ١٠٥٥ .

(٢) ملكة الروم ، إمبراطورة بيزنطة .

(٣) وكان تجمع التركمان هذا بدءاً لعصر نفوذ السلاجقة فى تاريخ خلافة العباسيين . وسيؤدى تقدم التركمان –السلاجقة– فى إتجاه الشام إلى نتائج ومضاعفات عديدة أهمها : الاحتكاك المستمر بالفاطميين ؛ وتدهور نفوذ هؤلاء بالشام ؛ التوسع الإسلامى فى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين ؛ الصدام العنيف بين الشرق والغرب الذى اتخذ شكل الحروب الصليبية .

بالأمان ، فى ثامن ربيع الأول سنة سبع وأربعين . وعاد إلى أفامية فحصرها ورماها بالمجانيق، فطلبوا الأمان على أن يرحل عنهم ؛ فلما رحل أحرقوا القلعة وانهزموا ، فلحقهم وقتلهم ، وأطفأ النّار من القلعة ، وأغار على البلاد ؛ فلم يكن بأنطاكية من يذب عنها ، وجمع كل طامع فى النهب بحجة ابن ملهم . وتوسط ثَمَال بن صالح للصلح ، فلم يتمّ . وسيّرت الملكة تُيودُورا أسطولا إلى أنطاكية ، فوصل اللّاذقية ثمانون قطعة ، وخرج دوقس أنطاكية وبطركها فى جماعة ، فظفروا بشينيين[1] للمسلمين معهما الغنائم ؛ فسار ابن ملهم نحوهم، وكشف الروم إلى طرف أنطاكية ، واستنقذ الأسرى منهم وقتل منهم خلقا كثيرا . فدار الأُسطول إلى طرابلس وقاتلوا أهلها ، فقتل من الفريقين خلائق . وعاد الأُسطول الرومى إلى اللّاذقية ، فماتت الملكة تُيودُورَا بعد سبع سنين من ملكها وتسعة أشهر واثنتى عشرة ليلة ؛ وملك بعدها ميخائيل .

(١) والجمع شوان ، مركب حربية لها مائة وأربعون مجدافا ، وكانت تعد أكبر سفن الأسطول ، تقام فيها الأبراج للدفاع وتشحن بالمقاتلة ، ويقابلها بالفرنسية Galére . قوانين الدواوين : ٣٣٩ — ٣٤٠ ؛ Dozy; Supp. D!ct. Ar.

سنة ثمان وأربعين وأربعمائة [1] :

فيها جُهِّزت الأموال لأبي الحارث البَسَاسِيرى ، فخرج بها المؤيّد فى الله عبد الله بن موسى ، وجملتُها ألفَا ألف وثلثمائة ألف دينار ، العين ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، والعروض أربعمائة ألف دينار .

وكان من خَبَرِه أنه كان من جملة المماليك الأتراك فصار إلى بهاء الدّولة بن عضُد الدّولة بن بُوَيْه[2] ، رجل من أهل فَسَا[3] ، إحدى مدائن فارس ، فلذلك قيل له البَساسيرى ؛ وتنقل فى الخدم حتّى صار مُقدّم الأتراك ببغداد فى أيام الخليفة القائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله بن أحمد القادر[4] ، وتلقب بالمظفر . وكان القائم لا يقطعُ أمراً دونه . فطار اسمه وتهيّبَتْه أمراء العرب والعجم ، ودُعى له على منابر العراق والأهواز ، وتجبّر . وأراد فى سنة ستٍّ وأربعين من الخليفة أن يسلم إليه أبا الغنائم وأبا سعد ابنى المحلبان ، صاحبي قريش ابن بدران صاحب الموصل[5]، فلم يُمَكّنه من ذلك . فسار إلى الأنْبار ونصب عليها المجانيق، وهدم سورها وأخذها قهرا ، وأسر أبا الغنائم [٩١ ب] ابن المحلبان[6] ومائةَ رجل من بنى خفاجة ، وكثيراً من أهل الأنبار . ورجع إلى بغداد وأبو الغنائم بين يديه على جمل فى رجليه قيد ؛ فصلب كثيراً من الأسرى .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والعشرين من مارس ١٠٥٦ .

(٢) بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة أبي شجاع خسرو بن ركن الدولة أبي على حسن ؛ حكم فى العراق بين سنتى ٣٧٩ - ٤٠٣ (٩٨٩ - ١٠١٢) وضم فارس سنة ٣٨٨ (٩٩٨) . Mohammadan Dynasties.

(٣) بسا بالباء المفتوحة ، وبالفاء أيضا . والنسبة إليها فسوى ، وأهل فارس يقولون فى النسبة إليها - شذوذاً - البساسيرى . معجم البلدان : ٢ : ١٦٧ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٢ .

(٤) خليفة العباسيين بين سنتى ٤٢٢ - ٤٤٧ .

(٥) علم الدين أبو المعالى قريش بن بدران بن المقلد ، أمير الموصل وحلب بين سنتى ٤٤٣ - ٤٥٣ ، انتزع البساسيرى منه الموصل سنة ٤٤٨ . الكامل : ٩ : ٢٠٨ وما بعدها ؛ معجم الانساب .

(٦) وكان قد ألقى نفسه فى الفرات تجنبا للوقوع فى الأسر . الكامل : ٩ : ٢٠٩ . ورجع به إلى بغداد وعليه قميص أحمر وعلى رأسه برنس . نفس المصدر .

وانْمَحَق فى شهر ربيع الآخر من سنة سبع وصولُ زورق فيه تمرٌ للبَسَاسيرى ، فخرج إليه ابن سكرة الهاشمى فى جماعة ، فأراقوه ونهبوا دُورَه وأخذوا دَوَابَّه ؛ وكان هو إذ ذاك فى نواحى واسط . فلما بلغه ذلك نسبه إلى الوزير رئيس الرؤساء أبى القاسم بن المسلمة[1] ، فعظُمت الوحشة بينه وبين الوزير . وسار إلى دبيس بن بدران وهو مُسْتَوحش ، فوافَتْ رسل طُغْرلْبك بن ميكال بن سلجوق إلى الخليفة القائم بإظهار الطاعة ، فتقرّر الأمر مع الملك الرحيم خُسْرو فَيْروز بن أبى كَالِيجَار المَرْزُبَان ابن سلطان الدولة أبى شجاع ، على أن يخطب لُطغْرلْبِك ببغداد ؛ فخطب له لثمانٍ بقين من شهر رمضان منها .

ثم إنه قدم إلى بغداد وقبض على الملك الرحيم وعلى جماعةٍ ، ثم بعث به إلى قلعة السّيروان ، وفرّ منه قريش ، ثم إنه خلع عليه وردّه إلى أهله[2] ، وأخذ أموال الاجْنَاد البغداديين وأمرهم بالسعى فى طلب الرزق ؛ فسار أكثرُهم إلى البَسَاسيرى . وبعث طُغْرلْبك إلى الأمير نور الدين دبيس بن بدران أن يُحْضر إليه البساسيرى ، فالتزم له بذلك . وبلغ البَسَاسيرى الخبر ، فسار إلى رحبة مالك بن طَوْق ، وكاتَب المستنصر يطلب منه الإذن له فى الدّخول إلى حضرته ؛ فأُشير على المستنصر بألاَّ يُمَكِّنَه من الحضور ، وأن يَعِدَه بما يرضيه ، وسيِّر إليه الخلع . فبعث يسأل فى النَّجدة ، ويلتزم بأخذ بغداد وإقامة الخطبة بها للمستنصر وإزالة دولة بنى العباس ، وأنه يكفى فى ردّ طُغْرلْبِك عن قصده البلاد الشامية . فجُهزت إليه خزائنُ الأموال العظيمة على يد المؤيّد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى فى سنة ثمانٍ وأربعين ، حيث لم يُتْرَك فى خزائن أموال القصر شئ ألبتة .

وخرج خطير الملك محمد بن الوزير من القاهرة فى تجمّل عظيم ، ومعه من كلّ ما يريد،

---

(١) رئيس الرؤساء على بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة . النجوم الزاهرة : ٥ : ٦ .

(٢) وكان قريش قد فر بعد أن نهبه التركان هو ومن معه من العرب ، ولم يطلقه التركان إلا بعد أن أرسل الخليفة إلى السلطان يحتج على أعمال النهب والأسر ويهدد بترك بغداد . الكامل : ٩ : ٢١٢ – ٢١٣ .

حتى أخذ أحواض الخشب وفيها الطِّينُ المزرُوع فيه سائرُ البقول برَسْمِ مائدته . ومعه من خزائن الأموال والأسلحة والآلات والأمتعة ما يجِلّ وصفه . فسار إلى القدس ، ورحل منها إلى اللاذقِيّة يريد فتحها . فلما كان فى شوال منها واقع البساسيرى ودبيسٌ[1] قريشَ ابن بدران العُقَيلى صاحب الموصل وقُتُلْمُش ابن عم طُغْرلْبِك ، وكان طُغرلْبك قد سيّره إلى سنجار[2] فى ألفين وخمسمائة فارس . فكانت الوقعة المشهورة التى لم يفلت منها إلا مائتا فارس أو دونها . وانهزم قريش وقُتُلْمُش ، واستولى البَسَاسِيرى ودبيس على الموصل وأقاما بها الدعوة للمستنصر ، وكتبا إليه بذلك ؛ فسيرت إليهما الخلع ولجماعة أمراء العرب .

وعُمِل الشّعر فى هذه الواقعة . فمن مليح ما قيل لابن حيوس[3] :

عجبت لمدّعى الآفاق ملكا ... وغايتُه ببغداد الرّكود
ومن مُستخلَفٍ ، بالْهُون يرضى ... يُذاد عن الحياض ولا يذود
وأعجبُ منهما شعبٌ بمصر ... تقام له بسنجار الحدود

وبلغ ذلك طُغرلْبِك ، فسار يريد الموصل حتى بلغ نَصِيبِين ، فأوْقع بالعرب وألقاهم بين يدى الفيلة ، فقتلهم شر قتلة . وبعث إليه دبيس وقريش بالطاعة فقبل منهما . وسار إلى ديار بكر ؛ وجهّز أخاه داود إلى الموصل ، فتسلمها وعاد إلى بغداد .

---

(١) نور الدولة أبو الأغر دبيس الأول بن سند الدولة أبى الحسن على بن مزيد الأسدى ؛ صاحب حلة بنى مزيد ، وكانت تسمى الجامعين ، قرب الفرات . معجم البلدان : ٣ : ٣٢٧ ؛ معجم الأنساب .

(٢) بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وتقع فى لحف جبل عال . معجم البلدان : ٥ : ١٤٤ – ١٤٦ .

(٣) محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس ، أبو الفتيان ، الأمير الشاعر ؛ أحد شعراء الشام المجيدين ؛ مات بدمشق سنة ٤٧٣ مجاوزاً الثمانين . النجوم الزاهرة : ٥ : فى مواضع متعددة .

سنة تسع وأربعين وأربعمائة [1] :

فيها تَسلَّم مكينُ الدولة ابن مُلْهم من ثَمالَ بن صالح مدينة حلب فى آخر ذى القعدة ، وانكَفَّت أيدى التركمان عنها ، وأقيمت خطبة المستنصر فيها وقطعت خطبة القائم ؛ وذلك بعد حروب عظيمة . وكان دخول ابن مُلْهَم حلب يوم الخميس لثلاث بقين من ذى القعدة ، فبقى على ملكها أربع سنين .

وفيها قدم كتاب من بُخَارَى أنّه وقع بها وباء عظيم حتّى هلك من ذلك الإقليم ألف ألف وستمائة ألف وخمسون ألف إنسان ، وخلت الأسواق ، وأغلقت الأبواب . وتعدّى الوباء إلى آذربيجان فالأهواز والبصرة وواسط ، وعامة تلك [١٩٢ ا] الأعمال ، فكانت الحفيرة تحفر ويُلْقى فيها العشرون والثلاثون من الأموات . وكان سببه قلة القوت والجوع ، فنبشت الأموات وأكلهم الناس . وكان الموت إذا وقع فى دَار مات جميعُ مَنْ فيها ، وكان المريض ينشقّ قلبه عن دم المهجة ، فيخرج من فمه قطرة فيموت ، أو يخرج من فيه دود فيموت . وكلّ دار كان فيها خمرٌ مات أهلها كلُّهم فى ليلة واحدة ، ومن كانت امرأته حراماً ماتا معاً ، ومات قيّمُ مسجد وله خمسون ألف درهم فلم يقبلها أحد ، ووضعت فى المسجد تسعة أيام ، فدخل أربعة من الشلوح إليها ليلا ليأخذوها فمات الأربعة عليها . وكان يموت الوصِيّ قبل الموصِى ، وكلّ مسلمَيْن كان بينهما تفاخر ولم يصطلحا ماتا . وابتدأ هذا الوباء من تركستان ، ودب منها إلى كاشغر والشاش وفرغانة [2] ، وعمّ النساء والصبيان ، فمات الصبيان والكهول والفتيان من سائر الناس إلا الملوك والعساكر ، فإنه لم يمت منهم ولا من الشيوخ والعجائز إلا القليل ! !

---

(١) ويوافق أول المحرم منها العاشر من مارس سنة ١٠٥٧ .

(٢) من بلاد ما وراء النهر وهى أيضا من بلاد الأتراك التى استوطنها الكثير من الفرس .

سنة خمسين وأربعمائة (١) :

فى أول المحرّم قَبَض المستنصر على وزيره الناصر للدّين ، غياث المسلمين ، أبى محمد اليَازُورى ، وكان قد جُمع له مالم يجتمع لغيْرِه من تقليد الوزارة وقضاء القضاء وداعى الدّعاة . وكان لِلْقَبض عليه أسبابٌ ، منها أن طُغْرِلْبِك لمّا ملك بغداد كان بها لليَازُورى عيون كثيرة يطالعونه بدَفينِ الأُمور وجليلها ، فوصلت كتُبهم بوصوله ، وأنهم سمعوه يذكر إزْمَاعَه على التوجه نحو الشام ليملكه . فقلق لذلك ورأى أنَّ الحيلة أبلغُ من الاستعداد له ، فكَتَب إليه يهنئه بوصوله إلى العراق ، ويبذل له من الخدمة مايُوفِى على أمله ، وأن مصر وأعمالها بحكمه ، وأنه وإن كان مستخْدَمًا لدولة ويدعو إليها فإنَّه يعلم كثرة الاختلاف ، فمِنْ تجاوُزها فى نسَبها ، واتفاق الكلمة ووقوع الإجماع على الرّضا بالخليفة الصّحيح النسب ، الصَّريح الحسب ، الهاشمىّ العباسىّ ، وأنه لايمتنعُ عن الإقرار له بذلك . وأعطاه صفقة يده على مبايعته ، وتسليم الدولة له . وأنه قد اتصل به إزماعُ حضرته على التوجُّه إلى الشام ، وأنه أشفق من تسليمها إليه فتطأُها عساكِرُه مع كثرتها وتجمّعها فيُخْرِبها ويُعفى آثارها ، ولا يقع بملكها انتفاع ، ولايُرجى لها ارتفاع[٢]؛ فإنْ رأى أعْفَاها من وطء العساكر لها ، ووصول ركابها إليها ، على وجه الفرجة والنظر إلى دمشق وحصنها ، فلها عالى رأيها .

فلما وقف طغرلبك على كتابه قال هذا كتاب رجل عاقل ، ويجب أن يُعتَمد ما أشار به بالإذن للعسكر فى عودتهم إلى بلادهم ؛ فمضى كلٌّ منهم لوجهه . ثم أمر فضرب فَسَاطِيطَه فى الجانب الغربى من بغداد ؛ فكتب بذلك عيونُ اليَازُورِى إليه ، فقلق ، ثم كتب إليه : « لاتغرنَّك الأَمانى والخدع بأن أسلِّم إليك أعمال الدولة ، وأَخُونَ أمانتى لمن غذانى فضلُه وغمرنى إحسانه ، وتتعيّن علىّ طاعته وموالاته . فإن كنتَ تسلِّم إلىّ مافى يدك لصاحبك من العراق وأعماله سلَّمتُ إليك مافى يدى لصاحبى ، بل الواجب أن تكون كلمةُ الإسلام مجموعة

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٠٥٨ .

(٢) الارتفاع ما يتحصل من الدواوين بعد جمع الموارد الحكومية ، أى إيرادات الدولة .

لابن بنت النبي الذى هو أَوْلى بمكانه من غيره . وإن رغبتَ فى المهادَنَة والموادعة انتظمت الحال بين الدولتين ، وأَمِنَ الناسُ بينهما . فإن أبيت إلاَّ الخلاف ، ونَزَع الهوى بك إلى الظُّنون الفاسدة ، والأَطماع الكاذبة فليس لك عندى إلاَّ السيف . فإن شئت فأَقِمْ ، وإن شئت فَسِرْ » .

فغاظ ذلك طُغْرِلْبك وقال : خدَعنى هذا الفلاح وسخر منِّى . وكتب إلى إبراهيم بن ينال ، أخى طغرلبك لأمه ، بردّ العسكر مسرعا ، فلم يتأَتَّ له اجتماعُهم . وكان اليازُورِىُّ قد بثّ عيونه وجواشيه فى عسكر طُغْرِلْبك واستَفْسَد أعيانهم بكثرة الأَمانى والمواعيد، مثل خاتون زوج طغرلبك ، والكُنْدَرِى[1] وزيره ، وابراهيم ينال أخيه[2] وصاحب جيشه ؛ فمالوا إليه وقعدوا عن صاحبهم . وحمل خاتون على قَتْلِه ، فامتنعت من ذلك ووَاعَدَتْه أنها تتحيّز بغلمانها ، وهم نحو اثنى عشر ألفا ، عنه ؛ فاعتزلتهم . وكان ذلك سبب ظفر البَسَاسيرى بعسكر طُغْرِلْبك ، وظفر كثير منهم ، ورجوع طُغْرِلْبك من بغداد [٩٢ ب] طالبا لجمع عسكره الذى تفرقّ عنه . وهو أنه سار فى هذه السنة ملك البَسَاسِيرى وقريش الموصل بعد حصار شديد نحو أربعة أشهر حتى هدم قلعتها . فخرج طُغْرِلْبك يريدهما ، فسارا عن الموصل ، وهو يتبعهما ، إلى نصيبين ؛ ففارقه إبراهيم ينال وقصد همذان ، ولحقه الأَتراك الذين كانوا ببغداد . ففتّ ذلك فى عضد طغرلبك وتَرَك ماهو فيه ، ورجع ليضُم إليه من تفرّق عنه ، وترك بغداد . فقوى أبو الحارث البساسيرى ، وكَثُف جمعهُ ، وقصد أعمال العراق ، ففتح بلداً بلداً ، وتملك الأَعمال والرَّساتِيق[3] طوْعاً وكرهاً ، والدولة المصرية تُمِدّه بما يستعين به على ذلك ؛ وهو لاينفذ فى أمر من الأُمور إلا بما يقرّره اليازُورِى . فكثرت حسّاده على ما يتوالى من سعادته فى كلّ يوم ، وما يتجدد له من رئاسة يقتضيها حسنُ آثاره فى الدولة ، وتأْثيراتُه فى جميع الأَطراف والممالك بلطف السياسة ومُحْكَم

---

(١) عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندى ، أول وزراء السلاجقة . وفيات الأعيان ؛ تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهانى ؛ معجم الأنساب لزامباور .

(٢) فى الأصل : ابن أخته . وهو خطأ والتصحيح استناداً إلى ما تقدم ؛ وإلى ابن الأثير فى الكامل ؛ وإلى النجوم الزاهرة .

(٣) الرستاق ، والرسداق ، والجمع رساتيق : أرض السواد ، والقرى ، ومحلة العسكر ، والبلد التجارى ؛ ومنه الكلمة المعربة الرزداق وجمعها الرزداقات والرزاديق . (والمقصود هنا القرى ومحلات العسكر) . محيط المحيط .

التدبير الذى يبلغ به غاية آماله ، بحيث لا يبلغ غيره بعضها إلاّ بإنْفاق الجمل العظيمة ، وتفريغ بيوت الأموال ؛ ثم لا يكاد يظفر ببلوغ أملٍ فى جهة من الجهات إلا دوخها وثبتت آثاره فيها الدهر الطويل . وصار أعداؤه يتعجبون مما يتأتّى له من السعادة وتُعِينُه عليه الأقدار . واستطالوا مدّته ، فابتغوا له الغوائل ، ونصبوا له الحبائل ، وركبوا عليه المناصب حتى كان هلاكُه بأقلّ الناس وأحقرهم ، وأدناهم منزلة ، وأضعفهم قدرة ، وهم من أطراف الخُدّام . فأقاموا رجلين ، أحدهما خادم يعرف بمفرج المغربى كان فى حاشيته ، والآخر خازنٌ يتولّى خِزَانة الفُرُش يعرف بتنا (؟) . وحكوا أنه نقل الأموال إلى الشام فى التوابيت وفى شمع سَبَكه وأعدّه إلى القدس وإلى الخليل ، وأنه قد عوّل على الهرب إلى بغداد ؛ واستظهرُوا بكتابه الذى ذُكر إلى طُغْرلْبك ؛ مع ما فى طبيعة الملك من الحسد والملل ، والأنفة من الاستبداد عليهم ومحبّة الانفراد بالمجد .

وكان من أسباب الخِذْلان أن المُسْتنصر الْتمس من صفىّ الملك ، وَلَدِ اليازُورى ، عملَ دعوةٍ يدعوه إليها ، فدافعه عن ذلك استعْظاماً لحضوره عنده ؛ فأقام مدّة حتى بعثه والدُه الوزير على تكلُّفِ عملها له ؛ فتهمّم لذلك ، واصطنع ما يجب إعداده ، وتقرّر الحال على يوم يحضر فيه . فلما كان قبل ذلك بيوم حضر صفىُّ الملك عند الوزير وأعلمه بإنجاز ما يحتاج إليه ، فصار معه إلى الدار واستصحب خواصه ، فرأى ما يَقْصُر عنه الوصف . وفرش مجلسين بديباج بياض كله ، وفيه جامَاتٌ كبار وحمرٌ منقوش ، كل مجلس بثلاث مراتب وبساط ملء المجالس ؛ وسراديق وحجلين للصدر والباب كله جديد كما حمل من الأعدال ؛ فقدّر ذلك بخمسة آلاف دينار . فأقبل كلُّ من حضَر يبالغ فى صفته ويدعو ، وشخصٌ منهم ساكت . فلحظ الوزير وأمسك حتى فرغ من تطواف المجالس وعَرْضِ كلِّ ما أعدّه ، وعدل إلى بيت الطهارة وقد أُعِدّ فى دهليزه من الفرش والآلات والطِّيب ، وداخله من الفواكه والمشمومات كل مستحسن . ودعا الوزيرُ الرجُلَ الذى سكت عند مبالغة مَنْ حضر فى الوصف ، وقال : ياعُمْدة الملك ، مالِى لم أسمعْك تؤمّن على ما قال الجماعة ؟ فقال له بعد ما سأله الإعْفَاء عنه وتركه من القول ، فأبى إلاّ أن يقول : سيدنا فيما أعدّه من هذا الجمال بين أحد رأيين ، إمّا أن يأمُر بإزالته ونَصْب غيره مما قد

استُحِل ، وإمّا يحمله إلى الخليفة إذا انقضى جلوسه عليه . فقال : وما هو هذا ؟ أليس هو مما أنعَم به وصار إليّ من فضله ؛ وما قدرُه حتى تمتدّ عينه إليه أو تتطلّعَ له نفسه ! وأما إزالته ونصْبُ غيره فما كنت أكسر فى نفس هذا الصبى شهوةً ، فإنى متى أمرت بإزالته حزن لذلك . وافترقا . فلما كان الغد جاء المستنصر وأقام يومه ذلك فى الدّار ، وأُحْضِر إليه الطعام مما حوله من الطُّرف ؛ ثم عاد آخر النهار . وحضر عند الوزير أصدقاؤه ، فانفرد بذلك الرجل ، وقال : ياعمدة الدولة ، والله ما أخطأ حِزْرك فيما قلتَه بالأمس ؛ منذ دخل الخليفة إلى الدّار إلى أن خرج لم يَطْرِف طرفةً عن تأمُّل الفرش ، فإذا وجَّهتُ طرفى نحوه أطرق وتشاغل . فقال له : ياسيدنا أمّا إذ فات الأمر الأول فلا يفوت [٩٣ ا] الثانى . فقال : والله لافعلتُ ولاغممتُ صفىّ الملك .

واتفق أنه خرج يوما وعليه ثوب بديع ، فلمّا عاد قال لصديقه : ياعمدة الدولة ، لحظتك اليوم تنظر الثوب الذى كان علىّ فعجبت من ذلك ، فلما مثُلْتُ بحضرة مولانا أقبل يتأمل الثوب ولم يزل يزحف من الدَّسْت(٢) حتى مدّ يده إلى الثوب وتلمّسه ، فزال عجبى منك إذ كان الخليفة يتأمله ؛ والملوك إذا أنعموا على أحد استحال التظاهر بإحسانهم حسدا وملَلاً .

وكان راتب مائدته فى كل يوم كموائد الملوك فى الأعياد والولائم . وكان لا يبتاع لمطبخه من الطير ما هو مُعْرِق ولا مُصْدِر ؛ وكان سعر المعرق ستة بدينار والمصدر أربعة بدينار ، والمسَمّن ثلاثة بدينار ، والفَائق اثنان بدينار ؛ وكان يعمل لدارة ومن فيها المسَمّن ، وأما مائدتُه فلا يقدّم عليها إلا الفائق .

---

(٢) دست السلطان : مرتبة جلوسه . صبح الأعشى ؛ Dozy; Supp Dict. Ar.

فلما كان فى سنة سبع وأربعين وقصر النيل نزع السعر وغلا حتى بلغ التلّيس ثمانية دنانير وصار الخبز طرفة . و كان المستنصر يحضر دار اليَازُورِى كلَّ يوم ثلاثاء على عادته ، فتُقدّم إليه المائدة ، فإذا هى على ما يعهد لم يُخلّ منها بشئ حتى الدجاج الفائق ؛ فقال لصاحب مطبخه : ويلك ، يكون راتب مائدة الوزير الدجاج الفائق ومائدتى دون ذلك ! فقال : يامولانا ماذنبى إذا قصر بك أصحاب دواوينك ولم يطلقوا لمائدتك ماألتمسه منهم ، والوزير فلا تتجاسر وُكَلاَؤُه أن يقصروا فى شئ مما جرت العادة به فى راتب مائدته وغيرها ، مع تقدّمه إليهم فى كل يوم بالزيادة فيها وفى راتب داره .

فلما تظافر عِدَاه عليه لم يشعر إلاّ فى ساعة القبض ، فكتب إلى أبى الفرج البابلى — وكان قد قدّمه وأحسن إليه ورفعه على جميع أصحاب الدواوين ، واستخلصه دونهم ، كما يأتى إن شاء الله عند ذكر وفاته — بعد البسملة : « عَرَفنا يا أبا الفرج — أطال الله بقاءك وأدام عزّك — تغيُّر الرأى فينا ، وسوء النية والطَّوِيَّةِ ؛ فإن يكن هذا الأمر صائراً إليك فاحفظ الصُّحبة ، وارْعَ واجب الحرمة ؛ وإن يكن صائراً إلى غيرك فابتغِ لنفسك نفقا فى الأرض . على أنّا نشير عليك : إن دُعِيتَ إليه فلاتَأْبَى عنه فإنه أصلح لك وأَعْوَدُ علينا . والسّلام » .

ودُعِىَ البابلى للأمر ، ووَزَرَ ، لأنه لم يكن فى الدولة من يتقدمه لِمَا وَطَّأه اليازورى وأمّله من تقديمه وتمييزه . و كان اعتزاله يغطى على عيوبه ، فلما ولى الوزارة بَانَ للناس من رقاعته وحدّته وكثرة شرّه ما افتُضِح به ؛ وتجرّد لمقابلة إحسان اليازورى بكل قبيح وذكره بما لا يستحق من الغَضّ . وكانت الرقعة التى كتبها إليه من أعظم ذنوبه عنده فكان يقول ؛ يخاطبنى وهو على شفير القبر بنون العظمة ! ولا يذكره إلا بالسفاهة واللغو ، فسقط قدره من أعين الكافة وحذِرَه كل أحد . ثم لم يقنعه كونُ الْيَازُرى فى

الاعتقال بمصر حتى نفاه إلى تنِّيس[1] ، فى صفر ، ومعه نساؤه وأولاده وحاشيته ، فاعْتُقِلوا بها .

ثم شرع البابلىّ فى التدبير على قتله . قال الشريف فخر الدولة ومجدها ، نقيب نقباء الطالبيين : قال لى مولانا – يعنى المستنصر – يا فخر الدولة ؛ ما رأيت أَوْقَعَ من البابلى ؛ وذلك أنَّ اليازُورى لم ينته إلى ما صار إليه من عظيم المنزلة إلاَّ بعد أن تقدَّم له من المآثر والآثار فى الدّولة وما فُتِحَ على يديْه ما هو معلومٌ مشهور ؛ وكان يرتقى بذلك درجة بعد درجة إلى أن انتهى إلى ما انتهى إليه ؛ والبابلىُّ فَمِنْ أوّل يوم استخدمناه استدعى المنزلة التى لم يصر ذلك إليها إلاّ بعد عدّة سنين ، فأجبته إليها ، وقلت تُرى تساعده الأَقدارُ بأن يكون مثل ما كان ذلك الرجل . ومنها أنه كان إذا حضر بين يدى يكثر التشريب على اليازورى ويذكره بالقبيح ظنًّا منه تطلُّعنا إلى عَوْدِهِ إلى الأمر ، وليثبت فى نفوسنا سوء الرأى فيه . ولم نعلم أن غرضه قتله إلى أن كان اليوم الذى سمت عليه الأتراك ووطئوا دُرّاعته ، فإنه لما دخل إلىَّ قال : ياأمير المؤمنين ، إنه لايَنْفُذ لك أمر ولا يتم لى نظر [٩٣ ب] وهذا الكُلَيب فى قيد الحياة . فقلت : ومن هو ذلك الكليب ؟ فقال : على ابن عبد الرحمن اليازورى . فقلت : أيها الوزير ، اعلم أنّى لم أصرف الوزير عن خدمتنا ولنا فى إعادته رغبة ، فطِبْ نفساً ودَع ذكره ، فأنت آمِنٌ مما تخافه من جهته . فقال : والله إن هذا لعجب من حسن مقامك يا أمير المؤمنين عنه مع قبيح فِعْلِه ، وما همّ به من قتلك ، حتى إن السقية أقامت تدور فى قصرك أسبوعا كاملا . فقلت : أيها الوزير ، أقامت السقية تدور علىَّ فى قصرى أسبوعا كاملا ؟ فقال : نعم . فأطرقت متعجبا ، وبقيت ،

(١) بكسر التاء ، ويعرفها ياقوت بأنها جزيرة قريبة من البر بين الفرما ودمياط ، اشتهرت بالثياب الملونة والفرش . وكانت مجموعة من الخصاص عند فتح العرب لها ثم تزايدت أهميتها بالتدريج ، فبنيت بها القصور زمن الأمويين ، وأنشأ العباسيون سوقها ، وبنى بها ابن طولون عدة صهاريج عرفت باسم صهاريج الأمير . معجم البلدان : ٢ : ٤١٩ – ٤٢٣ .

متفكّراً فى ذلك ، أصْرف الظنّ بين تصديقه وتكذيبه ، ثم أنزل ، لو لم يطّلع على ذلك لم يذكره . فأمسكت ، فظنّ بإمساكى أننى راضٍ بما يفعله معه ؛ وخرج فاستدعى طاهراً كاتب السرّ وسيرّه لقتله . ونمى الخبر إلى مولاتنا الوالدة ، فأنكرت ذلك ودخلت إلىّ ، فقالت : أنت يا مولانا أمرت البابلى بقتل اليازورى ! فقلت : لا . فقالت : قد سيّر طاهر ابن غلام لقتله . فاستدعيتُ سعيد السُّعداء وأنفذته إليه ، وقلت له : قل له لَمْ يأْمُرْك بقتله ، فأنفِذْ من يُعِيدُ طاهراً ويمنعه من النفوذ . فألفاهُ صاحبُ الرسالة فى الحمام ، فاعتذر إليه ، فقال : لابدّ من الدخول ؛ ودخل وأدّى الرسالة إليه ؛ فقال : أَخْرُجُ وأُسيِّر من يُعيده . وطوّل فى الحمام ثم خرج ، فإلى أن كتب الكتاب وسير به النَّجّاب سبقه ذلك إلى تنّيس ، فلم يصل حتّى نفذ الحكم فيه .

ولما وصل طاهر إلى تنّيس أوصل كتاب البابلى إلى جمال الدولة صُبحْ يذكر فيه : إنا قد سيَّرْنا طاهراً فيما أنت تقف عليه من جهته ، فتثبّت منه ، وتحضر معه لإنجازه وتحذر من تأخيره من اليوم إلى الغد . فقال : وما الذى وصلت فيه ؟ فأخرج تذكرة بخط البابلى فيها : إذا وصلت يا طاهر – أعزّك الله – إلى تنّيس وقد سغبت ولهثت من العطش ، فلا تبلّ ريقك بقطرة دون أن يحضر على بن حسن بن عبد الرحمن اليَازُورِى إلى دار الخدمة ، وتمضى حكم السيف فيه ؛ فقد كتبنا إلى الأمير جمال الدولة بمعونتك على ما يَستدعيه ذلك ؛ فتَقَدِّمْه ولاتؤخره إن شاء أحدُ . فقال له : أنت خليفةُ صاحب الستر ومرسل من جهة السلطان ، والأمر الذى وصلتَ فيه مُمتثَل ، فأَمْضِ الحكم فيه . وأنفَذَ من يحضر اليازورى من معتقله ، والصقالبة والسعدية خدام الستر وقوف ، والسياف قائم. فقال له طاهر : ياحسن ، يقول لك مولانا أين أموالى ؟ فلم يجبه ولم يرفع طرفه إليه . فقال له : إياك أخاطب(١)ياحسن بن على بن عبد الرحمن ، يقول لك أمير المؤمنين أين

(١) فى الأصل : لك أخاطب .

أموالى ؟ فلم تجبه . فرفع طرفه ونظر إليه وإلى الجماعة وفيهم حيدرة السياف ، وقال لطاهر : يا كلب تجئ وهذا معك ، وأشار بيده إلى السياف ، وتسألنى بعد ذلك ؛ ولكن قل له يامولانا قبض علىّ وأنا آمنٌ على نفسى ، فإن يكن عندى مالٌ ، فقد وجدتَه فى دارى ، وكنت داعيك وثقتَك المؤيد فى الدين . فى القمطرة الفلانية ما يشهد بذكر مالك أين هو . فأشار طاهر إلى أولئك ، فأخذوه ، وضربت عنقه فى ليلة الثانى والعشرين من صفر ؛ وحُمِلت رأسهُ مع طاهر إلى القاهرة ، وطرحت جثته على مزبلة ثلاثة أيام . ثم ورد الأمر بتكفينه ، فكُفِّن بعد أن غسل ، وحنِّط بحنوط كثير ، وحمل ليلا ودفن وقد وضع رأسه مع جثته .

وكان له من المآثر المرضية ، والخلال الحميدة ، والأفعال الجميلة ، والخلائق الرضيّة ما يتجمل الملوك بذكره . منها أنه كانت له مائدة يحضرها كل قاض فقيه وأديب جليل القدر ، فإذا قدمت فكأنها الرّيَاض من حسنها وسعة نفسه . وكان الملازمون لمائدته نحو العشرين نسمة ، فيكون عليها كأحدهم . وقال عميد الدولة : أقمت معه خمس عشرة سنة قبل وزارته ملازمًا له فى المبيت والصباح ، فكنت أراعيه فى حالاته كلها ليلاً ونهارا ، فلا أرى يتغير علىّ منها شئ ولايتبين لى منه غضبٌ من رضا ؛ فأقبلت أدقِّق التأمل له فى حالتَىْ غضبه ورضاه شهورا حتى تبيّن لى ، فكان إذا رضى تورّدت وجنتاه بحمرة ، وإذا غضب اصفرت محاجر عينيه ، فعرّفت أبى بذلك ؛ فقال : يابنى هذا غايةٌ فى سكون النفس وصحة الطباع واعتدال المزاج .

وكانت طبائعه الأربعة على السواء ، فإذا [١٩٤ ا] أخلَّ عمل طبيعة منها عهده أخذ بإصلاحها حتى يعود إلى ما يعهده من استقامتها . وكان لا يعطل شرب الدواء يوما واحدا فيشرب السكنجبين والورد أسبوعا ثم يريح نفسه ثلاثة أيام ؛ ثم يشرب النقوع المغلى فى

الشتاء والمنجم منه فى الصيف أُسبوعا لكل منهما ؛ ويشرب ماء البذور أُسبوعا ؛ ويشرب ماء الجبن ثمانية أيام ؛ ويشرب ماء البقل أُسبوعا ثم يشرب الراوند المنقوع كذلك ؛ ويريح نفسه بين كل دوائين ثلاثة أيام ، لايُخِلّ بذلك فى صيف ولا فى شتاء .

وكان ندىَّ الوجه كثير الحياء لا يكاد يرفع طرفا إلا لضرورة ؛ ولم يُسمع منه قطُّ فى سؤال لفظة « لا » . بل كان إذا سُئل فما يرى إجابة سؤاله إليه يَقُول نعم ، بانخفاضٍ من طرفه وخُفُوت من صوته ، فإذا سُئل فما يَرى الإجابَة إليه يَطْرِف ولا يرفع طرفه ؛ وعرف هذا منه فلا يراجع فيه إلاَّ بعد مدة . وكان كلّ من يحضر مائدته يستدعى منه الحضور بين يديه لئلا يستمروا عنده ؛ وكان فيهم مَنْ يشرب المسكر ، فإذا حضروا عرفوا مجالسهم وما قرّره لهم ، فكان مَنْ لا يشرب النبيذ يجلس عن يمينه ، ومن يستعمله يجلس عن يساره ؛ وبين يدى كل منهم الفواكه الرطبة واليابسة والحلاوة ، وستارة الغناء مضروبة ؛ فيجلسون وهو مشغول يوقّع ، وهم يتحدثون هَمْسًا وإشارةً وإيماء ، إلى أن يرتضىَ أَرَبُه من التواقيع فيستند وينشّطهم بالحديث ويقول : قد تجدّد اليوم كذا وكذا ، فما عندكم فيه . فيقول كلُّ أحدٍ ما يراه وهو يسمع لهم ، حتى يستكمل الجماعةُ الذين عن يمينه ثم يعطف على شماله فيقول : مِنْ هناك قولوا ، فيقولون وهو يسمع ولايردُّ على أحدٍ شيئا فلا يصوّب المصوّب ولا يخطّئ المخطئ ، ويبيت يضرب الآراء بعضها ببعض حتى يمحض له الصواب ، ويصبح يرى فلا يخطئ . فكانت أفعاله هكذا طول مدّته ، لايستبدُّ قطّ برأيهولا يأنف من المشورة ، بل يقول : المستبِدُّ بِرَأْيه واقفٌ على مداحض الزلل ، وفى الاستشارة كلُّ عقولِ الرّجال . وبهذا تمّ له ما كان يدبره حتى ترك فيما رامه من الطرز الآثار الباقى ذكرها .

وجاء ارتفاعُ الدولة فى أيامه ألفى ألف دينار ، ينفق منها ويسكن ، وينصرف للرجال وللقصور وللعمائر وغيرها ، ويبقى بعد ذلك مائتا ألف دينار حاصلة ، يحملها كل سنة

إلى بيت المال . فحظى بذلك عند سلطانه ، وتمكّن منه ، وارتفع قدره حتى سأل أن يكتب على سكة نقش عليها : ضربت فى دولة آل الهدى من آل طه وياسين ، مستنصر بالله جلّ اسمه ، وعبده الناصر للدين سنة كذا ، وطبعت عليها الدنانير مدة شهر ثم أمر المستنصر بمنعها ، ونهَى أن تُسَطَّر فى السِّيَر .

وكانت أيام نظره حوامل لتوالى الفتوحات وعمارة الأعمال . وكان شريف الأخلاق ، عالىَ الهمة كريم الطباع ، وَطِىء الأكناف ، مستحكم الحلم ، واسع الصّدر ، ندىّ الوجه ، يستَقِلّ الكثِير ، ويستصْغِر كل كبير . وكان إذا أعطى أهنأ ، وإذا أنعم على إنسان أسْبَغ ، وإذا اصْطَنع أحداً رفعه إلى ما تقْصُر الآمال والأمانى عنه ؛ مع عظيم الصّدقة ، وجزيل البرّ الذى عمّ به أهل البيوتات مما جعله لهم من المشاهرات على مقاديرهم . وكذلك الأشراف والفقراء وأهل الستر بالقرافة ، فكان يُجْرِى عليهم البرّ والكِسَاء على يد بعض اليهود ، ويعرف بابن عُصْفورة ، وكيل السيدة أم المستنصر ، فكانوا يظنون أنه من إنعامها ؛ فلما زالت أيامه انقطع عنهم ما كان يصل إليهم من البرّ ، فخاطبوا ابن عُصْفُورة وقالوا : قد جُفِينا من مولانا ومولاتنا ، فلو أدركتهما بنا فقال لهم : ماترون ما كان يجيئكم حتى يتولىّ الله ناصر الدين أخى(١). فقالوا : نحن الْتَمسْنا من مولانا المستنصر ومولاتنا السّيدة الوالدة ولم نَلْتَمس من ناصر الدّين . فقال : ما كان يجيئكُم ذاك إلاّ من الوزير . فعجبُوا من ذاك وأكثروا من الترحُّم عليه .

ومما يذكر عنه أنه كُتِب : العالى بالله إدريس بن المعتلى بالله يحى بن الناصر لدين الله على بن حَمُّود(٢) من خالقه إلى مصر مكاتبة [٩٤ ب] يقول فيها : « من أمير

---

(١) فى الأصل : حتى يتولى الله ناصر دين أخى ، وعدلنا إلى المثبت ليتضح النص ، وساعد على هذا أن « ناصر الدين » لقب للوزير .

(٢) وهو إدريس الثانى بن يحيى بن على بن حمود ، ثالث أمراء بنى حمود ، وقد اتخذت هذه الأسرة لقب أمير المؤمنين ، وهم من ملوك الطوائف بالأندلس ومقر حكمهم ملقة . Mohammadan Dynasties.

المؤمنين العالى بالله إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله » . فعيب عليه بمصر قلة تصوّره ومعرفته بأنه لا يجوز أن يكون أمير المؤمنين فى زمان واحد اثنان . ثم ألجأت الضرورة إلى مكاتبته بنحو مما كتب ، وكان اليازورى إذ ذاك وزيرا ، فقال أنا أخلّص هذه القضية وأعلّقها بمعنى دقيق لا يَبِينُ للمكاتَبِ ، وكان صاحبَ حيل ؛ يُكتب إليه : « من أمير المؤمنين المستنصر بالله معدّ إلى العالى بالله أمير المؤمنين خالقه » ؛ وهذا من طريف التخلصات التى تميز بها .

وحكى عظيمُ الدّولة متولىّ السِّر ، قال : كنتُ فى جملة الموكلين على النّاصر(١) ثم عَلى البابلىّ بعده ، فكنتُ أرى من رئاسة الوزير الأول – يعنى اليازُورِى – على شبيبته ورجاحته وسُكُون حاشِيته ، ومن طَيْش البابلىّ وخفّته ونقصه ما أعجبُ منه ؛ وهو أنّى لما كنت موكلا باليازُورِى كنت أراه ملازماً لعتبة باب المجلس فى القاعة لا يتغيّر مكانُه منها . وكان البابلىُّ يراسله بما يُمضى ويوُصينا إذا مضينا إليه بالإزْعاج عند فتح الباب وإكثار قَلْقَلَتِه لنُزعجه ونروعه بذلك ؛ فوالله ما كان يكترثُ ولا ينزعج . وإذا دخل متولىّ السّتر يكون جلوسه منه فى الاعتقال كجلوسه منه فى حال نَظَره ، ويخاطب بما يرضى فيجيب بسكون وهدوء وكأنه فى الدّست جالس . فدخل إليه فى أكثر من ثلاثين صقلبيا وبلّغه ما أوصاه البابلىّ ، فأجابه ، ثم نَهض وقال : ياسيّدى صرفتنى من السّتر بغير ذنبٍ ثم أعدتنى إليه بغير مسألة ، فما كان سببُ ذلك ؟ فرفع طرْفَه إليه كأنّه يخاطبه من دَسْت الوزارة وقال له : كان صرفك فى الأوّل برأيى واختيارى ثم أعدتُك لما عرفت مِنْ مَيْل مولانا إلى استخدامك . فخرج متولىٍّ الستر وهو يعجب من سكون حالِهِ وقلّة احتفاله فى الجواب ، مع حاجته إليه فى مثل ذلك الوقت الذى يَقدر فيه على الإحسان إليه وعلى الإساءة ؛ وكان يظنّ أنه يعتذر إليه ، فلم يكن منه غيرُ ما تقدم ذكره .

---

(١) المقصود به الوزير ناصر الدين اليازورى .

وكان أكثر وقته صائما وهو يتلو القرآن ولا يسأل عن طعام ولا شراب . وكان فى حال وزارته كثير الصمت مُوَاصِل الإطراق ، ساكنَ النفس هادئ الطّباع ، فكان يُظَنّ أن ذلك من تيهٍ وصلف وإعجاب وقلة احتفال بالناس ؛ فلما صار فى الاعتقال بعد القبض عليه كان حالُه على ما كان مما ذُكر . ومن عجيب ما وقع أن خَطير المُلْك محمد بن الوزير اليازُورِى كان ينوبُ عن أبيه فى قضاء القضاة ، فلما سار إلى الشّام بالعساكر الكثيرة معه كان فى حالٍ من البَذَخ والتجمُّل فى حال لا يمكن شرحُها ؛ فلما نُكب أبوه آلَ حالُه إلى أن يُرى فى مسجدٍ بمدينة فوّة[1] يَخيطُ للناس بالأجرة ، وقد نزل به من الفقر والبلاء شدائدُ وهو يبالغ فى مطالبة[2] شخص بأُجْرَةٍ ما خاطه له ، والرّجل يماطلُه . فلمّا ألح فى المطالبة قال له : ياسيِّدنا اجعَلْ هذا القدر اليسير من جُملة ما ذهب منْك فى السّفرة الشامية . فقال : دع ذكْرَ مَا مضَى . فسأله رجلٌ عن ذلك فلم يُجِبه ، فسأل عبده ، فقال الذى ذهب منه فى تلك السّفرة على نفقات سماطه مقدارُ ستة عشر ألفَ دينار . فسبحان من لايزول ملكه .

وفيها وَلى الوزارة بعد اليازُورِى أبو الفرج عبدالله بن محمّد البابلىّ ، وكان أوّلا من جُملة أصحاب الدّواوين فقبض عليه الوزير أبو البركات ابنُ الجرْجَرَائىّ ، وصادره على عشرة آلاف دينار أخذ خطَّه بها ؛ فباع موْجُودَه بستة آلاف دينار وبقى عليه أربعةُ آلاف دينار ، فانطرح على اليازُورِى وسأله الشّفاعة له ، وكان يومئذ ينظر لأمِّ الخليفة ؛ فسأل الخليفة له فى ذلك ، فوقّع بمسامحته منها بألْفى دينار ، فلمّا صُرف الوزيرُ أبو البركات وتولّى اليازُورى الوزارة وقّع بمسامحة البابلىّ بالألفين الباقية ، واستخْدَمه فى التوقيع ، وردّ إليه ديوان تنّيس ودمياط ، وديوان الخاصّ وغيره من الدّواوين ، حتّى كان فى يده ستة

---

(١) مدينة تقع قرب رشيد بينها وبين البحر ستة فراسخ . معجم البلدان : ٦ : ٤٠٦ .

(٢) فى الأصل : يطالب فى مطالبة . . .

دواوين . وكان رُسِم لأصحاب الدَّوَاوين أن يحضرُوا كلَّ يوم بين يدى الوزير ، فرَفع منزلة البابلىعن ذلك وميَّزه عن أصحاب الدواوين ، فكان لا يحضرُ عنده إلاَّ فى كل ثلاثاء من الجُمُعة ؛ فإذا حضر حُجب كل أحدٍ من الرؤساء ، فلا يدخل إلى الوزير أحدٌ مادام عنده . فمهما [١٩٥] قرّره مع الوزير لا يَنْتقِض . وإذا عرض له فى باقى الجمعة أمرٌ كتب رُقعةً إلى الوزير فيجيبُه فى تضاعيف سُطوره ، فِعْل الأكفاء بالأكفاء . وبلغ جارِيه على ما بيده من الدّواوين والتوقيع فى كل سنة عشرة آلاف دينار . وكتب مرّة إلى الوزير اليازُورى رقعة يذكر فيها أنه ليس له دار يسكنها ، وأن بجوار داره حمّاماً سُلطانيا من جُملة المقبوض عن تركة أمير الأُمراء رفق ، بذل فيها خمسمائة دينار ؛ وسأل التوقيع بمبايعته منه على أن يُقْتطَع ثمنُه من جارِيهِ ، مائة دينار فى الشهر ؛ فوقَّع له بذلك ، ثم تقدّم إلى متولىّ بيت المال بأن يكتب له منه رصدا بخمسمائة دينار ، ووهبها له . فكتب رقعة ثانية أنَّه لما شرع فى بناء الدار احتاج إلى ما يكمل به عمارتها ، وأنَّ فى المقبوض من أمير الأمراء أيضاً من الأخشاب والرُّخام ما يسأل الإنعامَ عليه منه بما يَعْمُرها به ؛ فوقَّع بتسليم جميع ذلك إليه . فعمر الدار ، وخدمه فيها جميعُ مَنْ فى الدولة ؛ فجاءت تضاهى القصور .

واتفق أنه مرض فى بعض السنين مَرْضَةً أشفى فيها على التَّلف ، فكتب إلى الوزير اليازورى رقعةً يذكر فيها ما انتهت حالُه إليه ، وأنَّه على آخر رمق ؛ وأنَّ عليه من الدَّين ثلاثة آلاف دينار ، ويخاف إن حدث به حادثُ الموت أن يُعنِتَ الغُرَماءُ ولديه ؛ ويسألُ تمام الاصطناع بالمنع منهما ، وأن يقرِّر حالُهما فى القيام للغُرفاء بما تصل قدرتُهما إليه ويُنَجّم الباقى عليهما . فلما وقف الوزيرُ عليها استرجع وتغمَّم له ، وقال : ما ظننَّا إلاَّ أنا قد أغنينا أبا الفرج ، وأنَّ حاله لم تصل إلى هذا الحدّ ! ثم رفع رأسه إلى أبى العلاء عبد الغنى بن الضَّيْف ، وكان يحملُ دواة الوزير ، ولقَّبه بالصادق المأمون ، وقال :

أَسرِعْ إلى أبي العبّاس الشاشي ، وكان يتولىّ ديوانه ؛ فلما حضر قال : ما فى حاصلك من إقطاعنا ؟ فقال : ثلاثة آلاف دينار وكسر ، فأَحضَرها ، وقال لأبي العلاء : خذ هذه الثلاثة آلاف دينار وَامْضِ بها إلى البابليْ وخُصَّهُ بسلامنا ، وقل له : قد سَوَّأْتَنَا بما ذكرْتَه من مرضك وما انتهت إليه حالُك ، والله تعالى يَهَبُ عافيتك ولا يغمّنا بك . فأمّا ما سألت من مُراعَاتك فى ولَدَيْك والمنعِ مِنْهما ، فلو لم تسأل فى ذلك حفظناك فيهما وراعينا هما لك . وأمّا ماذكرته من دَيْنك فقد أنفذنا إليك ما تقضيه به . فلما أخذ المال وخرج من القبّة قال ارجع ياعبد الغنى ، فعاد إليه فأخذ دَرْجاً[1] ووقّع إلى ديوان الخاص بثلاثة آلاف دينار ، وكان له فيه إقطاع ، وقال امض إلى الجهبذ[2] بهذا التوقيع فإن كان فى حاصله هذا القدر ، وإلاّ قُل له يقترضُ من بيت المال إلى أن يَسْتَخرج شيئا فيحمله إليه به عِوَضًا عنها ؛ واحمل الجميع إلى البابلىّ. فلم يحتمل أبو العلاء الصّبر عن الكلام وقال : ياسيدنا ، ما يُقْنِعُك تحمل إليه ثلاثة آلاف دينار حتى تضيف إليها مثلها فتصير ستة ! فقال : ياوحش إذا قضى دينه بهذه الثلاثة الآلاف ما يحتاج أن يستدين بعدها ، فينفق من هذه الأخرى ولايستدين . فقال له : والله ياسيدنا إنك لأكرمُ نفساً من البرامكة ، لأنَّ أولئك كانوا يجودُون من سعة وأنت تجود من ضيق ، ولانسبة بين ما تنظر فيه وما كانوا ينظرُونَ فيه . وخرج فأوصلها إليه . فلما قُبض على اليازُورِى كان أعْدَى العالم له ، وكَفَر نعمته وإحسانه ، وتجرّد له حتى قتله .

وحكى فخر الدولة قال : استدعانى مولانا المستنْصر وقال لى يا فخر الدولة ، هل

---

(١) والجمع دروج ، الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، يكتب فيه ويلف . وكانت الأوصال فى بعض المراحل عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير . السلوك : ١ : ٤٧٠ نقلا عن محيط المحيط ؛ صبح الأعشى : ١ : ١٣٨ .

(٢) الجهبذ كاتب يختص بقبض المال وكتب الوصولات به وعمل الرزنامجات والختمات ، ويطالب بما يقبضه ويخرج ما يرفعه من الحساب اللازم له : قوانين الدواوين : ٣٠٤ .

يكون فى اختيارالإنسان إلى مَنْ تطمح إليه الأبصار أو تتطلع إليه النفوس أوْفَى من شخص البابلى ، مع شَيْبَتِهِ وظاهرِ سمته وهيبته ؟ فقلت : لا ياأمير المؤمنين . فقال : والله لقد ظننت أنَّ الدولة تتضاعف قدرتُها بنظره ، وينضاف إليها مثلها بحسن تدبيره وأنَّ من وراء هذا الشخص ما وفى عليه ؛ فاذا ثيابه لاتَسَع رقاعته وغُمّته ، والحيّة قد نشفت قرعته. وذلك أن اليازُورِىَّ أقام فى خدمتنا عشر سنين عددْنَا عليه ثمانية عشر ذنبا ، وأقام البابلىُّ اثنين وسبعين يوما نَقِمْنا عليه تسعة عشر ذنبا ، مع ظاهر كذبه وقلَّة [٩٥ ب] احتشامه عندى ؛ وذلك أنه ذكر لى مِنْ حال السقية ما كثُر تعجُّبى منه وأنا بين تصديق الحكاية وتكذيبها ، واحتشمتُ أن أردّ عليه فيتحقق تكذيبى له . وكان من إقْدامه على قتل اليَازُورِى ما كان ، وسَاء لَنَا ذلك إذْ لم نكن نريد قتله . فلما كان بعد ذلك بأيام يسيرة أمرتُه بشئ فعارضنى وضرب الأمثال بما يصدُّنى عن ذلك الأمر ؛ فقلت له أيّها الوزير ، اعلم أنَّ اليازورىلم تَطُلْ مدّتهُ معنا وتَثْبُتْ قدمَهإلا أنَّا كنا إذا أمرناهُ بشئ انتهى إليه ولم يتجاوزه . فقال لى مجيبا : يامولانا وكأن اليازُورِىَّ كان ينقُط نقطةً إلاَّ ما أمثّله له وأُوقِفُه عليه ! يريد أنه كان يدبّر اليازُورِى ويعلمه ويفهمه ؛ فلم يتأمل ماعليه فيه ، ولا ذَكر ما كان قاله من حال السقية ؛ وأذكرنى قوله هذا حال السقية ، فقلت له وقد اغتضت منه : يُخرِس الله الوزير ، فإذًا كانت السقية برأيه ! فلما سمع ذلك منى دُهِش وقال : أعوذ بالله يامولانا ولكننى كنت أبصِّره صواب الرأى ؛ وأشير عليه بما فيه حميدُ العاقبة . فعند ذلك تحققت من كذبه على الرجل ما كنت شاكاً فيه . ووجْهُ كذبِه فيما حكاه من ذلك أنَّ الرئيس الجليل القدر إذا أراد أن يهمَّ بمثل هذا الأمر فى سائسه أو مَنْ يجرى مجراه لم يكد يُعْلِمُ ولدَه بما يريده منه ، فكيف إذا عزم على فعل ذلك مع مثلى ، هل يسوغ أن يُطْلِع أحداً عليه ؟ ومع هذا فما الّذى يدعوه أن يخرج بذلك إلى غيره ، وربّما نمَّ عليه وتقرّب إلىَّ بإطلاعى عليه ؛ وإلاَّ تولى بنفسه مع إكْثارى كان من زيارته وسُكُونى إليه ، وأنى لم أتّهمه بذلك قطُّ فآخذ حذرى منه ، وكان بهذا الحكم يتمكّن من بُلُوغ غرضه منّى بحيث

لا يعلم به أحد . فتحقق لى كذبه فيما حكاه ؛ وهذا أقوى الأسباب فى صرفه ، لأنّ من ليس له عقل يميّز به ما يخرج من فمه ، لاسيما فى مثل هذا الأمر الخطر الكبير ، لم يَجُزْ أن يُوثَق به فى تدبير مزبلة ، والخوف من جنايته على الدّولة برقاعته ونقْص عقله أكثرُ من الطّمع فى الانتفاع بنظره .

وكان صرفُ البابلى من الوزارة فى شهر ربيع الأوّل وله فى الوزارة اثنان وسبعون يوما ؛ فلما صُرِف قبض عليه واعتُقل . وكان النّهار لا يكاد يرتفع ويتأخر ما يُحْمَل إليه من الطّعام إلاّ ويستغيثُ ويقول : ما يتمّ حبسٌ وجوع . وكان يَبْدُو منه فى محبِسه من القول ما يعرب به عن مستحكِم الرّقاعة والجهل ، فكان الموكلون به يتعجبون من فَرْق ما بينه وبين اليازُورِىّ ، فإنّ ذاك كان ساكن الطباع كثير الصّمْت شريفَ النفس مع حداثة سنّه ، وهذا شيخ يظهر منه من الخفّة والطّيْش والجهل مع الشيخوخة ما يُضْحَك منه .

فيها تولّى الوزارة بعد البابلى أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين بن المغربى[1] .وفيها تولّى قضاء القضاة عِوَضاً عن اليازورى أبو على أحمد بن عبد الحكم بن سعيد ، إلى ذى القعدة ، وصُرِف بأبى القاسم عبد الحاكم بن وهب بن عبد الرحمن المليجى . وتولى المؤيد فى الدين أبو نصر هبة الله بن موسى داعى الدعاة .

---

(١) وكان قد هرب من العراق أثناء فتنة البساسيرى ، فذم للمستنصر بالله الفاطمى فعل البساسيرى وخوفه من سوء عاقبته . وأبو الفرج هذا أخو أبى القاسم الحسين بن على المغربى الذى كان قد ولى الوزارة فى مصر ثم هرب إلى العراق . وقد تولى أبو القاسم هذا وزارة ميافارقين للأمير أحمد بن مروان الكردى ، نصر الدولة ، صاحب ديار بكر وميافارقين . النجوم الزاهرة : ٥ : ١١ ، ٦٩ .

فيها قصد الأمير أبو الحارث أرسلان البَسَاسِيرى الموصل ومعه قُريش بن بَدْران بن المقلَّد بن المسيَّب العُقَيْلى أمير الغوب فملكها[(١)]. وخرج إليه السلطان ركن الدين أبو طالب طغرلبك بن ميكائيل بن سلْجُوق ، ففارقها ؛ واتجه طُغْرلْبك إلى نصيبين فخالف عليه أخوه لأُمه إبراهيم بن ينال وسار إلى همذان ، فرجع فى إثره ؛ وتلاحقت الأتراك ، فاستدعى الخليفة القائمُ دَبِيس بن مَزْيَد ، فوصل إليه وقد أُرجف بمسير البَسَاسِيرِى إلى بغداد فعظُم الخوف منه ، فرجع دبيس إلى بلاده[(٢)]. فلما كان يومُ الأحد الثامن من ذى القعدة من هذه السنة وصل البساسِيرى إلى بغداد ومعه قريش بن بدران ، وخطب فى جامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمى وقطع الخطبة لبنى العباس ، وعقد الجسر وعبر عسكره . فلما كانت الجمعة الثانية خطب بجامع الرُّصافة للمستنصر . وكانت بينه وبين أهل بغداد حُروبٌ آلت إلى هزيمة رئيس الرُّؤساء وزير القائم والعسكر ، وقَتْل جماعة من الأعيان . ووقع النَّهْبُ فى البلد ، ودخل أصحاب البَسَاسِيرى إلى البلد ، ووصلوا إلى باب النُّوبىِّ الشريف[(٣)] ؛ فركب القائم بسواده وعلى كتفه البردة، وبيده السّيف [٩٦ ا] وعلى رأسه اللواء ، وحوله جماعةُ بنى العبّاس والخدمُ بالسيوف المسلَّلة ، فرأى الأمر شديداً ، فعاد وأبعد المنظرة ،

---

(١) وكان بها إبراهيم ينال ، أخو طغرلبك السلجوقى ، ثم خرج عنها قاصدا بلاد الجبل ، فأدرك طغرلبك بهذا أن إبراهيم قد عصاه . الكامل : ٩ : ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) كان دبيس قد قدم بغداد إستجابة لأمر الخليفة ومعه من العرب — رجاله — مائة ، فأرجف بوصول البساسيرى فعرض دبيس على الخليفة أن يخرج معه عن بغداد إلى واسط ليستعين بصاحبها ، حليفه ، على قتال البساسيرى ، فلم يتقرر أمر ؛ فخرج دبيس ، بحجة أن العرب لا يريدون المخاطرة بالبقاء فى بغداد ، على أن ينتظر الخليفة على نهر ديالى ، وانتظر هناك ثلاثة أيام فلم ير أثراً للخليفة أو رجاله ، فعاد إلى بلاده . الكامل : ٩ : ٢٢٣ . — وبهامش الأصل هنا حاشية تقول : «بخطه : هو دبيس بن على بن مزيد بن مرثد بن الرنان بن عدى بن خالد بن مالك بن عدى بن مناد بن مالك بن عوف بن معاوية ، الأمير نور الدولة أبو الأغر الأسدى ، مات ليلة ثمانى شوال سنة أربع وسبعين وأربعمائة عن ثمانين سنة ، وكان أميراً نيفا وستين سنة ، وقام بعده أبنه بهاء الدولة أبو كامل منصور » .

(٣) مر وصفه بهذا الوصف أن الملوك وقصاد بغداد كانوا يقبلون الأرض قرب ذلك الموضع ، قبل دخول بغداد ، إجلالا للخلافة . السلوك : ١ : ١٠٢ .

ونادى رئيسُ الرؤساء : ياعلم الدّين قريْش ، أمير المؤمنين يستدنيك . فدنا منه ، فقال رئيس الرؤساء له : قد آتاك الله منزلة لم ينلها أمثالك ؛ وطلب منه الأمان للخليفة القائم، فأمّنه . ونزل إليه الخليفة والوزير رئيس الرؤساء ، وصارا معه . فبعث إليه البَسَاسِيرى : تُخالِفُ ما استقرّ بيننا ! فقال قريش : لا . وكانا قد تعاهَدَا على المشاركة فى جميع ما يحصُل لهما ؛ فاستقَرّ الأمر على أن البساسيرى يتسلّم الوزير رئيسَ الرؤساء وأن قريش ابن بدران يتسلّمُ الخليفة القائم فيكون عنده . فبعث حينئذ قريش بالوزير إلى البساسيرى ؛ فلما مثل بين يديه قال له : العفو عند القدرة . فقال البَساسِيرى : أنت صاحب الطيلسان ماعفوت عن دارى وحرمى وأطفالى ، فكيف أعفو وأنا صاحب سيف[1] .

ثم إن قريش بن بدران سار فى خدمة الخليفة ، وهو راكب بالصّفة التى تقدّم ذكرُها إلى معسكره ، فأنزله فى خيمة وهيّأ له ما يقومُ به ، ووقع النّهْب فى دار الخلافة مدّة أيّام ، وأُخذ منها مالا يُحْصَى كثرة ، وبُعث منها إلى مصر منديل القائم الذى عمّمه بيده ، قد جُعِل فى قالب رخام لكيْلا ينحلّ ، مع ردائه ، والشباك الذى كان يتوكأُ عليه ؛ فعُمِل فى دار الوزارة بالقاهرة . وأما العمامة والرّداء فبعثهما السّلطان صلاحُ الدّين يوسف ، لمّا استولى على القصر ، إلى الخليفة المستضئ ببغداد مع الكتاب الّذى كتبه على نفسه القائم وأشهد على نفسه العُدُول فيه أنّه لا حق لبنى العباس فى الخلافة مع وجود فاطمة الزهراء . وحمل أيضا إلى القاهرة الذخائر والكتب والقضيب والبُرْدة . وسلّم قريشُ الخليفة إلى ابن عمه مُهَارِش بن المجلى[2]، وكان رجلا متديّنا ، فحمله فى هودج إلى مدينة عَانَةَ وأنزله بها ؛ وفرّ أصحابُ الخليفة القائم إلى طُغرلبك فصاروا فى جملته

---

(١) يذكر ابن الأثير هذه الواقعة بنفس هذه الألفاظ تقريبا ، ويزيد أن البساسيرى استقبل الوزير بقوله : مرحبا بمهلك الدول ومخرب البلاد . الكامل : ٩ : ٢٢٤ . وزاد ابن تغرى بردى : مرحبا بمدمر الدولة ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد . النجوم الزاهرة : ٥ : ٩ .

(٢) بهامش الأصل تعريف به يقول : « بخطه : مهارش بن المجلى بن عليت بن مختار بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المرضى ، أبو الحارث ، أمير العرب بالحديثة وعانة وماء الانبار ؛ أقام عنده الخليفة القائم بأمر الله إلى أن عاد إلى مستقره . وتوفى فى صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة عن ثمانين سنة . وكان كثير الصدقة » . اهـ . ويقول صاحب النجوم=

فلما كان يوم عيد النَّحر ركب البَساسِيرى إلى المصلَّى وعلى رأسه ألْوِيَةُ المستنصر ، وقد استمال الناس بكثرة الإحسان وإجراء الأرزاق ، وكَسَر منبر المسجد الجامع ببغداد وقال : هذا منبر نَحْس أُعْلن عليه بُغْض آل محمد عليهم السلام ؛ وأنشأ منبرا آخر وخطب عليه باسم المستنصر . ثم أخرج الوزير رئيس الرؤساء أبا القاسم على بن الْمُسْلِمة وهو مقيَّد وعليه جبة صوف وطرطور أحمر من لبد وفى عنقه مِخْنَقَة ، فشهَّره ثم أعاده إلى المعسكر وقد نُصبت له خشبة ، فأُلْبِس جلد ثور طرىٍّ ، وجَعَل فى فكيه كلَّابين من حديد وعلَّقه بهما ؛ فبقِى يضطرب إلى آخر النهار حتى مات ، وعمره نحوٌ مِنْ ثلاث وخمسين سنة[1] ، وكان حَسن التِّلاوة للقرآن جيِّد المعرفة بالأدب .

ولما ورد الخبر بذلك إلى المستنصر سُرَّ سُرورا كثيرا ، وزيِّنت القاهرة ومصر وجاءت نَسَبُ الطَّبَّالةُ ، فغنَّت بالطبل فى القصر بين يدى المستنصر :

يابنى العباس ردّوا ملك الأمر معدّ[2]
مُلْككُم ملكٌ مُعار[3] والعوارى تُستردّ

فقال لها المستنصر : تمنَّى ، فلكِ حكمُكِ ؛ فسألت الأرض المجاورة للمقس ، فأقْطعها إيّاها ، فعُرفت بها وقيل لها إلى اليوم أرض الطبالة[4]. وأمر المستنصر فى أن يحمل إلى مُهارِش

= الزاهرة : « مهارش البدوى بن مجلى الأمير أبو الحارث ، كان كثير الصلاة والصوم والصدقة صالحا محبا لأهل العلم . وعاش نيفا وثمانين سنة » . اه . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩٣ . وعانة بلدة بين الرقة والفرات ، على فراسخ من الأنبار ، وتعد فى أعمال الجزيرة وتشرف على الفرات قريبا من حديثة النورة التى تعرف أيضا بحديثة عانة وحديثة الفرات ، وهى بدورها على فراسخ من الأنبار . معجم البلدان : ٣ : ٢٣٥ – ٢٣٧ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ٩ .

(١) وفى النجوم الزاهرة : وجعل فى رقبته قلائد كالمسخرة وطيف به بالشوارع وخلفه من يصفعه ، ثم سلخ له ثور وألبس جلده وخيط عليه وجعلت قرون الثور فى رأسه . النجوم الزاهرة : ٥ : ٦ – ٧ .

(٢) فى الأصل : قد ملك . . . وهو خطأ عروضى .

(٣) فى النجوم الزاهرة « ملكم كان معاراً » النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢ .

(٤) ويذكر المقريزى أنها كانت من أحسن منتزهات القاهرة . وتحد الآن من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكتها ، ومن الشرق بشارع بورسعيد – شارع الخليج . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢ : حاشية : ٥ . نقلا عن الخطط : ٢ : ١٢٥ ؛ وبزيادة توضيحية .

عشرة آلاف دينار ليُسَيِّر إليه الخليفة القائم على حالٍ جميلة ؛ وعزم على أنه إذا وصل تلقَّاه أحسن لقاء وبالغ فى إكرامه . ويقال إنه بنى القصر الغربى لينزله فيه ، ويحمل إليه مايُؤْنسيه به ما كان فيه من إقامة الرّواتب السنية ، وأن يقرّر له فى كل يوم مائة دينار ؛ وأنه إذا ركب المستنصر فى أوقات رُكوبه قَدَّمه بين يديه يحجبُه . فإذا أقام على ذلك مدة ، وبات وانتشر فى الأقطار خبرُ ذلك خلع عليه وعقد له ألوية الولاية للعراق ، وكتب عهده بتقليده إياه ، وسيّره إليه ، وأعاده إلى مملكته وخلافته من قِبَلِه . فمنعه حادثُ القَدَر قبل إدراك ذلك . وكان من جملة أسباب فوات هذا أن البساسيرى لما بعث الكتب إلى المستنصر يعرّفه بإقامة الخطبة له ببغداد كان الوزير حينئذ أبو الفرج محمد بن المغربى ، وهو ممّن فرّ من البساسيرى وصار إلى القاهرة ، فحذّر المستنصرَ من البَساسِيرى وخوّفه عاقبته ؛ فتُركت أجوبتُه مدّة ، ثم عادت الأجوبة بخلاف ما أمّله [٩٦ ب] البَسَاسِيرى ؛ ثم قدم طُغْرِلْبِك فانتصر عليه .

وفيها بنيت القبة التى بصحن جامع دمشق ، شرقىّ الجامع على باب مشهد على ، وكتب عليها اسم المستنصر .

وفيها ولّى المستنصرُ ناصر الدّولة الحسن بن عبد الله بن حمدان دمشق فى شهر رجب[١]

---

(١) فوصلها فى منتصف رجب ؛ وهو الأمير المظفر ناصر الدولة وسيفها ، ذو المجدين ، أبو محمد الحسن بن الحسين . وهذه هى ولايته الثانية ، وكانت الأولى فى سنة ٤٣٣ . ذيل تاريخ دمشق : ٨٣ ، ٨٦ .

سنة احدى وخمسين وأربعمائة [1] :

فيها سار الأميرُ أبو الحارث البَساسِيرى من بغداد فملك البصرة وواسط ، وأقام بهما الدعوة للمستنصر ، وخَطَب له فى عامّة تلك الأعمال . وبلغ طُغرلبك ما كان مِنْ أخْذِ بغداد وقطْع الخطبة العباسية منها ، فكاتب ألب أرْسَلِان بن داود أخيه ، فقدم عليه فى إخوته بعسكر كبير ، واجتمعوا على محاربة إبراهيم بن ينال ، فكانت الغلبة لطغرلبك ، فأخذه أسيرا وقتله فى تاسع جمادى الآخرة . وتوجّه يريد بغداد ، وبعث إلى البساسيرى وإلى قريش بن بدران يأمرهما بردّ الخليفة القائم إلى بغداد ، وإقامة الخطبة له على عادته ، وردّه إلى تخت خلافته ، ويعدهما أنهما إنْ فعلا ذلك رجع عن العراق ولم يدخل بغداد ، وأنه يَقنع بأن يُخطَب له فيها وتُضْرَب السِّكّة باسمه . فامتنع البَسَاسِيرى من ذلك وأبى إلاّ الإقامة على ماهو عليه . فسار طُغْرلْبك يريد بغداد فأحْدَر البساسيرى أولادَه وحرمه من بغداد إلى واسط ونزِى العَوْد . وعند ما قارب طُغرِلبك بغداد بعث إلى قريش يشكر ما كان من صنيعه مع الخليفة القائم ، وجهز إلى بكر بن فورك لإحضار الخليفة ؛ فوافى حلة بدر بن مهلهل وقد وصل الخليفة وابن مُهَارش فى تلك الساعة ، فركب هو وابن فورك وأركبا الخليفة وخدماه ؛ وأتته هدايا بدر .

وبعث طُغْرِلبك بوزيره عميد الملك أبى نصر منصور الكُنْدَرى[2] والأُمراء والحُجّاب

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من فبراير سنة ١٠٥٩ .

(٢) بهامش الأصل تعليقه نصها : « بخطه : منصور بن محمد بن نصر أبو نصر الكندرى عميد الملك . وقيل محمد بن أبى صالح محمد بن منصور الكندرى الجراجى ، من بنى شيبان . ولد بناحية كندر من قرى نيسابور فى سنة خمس عشرة وأربعمائة ؛ قرأ الأدب وخدم السلطان طغرلبك فنقم عليه وخصاه ثم رق له واستوزره ، وقدم معه بغداد ، فلقبه الخليفة القائم بأمر الله وزير الوزراء . وكان يتكلم بالعربى والفارسى والتركى ؛ وله نظم ونثر جيد ؛ ويعرف الكلام على مذهب المعتزلة . ولما مات طغرلبك وولى بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود أقره على وزارته ثم عزله بنظام الملك بعد شهرين ، وأخرجه من الرى . وأخذ جميع ضياعه وفرشه وغلمانه ، ثم أمر بقتله ، فقتل فى مرو الروذ صبراً بالسيف ، وحمل رأسه إلى كرمان فى صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة » . اهـ .

بالخيام الكثيرة والسرادقات العظيمة ، والخيول العدة بالمراكب الذهب ، إلى الخليفة القائم ، فرحل وهم فى خدمته ، وقد خرج طُغْرِلْبك إلى لقَائه ؛ فعندما شاهده وقع إلى الأَرض يقبّلها ، ثم قام وهنأه بالسلامة ، وأظهر السُّرُور الزائد والابتهاج الكبير ؛ واعتذر عن تأَخُّرِه بما كان من عصيان إبراهيم ينال . فقلده الخليفة بسيف كان قد تأخر عنه ، وسار معه طُغْرِلْبك إلى بغداد وجلس على باب النُّوبىّ الشريف مكان حاجب الباب حتّى وصل الخليفة ، فعندما شاهده مثل قائما وأخذ بلجام بغلته حتّى انتهى إلى باب الحجرة الشريفة؛ وذلك فى يوم الاثنين لخمس بقين من ذى الحجة .

ثم عاد طغرلبك إلى معسكره وسيّر العساكر لمحاربة البَسَاسِيرى وخرج فى إثره ؛ فوافت العساكر البساسيرى ودَبِيس بن مَزْيَد ، فكانت بينهم حروبٌ آلت إلى انهزام دبيس ووقوع ضربة فى وجه البَسَاسيرى سقط منها عن فرسه ، فأُخِذ ، وقُتل ، وحُمِلت رأْسه إلى طغرلبك فبعثها إلى الخليفة القائم ، فطيف بها على قناة فى بغداد للنِّصْف من ذى الحجة[1]، وعُلّقت على باب النوبى . وأُحيط بأموال البساسيرى ونسائه وأمواله ، وجميع حواشيه وأسبابه ؛ وقتل فى هذه الوقائع من الخلائق ما لايُحصى لهم عدد ؛ وفرّ دبيس إلى البطيحة[2] .

وقطعت الخطبة من بلاد العراق للمستنصر بعد أن خُطب له ببغداد أربعين جمعة ؛ وعادت للقائم كما كانت . وهذه الحادثة كانت آخر سعادة الدّولة الفاطمية ، فإنّ الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل لاستيلاء الترك عليه ، ولم يبق بيدهم غير ملك مصر خاصة

---

(١) يقول ابن الأثير : « فوصل منتصف ذى الحجة سنة إحدى وخمسين ، فنظف وغسل وجعل على قناة وطيف به ، وصلب قبالة باب النوبى . وكان فى أسر البساسيرى جماعة من النساء المتعلقات بدار الخلافة فأخذن وأكرمن وحملن إلى بغداد » . الكامل : ٩ : ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٢) أرض واسعة بين واسط والبصرة . تغلب عليها فى أوائل أيام بنى بويه أقوام من أهلها وتحصنوا بالمياه والسفن وجيرة تلك الأرض عن طاعة الدولة ، فصارت المياه لهم كالقلعة الحصينة إلى أن انقضت دولة الديلم ودولة السلاجقة . معجم البلدان: ٢ : ٢٢٢ – ٢٢٣ . وقد أراد دبيس بفراره إلى البطيحة أن يستفيد من تحصينها الطبيعى .

ويقالُ إنَّ الخليفة القائم بأمر الله كتب لمّا نُكب كتابا يشكو فيه ما يلقّاه من البساسيرى ونسخته بعد البسملة : « إلى الله العظيم من عبده المسكين . اللهم إنك عالمٌ بالسّرائر ، مطّلعٌ على مكنونات الضمائر ؛ اللهم إنك غنى بعلمك واطّلاعك على أمور خلقك عن إعلامى لك ؛ وهذا عبدٌ من عبيدك قد كفر نعمتك وما شكرها ، وألغى العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك، وسخِر بأنَاتِك ، حتى تعدّى علينا بغياً ، وأساء إلينا عتُوًا وعَدْواً . اللهم قَلَّ الناصر ، واغترّ الظالم ، وأنت المطّلع العالم ، والمنصف الحاكم ، بك نستعينُ عليه ، وإليك نهرب من بين يديه ، وقد تعزّز بالمخلوقين ، ونحن نستعين بالله رب العالمين . اللهم إنا حاكمناه إليك ، وتوكلنا فى إنصافنا منه عليك ، ورفعنا ظُلامتنا إلى حكمك ، ووثقنا فى كشفها بكرمك فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين ، وأظهر قدرتك [١٩٧] فيه قدر ما نرتجيه ، فقد أخذته العزة بالإثم . اللهم فاستلبه عزته ، وملكنا بقدرتك ناصيته ، يا أرحم الراحمين . وصلى الله على محمد خاتم النبين ، وعلى آله الطيبين وسلم تسليما ». وبعث به إلى باب الكعبة ، وعُلّق بباب الكعبة ودُعِى بما فيه ؛ فقُتِل البساسيرى فى ذلك اليوم .

سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة (١) :

فيها سارت العساكر من مصر إلى دمشق ، وكُتب لِنَاصر الدّولة أبي على الحسين بن حَمْدان أن يكون قائد الجيش ؛ فسار من دمشق بعسكر كبيرٍ فى سادس ربيع الأوّل يريدُ محاربة أهل حلب . وكانت مدينة حلب قد أُقيمت فيها الدعوة الفاطمية ، وأُسْقِطت بها دعوة بنى العباس إلى أيام الظّاهر بن الحاكم ، فتغلّب عليها صالح بن مِرْدَاس ، أحد أمراء الكلابيّين ، وكَثُف أمرهُ بها حتى استولى على دمشق أميرُ الجيوش أنُوشْتكين الدّزْبَرى ، أحد الغلمان الأتراك ، فساس الأُمور ، وأطاعه كلُّ مارق ؛ وراسل الملوك . فنابذه صالح بن مِرْداس وجمع له العرب ، وفيهم عدّة الدولة حسّان بن جَرّاح ، وسار لمحاربته ، فكانت بينهما وقائع انهزم فيها حسّان إلى بلاد الروم ، وتفرّق الجمع . ثم مات صالح وقام منْ بعده ابنُه شبل الدّولة نَصْر بن صالح فى حلب ، فقام بمنابذة أمير الجُيُوش كما كان أبوه ، وسار لقتاله ، فقُتِل ، وملك أمير الجيوش حلب فأقام بها رضيَّ الدولة مَنْجُوتكين ، أحد غلمانه ، فأقام بها سنين . ومات أميرُ الجيوش فغَلَب على حلب ثِمَال بن صالح بن مرداس وملكها ؛ ولم يَقُم أحدٌ بعد أمير الجيوش مقامه .

فلما كانت وزارةُ الجَرْجَرائىّ غَمض طرفَه عن ثِمال ، ورأى أن مُوَادعتَه أخَفُّ من إنفاق الأموال فى محاربته ، فكتب بولايته وقرّر عليه الحمل فى كل سنة . وتمادى ذلك إلى أيام وزارة اليَازُورِىّ فلم يرْضَ بهذا ، ورأى أنّ الحيلة أبلغ فيما يؤثره ، لأنه إنْ رام صَرفَه لم يُطِقْ ذلك ، وإن نابذه أُلزِمَ كُلَفًا كثيرة . فاستعمل السياسة والتّدبير الخفىّ ، وندب لذلك رجلا من أهل صُور له بها رئاسةٌ ووجاهة ، يقال له عين الدّولة علىّ بن عياض ، قاضى صُور ، فسَاس الأمر وأحكم التّدبير فيما قرّره مع كاتب ثمال بن صالح وما وعده به ، حتى

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس من فبراير سنة ١٠٦٠ .

نزل من قلعة حلب وسلّمها إلى مكين الدولة الحسن بن على بن مُلْهَم وَالِي الخليفة المستنصر . وسار من حلب يريد مصر للقاء الحضرة ؛ فلما بلغ رفح اتصل به خبر القبض على اليَازُورىّ ، فقال والله إنى أموت بحسرة ونظرة إلى مَنْ استلبنى من ذلك الملك ، وأخرجنى بلا رغْبة ولارهبة إلاّ بحُسْنِ السّياسة ، وإن رام ذلك منى فليس يتعذر عليه .

ورجع ثِمَال إلى حلب ، فاتفق فى غيبته قيامُ أهل حلب وتسليم البلد إلى عز الدولة محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ، فى مستهلّ جمادى الآخرة من هذه السّنة ، فحضر ابن مُلْهم بالقلعة إلى أنْ سار إليه ناصر الدولة بن حمدان ، فكانت بينهما حروب كبيرة على قنسرين(١) آلت إلى أن انكسر ناصرُ الدّولة كسرة عنيفة ، فأصابته ضربة شُلّت منها يدُه ؛ ورجع منهزما فى مستهل شعبان . فقال عبد العزيز العكيك الحلبي وقد مدح ناصر الدولة فلم يجزه .

ولَئِن غلطتُ بأَن مَدَحتُك ، طالبا جدواك ، معْ عِلْمى بأَنّك باخل
فالدّولة الزهراءُ قد غَلِطت ، بأَن نَعَتَتْك ناصِرَها ، وأَنت الخاذل
إن تمّ أَمرك مَعْ يدٍ لك أَصبحت شلاّء فالأَمثال عندى باطل(٢)

وأما ابن ملهم فإنه بعث إلى أسد الدولة أَبى ذوْابة عطيّة بن صَالح فسلمه حلب ، ودخلها فى عاشر شعبان هذا ، وأقام بِها يومه ثم خرج عجزاً عنها ؛ فوصل محمود فى ثانى عشره وملكها .

---

(١) مدينة بالشام ، وكورة ، بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص ، وكانت تعد من العواصم . معجم البلدان ٧ : ١٦٨ — ١٧٠ .

(٢) فى الأصل :

إن تم أمرك مع يديك أصبحت شلاء فالأمثال عنداى باطل

وهو غير مستقيم وزنا ومعنى ، وقد أمدنى الدكتور صلاح الدين الهادى ، مشكورا ، بالقراءة المثبتة بالمتن ، نقلا عن تاريخ ابن ميسر : ٢ : ١٢ ، إذ عثر عليه فى أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه بكلية دار العلوم .

وفى تاسع رمضان صُرف أبو الفرج ابن المغربى عن الوزارة ، وأعيد إليها أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلىّ . وصرف عن قضاء القضاة عبد الحاكم بن وهب فى جمادى الآخرة ، واستقرّ عِوَضه أبو عبد الله أحمد بن محمد بن أبى ذكرى ، فى حادى عشرى رجب .

وفيها قدمت هدية المعزّ بن باديس ، فقُوّمت بأربعين ألف دينار . منها درقةٌ مرصعة بالجوهر كانت للمهدى .

وفيها قدم كتاب على بن محمد [٩٧ ب] الصُّلَيْحى بما هو عليه من القُوَّة وإقامة الدعوة ، واستأذن فى المسير إلى تهامة وأخذها ، فأُجيب بذلك ، فسار إليها وأخذها .

وفيها نزل محمود بن شبل الدولة ثمال بن صالح بن مرداس على حلب ، ومعه منيع بن سيف الدولة ، سبعةَ أيّام ثم رحل ، وعاد إليها وأخذها يوم الاثنين ثانى جُمادى الآخرة ، وحصر القلعة إلى سادس رجب ورحل ، فملكها أصحابُ المستنصر . وفيها التقى ناصرُ الدولة بن حمدان مع محمُود بن شبل الدّولةَ على الفُنَيْدق(١) ، فانكسر ابن حمدان ، ودخل عطية حلب(٢)وخرج منها ، وتسلمها محمود يوم السبت ثانى شعبان ، ثم وصل عمّه معز الدولة فحاصر حلب مدة .

وفى هذه السنة سقط تنوُّر قبة صخرة بيت المقدس وفيه خمسمائة قنديل ، فتطير الناس وقالوا ليكونَنّ فى الإسلام حادث عظيم .

---

(١) الفنيدق من أعمال حلب ، أصبحت تعرف باسم تل السلطان ، بينها وبين حلب خمسة فراسخ . معجم البلدان : ٦ : ٤٠٢ — ٤٠٣ .

(٢) وهو أبو ذؤابة أسد الدولة عطية بن صالح ، المذكور قبل قليل ، خامس أسرة المرداسيين . ومعز الدولة الذى سيذكر بعد كلمات ، من نفس الأسرة وكان قد ملك حلب بين سنتى ٤٣٤ — ٤٤٩ ، ثم سقطت فى أيدى رجال الفاطميين ، ثم عاد إلى ملكها سنة ٤٥٣ ليتولاها فى السنة التالية أبو ذؤابة عطية المذكور . قارن أيضا : Mohammadan Dynasties

سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة (١) :

فى ثالث محرم صُرف البابلى عن الوزارة ؛ واستقرَّ عبد الله بن يحيى بن المدبّر . وفى صفر تُوفِّى قاضى القُضاة ابن أبى ذكرى فاستقر فى الحكم بعده أبو على أحمد بن قاضى القضاة عبد الحاكم بن سعيد فى رابع عشره ، وصرف فى خامس صفر(٢) . واستقرّ عوضه أبو القاسم عبد الحاكم بن وهيب المليجى ، ثم صرف فى حادى عشر رمضان . واستقرّ عوضه أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعد بن مالك بن سعيد الفارقى ، واستخلف ابنَه عميدَ الملك أبا الحسن . وصُرف ابن المدبّر عن الوزارة واستقرّ بعده أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم ، أخو قاضى القضاة .

وكان السبب فى سرعة العزل وكثرة الولايات أنّه لما قُتل اليازُورِى كثُر السُّعاة فى الوزارة ، فما هو إلاَّ أن يُسْتَخدم الوزير فيجعلَ نصب الأعين ، وتركب عليه المَناصب ، ويكثر الطَّعن عليه حتى يُعْزل ولم تطل مدته ولا اتّسع وقته ؛ فيلى بعده مَنْ يتّفق له مثلُ ذلك ، لمخالطة النّاس الْخليفة ومداخَلَتهم الرّقاع والمكاتبات الكثيرة إليه ؛ وكان لايُنكِر على أحد مكاتبته . فأحبّ النّاس مخالطة الخليفة وجعلوه سوقا لهم ؛ فتقدّم كل سَفْسَاف ، وحَظِى أوغادٌ عدّة ، وكثُروا ، حتى كانت رِقاعُهم أوقع من رقاع الصُّدور والروْسَاء والجلّة ؛ وتنقّلوا فى المكاتبة إلى كلّ فن ، حتّى إنّه كان يصل إلى المستنصر فى كل يوم ثمانمائة رقعة ؛ فتشابهت عليه الأُمور وتناقضت الأَحوال . ووقَع الاختلاف بين عَبِيد الدولة ، وضعفت قُوَى الوزراء عن التدبير لِقِصر مدة كل منهم ، فإن الوزير منذ يُخلع عليه ويستقرّ إلى أن يَنْصرف لايُفيقُ من التحرر ، فمن ابتغى به يؤذيه عند الخليفة ، وسعت عليه الرجال ، فما يصير فيه فضلٌ عن الدفاع عن نفسه . فَخَربت الأَعمال وقلّ ارتفاعها ، وتقلّب الرجال

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس والعشرين من يناير سنة ١٠٦١ .

(٢) هكذا فى الأصل . وهو أمر غير مقبول إذ أن هذا القاضى تولى فى رابع عشر صفر فكيف يصرف فى « خامس صفر » .

على معظمها واستنضوا رَاخيَ ارتفاعها ، فاتّضع الارتفاع ، وعظمت النفقات . ووقع اضطِرَاع الأضداد على السّلطان ، وواصَلُوه باقتضاء مالَهم من المقرَّرَات ، ولازمُوا بابَه ، ومنَعُوه من لَذّاته . وتجرءُوا على الوزراء واستخفُّوا بهم ، وجعلوهم غرضا لمساءتهم ، فكانت الفتَرات بعد صَرْف من يَنْصرف منهم أطوَلَ من مدّة نظر أحدهم ؛ والمستنصر يُوسعُهم حِلمًا واحتمالا . فأطغى الرِّجالَ ذلك وجَرّأهم عليه ، حتى خرجوا من طلب واجباتهم إلى التعمارع ، فاستنْفَدُوا أمواله وأخلَوْا منها خزائنه ، وأحوَجُوه إلى بيع ماعنده من العروض ، فكان يخرجها لهم لِتُباع ويشتريها الناس فيعترضونها ، ويأخذ مَنْ له درهم واحد ما يساوى عشرة ولايمكن مطالبته. ثمّ عادُوا إلى تَقويم ما يخرج ، فإذا حضر المقوِّمون أخافوهم ، فيقوِّمون مايساوى ألفًا بمائة فما دُونَها ، ولايتمكّن الخليفة من استيفاء ذلك ؛ فتلاشت الأُمُور واضمحلّ الملك . ثم لمّا علموا أنه لم يبق ما يَخْرج لهم تقاسموا الأعمال وتشاحنوا على مازاد من الارتفاع ؛ وكانوا يتنقلون فيها بحكم غلبة من يغلب صاحبه عليها . ودام ذلك بينهم سنواتٍ نحواً من ستّ ؛ ثم قصر النِّيل وغلت الأسعار غلاءً بدّد شمل الناس بأسرهم ، وفرّق ألفتهم ، وشَتّت كلمتهم وأوقع العداوة والبغضاء بينهم ، فقتل بعضهم بعضا حتى ناءَ عصب الإقليم وعفت آثاره ، كما ستقف عليه فيما يأتى إن شاء الله .

[۱۹۸ ا] وفيها اصطلح معزّ الدولة وابنُ أخيه محمود بن شبل الدولة ، ودخل حلب فى رابع عشرى ربيع الأول . فلما كان يوم الجمعة لسبع بقين من ذى القعدة [توفى][۱] ودُفن بالقلعة بعد أن حاصر ابن أخيه ، فملك بعده أخوه عطية ، [أبو ذؤابة[۱]] .

وفيها مات بمصر مؤتمن الدولة أبو طاهر مسلم بن على بن ثعلب ، فكتب أبو محمد بن سعد ، الشاعر الخفاجى ، من القسطنطينية إلى أهله بحلب يرثيه من أبيات :

أتانى وعرض الرمل بينى وبينه　　حديث لأسْرَار الدموع مُذيع

ومات المعز بن باديس ، وملك بعده ابنه تميم[۲] ؛ فطمع أصحاب البلاد بسبب العرب وتغلبهم على بلاد إفريقية .

---

(۱) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح وإستعانة بما سبق .

(۲) أبوطاهر تميم بن المعز ، خامس أمراء بنى زيرى ، أصحاب تونس . معجم الأنساب ؛ Mohammadan Dynasties

سنة أربع وخمسين وأربعمائة [1] :

فى ثالث المحرّم توفى أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم فى وزارته . وكان أبوه قاضى طرابلس فانتقل أبو محمد إلى مصر ، وكان فاضلا ، فرُدّت الوزارة بعده إلى أخيه أبى على أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد . ثم صُرِف عن القضاء فى صفر بأبى القاسم عبد الحاكم بن وهيب بن عبد الرحمن ؛ ثم صُرف أبو علىّ عن الوزارة ، واستُخدِم سديد الدولة أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة ذى الكفايتين بن أبى الحسن على بن محمد بن الحسن ابن عيسى العقيلى ، وكان أولا ناظرا على دواوين الشام ، فأقام فى الوزارة إلى شوال ؛ وصرف عنها بأبى الفرج البابلى المقدم ذكره

وفيها تَولَّى مكينُ الدولة بن مُلْهَم طبرية وعكا ، وإمرة بنى سليم وبنى فزارة ، فسار إليها وتسلمها فى صفر .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس عشر من يناير سنة ١٠٦٢ .

ذكر ابتداء الفتنة التى آلت إلى إخراب ديار مصر

وفى هذه السنة ابتدأت الفتنة التى كانت سبباً لخراب الإقليم . وذلك أن المستنصر كان من عادته فى كل سنة أن يركب على النُّجُبِ ومعه النِّساء والحشم إلى جُبِّ عميرة(١) ، وهو موضعُ نزهة ، ويُغيِّر هيئته ، كأنه خارج يريد الحج على سبيل الهزر والمجانة ، ومعه الخمر محمولٌ فى الرَّوايا عِوضًا عن الماء ، ويدُورُ به سُقَاتهُ عليه وعلى مَنْ معه كأنه بطريق الحجاز أو كأنَّه ماءُ زمزم . وقد أنشد الشريف أبو الحسين على بن الحسين بن حيدرة العقيلى المستنصر فى ذلك صبيحة يوم عرفة :

قم فَانْحر الرَّاح يوم النحر بالماء ... ولاتُضَحِّ ضحىً إلَّا بصهباء
وَادْرِك(٢) حجيجَ النَّدامى قبل نَفْرِهِمُ ... إلى منًى . فصُفَّهم مع كل هيفاء
وعُجْ على مكة الروحاء(٣) مبتكراً ... فَطُف بها حول ركن العود والنَّاء

فلما كان فى جمادى الآخرة خرج على عادته ؛ واتفق أن بعض الأتراك جرّد سيفا فى سكرة منه على بعض عبيد الشراء ، فاجتمع عليه عدّة من العبيد وقتلُوه . فغضب لذلك جماعةُ الأتراك واجتمعوا بأسرهم ودخلوا على المستنصر ، وقالوا : إن كان هذا الذى قُتِل منَّا عن رضاك فالسّمع والطاعة ، وإن كان قتلُه عن غير رضًا أمير المؤمنين فلا صبْرَ لنا على ذلك. وأنكر المستنصر أن قتله برضاه أو أمْرِه ؛ فخرج الأتراك واشتدّوا على العبيد يريدون

---

(١) فى الجهة البحرية (الشمالية) من القاهرة المعزية ؛ وهو أيضا بركة الحجاج إذ كان الحجاج يتجمعون بهذا الموقع قبل تحركهم للحج وعند عودهم . وعميرة بن تميم التجيبى ، الذى سمى المكان باسمه ، من بنى القرناء . الخطط : ٢ : ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) بتسهيل الهمزة .

(٣) يقول ياقوت : لما رجع تبع من قتال أهل المدينة يريد مكة نزل بالروحاء فأقام بها فأراح وسماها الروحاء . وقال أيضا : وإنما سميت الروحاء لانفتاحها وروحها . معجم البلدان : ٤ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

محاربتهم ، فبرزت العبيد إليهم ؛ وكانت بين الفريقين حروب بناحية كوم شريك[1] قُتِل فيها عدّة ، وانهزم العبيد وقويت الأتراك ؛ هذا والسيدة أم المستنصر تُمدّ العبيد بالأموال والسلاح .

فاتفق فى بعض الأيام أنّ بعض الأتراك وقف على شئ مما تبعثُ به أمّ المستنصر إلى العبيد لتعينهم به على محاربة الأتراك ، فأنكر ذلك وأعْلَم أصحابه ، فاجتمعُوا وصارُوا إلى المستنصر وتجرّءوا عليه بالقول وأغلظوا فى المخاطبة ؛ فأنكر أن يكون عنده من ذلك خبر ، وصار السيف قائما . فدخل على أمه وأنكر عليها ما تعتمده من تقوية العبيد وإعانتهم على محاربة الأتراك . ثم انتدب أبا الفرج ابن المغربى ، الذى كان وزيرا ، فخرج ؛ ولم يزل يسعى بين الأتراك والعبيد حتى أوقع الصلح بين الفريقين[2] . فاجتمع العبيد وساروا [٩٨ب] إلى ناحية شبرا دمنهور[3]. فكانت هذه الكائنة أول الاختلاف بين طوائف العسكر .

وكان السبب فى كثرة السودان بالقصر أن أم المستنصر كانت جارية سوداء قدم بها أبو سعيد التسترى المقدم ذكره ، فأخذها منه الظاهر واستولدها المستنصر . فلما أفضت الخلافة إلى ابنها المستنصر ، ومات الوزير صفى الدين الجرجرائى فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة استطالت أم المستنصر وقويت شوكتها ، وتحكمت فى الدولة ، واستوزرت مولاها أبا سعيد . وتوقفت أحوال الوزير الفلاحى معه ، فاستمال الأتراك وزاد فى

---

(١) كوم شريك ، قرب الإسكندرية ، كان عمرو بن العاص أنفذ فيه شريك بن سمى بن عبد يغوث الغطفى ، فتكاثر عليه الروم ، فخافهم على أصحابه ، فلجأ إلى هذا الكوم ودافعهم حتى أدركه عمرو واستنقذه . والكوم : الرمل المشرف . نفس المصدر : ٧ : ٣٠٢ – ٣٠٣ . انظر أيضا قوانين الدواوين : ١٧٣ ، ٢٢٧ إذ يذكر أنه من قرى حوف دمسيس ناحية البحيرة .

(٢) يذكر النويرى ذلك فى نهاية الأرب ويزيد قوله بعد الصلح : ولم تصف طائفة منهم للأخرى .

(٣) من ضواحى القاهرة ، وتعرف من أيام الأيوبيين باسم شبرا الخيمة، وسميت شبرا دمنهور نسبة إلى مدينة قريبة منها تحمل اسم دمنهور . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩ ؛ قوانين الدواوين .

واجباتهم حتى قتلوا أبا سعيد ، فحنقت أم المستنصر من قتله على الفلاحى ، ولم تزل به حتى كان من أمره ما تقدم ذكره .

وأخذت فى شراء العبيد السود وجعلتهم طائفة لها ، واستكثرت منهم وخصتهم بالنظر ، وبسطت لهم فى الرزق ووسعت عليهم حتى أمطرتهم بالنعم ؛ وسار العبد بمصر يحكم حكم الولاة . وشرعت تغض من الأتراك وتظهر كراهتهم وانتقاصهم .

وتقدمت إلى الوزير أبى البركات الجرجرائى أن يغرى العبيد بالأتراك ويوقع بينهم ، فخاف سوء العاقبة فى ذلك ولم يوافقها عليه ؛ فلم تزل به حتى صُرف من الوزارة . واستقر وزيرها أبو محمد اليازورى فى الوزارة ، فأوعزت إليه بذلك ، فساسَ الأمور سياسة جميلة إلى أن انقضت أيامه . ووزر البابلى ، فأمرته بذلك ، فشرع فيه . وتغيَّرت النيَّات ، وصارت قلوبُ كلٍّ من الطَّائفتَيْن تضمِرُ السوء للأُخرى ، حتى كان من الحرب ما قد ذكر ، ولم يزل ذلك حتى خرب الإقليم كله وهلك أهله كما سيأتى .

وفيها توفى الشريف أبو الحسن إبراهيم بن العباس بن الحسن بن الحسين بن على بن محمد بن على بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد ولى قضاء دمشق مرتين . وفى سابع عشر ذى القعدة توفى القاضى الفقيه أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن على بن حكمون بن إبراهيم بن محمد بن مسلم القضاعى ؛ وكان يخلف القضاة فى الحكم بمصر . وكان إمَامًا محدِّثا ، وله كتاب الشهاب ، وكتاب الخطط ، وكتاب أنباء الأنبياء ، وغير ذلك من المصنفات . وفيها توفى الرئيس أبو الحسن على بن رضوان بن على بن جعفر الطبيب . وتوفى المعز بن باديس بالقيروان فى رابع شعبان .

سنة خمس وخمسين وأربعمائة [1] :

فيها رُدّت الوزارة والحكم معًا إلى أبي على أحمد بن قاضى القضاة عبد الكريم بن عبد الحاكم فى ثالث عشر المحرم ، ثم صرف عنهما فى سابع صفر ؛ وأعيدت الوزارة لأبي المفضل عبد الله بن يحيي بن المدبّر ، والحكم إلى أبي القاسم عبد الحاكم بن وهيب . وفى تاسع عشر جمادى الأُولى توفىّ الوزيرأبو المفضل عبد الله بن المدّبر ، وقد تكررت ولايته للوزارة ؛ وسمع الحديث ، وكان فاضلا أديبا ؛ وهو من ولد ابن المدبّر متولىّ خراج مصر فى أيّام ابن طولون . واستقر فى الوزارة أبو غالب عبد الطاهر بن الفضل بن الموفق فى الدين المعروف بابن العجمى ، ثم صُرِف وقبص عليه فى السابع والعشرين من شعبان . وأعيد إلى القضاء والوزارة جميعا أبو محمد الحسن بن مجلى بن أسد بن أبي كدينة ، واستمر فيهما إلى خامس ذى الحجة ، فرتّب مكانه جلال الملك أحمد بن عبد الكريم ابن عبد الحاكم بن سعيد ، فاستخلف أخاه أبا الحسن عليًّا على القضاء .

وفيها ندِب أميرُ الجيوش بَدْر الجمالى[2] لولاية دمشق ؛ وندِب معه علي الخراج الشريف أبو الحسن يحيي بن زيد الحسنى الزَّيْدى .

وفيها قدم الصُّلَيْحى[3] مكة بعد ما ملك اليمن كلّه سهله وجبله ، وبرّه وبحره ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منْها الرابع من يناير سنة ١٠٦٣ .

(٢) وألقابه التى يذكرها ابن القلانسى : تاج الامراء المظفر مقدم الجيوش شرف الملك عدة الإمام ثقة الدولة . ذيل تاريخ دمشق : ٩١ – ٩٢ .

(٣) وهو أبو كامل على بن محمد بن على الصليحى ، « وكان شابا أشقر اللحية أزرق العينين ، وليس كان باليمن أشقر أزرق غيره ، وكان متواضعا ، إذا اجتاز بقوم سلم عليهم بيده » . النجوم الزاهرة : ٥ : ٧٢ . وبلغ من ثقة المستنصر بالصليحى هذا أن لقبه : « الأمير الأجل شرف المعالى تاج الدولة سيف الإمام المظفر فى الدين نظام المؤمنين » ولقبه أيضا : « منتخب الدولة وصفوتّها ذا المجدين منجب الدولة وغرسها ذا السيفين نجيب الدولة وصنيعتّها ذا الفضلين » . تاريخ الدولة الفاطمية : ٢٤٠ .

وأقام بها وبمكة دعوة المستنصر ، وكسا الكعبة حريرا أبيض ، وردّ حِلْية البيت إليه ، وكان بنو حسن قد أخذوها ومضوا بها إلى اليمن ، فاشتراها منهم ، وأعادها فى هذه السنة . واستخلف على مكة محمد بن أبى هاشم ، وعاد إلى اليمن[1] .

(١) بتتبع كثير من المراجع الأخرى تبين . أن صاحب مكة بين سنتى ٤٥٣-٤٦١ هو حمزة بن وهاس بن أبى الطيب داود ، وخلفه سنة ٤٦١ واليا ، إلى سنة ٤٨٧ ، أبو هاشم محمد بن جعفر بن محمد تاج المعالى . راجع الكامل : ١٠ - فى مواضع متعددة ؛ العبر لابن خلدون ؛ معجم الأنساب لزامباور .

سنة ست وخمسين وأربعمائة [1] :

فى ثالث عشرى المحرم صُرِف أحمد بن عبد الحاكم عن القضاء والوزارة . وتقلّد الوزارة أبو المكارم المشرف بن أسعد بن مقبل ، وفوّض قضاء القضاء لأبى محمد الحسن بن مجلى بن أبى كدينة ؛ ثم صُرِف ، وأعيدت الوزارة لأبى غالب عبد الظاهر بن الفضل ، وفوّض القضاء لأبى الحسن على بن عبد الحاكم فى سابع عشرى ربيع الآخر ؛ ثم صرف عن القضاء فى خامس جمادى الأولى [١٩٩] بأبى القاسم عبد الحاكم بن وهيب . ثم صُرِف أبو غالب عن الوزارة واستدْعِى أبو البركات حسين بن عماد الدولة الجرجرائى من صُور فَحضَر إلى مصر ووَلِيها فى مستهلّ رجب ، فأقام إلى العشر الأُخَر من رمضان وصرِف عنها ؛ وصُرِف أيضا عن القضاء عبد الحاكم . وجُمعا معًا ، الوزارة والقضاء ، لابن أبى كدينة ، فباشرهما إلى رابع ذى الحجة ، فصرف عن الوزارة وقرّر فيها أبو على الحسن بن أبى سعيد التُّسْتَرى ؛ وقرر فى القضاء أحمد بن عبد الحاكم .

وفيها فارق أمير الجيوش بدر ولاية دمشق فرارًا من أهلها لثورتهم به ؛ فقرّر المستنصر بدله الأمير حصن الدولة أبا الحسن معلى بن حيدرة بن منزو بن النعمان الكنانى . وفيها قتل قُطْلُمش بن إسرائيل بن سلجوق[2] ، صاحب قونية[3] وأقصرا[4] ، فقام بعده ابنُه سليمان ابن قُطْلُمش وفتح أنطاكية .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٠٦٣ .

(٢) وكان مصرعه بالقرب من الرى فى معركة بينه وبين ألب أرسلان ، سلطان السلاجقة ، وقد اشترك نظام الملك ، وزير ألب أرسلان ، فى هذه المعركة . يقول ابن الأثير : « وجد قتلمش – بعد المعركة – ميتا ملقًى على الأرض لا يدرى كيف كان موته ، قيل إنه مات من الخوف » . الكامل : ١٠ : ١٢ – ١٣ . وكان قتلمش من كبار الأمراء السلاجقة ، وهو رأس الفرع السلجوقى الذى حكم آسيا الصغرى وعرف هذا الفرع باسم سلاجقة الروم . ويرسم اسمه بالطاء أيضا : قطلمش .

(٣) كانت فى معظم الوقت عاصمة دولة سلاجقة الروم ، وتقع داخل منطقة تلال كبادوكيا . معجم البلدان : ٧ : ٧٦ ؛ انظر كذلك : A History of the Crusades; Vol.I; the map ; P. 80

(٤) أو أقصراى أو أقصرى فى نفس المنطقة المذكورة فى الحاشية السابقة . نفس المصدر : P. 625 ؛ وكذلك الخريطة ص : ٨٠ من نفس الكتاب .

سنة سبع وخمسين واربعمائة[1] :

فى النِّصْف من المحرّم صُرِف عن الوزارة أبو على بن أبى سعيد ؛ وصرف عن القضاء أبو أحمد بن عبد الحاكم . وتولىّ الوزارة أبو شجاع محمد بن الأشرف بن أبى غالب محمد ابن علىّ بن خلف ، وكان أبوه أحَد وزراء بنى بُوَيْه ببغداد ؛ ثم صُرف عنها ثانى يوم ، واستقر فى القضاء والوزارة جميعا أبو محمد بن أبى كدينة فى حادى عِشْرِيه ، فلم يُقِم غير أربعة أيّام وصرف عنها فى سادس عِشْرِيه . وأُعيد أبوشجاع محمدّ بن الأشرف إلى الوزارة، وتقلّد القضاء جلال الملك أبو أحمد بن عبد الكريم . فأقام ابن الاشرف فى الوزارة إلى نصف ربيع الأول ، وصُرِف ، وقُرّر فى الوزارة سديدُ الدولة أبو القاسم هبة الله بن محمد الرعبانى الرحبى ، ثم صرف فى آخره . واسْتُوزِرَ ابنُ أبى كدينة ، وأُضيف إليه القضاء أيْضًا فى نصف جمادى الآخرة ، فباشرهما إلى نصف رجب ، وصرف عن الوزارة بأبى المكارم رئيس الرؤساء الشرف بن أسعد ، وعن القضاء بعبد الحاكم بن وهيب . ثم قُبض على الوزير أبى المكارم فى العشر الأخير من شوال ، وتولى الوزارة بعده الأثير أبو الحسن على بن الأنبارىّ فأقام شهرًا ، وصُرف فى ذى الحّجة عن الوزارة ، ولم يَعُدْ إليها .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث عشر من ديسمبر سنة ١٠٦٤ .

سنة ثمان وخمسين وأربعمائة [1] :

فى سادس عشرين منه صُرِف ابنُ أبى كدينة عن القضاء واستقرَّ عِوَضه جلالَ الملك أبو أحمد ، ونُعت بقاضى القضاة الأعظم . وفى تاسع ربيع الآخر أعيد إلى الوزارة أبو القاسم هبة الله بن محمد الرّعبانى ، وصرف عنها فى السادس عشر منه .

وفى جمادى الأولى ولّى المستنصر أميرَ الجيوش بدرًا الشامَ بأسره ، فخرج إليها بعد ما أنفق عليه ألف ألف دينار . وفى جمادى الآخرة جمع القضاء والوزارة لأبى أحمد جلال الملك ، ثم صُرِف بعد أيّامٍ عن الوزارة بأبى الحسن طاهر بن وزير ، فباشر أيّاما يسيرةً ، وصُرف بأبى عبد الله محمد بن حامد التّنّيسى ، وأقام يومًا واحدًا ، ثم صُرف وقُتِل . فاستوزر أبو سعد منصور بن زنبور[2] ، فلم يُقِم فى الوزارة غير أيّامٍ قليلة وهرب ، فأُقيم بعده أبو العلاء عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضَّيْف ، فباشر أياما يسيرة وصرف .

وكان دخولُ أمير الجيوش إلى دمشق فى سادس شعبان ، وبلغ ما بلغت نفقة المستنصر عليه ألف ألف دينار[3] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثالث من ديسمبر سنة ١٠٦٥ .

(٢) وكان نصرانيا فأسلم ، والنصارى ينكرون إسلامه واسمه أبوسعد منصور بن أبى اليمن سوريرس بن مكروواه بن زنبور . نهاية الأرب .

(٣) وهذه هى ولايته الثانية عليها ، وكانت الأولى سنة ٤٥٥ ، ولم يقم طويلا آنذاك إذ فر منها بسبب ثورة أهل دمشق والعسكر عليه .

سنة تسع وخمسين وأربعمائة [1] :

فيها قويت شوكةُ الأتراك واشتدّ بأسهم وطلبوا الزيادات فى واجباتهم ورواتبهم ؛ وساءت أحوالُ العبيد وكَثُر ضررُهم وهم يتزايدون ، حتى صار منهم بالقاهرة ومصر وما فى ظَوَاهِرِهما من القُرى نحو الخمسين ألف عبد ، ما بين فارس وراجل . وخلت خزائن أموال المستنصر وضعفت الدولة . فبعثت السيدة أم الخليفة المستنصر إلى قوّاد العبيد تغريهم بالأتراك ، وتحثُّهم على الإيقاع بهم ومحاربتهم وإخراجهم من مصر ؛ فجمع قُوّاد العبيد وحشدوا طوائفهم ، وصاروا إلى شَبْرا دَمنهُور ، وساروا إلى الجيزة ؛ فخرج إليهم الأتراك يريدون محاربتهم ؛ وقد بلغت النفقة فى تَغْدِيَتهم إلى الجيزة ألف ألف دينار . فالتقى الفريقان ، وكانت بينهما حروب انجلت عن كسرة السُّودان وهزيمتهم إلى الصّعيد .

وكان مقدّم طوائف الأتراك يومئذ ناصر الدّولة أبو على الحسن بن الأمير أبى الهيجاء ابن حمدان ؛ فرجع بالأتراك إلى القاهرة وقد قَوِيَتْ نفسه وعظُم قدره ، واشتدت شوكته ، وثَقُلَت [٩٩ب] وطأته . وتلاحق العبيد بعضُهم ببعض واجتمعوا فى بلاد الصّعيد وهم فى عدد يتجاوز الخمسة عشر ألفا ما بين فارس وراجل ؛ فساء ذلك الأتراك وأقلقهم ، فصار أكابرُهم إلى المستنصر وشكَوا إليه أمر العبيد . فأمرت أمُّ المستنصر جماعة مِمَّن كان عندها من العبيد أن يقتحموا على الأتراك فهاجموهم على حين غفلة وقتلوا منهم جماعة . ففر ابن حمدان حينئذ إلى ظاهر القاهرة ، وتسارع إليه الأتراك وقد استعدُّوا لمحاربة العبيد ؛ فخرج إليهم عدة من العبيد الذين كانوا بالقاهرة ومصر . فكانت بين الطائفتين حروب شديدة مُدَّة أيام ، فحلف منذ ذلك ابنُ حمدان أنه لا ينزل عن فرسه حتى ينفصل إمَّالَهَ أو عليه . وثبت كل منهما ، فكانت الكرّة لابن حمدان على العبيد ، فوضع السيف فيهم وتجاوز الحد فى كثرة

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى والعشرين من نوفبر سنة ١٠٦٦ .

قتلهم ، وتتبّعَهُم فى كل مكانٍ حتى لم يَدعْ فى القاهرة ومصر منهم إلاّ قليلا ، وهم مقيمون بالصّعيد والاسكندرية . فرأى ابن حمدان أن يبدأ محاربة مَنْ فى الاسكندرية منهم ، فسار إليها ونازلَها مدّة ، وحصر العبيد بها ، وألحَّ فى مقاتلتهم حتى طلبوا منه الأمان ، فأقام على ولايتها [1] رجلا من ثقاته . وانقضت هذه السّنة كلُّها فى قتال العبيد والأتراك .

وفى يوم عيد الفطر أُفرج عن حميد بن محمود بن الجراح وحازم بن على بن الجراح ، الطّائيَّيْن ، مِن خزانة البنود بعد ما أقاما محبوسَيْن مدة طويلة .

وفيها قطعت دعوة المستنصر من اليمن بقتل الصُّلَيْحى [2] وأعيدت دعوة بنى العباس .

وأما الوزراء فإن ابن أبى كدينة صرف فى ثامن المحرم ، وولى أبو القاسم عبد الحاكم المليحى ، فأقام إلى سابع جمادى الآخرة ، وصُرف ؛ وأُعيد ابن أبى كدينة ، فأقام أياما وصرف ؛ وأعيد المليحى فلم يُقِم سوى لياليَ يسيرة وصرف ؛ وأعيد ابن أبى كدينة فأقام إلى ثامن عشرى ذى القعدة ، وصرف بجلال الملك بن عبد الحاكم .

وفيها قتل فتوح الشامى أحد قواد العبيد ؛ وكان المُنْفق حين قتل خمسمائة ألف دينار .

---

(١) فى الأصل : على ولايته ، والمثبت أولى .

(٢) يوافق ابن الأثير المقريزى فى أن الصليحى قتل هذه السنة ، ويشاركهما فى ذلك زامباور . ويذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه توفى سنة ٤٧٣ . راجع الكامل : ١٠ : ١٩ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١١٢ ؛ قارن أيضا لين - بول : Mohammadan Dynasties.

سنة ستين وأربعمائة (1) :

فى المحرّم خرج الأتراك مُبَرِّزين إلى الرّملة حين قتل شهاب الدولة ، وقد بلغت نفقة المستنصر فيهم ألف ألف دينار .

وفيه اشتد البلاء على المستنصر بقوّة الأتراك عليه وطمعهم فيه ، فانْخَرقَ ناموسُه ، وتناقصت حُرْمَتُه ، وقلت مهابته ؛ وتَعَنَّتُوا به فى زيادة واجباتهم . وكانت مقرراتُهم فى كلّ شهر ثمانية وعشرين ألف دينار ، فبلغت فى هذه السنة إلى أربعمائة ألف دينار فى كل شهر ، فطالبوا المستنصر بالأموال .

وركب ناصر الدولة الحسين بن حمدان ومعه جماعة من قُواد الأتراك ، وحَصَرُوا المستنصر وأخذوا جميع الأموال ، ثم اقتسموا الأعمال ؛ وركبوا إلى دار الوزير ابن أبى كدينة يريدون الأموال ، فقال : وأىّ مال بقى ؟ الريف فى يد فلان والصعيد فى يد فلان والشام فى يد فلان . فقالوا : لابُدّ أن تُنْفِذ إلى مولانا وتطلبَ منه وتُعْلِمَه بحضورنا . فكتبَ الوزير إلى المستنصر رقعة يذكر فيها حضورهم بألقابهم وما يطلبون ؛ فخرجت الرقعة بخط المستنصر فيها مكتوب :

« أصبحت لا أرجو ولا أتّقى إلا إلٰهى ، وله الفضل
جدّى نبيّى ، وإمامى أبى وقَوْلى التوحيد والعدل

المال مال الله ، والعبد عبد الله ، والإعطاء خير من المنع . وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(2) » . واعتذر بأنه لم يبق عنده شئ . فاضْطَرُّوه إلى إخراج ذخائره وذخائر

---

(1) ويوافق أول المحرم منها الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٠٦٧ .

(2) سورة الشعراء : آية : ٢٢٧ .

آبائه وبيعها ، فأخذ يُخرِج ذلك شيئا بعد شئ ، وهم يأخذونها لأنفسهم بأيديهم ويثمّنونها بأقلّ القيم وأبخس الأثمان .

وسار ابن حمدان بجماعة الأتراك إلى الصعيد يريد محاربة العبيد ، وكان قد كَثُر شرهم وتزايد ضررهم ، وعم الكافّة أذاهم وإفسادُهم ؛ فاجتمعوا لحربه واستعدوا للغاية . فسار إليهم فى شهر رمضان وقد بلغت النفقة عليه وعلى من معه ألف ألف دينار ؛ وكانت بينهما حروب عظيمة ووقائع عديدة انجلت عن كسرة الأتراك وهزيمتهم إلى الجيزة . فتلاقى بعضهم ببعض وصاروا يدًا واحدة على المستنصر ، وألّبُوا عليه ، واتهموه بأنه بعث إلى العبيد بالأموال فى السّرّ ليقوّيهم على محاربة الأتراك ، وجَهرُوا له بالسّوء من القول [١٠٠ ا] . فقال لهم إنه لم يبعث إليهم بشئ ولا أمدّهم بمعونة . وأخذ الأتراك فى لم شعثهم والتأهّب لمحاربة العبيد ، حتى تهيأ أمرهم بعد أن أنفق المستنصر فيهم عوضا عمّا نهب السّودان لهم وضاع من أموالهم ألف ألف دينار . وساروا إلى قتالهم مرّة ثانية ، فالتقَوا بهم وصابروهم القتال ووالوا عليهم الكرّات حتى انهزم العبيدُ منهم ، وقُتل كثير من أعدادهم ، بحيث لم ينجُ منهم إلاّ القليل ، وزالت حينئذ دولتهم .

وعظُم أمرُ ناصر الدولة واستبدّ بالأمور ، فصرف ابنَ أبي كدينة من الوزارة وأعاد المليجى فلم يبق غير خمسة وصُرف : وأعيد ابن أبي كدينة ، وجُمِع له بين الوزارة والقضاء معًا فى ربيع الأوّل ، فأقام فيهما إلى جمادى الأولى ؛ وصرف عن القضاء بجلال الملك ، فأقيم فى منصب القضاء إلى سَلْخ رمضان ، فصُرف عن القضاء بالمليجى . فأقام المليجى قاضيا إلى يوم عيد النّحر ، وصرف ، وتولى ابن أبي كدينة .

وفيها كانت بدمشق حروبٌ بين أمير الجيوش بَدْر وبين عسكرّيته[1]، فكانت الحروبُ طول السنة فى بلاد الشّام وديار مصر قائمة لا تهدأ .

وسار الأمير قطب الدولة بَازْ طَغَان إلى ولاية دمشق ، ومعه أبو الطاهر حيدرة بن مختصّ الدولة أبى الحسين ، ناظرًا فى أعمالها[2] .

وفيها زُلْزِلت مصرُ زلزلَةً عظيمة ، حتّى طلع الماءُ من الآبار وهلك عالمٌ عظِيم تحت الرَّدْم . وزال البحرُ بفلسطين من الزَّلازل وبَعدُ عن السّاحل مسيرة يوم ، ثم رجع فوق عالَمٍ كبيرٍ خرجوا يلتقطونَ مِنْ أرضه . وخرِبت الرَّملة خرابًا لم تعْمُر بعده .

وفيها أُنفِق فى غير استحقاقٍ لمدّة خمسة عشر شهرا ، أوّلُها عاشرُ صفر سنة ستين ، مبلغ ثلاثين ألف ألف دينار .

---

(١) وكانت الاضطرابات قد بدأت منذ تولى بدر الشام للمرة الثانية سنة ٤٥٨ ، إذ قتل ولده بعسقلان فدخل هو إلى قصر الإمارة وأقام إلى أن تحركت الفتنة بينه من جهة وبين عسكريته ، ثم مع أهل دمشق وتحولت إلى حروب محلية فى جمادى الأولى من هذه السنة ، سنة ٤٦٠ . قارن ذيل تاريخ دمشق : ٩٣ .

(٢) يذكر ابن القلانسى أن بدرا ظفر بالشريف أبى الطاهر هذا بعد قليل ، فلما حصل فى يده قتله سلخا ، فعظم ذلك على كافة الناس واستبشعوه . ويذكر ابن تغرى بردى مثل ذلك . ذيل تاريخ دمشق : ٩٤؛ انظر أيضا النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٠ .

سنة احدى وستين واربعمائة [1] :

فيها قَوِى تغلّبُ المارِقين على المستنصر واستباحوا ما وجَدُوا فى بُيُوت أمواله ، واشتدّت مُطَالباتهم بالواجبات المقرّرة لهم ، وسألوا الزيادات فى الرسوم . واقتسم مقدَّمُوهم دُورَ المكوس والجبايات ، وتغلّب كلٌّ مَنْ بقى منهم على ناحية ؛ ولم يبق للدّوْلة ارتفاعٌ يعوّل عليه ، ولا مال فى القياصر يرجع إليه . وأخرج من الذّخائر مالاً شُوهد فيما بعدَه من الدّول مثلُه نَفَاسةً وغرابة ، وجلالةً وكثرة ، وحسنا وملاحة ، وجَوْدَة وسناء قيمة وعُلُوّ ثمن ؛ ونقل منه التُجار إلى الأمصار شيئا كثيراً ، سوى ما أُحْرق بالنار بعد ما امتلأت قياسِرُ[2] مصر وأسواقُها من الأمتعة المخرجة من القصر المبيعة على الناس ، التى أُنْفِق منها فى أعطيات الأتراك وغيرهم لسنة ستّين وأربعمائة . فأهلت سنة إحدى وستين هذه وقد اشتد الخوفُ بمصر ، وكثرُ التّشْليح فى الطّرقات نهاراً والخطفُ والقتل . وصار الجند فرقتين ، فرقة مع الخليفة المستنصر وفرقة عليه .

وذلك أن الوحشة ابتدأت بين الأتراك وبين ناصر الدولة ابن حمدان ، لِقُوة بأسه وتفردِه بالأمور دونهم ، واستبداده بالدولة عليهم ، فنافسوه وحسدوه ، وصاروا إلى الوزير خطير الملك[3] وقالوا له : كلٌّ ما خرج من الخليفة من مالٍ أخذه ناصر الدّولة وتفرّق أكثره فى حاشيته ، ولا ينالُنا منه إلا الشئ القليل . فقال لهم إنما وصل ناصرُ الدولة إلى هذا وغيره مما هو فيه بِكُم ، ولولا أنتم لما كان له من الأمر شئ ، ولو أنكم فارقتموه لا نْحلّ أمره . واتفقوا على أن يكونوا جميعا عليه ، ويحاربوا حتى يظفروا به ويخرجوه من مصر . ودخلوا إلى الخليفة المستنصر وسألوه أن يَبْعث إلى ناصر الدّولة بالخرُوج من البلاد ، وتهديدَه إن لم يخرج ؛ فبعث إليه يأمره بالخروج عن بلاده ؛ فسارع إلى الخروج عن

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٠٦٨ .

(٢) جمع قيسارية ؛ وهى الأسواق .

(٣) وهو أبو محمد الحسن بن مجلى بن أسد بن أبى كدينة .

القاهرة ونزل بالجيزة . فامتدّت الأيْدى عند خروجه إلى دُورِه ودُورِ حواشيه وأصحابه ، وانتهبتها وأفسدتها .

فلما كان فى الليلة التى خرج قبلها دخل فى خَفَاء واجتمع بالقائد تاج الملوك شَادِى وترامى عليه وقبّل رجله ، وقال له : اصْطَنِعْنى وانْصُرنى على الوزير الخطير وعلى إلْدِكِز[1] ، بأن تركب أنت وأصحابك وتسير بين القصرين ، فاذا أمكنتك الفرصة فاقتُلْهما ؛ فوافقه على ذلك وأجابه إليه ؛ [١٠٠ ب] ورجع ناصر الدّولة إلى مُخيّمه بالجيزة . فلما طلع النهار شرع تاج الملوك فى عمل ما تقرّر بينه وبين اصر الدولة ، فأحسّ إلْدِكز بالمكيدة فسارع إلى اللّحوق بالقصر ، واستجار بالمستنصر . وأقبل الوزير فى موكبه وليس له شعور بما بُيّت فى الليل ، فصادفه تاجُ الملوك على غِرّة منه ، فأوقع به وقتله ؛ وسيّر فى الحال إلى ناصر الدولة ، فحضر . وحسّن إلْدكز للمستنصر أن يركب لمُحَاربة ناصر الدّولة ، فلبس سلاحه وألبس مَنْ معه وركب ، ونزل ، فصار معه من الجند والعامّة مالا يُحْصى عددُهم كثرة . ووقف ناصر الدولة بمن معه ؛ ونشبت الحرب بينهما ، فكانت الكسرة على ناصر الدولة ، فانهزم وقد قتل كثير من أصحابه ؛ فمرّ على وجهه لا يلوى على شئ فى يسير من أصحابه ، حتى انتهى إلى بنى سنْبِس بالبحيرة فنزل عليهم ، وأقام فيهم واستجارهم ، وتزوّج منهم .

واشتد الغلاء بمصر ، وقَلّت الأقوات فى الأعمال ، وعظُم الفساد والضّرر ، وكثُر الجوع حتى أكل النّاسُ الجيف والميتات ، ووقفوا فى الطرقات يخطفون من يمرُ من الناس فيَسْلُبونه ما عليه ، مع ما نزل بالنّاس من الحرُوب والفتن التى هلك فيها من الخلق مالا يُحصيهم

---

(١) أسد الدولة ؛ وكان شيخ الأتراك والمقدم عليهم ، تزوج ابنة ناصر الدولة ابن حمدان ، ولم يمنع هذا من أن يدبر كل منهما المكائد للآخر .

إلاَّ خالقُهم . وخاف الناس مِنَ النَّهب ، فَعَاد التجار إلى ما ابتاعُوه من المُخْرَج من القصر يُحْرقونه بالنار ليخلُص لهم ما فيه من الذَّهب والفضة . فحرقوا من الثياب المنسوجة بالذهب والأمتعة من الستور والكلل والفُرُش ، والمظَالّ والبنود والعَمَّاريات[1] ، والمنجُوقَات[2] والأَجِلَّة[3] ومن السُّروج الذهب والفضة والآلات المجْراة بالميناء والمرصَّعة بالجوهر ، شيءٌ لا يمكن وصفه ، مما عُمِل فى دول الإسلام وغيرها .

وفى سادس صفر وُهب لسعد الدَّولة ، المعروف بسلام عليك ، ما فى خزانة البنود من الآلات والأمتعة وغيرها ، فوجد فيها ألفا وتسعمائة درقة لَمْطِيَّة[4] ، سوى ما كان فيها من آلات الحرب والقُضُب الفضة والذهب والبنود ، فسقطت شرارة فيما هنالك فاحترق جميعُه ، وكانت لذلك غلبَةٌ وخوفٌ شدائد . فمِمَّا احترق فيها عشرات أُلوف من السيوف إلى غير ذلك مما لا يُحْصى كثرة ، بحيث إنَّ السلطان بعد ذلك بمدة احتاج إلى سلاح ، فأُخْرج من خزانة واحدة مما بقى وسلم من الحريق خمسة عشر ألف سيف مجوهرة سوى غيرها . وأُخرج من القصر صندوق كيل منه سبعة أَمْدَاد[5] زمرّد ، ذكر الجوهرىّ أن قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار . وكان فى المجلس فخر العرب ابن حمدان[6] وابن سنان وأبو محمد الحسن بن على بن أسد بن أبى كدينة ، وغيرهم من المخالفين ، فقال بعضهم لمن أُحْضِر من الجوهريين : كم قيمة هذا ؟ فقالوا إنما تُعرَف قيمة الشئ إذا كان مثله موجودا ، ومثل هذا لا قيمة له . فاغتاظ ، وقال ابن أبى كدينة : فخر العرب كثير المؤونة وعليه خَرْج ، والتفت إلى كُتَّاب الجيش ، فقالوا : يحسب عليه بخمسمائة دينار ، فكتب بذلك وقبضه .

---

(١) العماريات نوع من الهوادج ، ومفردها عمارية بتشديد الميم .

(٢) ومفردها منجوق ، نوع من الأعلام . Dozy; Supp. Dict. Ar.

(٣) الجل للدابة كالثوب للإنسان : كساء يقيها البرد والحر ، والجمع جلال وأجلال وجمع الجلال أجلة .

(٤) نسبة إلى اللمط وهو اسم قبيلة من البربر بأقصى الغرب ، ودرقهم تصنع من الجلد الذى ينقع فى الحليب سنة ، فتكتسب قوة ينبو عنها السيف القاطع . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٢ ، حاشية : ١ .

(٥) للتقريب : القدح يساوى مدا ونصف مد . قوانين الدواوين : ٣٦٦ .

(٦) فخر العرب على بن أبى على الحسن بن أبى عبد الله الحسين بن ناصر الدولة أبى محمد الحسن . معجم الأنساب .

وأخرج عِقْدٌ جوهر قيمته على الأقل ثمانون ألف دينار فكُتِب بألْفى دينار ، وتشاغل الحاضرون بنظر ما سواه فانقطع سلكه وتناثَر حبُّه ، فأخذ واحدٌ حبّة فجعلها فى جيبه ، وأخذ ابنُ أبى كدينة حبّة ، وأخذ فخر العرب شيئا ، وتَفرّق الباقون سائرَهُ ، فذهب كأن لم يكن . وأُخْرِج ما أنفذه الصُّلَيْحى من نفيس الدُّر وكِيلَ ، فجاء سبع ويبات . وأخرج ألفان ومائتا خاتم ما بين ذهب وفضّة بِفُصوصٍ مِنْ بين سائر أنواع الجواهر ، مما كان للخلفاء ، شُوهِد منها ثلاثةُ خواتيم من ذهب أحدها فصُّه زمرّد واثنان ياقوت غشيم صافٍ ورمانى ؛ كان شراء الفصوص اثنى عشر ألف دينار . وأُخرج من خزائن القصر ما يزيد على خمسين ألف قِطعة من الثياب الخسروانية[1] أكثرها مذهب .

وقال ابن عبد العزيز أُخرج من الخزائن على يدىّ أكثر من مائة ألف قطعة

ولما اشتدّ على المستنصر أمرُ الأتراك وطالبوه بجراياتهم بعث إلى العميد ابن أبى سعد فى إحضار جوهر كان عنده ، فأحضر خريطة فيها نحوٌ من ويبة ، فأحضر أرباب الخِبْرة من الجوهريين ليقوّموه ، فذكروا أنّه لا قيمة له ولا يشترى مثلَه[2] إلا الملوك ، فقوّمت بعشرين ألف دينار ـ وكان مشتراه على حَدّه سبعمائة ألف دينار ـ ففُرّق فى الأتراك وقبض كلّ منهم جزءاً بقيمة الوقت . وقسمت [١٠١ ا] خزائن السيوف وآلات السلاح بين عشرة ، وهم ناصر الدولة ابن حمدان ، وأخواه فخر الدولة على ، ويَلْدَكُوش ، وأمير الأُمراء الحسين بن سُبُكْتِكين ، وسلام عليك ، وشاور بن حسين ، وتاج الملوك شادى ، والأعز ابن سنان ، ورضى الدولة بن رضىّ الدولة ، وأمير العرب ابن كَيْغَلَغ . فكان من جملتها ذو الفقار[3] ، وصمصامة عمرو بن معدى كرب ، وسيف عبد الله بن وهب الرّاسبى ، وسيف

(١) نوع رقيق من الحرير .

(٢) فى الأصل : ولا يشترى له إلا الملوك .

(٣) ذو الفقار سيف العاص به منبه الذى قتل يوم بدر وهو كافر ، فصار سيفه إلى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى على كرم الله وجهه .

كافور الإخشيذى ، وسيف المعز لدين الله ، ودرع المعز وكانت تساوى ألف دينار بيعت منها كواكبُ بمائة دينار ، وسيف الحسين بن علىّ ، عليه السلام ، وكان وزنه ثلثمائة وستين مثقالاً ، وسيف الأشتر النخعى ، ودرقة حمزة بن عبد المطلب ، وسيف جعفر بن محمد الصادق .

ودخل فى بعض الأيام من باب الدَّيْلم[1]، أحد أبواب القصر ، تاجُ الملوك شادى ، وفخر العرب على بن ناصر الدولة ابن حمدان ، ورضىّ الدولة بن رضىّ الدولة ، وأمير الأمراء أبِجْتِكِين بن سُبُكْتِكِين ، وأمير العرب ابن كَيْغَلَغ ، والأعزّ بن سنان ، وعدّة من الأُمراء البغداديّين ، وصاروا فى الإيوان ومعهم أحد الفراشين وفَعَلَةٌ ، فانتهوا إلى حائط مُجَيَّر ، فأمروا الفَعَلة بكشف الجير ، فظهر بابٌ فهُدم ، فإذا خزانة ذُكر أنّها من أيام العزيز بالله ؛ فوجدوا فيها من السلاح ما زادت قيمته على عشرين ألف دينار ، فحملوا جميع ذلك وتفرّقوه . وصارت حواشيهم وركابيّاتهم[2]يكسرون الرّماح ويتلفُون أعْوَادَها ليأخذوا المهارك الفضة . وبِيعَ من الرِّماح الخطِّية السُّمر الجياد شىء كثير مما كسره الغلمان للمغازليين وصنّاع موادن الغزل حتى كثُر هذا الصنف بالقاهرة ، ولم يعترضهم أحد من أهل الدولة .

وأُخِذ ما فى خزائن البنود ومن المحكم والمينا المُجْرَى بالذّهب والمجْرُود والبغْدادى والمذَهّب والخَلَنج[3]والصينى مالا يُحْصى . وأُخذ أيضا ما فى خزائن الفرُش من البُسُط والسُّتور

---

(١) تجاه دار الفطرة التى كانت قسما من إصطبل الطارمة (سبق التعريف بأن الطارمة بيت من خشب ، فارسى معرب) وكان باب الديلم هذا موصلا إلى المشهد الحسينى ، وموضعه الآن بوابة أثرية تنتهى إلى الباب الأخضر ، النجوم الزاهرة ٤ : ٣٦ ، حاشية : ٥ .

(٢) الركابية والركابدارية : العاملون فى بيت الركاب الذى تكون به السروج واللجم ونحوها ، صبح الأعشى ٤ : ٧ : ، ١٢ ؛ Dozy; Supp. dict Ar.

(٣) الخلنج شجر لونه بين صفرة وحمرة تتخذ الأوانى من خشبه ، ومصدره الأصلى الصين والهند . النجوم الزاهرة : ٤ : ٨٥ ، حاشية : ١ـ٠ .

والنفائس من الحرير وغيره ، مالا يُعْرفُ له قيمة لكثرته . وأُخرج فى يوم من خزائن من القصر عّدة صناديق ، فوجد فى أحدها أمثال كيزان الفقاع[1] من صافى البلّلور المنقوش والمجرود شيءٌ كثير ، وإذا جميعُها مملوءة من ذلك وغيره .

وبيعت فى تركة عماد الدولة بن الفضل من المحترق ، بعد قتله ، مما كان قد صار إليه من مُخرّج القصر مرتبة خُسْرُوانية حمراء بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار ، ومرتبة قلمونية[2] بألفين وأربعمائة دينار ، وثلاثون سُنْدُسِيّة كلٌ واحدة بثلاثين دينارا ، وقدح بلّلور بمائتين وعشرين دينارا ، وخردادى بللور بثلثمائة وستين دينارا ، وكوز بللور بمائتين وعشرة دنانير وكَلّة بثمانمائة دينار ، وعدة صُحون ميناء بيع كل منها بمائة دينار فما دونها . وخرج من القصر خردادى وباطية من بللور فى غاية النَّقَاء وحُسْن الصَّنْعة ، مكتوبٌ عليهما اسم العزيز تَسَعُ الباطية سبعة أرطال ماء ويسع الخردادى تسعة أرطال ، دفع فيهما ابن عمّار بطرابلس ثمانمائة دينار فامتنع صاحبهما .

وقال المعتمد أبو سعد النّهاوندى أحد الأمناء ، وحْدَه دون غيره من أمناء القصر ؛ مِمّا أخرج بِيعَ ثمانى عشرة ألف فقعة بللور ومحكم ، منها يساوى الألف دينار وإلى عشرة دنانير ؛ ونيّفٍ وعشرون ألف قطعة خُسْرُوانية ، إلى غير ذلك من الفُرُش والتّعاليق ما بين مذهبة وغيرمذهبة . وبيع فى مدّةٍ خمسة عشر شهرا ، أوّلُها عاشِر صفر سنة ستّين وأربعمائة ، سوى ما نُهِبَ وسرق ، مّما خرج من القصر ما تحصّل مِنْ ثمنه ثلاثون ألف ألف دينار ، على أنّه بيع بأقلّ القيم وأنزر الأثمان ؛ وقبض الجُندُ والأتراكُ جميعَها من غير أن يستحقّ أحدٌ منهم درهما واحدا منها .

---

(١) الفقاع شراب يصنع من الشعير ، سمى بذلك لما يرتفع فى قمته من الزبد . القاموس المحيط ؛ النجوم الزاهرة : ٤ : ٩.

(٢) قلمون ، بوقلمون نوع من الحرير المزركش من إنتاج تنيس .سفرنامه ، تأليف ناصر خسرو ، وترجمة الدكتور يحى الخشاب .

ودخلوا إلى خزانة الرّفوف ، وكانت خزانة عظيمة بالقصر من جملة خزائن الفُرُش ، فيها رفُوفٌ كبيرة بعضها فوق بعض ، ولكل منها سُلّم منفرد ، فأخرجوا منها ألفى عِدْل شُقَقًا طميا بهُدُبها من سائر أنواع الخُسْروانىّ وغيره لم تُستعمل ، وكلُّها مذهّب معمول بسائر الأشكال والصور . وُجِد فى عدل منها أجِلّة للفيلة من خُسْروانى أحمر مذهب كأحسن ما يكون ، وموضع نزول أفخاذ الفيّال ورجليه سارج بغير ذهب . وأخرج من [١٠١ ب] بعض الخزائن ثلاثة آلاف قطعة من خُسْروانىّ أحمر مُطَرّز بأبيض لم تُفَصّل ، برسم كُسْوة البيوت ، كل بيت منها كاملٌ بجميع آلاته ومسانده ومِخادّه ومراتبه وبُسُطه وعتَبِه ومقاطعه وسُتُوره ، وجميع ما يُحتاج إليه فيه .

وأخرج من الحصر السّامانية المطرزة بالذهب والفضة وغير المطرزة مما هى مُجَوّمة ومطَيّرة وطفيلة ، ومصورة بسائر الصور ، مالا يحصى كثرة . وأخرج من صوانى الذهب المجْزاة بالميناء وغير المجزاة ، المنقوشة بسائر أنواع النقوش ، المملوء جميعُها جواهر من سائر أنواعه شئ كثير جدا ؛ ونيّف وعشرون ألف قطعة طمم من سائر الأمتعة . والتمس بعض الأتراك من المستنصر مِقْرمة(١) سندس أخضر مذهبة اقتراحا عليه لعدمها وقلة وجود مثلها ، فأُخرجَ منها عِدْل كان العدد المكتوب عليه مائة وثمانية وثمانين من جملة أعداد أعدالٍ فيها من المتاع .

وأخرج فى يوم صناديق سروج محلاة بفضة ، وجد فيها صندوق مكتوب عليه : الثامن والتسعون والثلثمائة ، وعدّة ما فيها زيادةٌ على أربعة آلاف سرج . ووجد غلف خيزران مبطّنة بالحرير محلاة بالذهب خالية من الأوانى ، كانت تسعة عشر ألف غلاف ، كان فى كل غلاف قطعة من بللّور أو مجروداء محكم أو ما شاكل ذلك .

---

(١) القرام ككتاب : السّتر الرقيق ، وبعضهم يزيد فيقول : وفيه رقم ونقوش ؛ والمقرم وزان مقود ، وبالهاء أيضا مثله . المصباح المنير .

ووجد مائة كأن بازهر[١] على أكثرها اسم هارون الرشيد ، وَوُجد ستورٌ حريريّة منسوجة بالذهب ، تقارب الألف ، مختلفة الألوان والأطوال ، فيها صُور الدُّول ومُلُوكِها والمشاهيرِ فيها ، مكتوب على صورة كلّ واحد منهم اسمُه ومدّة أيامه وشرحُ حاله . ووجد فى خزانة عِدَّةُ صناديق كثيرة مملوءة سكاكين مذهبة ومفضضة بنسب مختلفة من سائر الجواهر . ووجد عدة صناديق كبيرة مملوءة من أنواع الدُّوى المربعة والمدوّرة والصّغار والكبار المعمولة من الذهب والفضة والصّندل والعود والأَبَنُوس والعاج وسائر أنواع الخشب المحلاّة بالجوهر والفضة والذهب ، وسائر أنواع الحلى الغريبة ، والصَّنْعة المعجزة الدقيقة ، بجميع آلاتها ؛ فيها ما يساوى الألف دينار وما فوقها سوى ما عليها من الجواهر ، وصناديقُ مملوءة مشارب ذهبًا وفضّة محرقة بالسواد ، صغارًا وَكبارًا ، بأحسن ما يكون من الصناعة . وصناديق مملوءة أقلامًا مبريّة من سائر أنواع القصب ، فيها ما هو من بِرَاية أبى على محمد ابن مُقْلَة[٢] ، وابن البوّاب[٣] ومَنْ يجرى مجراهما ، وعدة مصاحف بخطَّيْهما وخط نظرائهما فيها ما هو مكتوب بالذهب المكحل باللّازورد . وعدّة أزيار صينى كبار مملوءة كافورا قنصوريا ؛ وعدة كبيرة من جماجم العنبر الشجرى ؛ وكثير من قوارير المسك ؛ ومن شجر العود مقطّعةً شىءٌ كثير .

ووجدتْ عدة خزائن مملوءة من سائر أنواع الصّينى ، منها أجاجين[٤] كبار ، محمولة

---

(١) بازهر : حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة فى مقاومة السموم ويسميها أيضا بادزهر ، وهو لفظ فارسى مركب من كلمتين : باد = طارد ، زهر = سم . Dozy; Supp. Dict. Ar وصبح الأعشى : ٢ .

(٢) ابن مقلة : أبو على محمد بن على مولده سنة ٢٧٢ وتوفى سنة ٣٢٨ . وأبوه مقلة على بن الحسن بن عبد الله ، ومقلة لقبه . الفهرست : ٢٠ .

(٣) على بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب ، شاعر مجيد وخطاط معروف ، توفى ببغداد سنة ٤١٣ هـ وقيل ٤٢٣ . ويقال له ابن الستّرى أيضاً لأن أباه كان بوابا والبواب يلازم ستر الباب . وفيات الأعيان : ١ : ٤٣٥ — ٤٣٦ .

(٤) مفردها : الإجانة ، إناء لغسل الثياب والإنجانة لغة تمتنع الفصحاء من استعمالها . المصباح المنير .

كلُّ إجّانَة منها على ثلاثة أَرجُل على صور الوُحُوش والسّباع والناس والبهائم ، قيمةُ كل قطعة منها ألف دينار ، معمولة لغسل الثياب . ووجدت له خزائن مملوءة من سائر أنواع الصوانى المدَهُونة ، سعةُ كلٍّ واحدة منها من العشرة أشْبار إلى ما دونها ، شئٌ فى جوف شئٍ ، حتى تكون أصغرها سعة الدرهم . ومن سائر أنواع الأطباق الخلنج الذى بهذه الصفة . ومن الموائد الخلنج الكبار والصغار ألوف ؛ ومن موائد الكرم الجفان الجور الواسعة بمقابض الفضة التى لايقدر الجمل القوىّ على حمل جفنتين منها لعظمتها منها ما يساوى المائة دينار وما فوقها . ووجد من الدِّكَك والمحاريب والأَسرة العُود والصَّندل والأَبنوس والعاج وغيره شئٌ كثير . وعدة أقفاص مملوءة من بَيْضٍ صينى معمول على هيئة البيض فى خامته وبياضه يعمل فيها ما فى البيض اليشم سبت يوم الفصاد ؛ وكيزان من صينى صغار وكبار على خلقة كيزان الفقّاع يشرب فيها الفقاع .

ووُجد كثير من الأعدال مملوءة عِقالاً من اليمن مما أهداه الصُّلَيحى . وأخرجت جصيرٌ من ذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ذُكر أنها الحصير التى جُليت عليها بُورَان بنتُ الحسن علَى المأمون . وأُخرج ثمانٍ وعشرون صينية ميناء مجرًى بالذَّهب ، لها كعوبٌ تعْلُو بها عن الأَرض مما بعثه ملك الرّوم للعزيز بالله ، قُوِّمت كل صينية بثلاثة آلاف دينار ، فأَخذها كلَّها ناصر الدولة ابن حمدان . ووجد عدّة صناديق مملوءة مرايا [١٠٢ ا] حديدٌ صينى وغيره من الزجاج الميناء مالا يحصى كثرة ، وجميعها محلاة بالذهب المشبك والفضة ، ومنها ما هو مكلَّل بالجوهر فى غُلُف الكهمخت[١] وغيره من أنواع الحرير والخيزران كلها

(١) الكيمخت والكهمخت : نوع من الجلود المدبوغة ، منه الأحمر والأسود . ويبدو أن هذا النوع كان متميزا بمصر إذ كان بالقاهرة جامع يعرف باسم جامع الكيمختى يقول المقريزى عنه إنه بجانب موضع الكيمخت على شاطىء الخليج من جملة أرض الطبالة ، كان موضعه دارا اشتراها معلم الكيمخت ، واسمه الحموى ، وعملها جامعا . الخطط : ٣ : ٣٢٥ - ٣٢٦ .

مُضبَّبَة بالذهب والفضَّة ، ومقابض المرايا ما بين عَقيقٍ وجزْع وصَنْدل وعود وأبنوس وغيره .

وأُخرج عدة أعْدال من الخيام والمضَارب والمنَارات والخَرْكَاوَات[1] وغير ذلك من أنواع الخيام المعمولة من الدّبيقى والمخمل وسائر أنواع الحرير المثقل وغير المثقل ، ممّا هو منقوشٌ ومُصوَّر بسائر الصُور العجيبة الصّنعة ، وسائر أعمدتها مكسوة بالفضة المذّهبة ، ولها الصّفريّات[2] الفضة والحبال القطنية والحريرية . فكان منها ما تُحمل الخيمة منها على عشرين بعيرا وأكثر .

وأُخرجت المدَوّرة الكبيرة ، وكانت تقوم على خرط عمود طولُه خمسة وستُّون ذراعًا بالكبير ، ودَوْرُ مكلّلته عشرون ذراعا ، وسعةُ قطرها ستة أذرع وثلثا ذراع ، ودوْرُ المدوّرة خمسمائة ذراع ، وعدة قطع خرقها أربع وستون قطعة ، كل قطعة منها تُحْزَم فى عِدْل ، وتحمل على مائة جمل ، وفى صفرتها ثلاثة قناطير فضة يحملها من داخلها قضبان حديد تسع راوية ماء من رَوايا الجمال ، وفى زخرفتها صور سائر الحيوانات ، ولها بادهنج طولُه ثلاثون ذراعا . كان عملُها لليازُورِىّ فى وزارته ، فأقام يعمل فيها مائة وخمسون صانِعًا نحو تسع سنين ، وصرف عليها ثلاثون ألف دينار ، أراد بها محاكاة القَاتُول الذى عمله العزيزُ بالله[3] فجاء أعظم منه وأحسن . وبعث إلى متملّك الروم فى طلب عودين للفسطاط طول كل منهما سبعون ذراعا ، فأنفذهما إليه ، وقد بلغت النفقة عليهما حتى وصلا ألف دينار ، فعُمل أحدهما فى الفسطاط بعد أن قطع منه خمسة أذرع ، وأخذ الآخر ناصر الدولة ابن حمدان لما خرج إلى الإسكندرية .

---

(١) جمع خركاه . وهو الخيمة أو النجع .

(٢) الصفرية إناء من النحاس الأصفر بشكل القدر ، ولعل المقصود هنا قطعة من النحاس بشكل كرة أو هلال تثبت فوق القبة . Dozy; Supp. Dict. Ar.

(٣) سيأتى فى الجزء الثالث أن القاتول عملت للافضل الجمالى ، ويؤيد هذا النويرى فى نهاية الأرب والقلقشندى فى صبح الأعشى .

وقد قطعت هذه الخيامُ الكبار خِرَقًا وقُوّمت على المذكورين من المارِقين بأقل القيم ، فتمزقت

وأخرج مُسَطَّح من قلمون ، عُمل بتنِّيس للعزيز وسمّى دار البطيخ ، يقوم على ستّة أعمدة ، وفيه أربع قباب بين كل قُبّتين رواقٌ يقوم كل منها على أربعة أعمدة ، وطولُ كلِّ عمود ثمانية عشر ذراعا . ومُسَطَّح عمله الظاهر فى تنِّيس ، كله ذهب طميم بستر صفارى بلّلور وستة أعمدة من فضة أنفق عليها أربعة عشر ألف دينار . إلى غير ذلك من القصور والخيام المخمل وغيره من سائر أنواع الحرير ، وعدّة من الحمامات المعمولة من البلّلور والطالقانى ومن الأدم المذهبة المنقوشة بحياضها ودككها ، ومَسَاطبها وقُدورها ، وزجاجها وسائر عُدَدها

وأخرجت المدوّرة الكبيرة التى عُمِلت بحاب فى سِنِي بضع وأربعين وأربعمائة ، فبلغت النّفقة عليها ثلاثين ألف دينار ، وكان طول عمودها أربعين ذراعا ، ودَوْرُ فلكه أربعة وعشرين شبرا ، وزنة صفريته قنطارين من فضة سوى أنابيب الحديد ، ويحملها سبعون جملا ، ولا ينصبها إلاّ نحو المائتى رجل ، وهو شبه القاتول العزيزى . وأخرج من المظال وقصبها الفضة والذهب شيءٌ له قدر جليل . وأخرج من الصناديق ، والقمطرات والأدراج والموازين وغلف الأمشاط والمرايا والمداخن من الكيمخت والأبنوس والعاج وسائر الخشب والبقّم(١) المحلىّ جميعُها بالذهب والفضة المغشّاة بأغشية الأدم والحرير مالا يُحَدّ كثرة .

ومن صناديق الطعام وخزائنه والمَجَامِع مالا يُدركه الإحصاء لكثرته . وأخرج من خزائن الفضّة ما ينيف على ألف ألف درهم ، كلها آلات مصوغة مُجْرَاة بالذهب ، فيها ما يبلغ زنة القطعة منها خمسة آلاف درهم مما هو غريب الصنعة ، فبيع جميعُه عشرون

---

(١) البقم بالتشديد : صبغ خاص . قيل عربى وقيل معرب ، المصباح المنير .

درهما بدينار ، وكانت قيمته خمسة دراهم بدينار . وأخرج غير ذلك عُشاريّات موكبية وأعمدة الخيام وقصب المظال ، ومَنْجُوقات وأعلام وقناديل وصناديق وبوقات وزواريق وقمطرات ، وسروج ولُجمُ ومناطق العَمّاريات وغير ذلك ما يجاوز ألف ألف فضة ، بيعت كما بيع غيرها .

وأخرج من الشطرنج [١٠٢ ب] والنرد المعمولة من أنواع الجواهر والأحجار ومن الذهب والفضة والعاج والأبنوس برقاع الحرير المذهب وغيره مالا يُحدّ كثرةً ونَفَاسةً ؛ ومن دُسُوت الفصاد[١] مثل ذلك ؛ ومن خرق المنْجُوقَات والمطارد والمِظَالّ والأعلام مالا يمكن وصفه لكثرته مما هو مخمل وحرير ساذج ومذهب ؛ فقُطع جميع ذلك وبيع . وأُخرج مرة من خزائن السروج خمسة آلاف سرج كان أبو سعيد إبراهيم بن سهل التُّسْتَرى[٢] قد عملها ، فيها ما يساوى السّرج الواحد منها سبعة آلاف دينار إلى ألف دينار ، شبك جميعها وفرق فى الأتراك ، كان منها أربعة آلاف سرج بِرَسْم رِكاب الخليفة .

وأخرج من خزانة السيدة أم المستنصر أربعة آلاف مثلها ودونها ، صنع بها مثل ذلك . وأخذ منها آلات فضية وزنها ثلثمائة ألف وأربعون ألف درهم ، تساوى ستة دراهم بدينار . وأخرج من القصر أقفاص مملوءة آلات مصوغة مُجْرَاة بالذهب معْدُومَة المثل صنعةً وحُسْنا ، عدتها أربعمائة قفص كبار ، شبكت كلها فى إيوان القصر وفرقت . ومعظم ذلك كان فى وزارة جلال الملك بن عبد الحاكم فى هذه السنة . كان من جملة ما فى الأقفاص ستة عشر ألف قطعة برسم العوارى خاصة . وأُخرج فى بعض أسابيع المولد ألفان وخمسمائة إناء من فضة

---

(١) الدست من الثياب ما يكفى أقله لقضاء الحاجة . والفصد قطع العرق والاسم الفصاد المصباح المنير ، القاموس المحيط .

(٢) هكذا فى الأصل وفيه خلط بين اسمى الأخوين ابنى التسترى ، وأحدهما أبو سعيد سهل بن هارون والآخر أبو نصر إبراهيم بن هارون . وقد سبقت أخبارهما فى السنين الأولى لخلافة المستنصر .

برسم الخِيَم . وأخرج مرة عند ورود بعض رسُل ملوك الرُّوم فيما أُخرج عدة كثيرة من صوانى الذهب والفضة المجراة بالميناء الغريبة الصنعة ، مُلِئت كلُّها جوهرًا فاخرا ، وأربعة آلاف نرجسية فضة محرقة بالذهب عُمل فيها النرجس ، وألفا بنفسجية كذلك . وأخرج من خزائن الطِّريف ستة وثلاثون ألف قطعة ما بين بللور وغيره . وكان مبلغ ما قوّم من نصب سكاكين ، بأقل القيم ، ستة وثلاثين ألف دينار . وأُخرج من تماثيل العنبر اثنان وعشرون ألف قطعة ، أقلّ تمثال منها وزنه اثنا عشر منًّا(١) وأكبره يتجاوز ذلك بكثير ؛ ومن تماثيل الكافور مالا يحدّ كثرة ، منها ثمانمائة بطيخة كافور ، إلى غير ذلك من تماثيل الفاكهة .

وأخرج من خزائن الفرش أربعة آلاف رزمة خسروانية مذهبة ، فى كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته . وأُخرج من خزائن الكسوات من التخوت والأسفاط والصناديق المملوءة بفاخر الملابس المستعملة بتنِّيس ودمياط وبرقة وصِقِلِّية وسائر أقطار الأرض مالا يُحَدُّ كثرةً ولا يعرف له قيمة .

وفى هذه السنة بعث ناصر الدولة ابن حمدان عماد الدولة ، المعروف بالمخنُوق ، هو والوزيرَ أبا محمّد بن أبى كدينة إلى المستنصر يطالبه معهما بما بقى لغلمانه ، فذكر أنه لم يبق عنده شئ إلا ملابسه ، وقال فابعث من يقوّم ذلك ويقبضه ؛ فأخرج إليهما ثمانمائة بذلة من ثيابه بجميع آلاتها كاملة ، قُوّمت وحُملت إليه فى حادى عشر صفر .

وفيها وهب المستنصر لفخر العرب وتاج الملوك الكَلَوْتَة(٢) المرصعة بالجوهر ، وكانت من غريب ما فى القصر ونفيسه ، وكانت قيمتها مائة وثلاثين ألف دينار ، وقُوّمت عليهما بثمانين ألف دينار ، وقسمت بينهما بالسويّة ، فجاء وزن ما فيها من الجوهر سبعة عشر رطلا

---

(١) المن مائتا درهم وستون درهما . قوانين الدواوين : ٤٥٥ .
(٢) غطاء للرأس ، تلبس وحدها أو مع عمامة ، وتجمع على كلوتات وكلاوات ، السلوك : ١ : ٤٩٣ : حاشية : ١ .

بالمصرى . فصار إلى فخر العرب من جملة ما وقع فى سهمه منها قطعة بَلَخْش زنتُها ثلاثة وعشرون مثقالا ، فأنفذها مع باقى ماحصل له منها إلى الفخرية ، وكانت بثغر الإسكندرية ، فحملت بعد ذلك إلى تنِّيس مع غيره من رجالاتهم ، فصار جميعُه عند أمير الجيوش بالشَّام . وصار إلى تاج الملوك منها حَبّات درّ ، زنة كلٍّ حبة ثلاثة مثاقيل وعدّتها مائة حبة ؛ فلما انهزم من مصر أخذها بعض غلمانه مع غيرها من نفيس الجوهر وهرب إلى الصعيد ، فقتل وأخذ منه .

وأخرج من خزائن الطِّيب مما أخرج خمسة صوارى عود هندى ، طولُ كل واحد منها ما بين تسعة أذرع إلى عشرة أذرع ؛ وكافور قنصورى زنة كل حصاة منه من خمسة مثاقيل إلى ما دونها ؛ وقِطَعُ عنبر تَزِنُ القطعة ثلاثة آلاف مثقال ، فوهب ذلك لناصر الدولة ، فحاز منه مالا حدٌّ له ولا قيمة . وحمل إليه من القصر متارد صينى ، يقوم كل مترد منها على ثلاثة أرجل على صورة السِّباع وغيرها ، يسع كلٌّ منها مائتى رطل وما فوقها ؛ [١٠٣ ا] وعدة قطع يشب وبازهر ، منها جامٌ سعته ثلاثة أشبار ونصف وعُمْقه شبر ، مليح الصَّورة . وأخرج من القصر منديل نسيج من زغب ريش بدائر يسمى السَّمَنْدل ، طولُه تسعة أشبار ، لا يحترق بالنَّار ، فاشتراه بعضُ المسافرين التجار بثمن يسير طلب فلم يقدر عليه . وصار إلى ناصر الدولة قطرميز[1] بلَّلور فيه صور ناتئة عن ضبّته يسع سبعة عشر رطلا ، ودكوجة بللور تسع عشرين رطلا ؛ وقصرية يصب كبيرة جدا ؛ وعدة كاسات يصب ؛ وطابع نَدّ[2] فية ألف مثقال عمله فخر الدولة أبو الحسن على بن ركن الدولة ابن بُوَيه الديلمى[3] وكتب عليه فخر الدّولة شمس الدولة ، وكتب عليه أبياتا ، منها :

---

(١) قلة كبيرة من الزجاج ـ معرب . قال بعضهم :

أنا لا أرتوى بكاس وطاس   فاسقنيها بالزق والقطرميز

(٢) الند ، بالفتح : عود يتبخر به .

(٣) وركن الدولة هو أبو على الحسن ، حكم منطقة الرى وهمذان وأصفهان بين سنتى ٣٢٠ – ٣٦٦ (٩٣٢ – ٩٧٦). وحكم ابنه فخر الدولة المذكور بين سنتى ٣٦٦ – ٣٨٧ (٩٧٦ – ٩٩٧) فى الرى وهمذان ، وانتزع أصفهان سنة ٣٧٣ (٩٨٣) من أخيه مؤيد الدولة أبى منصور الذى كان يتولاها منذ سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ، أى منذ وفاة والده ركن الدولة : Mohammadan Dynasties.

ومن يكن شمْسَ أهل الأرض قاطبةً   فندّه طـابع من ألف مثقال

فاقتسمه ناصر الدولة وفخر العرب وتاج الملوك أمير الأمراء .

وصار لناصر الدّولة أيضا طائرٌ من ذهب مرصّع بنفيس الجوهر وعينّاه من ياقوتٍ أحمر وريشُه من الميناء المجْرَى بالذهب كهيئة ريش الطاووس . وديكٌ من ذهب له عرف كأكبر أعراف الديكة من الياقوت الأحمر ، مرصّعٌ كلُّه بسائر الدّر والجوهر ، وعيناه من ياقوت أحمر ، كان يُحيِّرُناظِرَهُ كيفيَة تركيبه لالْتئام الصنعة فيه وملاحتها . وغزالٌ مرصَّعٌ بنفيس الدُّرّ والجوهر ، بطنُه أبيض منظور من درٍّ رائع يخاله الناظر حيوانا . ومجمع سكارج[1] مخروط من بللور فظ ، وفيه سكارج من بللور يخرج منه ويعود إليه فَتْحَتُه أربعة أشبار فى مثلها ، محكم الصنعة فى غلاف من خيزران مدهب ، فسمح به لفخر العرب . وأُخْرِج بطيخة من كافور فى شباك من ذهب مُرَصَّع ، وزن كافورها سبعون منًّا سوى الذَّهب ، اقتسمها فخر العرب وتاج الملوك ، فخصّ فخر العرب منها ثلاثة آلاف مثقال من ذهب ؛ وقطعة عنبر تسمى الخروف زنتُها سوى ما يُمْسِكها من الذهب ثمانون منًّا ، وعدة قطارميز بللور فيها صور مجسمة بارزة ، يسع كل منْها عشرين رطلا .

وطلب الأتراك من المستنصر نفقة ، فماطلهم بها ، فهجموا على التُّربة التى للقصر[2] وأخذوا ما فيها من قناديل الذهب ومن الآلات كالمداخن والمجامر وحلى المحاريب ، فجاء منه خمسون ألف دينار . وصار إلى فخر العرب مقطع حرير أزرق رقيق بديع الصَّنْعة منسوج بالذَّهب وسائر أنواع الحرير تَنْبِيتًا ، عمِله المعزّ ، فيه صورة أقاليم الأرض بِمُدُنِها وجبالها وبحارها وأنهارها وسعة حصونها ، وفيه صورة مكة والمدينة ، وفى آخره : مِمّا أمر بعَمَله المعزّ لدين الله

---

(١) جمع سكرجة وهى الصحفة .

(٢) حين قدم المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢ أحضر معه أجداث آبائه ودفنهم فى التربة التى جعلت لهم خصيصا بالقصر والتى دفن فيها بقية الخلفاء الفاطميين وكثير من أمرائهم ونسائهم .

شوقاً إلى حرم الله ، وإشهاراً لمعالم رسول الله ، فى سنة ثلاثٍ وخمسين وثلثمائة ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار .

وصار إلى فخر العرب مالايُحصَى كثرةً ؛ من ذلك مائدة يصب كبيرة قوائمها منها ؛ وبيضة كبيرة بلخشن زنتها سبعة وعشرون مثقالا أشدّ صفاء من الياقوت الأحمر ؛ وبيت أرمنى منسوج بالذهب عُمِل للمتوكّل على الله العباسى لامثل له ولاقيمة ؛ وقطرميز بللور يسع مروقتين نبيذاً مليح التقدير ، قوم عليه مّما خرج من القصر ثمانمائة دينار فدُفع إليه بعد ذلك فيه ألف دينار فأَبى ، وبساط خُسْروانى دفع إليه بالإسكندرية ألف دينار فامتنع من بيعه ؛ ومائدة جزع يقعد عليها جماعة ، قوائمُها مخروطَة منها مَالاَقَدْر لها ولاقيمة . سوى ماقبضة شَاوَر بن حسين لناصر الدّولة ولفخر العرب من آلات الذهب والفضة ، وآنية الجوهر وعقوده ، وفاخر الثياب والفُرُش والآلات والسلاح ، مما قوّم بمئين ألوفاً وكانت قيمته ألوف ألوف دينارا .

وصار إلى ناصر الجيوش ماقيمته ألف ألف دينار من جملته نخْلةٌ من ذهب مكللّة بجوهر بديع ودرّ رائع ، فى إجّانة من ذهب ، تجمع الطَّلْع والبلح وسائر ألوان البُسْر والرّطب ، بشكله ولونه ، وصفته وهيئته من ألوان الجواهر ، لاقيمة لها . وكوز على مثال كوز الزير من بللور يسع عشرة أرطال ماء مُرصّع بنفيس الجوهر لاقيمة له ، وصورة مكللّة بِحَبٍّ لؤلؤ نفيس ، فيها ماوزن الحبّة منه مثقال ، ومنه مايزن [١٠٣ ب] مثقالين مرصّعة بياقوت . وأُخرج فيه العشارى المعروف بالمقدّم ، ونجارُه وكسوة رَحْله التى عملها الوزير علىّ بن أحمد الجرْجَرائى فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، كان فيها مائة ألف وسبعة وستون ألفا وسبعمائة درهم فضة نُقرة ، غير ماأُطلق للصناع من أُجرة صياغةٍ وثمن ذهب لطلائه ، وهو ألفان وتسعمائة دينار ؛ وكان سعر الفضة فى ذلك الوقت كل مائة درهم بستّة دنانير وربع ، بسعر ستّة عشر درهما بدينار . وأُخرج حلى العشارى الفضى الذى عمله أبو سعيد إبراهيم بن سهل التُّستَرى(١) لمّا وَلِى الوساطة فى سنة ست وثلاثين وأربعمائة لوالدة

(١) سبق التنبيه على أن ق هذا خلطا بين اسمى الأخوين ابنى التسترى .

المستنصر ، وكان الحلى مائة ألف وثلاثين ألف درهم فضة ،وإلى ذلك أجر الصباغة ولطلاء بعضِه ألفان وأربعمائة ، غير ما استُعْمِل كسوة برسمه مالٌ جليل . فأُخرج عدة العشاريات التى برسم القوة البحريّة ، وعدتها ستة وثلاثون عشاريا ، وكان قد انصرف عليها فى حلاها من مناطِقَ ورءوس مَنْجُوقات وأهِلّة وصُفْريّات وكساها أربعمائة ألف دينار .

وأخرج ما على سرير الملك الكبير من الذَّهب الإبريز الخالص فكان مائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال . وأخرج السِّتْر الذى أنشأه أبو محمد اليَازُورِى فجاء فيه من الذهب ثلاثون ألف مثقال ، وكان مرصّعاً بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الألوان . وأخرجت الشمسَة الكبيرة وكان فيها ثلاثون ألف مثقال ذهباً وعشرون ألف درهم فضّة وثلاثة آلاف وستمائة قطعة جوهر ، وأُخرجت الشمسَة التى لم تتمّ فوُجِد فيها من الذّهب سبعة عشر ألف مثقال . وأخرج من خزانَةٍ عدة مناكين فضة ، منها مازنتُه مائة وتسعة أرطال إلى مادونَها . وأُخْرِجَ بُستانٌ أرضُه فِضّة محرقة مذهبة ، وطينُه ندّ معجون ، وأشجاره فضّة مصنوعة ، وأثماره عنبرونَدّ ، زنته ثلثمائة وستة أرطال بالمصرى . وبطيخة كافور مشبكة بذهب وزنها عشرة آلاف مثقال ، ومنقلَتَا كافور مشبكتان بذهب زنتُهما ستّةُ آلاف مثقال ، ومُنقلتَا عنبر وزنهما عشرة آلاف مثقال ، ومنقلتا عنبر مدوّرتان وزنهما ستة آلاف مثقال . وَأثواب مُصْمتة ، منها أربعةُ يُفَصَّلُ كل ثوب منها اثنين ، وثلاثون قميصًا تامًّا ، ومدهن ياقوت أحمر زنته سبعة وثلاثون درهما ونصف، أُخذ من مَوْجُود اليَازُورى وكان قد صار إليه من السيدة عبدة بنت المعز لدين الله . وأخرج لُؤلؤٌ زِنةُ كلِّ حبّةٍ منه مثقالان ، ومِن الياقوت الأزرق مازِنَةُ كلّ قطْعةٍ منه سبعون درهما ، ومن الزمّرد ماوَزْن كلّ قطعة منه ثمانون درهما ، ونصاب مرآة طويل ثخين من زمرد لا قيمة له .

وأخرج من خزائن الكتب ثمانية عشر ألف كتاب فى العلوم القديمة ، وألفان وأربعمائة خَتْمة فى ربعات بخُطوط منْسُوبة محلّاة بذهب وفضة . وأخَذ جَميعَ ذلك الأتراكُ ببعض قيمته . وأُخْرِج فى المحرّم منها فى يوم واحد خمسة وعشرون جملًا مُوقَرةً كُتُبًا صارت إلى دار الوزير أبى الفرج محمّد بن جعفر بن المعزّ ، واقتسمها هو والخطير ابن الموفّق فى الدارين

بخدمات وَجَبت لهما عمّا يستحقّانه وغلمانهما من ديوان الحلبيين ؛ وأن حصة الوزير أبي الفرج قُوّمت عليه بخمسة آلاف دينار ، وكانت تساوى أكثر من مائة ألف دينار ، نُهِبَتْ بأَجْمعِها من داره يومَ انهزم ناصرُ الدولة من مصر فى صفر ، مع غيرها مِمّا نُهب من دُورِ مَنْ سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما .

وأخرج مافى خزائن دار العلم بالقاهرة . وصار إلى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترف بالإسكندرية كثير من الكتب ، ثم انتقل منها كثيرٌ ، بعد مقتله ، إلى المغرب وأخذتْه لَواتَةُ ، فيما صار إليها بالابتياع أو الغصب من الكتب الجليلة المقدار مالايعدّ ولايوصف ، فجعل عبيدُهُمْ وإماؤهم جُلُودَها نِعَالًا فى أرجلهم ، وأُحْرِق ورقُها تأوُّلًا منهم أنها خرجت من القصر وأنَّ فيها كلامَ المشارقة الّذى يخالف مذهبهم ، فصَار رَمَادُها تلالاً عرفت فى نواحى أبْيَار بِتلال الكتب ، وغرق منها وتَلف ، ووصل إلى الأمصار مايتجاوز الوصف .

وأُخرج من بعض الخزائن الّتى بالقصر بيضة كبيرة [١٠٤ ا] كأكبر مايكون من بيض النعام محلّاة بذهب ، فأَخذها المستنْصِر دونَ ماأُخْرِج من تلك الخزانة مِمّا لهُ خطرٌ وقدر ؛ فقال بعض الحاضرين هذه بيضة نَعامة ، فتغافل بعضُ من حضر من الأتراك عنها ، وأَخذُوا النَّفَائس من الذَّخائر وانصرفوا . فسئل المستنصر من بعض الخدم عن هذه البيضة ، فقال : هى بيضةٌ حيّة أهداها بعض الملوك إلى جدّى القائم بأَمر الله ، وكان يحتفظ بها ، وهذه الرّقعة بخط القائم بأَمر الله باسم مُهْديها والسنة الّتى أُهديت فيها .

وأُخرج من القصر فى ثلاثة أيام من المحرّم ماقيمته من العين اثنان وعشرون ألف دينار وستّمائة وستة وسبعون دينارا وثمن دينار ، منها قيمة متاع ثلاثة عشر ألفا وثمانمائة وثلاثون دينارا وثلث وثمن ، وقيمة جوهر ثمانية آلاف وثمانمائة وخمسة وأربعون دينارا وثلثان ؛ هذا على أنَّ مايساوى ألف دينار يُقَوّم بمائة دينار ومادونها . فإذا كان هذا فى ثلاثة أيام فكيف يكون فى مُدّة سنتين ليلا ونهارا !

وتسلَّم جلالُ الدّولة بن بُوَيه[1] من العَيْن ، له ولمن يجرى مجراه وعدَّتُهم عشرة نفر، من عطيَّة واحدة مبلغ أربعة وأربعين ألف دينار ومائة وثلاثين دينارا . ووصل إلى بغداد على يد التُّجّار مِمّا خرج من القصر ، على ماوقفت فى تاريخ بعض البغداديين ، أحد عشر ألف درع وعشرون ألف سيف محلىًّ ، وثمانون ألف قطعة بلّلور وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج . وبيع طشت وإبريق من بللور باثنى عشر ألف دينار ؛ وبيع نحو السبعين ألف قطعة من الثياب ، وعشر حبات زنتُها عشرة مثاقيل بأربعمائة دينار .

قال ابن ميسر : رأيت مُجلَّدةً تجىءُ نحو العشرين كراسة ، فيها ذكْرُ ما خرج من القَصر من التحف والأثاث والثياب والذّهب وغير ذلك .

وفيها صُرف الوزير محمّد بن جعفر ابن المغربى عن الوزارة فى رمضان ، وتقرر جلال الملك أبو أحمد ، أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى . وفيها قَتَل أميرُ الجيوش بَدْر بساحل الشام الشَّريفَ أبا طاهر حيدرة ، ناظر دمشق[2] ، لإحَنٍ كانت فى نفسه منه ، وكان يُعدُّ من الأجواد . وفيها تغلب الأمير حِصْنُ الدولة مُعَلَّى بن حَيْدَرة الكُتامى على دمشق واقتحمها قَهْراً[3] بالسيف فى شوال ، فأساء السيرة فى الناس .

وفيها عظم الغلاء بمصر واشتدّ جُوع الناس لِقِلَّة الأقوات فى الأعمال وكثرة الفساد ، وأكل الناسُ الجيفة والميتات ، ووقفوا فى الطرقات فقتلوا مَنْ ظفروا به ؛ وبيعت البيضةُ من بيض الدجاج بعشرة قراريط ، وبلغت رَاوِيةُ الماء دينارا ، وبيعت دار ثمنها تسعمائة

---

(١) هو جلال الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه .

(٢) وكان الشريف حيدرة بن إبراهيم أبى طاهر بن أبى الجن قد وصلها فى شعبان سنة ٤٦٠ ناظرا على الشام (وزيرا عليها) مع واليها الأمير قطب الدولة ؛ باز طغان ، فترصد له بدر الجمالى ، الوالى المعزول ، لإحن كانت بينهما ، حتى نجح فى اقتناصه وقتله ، ذيل تاريخ دمشق : ٨٤ . وكان عالما قارئا ، هرب من الجمالى إلى عمان البلقاء فغرر به بدر ابن حازم صاحبها وسلمه للجمالى فى مقابل اثنى عشر ألف دينار وخلع كثيرة . النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٥ .

(٣) « وليها قسرا وغلبة وقهرا من غير تقليد » فبالغ فى المصادرات وارتكب من الظلم ومصادرة المستورين الأخيار الشىء الكثير . وقيل إن التقليد وصله بعد أن تولاها قهرا . ذيل تاريخ دمشق : ٩٥ — ٩٦ .

دينار بتسعين دينارا اشتُرِى بها دُونَ تلِّيس دقيق[1] . وعم مع الغلاء وباء شديد ؛ وشمل الخوف من العسكرية وفساد العبيد ، فانقطعت الطرقات برًّا وبحراً إلاَّ بالْخِفَارة الكبيرة مع ركوب الغرر . وبيع رغيف من الخبز زنته رطل فى زقاق القناديل[2] كما تباع التحف والطُّرف فى النِّداء : خراج ! خراج ! فبلغ أربعة عشر درهما ؛ وبيع أردب قمح بثمانين ديناراً . ثم عدم ذلك كله ، وأُكِلَت الكلاب والقطط ، فبيع كَلْبٌ ليؤكل بخمسة دنانير. وأبيعت حَارةٌ بمصر بطبق خبز ، حساباً عن كلِّ دارٍ رغيفٌ ، فعُرِفت تلك الحارةُ بعد ذلك بحارة طبق ، ومازالت تعرف بذلك حتى دَثَرت فيما دثر من خطط مصر . وأكل الناس نحاتة النَّخل ؛ ثم تزايد الحال حتى أكل النَّاس بعضُهم بعضا .

وكان بمصر طوائف من أهل الفَسَاد قد سكنوا بُيوتاً قَصيرةَ السُّقوف قريبةً مِمَّن يسعى فى الطُّرقات ، فأعدوا سَلَبًا وخَطَاطِيف ؛ فإذا مرَّ بهم أحدٌ شالوه فى أقرب وقت ، ثم ضربُوه بالأخشاب وشرَّحوا لحمه وأكلوه . قال الشريف أبو عبد الله محمد الجوانى فى كتاب النقط : حدثنى بعض نِسَائنَا الصَّالحات قالت ، كانت لنَا من الجارات امرأة ترينا أفخاذها وفيها كالحُفَر ، فتقول : أنا ممَّن خطفنى أَكَلةُ النَّاس فى الشدة ، فأخذنى إنسانٌ ، وكنت ذات جسم وسمن ، فأدخلنى بيتًا فيه سكاكين وآثار الدماء وزفرة القتيل ، فأضجعنى على وَجْهى وربط فى يدىَّ ورِجْلىَّ سَلَبًا إلى أوتاد حديد ، [١٠٤ ب] عُرْيَانةً ، ثم شرَّح من أفخاذى وأنا أستغيثُ ولا أحد يجيبنى ، ثم أضرم الفحم وأشوَى من لحمى وأكل أكْلاً كثيراً ؛ ثم سكر حتى وقع على جَنْبيه لا يعرفُ أين هو ؛ فأخذت فى الحركة إلى أن تخلَّى أحد الأوتاد ، وأعان الله على الخَلَاص ، وخلصت ، وحللت الرباط ، وأخذت خروقا من داره

---

(١) باعها بعشرين رطل دقيق ، أى أقل بكثير من التليس المذكور فى المتن ، إذ أن التليس يزن مائة وخمسين رطلا . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٧ ؛ قوانين الدواوين : ٣٦٥ .

(٢) كان من الأحياء التى يسكنها الأعيان وكبار القوم بمدينة الفسطاط زمن انتعاشها وعمارتها ، وهو الآن أرض فضاء تجاور جامع عمرو بن العاص من جهة الشرق .

ولففت بها أفخاذى ، وزحفت إلى باب الدار وخرجت أزحف إلى أن وقعت إلى الناس ، فحُمِلتُ إلى بيتى ، وعرّفتهم بموضعه ، فمضوا إلى الوالى فكبس عليه وضرب عنقه ، وأقامت الدماء فى أفخاذى سنةً إلى أن ختم الجرح ، وبقى هكذا حفرا .

وآل أمر الخليفة المستنصر إلى أن صار يجلس على نُخٍّ أو حصير ؛ وتعطّلت دواوينه وذهب وقاره ، وخرج نساء قصوره ناشرات شعُورَهن يصِحْن : الجوع الجوع ، وهنّ يُردن المسير إلى العراق ، فتساقَطن عند المصلى بظاهر باب النصر من القاهرة ، ومتْنَ جوعاً . جاء الوزير يوماً على بغلة فأكلها العامة ، فأمر بهم فشُنقوا ، فاجتمع الناس على المشنّقين وأكلوهم . وعدم المستنصر القوت جُملةً حتى كانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه كلّ يوم بقَعْبٍ من فَتيت من جُملة ما كان لها من البرّ والصَّدقَات فى سنى هذا الغلاء ، حتى أنفقت مالَها كلَّه ، وكان يجل عن الإحصاء ، فى سبيل البرّ ؛ فلم يكن للمستنصر قوتٌ سوى ما كانت تبعث به إليه ، وهو مرة واحدة فى اليوم ، لا يجد غيره . وبعث بأولاده إلى الأطراف لعدم القوت ، فسيَّر الأمير عبد الله إلى عكَّا فنزل عند أمير الجيوش ، وأرسل الأمير أبا على معه ؛ وبعث الأمير أبا القاسم والد الحافظ إلى عسقلان ، وسيّره أولا إلى دمياط ؛ ولم يترك عنده سوى ابنه أبى القاسم أحمد .

وبعث المستنصر يوما إلى أبى الفضل عبد الله بن حسين بن شورى بن الجوهرى الواعظ ، فدخل القاهرة من باب البَرقيّة[1] ، فلم يَلْقَ أحداً إلى القصر ؛ فجاء من باب البحر[2] ، فوجد عليه شيخاً ، فقال اسْتَأذِنْ علىَّ ؛ فقال : ادخُل فهو وحده ؛ فدخل ، فلم ير أحداً فى الدهاليز ولا القلعة ، فأنشد :

---

(١) والبرقية جماعة كبيرة قدمت مع المعز لدين الله سنة ٣٥٨ ، واستقروا بحى خاص بهم عرف باسم حارة البرقية ، بمنطقة الدراسة الحالية .

(٢) من أبواب القصر الغربية سمى بذلك لأن الخليفة كان يستخدمه عندما يقصد شاطىء النيل عند المقس . وموضع هذا الباب – كما يقول المقريزى فى الخطط – يعرف باسم باب قصر بشتاك ، بشارع بين القصرين . النجوم الزاهرة : ٤ : ٣٥ حاشية : ٦ .

يا منزلاً ، لم تَبْلَ أطلالُـه حاشَا لأَطْلاَلِك أن تبـلى
لم أبكِ أطلالَك ، لكنَّنى بكيت عيشى فيك إذْ وَلَّى
والعَيْشُ أولى ما بكاه الفتى لابدَّ للمحزون أن يسـلى

فإذا هو خلف باب المجلس ، فبكى وبكيت طويلا ، وحادثته ساعة ؛ ثم ناوله الخليفة قرطاسا فيه سبعون دينارا .

ومن عجيب ما وقع أن امرأة من أرباب البيوت عرضت عِقداً لها قيمته ألف دينار على جماعة ليُعْطوها به دقيقاً وهم يعتذرون إليها ويدفعونها ، إلى أن رقّ لها رجل وباعها به تلّيس دقيق ، فحملته من مصر واكترت معها مَنْ يحفظه من النُّهَّابَة ، وسارت تريد منزلها بالقاهرة ، فسلّمه الحَمَلَةُ إليها عند بابِ زويلة ، فلم تمش به غير قليل حتى تكاثر النَّاسُ عليها ، وانتهبوه منها فانتهبت هى أيضا منه مع النهَّابة ، فصار إليها ملء يديها دقيقا لم ينبها منه غيره ، فعجنته وشوته ، ثم مضت إلى باب القصر ووقفت على موضع مرتفع ، ورفعت القُرْصَة فى يدها حتى يراها الناس ، ونادت بأَعْلَى صوتها : يأهل القاهرة ، ادْعُوا لمولانا المستنصر الذى أسْعَد الله الناس بأَيامه وأعاد عليهم بركاتِ حُسْن نظره ، حتى تقوّمت علىَّ هذه القرصة بألف دينار . ووقف مرة بعض المياسير بباب القصر وصرخ إلى أن أُحضر المستنصر ؛ فلما وقف بين يديه قال : يامولانا هذه سبعون قمحة وقفت علىّ بسبعين ديناراً كلُّ حبة قمح بدينار ، فى أيامك ، وهو ، أنى اشتريت إرْدبًّا بسبعين ديناراً فنُهب منى ولم يبق لى منه سوى ما وقع بيدى وانتهابِى منه مع مَنْ نهب ، فعَدَدْتُ ما فى يدى فجاء سبعين حبَّةً مِنْ قمح ، وإذا كل حبّة بدينار . فقال المستنصر : الآن فرج الله على الناس فإنَّ أيامى حُكِمَ لها أنه يباع فيها القمحة بدينار .

ولم يكن هذا الغلاء عن قصورِ مدِّ النيل فقط ، وإنما كان من اختلاف الكلمة ومُحَارَبة الاجناد بعضهم مع بعض . وكان الجند عدة طوائف مختلفة الأَجناس ، فتغلبت لُوَاتَةُ والمغاربة على الوجه [١٠٥ ا] البحرى ، وتغلب العبيد السودان على أرض الصعيد ، وتغلب

الملثمة والأتراك بمصر والقاهرة[1] ، وتحاربوا . وكان قد حصل ذلك من بعد قتل اليازورى فى سنة خمسين كما تقدم ؛ فمازالت أمور الدولة تضطرب وأحوالها تختَلّ ، ورسومُها تتغير ، من سنة خمسين إلى سنة سبع وخمسين ، فابتدأت الشدة منها تتزايد إلى سنتى ستين وإحدى وستين ، فتفاقَمَ الأمرُ وعظم الخطْب واشتد البلاء والكرب . وما برحَ المصاب يعْظُم إلى سنة ست وستين ، وكان أشدها مدة سبع سنين ، من سنة تسع وخمسين إلى سنة أربع وستين أخصَبت كلَّ شر ، وهلك فيها معظم أهل الإقليم . ثم أخذ البلاء ينجلى من سنة أربع وستين إلى أنْ قدم أمير الجيوش بدر فى سنة ست وستيّن ، كما سيأتى ذكره إن شاء الله . فكانت السبع سنين المذكورة يمدّ فيها النيل ويطلُع وينزل فى أوْقَاتِه ، فلا يوجد فى الإقليم مَنْ يزرع الأراضى ولا منْ يقيم جسوره ، مِنْ كثرة الاختلاف وتواتُرِ الحروب ، وانقطاع الطُرقات فى البرّ والبحر إلّا بالخفارة الثقيلة وارتكاب الخطر ؛ ولم يوجد ما يُبْذرَ فى الأراضى للزراعة ، فإن القمحَ ارتفع الأردب منه من ثمانين دينارا إلى مائتى دينار ، ثم فُقد فلم يَقْدر عليه ولا الخليفة .

وفيها صُرف ابن أبى كدينة عن القضاء فى ثالث عشر صفر ، وتولى المليحى ؛ وصرف جلال الملك عن الوزارة ، وصرف معه أيضا المليحى عن القضاء فى يوم واحد ، وجُمِعَا معاً لخطير الملك محمد بن اليازُورِى فباشرهما إلى شوال ، ثم صرف عنهما . فاستقرَ فيهما بعده ابن أبى كدينة إلى ذى القعدة ؛ وأعيد المليحى بعده .

وفيها احترق جامع دمشق ليلة الاثنين ، النصف من شعبان ، بعد العصر ، وسببه فتنة

---

(١) أما لواتة والمغاربة فقد جاءوا مع جيوش الفتح وفى ركاب المعز لدين الله ، وتزايد السودان بالشراء وتكاثر عددهم أيام المستنصر ، إذ كانت والدته جارية لأبى سعيد التسترى - اليهودى - فلما تولى ابنها المستنصر الخلافة ، وسنه سبع سنوات تحكمت فى الدولة واستكثرت من بنى جنسها ؛ أما الأتراك فكان العزيز بالله أول من استقدمهم واستعان بهم فتزايد عددهم حتى أصبحوا - لكثيرهم - خطرا على الدولة .

بين العسكرية وأهل البلد ، فأضرموا النار فى بعض الأسواق واتّصل بالجامع ، فاحترق الجانب الغربى جميعُه من الرّواق الباقلانى والقبّة الكبيرة ، وزالت آثار الوليد بن عبدالملك التى لم يكن فى الإسلام مثلها[1] .

(١) جاء فى مرآة الزمان : « ... وكان القتال فى غربى الجامع ، ورمى المشارقة وأهل البلد بالنشاب من دار قريبة من الجامع ، فضربت الدار بالنار فاحترقت وثارت النار منها إلى الجامع فأحرقته ليلة نصف شعبان هذه السنة . ولما رأى العوام ذلك تركوا القتال وقصدوا الجامع طمعا فى تلافيه ليداركوا ما حدث ، ففات الأمر ، فرموا سلاحهم ولطموا واستغاثوا والنار تعمل إلى الصباح ، فأصبح الجامع ولم يبق منه إلا حيطانه الأربعة ، وصاروا أيام الجماعات يصلون فيه على التلال . وقال ابن القلانسى : « وأسف القاصى والدانى لاحتراق مثل هذا الجامع للمحاسن والغرائب ، المعدود من إحدى العجائب حسنا وبهاء ورونقاً وسناء ، وكيف أصابت مثله العيون الصوائب ، وعدت عليه عادية النوائب » . ذيل تاريخ دمشق : ٩٦ — ٩٧ .

سنة اثنتين وستين وأربعمائة [1] :

فيها بعث ناصرُ الدّولة حسينُ بن حمدان الفقيه أبا جعفر محمد بن أحمد بن البخارى رسولاً منه إلى السلطان ألْب أرْسَلان ، ملك العراق[2] ، يسأله أن يسيِّر إليه العساكر ليقيم الدعوة العبَّاسية بديار مصر ، وتكونَ مصر له . فتجهز ألْب أرْسَلان من خراسان فى عساكر عظيمة ، وبعث إلى محمود بن ثَمالَ بن صالح بن مِرْداس ، صاحب حلب ، أن يقطع دعوة المستنصر ويقيم الدعوة العباسية ، فقُطعت دعوة المستنصر من حلب ولم تعد بعد ذلك . وانتهى ألْب أرْسَلان إلى حلب فى جمادى الأُولى سنة ثلاث وستين وحاصرها شهرا ، فخرج إليه صاحبها محمود بن ثَمالَ بن صالح بن مِرْداس ، فأكْرَمَه وأقرّه على ولايته . وأخذ يريد المسير إلى دمشق ليمرّ منها إلى مصر ، وإذا بالخبر قد طرقه أن متملك الروم [3] قد قطع بلاد أرمينية يريد أخذ خراسان ، فشغله ذلك عن الشام ومصر ورجع إلى بلاده ؛ فواقع جمائع الروم على خِلَاط[4] وهزمهم . وكان قد ترك طائفة من عسكره الأتراك ببلاد الشام فامتدت أيديهم إليها وملكتها كلَّها ، فخرجت عن أيدى المصريين ولم تعد إليهم .

وبلغ المستنصر إرسالُ ناصر الدولة الى ألْب أرْسَلان ، فجهّز إليه ثلاث عساكر من الأتراك وغيرهم ، وتقدم أحد العساكر إليه وهو فى أهل البحيرة ، فجمع له ابن حمدان وأوقع به وقعة انكشفت عن أسر مقدّم العسكر ، وقتل كثير من أصحابه ، وانهزام من بقى ، والاستيلاء على ما بقى معهم ؛ فتقوّى به . ووافاه العسكر الثانى ولا عِلْمَ عندهم بما اتفق على مَنْ تقدّم ، فكانت الدائرة لابْن حمدان عليهم أيضا ؛ فسار وهجم على العسكر الثالث وقتل منهم وأسر ،

(١) ويوافق أول المحرم منها العشرين من أكتوبر سنة ١٠٦٩ .

(٢) سلطان السلاجقة العظام ، وهو عضد الدين أبو شجاع ابن أخى ركن الدين طغرلبك . تولى السلطنة بين سنتى ٤٥٥– ٤٦٥ (١٠٦٣ – ١٠٧٢) Mohammadan Dynasties ؛ تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهانى .

(٣) وهو الإمبراطور رومانوس الرابع .

(٤) خلاط عاصمة أرمينيا الوسطى ، وبها بحيرة لا يظهر بها سمك ولا ضفدع إلا شهرين فى السنة . معجم البلدان : ٣ : ٤٥٣ .

وفيها قُتل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحي يوم الاثنين ، النصف من المحرم ، بخزانة البنود ودفن فيها . واتفق فى وفاته عجب ، وهو أنه لما ولى الوزارة سَعى فى اعتقال أبى على الحسن بن على الأنبارىّ ، واعتقله بخزانة البنود ، ثم قتله ، فى سنة ستٍّ وثلاثين وأربعمائة ، ودفنه بخزانة البنود . فلما قبض عليه بعد صرفه عن الوزارة سُجن فى المكان الذى كان فيه ابن الأنبارى من خزانة البنود ، وقتل فيها ، ودفن معه . وكان ابن الأنبارى من جماعة الوزير الجرجرائى ورفيقاً للفلاحى وصاحبه ، ولما وَلِىَ الوزارة تخوَّف منه ، وما زال يعمل عليه حتّى قتله ، كما تقدم .

وفيها أقبلت حال أبى محمد اليَازُورِى تزيد ، ومَنْزِلَتُه ترتفع ، وخلع عليه ثانيا ، وأمِر ألا يقوم لأحد إذا دخل عليه ولو عظُم قدره ؛ فكان يعتذر إلى من يَغْشَاهُ من الجِلَّة والرؤساء الأكابر ، وأنه لو مَلَكَ اختيارَهُ لبالغ فى تكرمتهم بما يستحقونه ؛ خلا القائد عُدَّة الدولة الذى كان سفيره ، فإنه كان إذا أقبل وثب إليه قائما . فبلغ السيدة ذلك ، فقالت له : لا تتحرك لأحدٍ بالجملة ، فكان إذا جاءه اعتذر إليه . ولقب بالمكين عمدة أمير المؤمنين ؛ وترقَّت أحواله حتّى صار يحضر بحضرة الخليفة إذا أراد أن يستدعى الوزير كما كان أبو سعيد مع الفلاحى . فعظُم ذلك على الوزير ، لأنه كان إذا حضر القاضى أبو محمد اليَازُورِى تحدّث طويلاً والسيدة من وراء المقطع ، ثم يستدعى الوزير فيعرض ما يريدُ من أمْرِ الدّولة ، ولا يكون المجيبُ له إلاَّ القاضى أبو محمد ، فإذا أجابه الْتَفَتَ إلى المستنصر وقال أليس هذا الصّواب ؟ فيقول المستنصر نعم ؛ ثم يخرج الرّسُول من وراء المقطع ويقول هذا الصّواب . فكان الوزير كأنه يعرض على اليَازُورِى الأُمور دون الخليفة ، فيشُق عليه ذلك ، ولا يتمكن من مخالفته ، ولا يستطيع الصبر على ما به .

وكان من جملة أصحاب الدّواوين رجل يُعرف بالشيخ الأجل عبد الملك زين الكُفاة أبى المفضل صاعد بن مسعود ، وإليه ديوان الشام يومئذ ، وهو شيخُ خود ؛ وكان الوزراء

يعتمدون عليه ويرجعُون إلى رأيه . فأحضَر ه الوزير ، وفاوَضَه فى أمر اليَازُورِى ، وأخذ رأيه فيما يُعْمل معه ؛ فأشار عليه بأن يُحَسِّن للخليفة أن يقلِّده القضاء ، ظنًّا منه أنه إذا تقلَّد القضاء فإنه يقعُ فى أمر كبير ، ويشغلهُ ذلك عن مُلَازمة السيدة ، فيجد الوزير سبيلًا إلى استخدام ولده مكانه ، ويتقوَّى له الأمر فيه ، ويملك جهة الخليفة والسيدة . وكان قد تُكُلِّم فى قاضى القضاة من أيام أبى سعيد ، وذُكِرَ أنَّ [١٨٦ ا] أُمُورَ الناس ناقصةٌ فى حكوماته ، وأنَّ له غلمانا قد استَحْوذُوا على الحكم ، وهم الذين يُوقفون أُمُورَ النَّاس ؛ فاستخدم أبو سعيد شاهداً يعرف بابن عبدون ، خليفة القاهرة ، وتقدم إلى قاضى القضاة ألا يفصل حكما بين اثنين إلاَّ بحضوره . وضبط ابنُ عبدون أمر الحُكْم ضبطا شديدا ؛ وكان الخصوم يجتمعون بباب القاضى والشُّهودُ بين يديه ، فلا يُمضى حكما إلا فى دعوى بين اثنين ، ومايحتاج إليه من إقامة بينة ، أو منازعة امرأة مع بعل لها فى فرض ، ومايجرى هذا المجرى . وأمّا فى تثبيت أو قصص مستعجمة الحكم ، ومايُحتاج فيه إلى مناظرات ومنازعات فلا يتكلَّم فى شئ من ذلك إلا عند حضور ابن عبدون ؛ وحجج الناس يُحتاط عليها فى قمطر ، وتُحمل بين يدى القاضى ؛ فإذا حضر ابن عبدون أُحْضرت وفصل الحكم فيما بين أصحابها . ومازال كذلك حتى حضر إليه خصمٌ فى مرّات ، فخاف عليه وتشفع إليه بأصدقائه ، فلم يُعْرِهُ فرصة يوما حتى خرج من مجلس قاضى القضاة وركب ، فتقدم إليه وقبّل ركابه ، وخضع له وتلطَّف فى أمره ، فلم يلتفت إليه ؛ فعاد إلى مَنْ خرج إليه من الشهود وسألهم سؤاله ، فانتهره. فلما أيس منه وثب عليه بخنجر وخرق به بطنه ، فخرّ إلى الأرض ميتا . وأُخذ الرّجل إلى أبى سعيد ، فَنكَّل به وقطع يدَيْه ورجلَيْه ، وضرب عنقه . ثم استخدم أبُو سعيد بعدَ ابن عَبْدون القُضاعِيَّ وابن أبى زكرى وأقامهُما خليفتى قاضى القضاة ، وأمرهما بسلوك طريق ابن عَبْدُون فى الأحكام ، فلم يَقُوما مُقَامه ، وكانا يجاملان القاضى ؛ فعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل ابن عبدون ، إلَّا فى فصل الأحكام فإنها كانت لاتنفصل إلاَّ بحضورهما . فثقُل ذلك على القاضى لاسْتيلاء غلمانه عليه ، واتّهامه أنَّ أمورَ الناس واقفة ، وأنّه لاينفذ له حكم ولا أمرٌ ولا نهى .

وكان يحضُر مجلس الوزير يَوْمَ الخميس فى القصر بعد قَضاء خدمة المجالس ، ثم فى الدّار يوم الاثنين مسلّما عليه . فحضر دار الوزارة يومَ الاثنين على رغمه ، فقرّبه الوزيرُ وسأل عن حاله ؛ فأجاب بأنّه لاحُكم لهُ ولاأمر ، والأحكامُ مردُودة إلى خليفتيه ولهما الحكم دونه ، فإذا حضرَا فُتح باب الحكم ، وإذا غابا أُغلق بابه . فقال له : كفيت ياقاضى القضاة . وخرج من عنده وحضر بعده القضاعى وابن أبى زكرى ، فقال لهما الوزير : مالقاضِى القضاة يتضرّر منكما ويشكو استيلاءكُما على الحكم دُونه ، وأنّه لاتنفُذ أوامرُهُ معكما ؟ فقالا : وأىّ أمر لنا دونه ، هل أوقفنا أمر أحكامه ، أولنا غلمان يمسكون حجج النّاس حتى يُصَانعوهم عليها ؟ يعرّضان بغلمان القاضى ! إنما نحن فى حضورنا كبعض الشهود والأمر إليه فى إمضاء الأحكام ، وإنا لنشاهد مالايتّسع لنا الكلام فيه . فقال : كُفيتُما أيها القضاة . وانصرفا وقد انفتح له باب الحيلة فى صرف القاضى وتولية أبى محمد اليازورى .

واتفق مع ذلك توعُّك أبى محمد وانقطاعه أياما فى داره عن مجلس الخليفة ، فخلا لهُ وجهُ السلطان وأعاد عليه النَّوْبةَ ، ثم قال له : أنت ياأمير المؤمنين لسان الشرع ، ومقيمُ مناره ، ومنفّذ أحكامه ؛ وقاضى القضاة إنما ينطق بلسانك ، وينَفّذ الأحكام عنك ؛ فإذا اشْتهر فى الأقطار مايتمّ على الناس فى أحكامهم كان سُوءُ السمعة فى ذلك على الدولة ، وإثارةُ الشّنَاعة القبيحة عليها ؛ وفى الخصوم مَنْ هو من المشرق والمغرب واليمن وماوراءه ، والرّوم؛ وفى استفاضة ذلك غضاضةٌ على الدّولة . ونحن إنّما نَطُول على الممالك والدُّوَل بإقامة سنن الشريعة وإظهار العدل الذى عَفَت آثاره فى غيرها من الدّول ؛ وقد كبر قاضى القضاة واسْتَولى عليه غلمانه وغلبوا على أمره . فقال المستنصر : نحن نحفظ فيه خدمة سلفه لنا ومهاجرتَهم معنا . فقال : ياأمير المؤمنين ، حفظك الله وشكرك ؛ أمَا كان من كرامة سلفه أن يسْتَتِر حتى لايشيعَ هذا عنه ؟ ومازال حتى قال الخليفة : مَنْ فى الدولة يجرى مجراه ؟ فقال : ياأمير المؤمنين : [٨٦ ب] عبيدك كثير ، ومع ذلك فبين يديك مَنْ يتحمّل

الحكم به مع ثقتهِ وأمانته وقُرْبه من خدمتك ، القاضى أبو محمد . فقال : ذلك فى خدمة مولاتنا الوالدة، ولايفسح له فى ذلك. فقال : يا أمير المؤمنين، هى - خلّد الله ملكها - أغْيَر على دولتك وأحسن نظراً لها من أن تَحُولَ بينها وبين ما يجمّلها ؛ ومع ذلك ، فلم يُنْقل مما هو فيه إلى ما هو دُونَه ، بل إلى ما هو أوْفى منه . فأجاب إلى ذلك ، وقام ، فشرع فى كَتْبِ سجلّه وإعداد الخلع له . وسمع هذه النّوبة القائد عُدّة الدولة ، فأوفد إلى أبى محمد يخبره ، وقال له تلطّف فى أمرك كما تريد . فعظم ذلك عليه ، وخاف مِن بُعْده عن خدمة السيدة إذ كانت أجلّ الخِدَم ، فإنَّ كلّ منْ فى الدولة من وزير وأمير وغيرهما محتاج .

فلما كان عشاءُ الآخرة حمل على نفسه وهو محموم وركب إلى باب الرّيح[1]، ودخل ، وأنْفَذ يُعْلم السيِّدة مكانه ؛ فَخَرجت وراءَ المقطع وسألته عن حال مرضه ، وما الذى دعاه للعَناءِ فى هذا الوقت . فقصّ عليها القصة وقال : إنما الغرض إبعادى عن خدمتك ليقع التمكّنُ منى . فقالت : وما الذى تكرَهُ من ذلك ؟ فقال : يا مولاتنا هوى الحكم واسع ، وأحوال قاضى القضاة ابن النعمان فيه مشهورة ، ولو كانت جارية على النظام المستقيم لشغلت عن خدمتك ، فكيف والحاجة داعيةٌ إلى إصْلاَحه وإحْكام نظامه ؛ وفى هذا شُغُل كبير . فقالت : لايَضِيقُ صدرك بهذا الأمر ، فبابى لك ، وخدمتى موفورةٌ عليك ، ولا أستبدل بك أبداً . فقال : يا مولاتنا قد قدّمتُ القول أن هوى الحكم كبير واسع ، وانشغالى به يحولُ بينى وبَيْن ملازمة بابك . فقالت : خليفتاك[2] فى الحكم ، القضاعى وابن أبى ذكرى ، هما ينفذان من الأحكام ما يجوز تنفيذه ، فإذا تحرّرت إلى فصل الأحكام نزلت ففصلت

---

(١) وهو الباب البحرى الوحيد للقصر الكبير ، وكان يواجه سور خانقاه سعيد السعداء على يمين السالك من الباب المخلق إلى رحبة باب العيد . وكان الخليفة يستعمل هذا الباب عندما يخرج بموكبه فى ثانى وثالث أيام عيد الأضحى . الخطط : ١ : ٤٣٥ .

(٢) فى الأصل : خلفاؤك .

وعرّفه بما صار إليه من سُوء الحال ؛ فرقَّ له وكفّ عنه ، وأطلق له فى كل شهر مائة دينار . واستبدّ بسائر أمور الدولة ، وبالغ فى إهانة المستنصر فى الاعتقاد ، وزاد فى إيصال الضرر إليه وإلى سائر حواشيه وأسبابه ، حتّى قَبض على أمّ المستنصر وعاقبها بعقوباتٍ متعدِّدة ، واستخلص منها أموالاً جمَّة . فتفرق عن المستنصر جميعُ أهله ، وسائر أقاربه وأولاده وحواشيه ، فمنهم مَنْ سار إلى المغرب ومنهم مَنْ خرج إلى العراق ؛ وبقى فقيراً وحيداً خائفاً يترقَّب . وقيل إنَّ أمّ المستنصر فرّت أيضا إلى العراق .

وفى شهر ربيع الأوّل استقر ابن أبى كُدَيْنَة فى الوزارة والدَّعوة والقَضَاء . واستمّر الحالَ على ماوصفنا جميع سنة أربع وستين .

وفيها فُقد الطعام ، فسارت التجار من صِقِلِّية والمهديّة[1] فى الطعام والمرتب . فبيعَ القمحُ كلّ كيل قروى زنته تسعة أرطال بدينار نزارىّ ، ثم بيع بمثقالَيْن ، ثم بثلاثة ، ثم فقد . وطبخ الناس جلود البقر وباعوها رطلاً بدرهمين ، وبلغ الزيتُ أوقيةً بدرهمين ، وأوقيّة اللحم بدرهم ، وبيعت الأمتعةُ بأبخس ثمن ، وباع الناس أملاكهم . ووقع الوباء فألقى الناس موتاهم فى النيل بغير أكفان .

وفيها مات القاضى الأجل أمينُ الدولة أبو طالب عبد الله بن عمّار بن الحسين بن قُنْدس بن عبد الله بن إدْرِيس ابن أبى يوسف الطّائى بطرابلس الشام ، ليلة السبت نصف

---

(١) المهدية مدينة أنشأها عبيد الله المهدى ، أول الفاطميين بالمغرب ، على مسافة ستين ميلا من القيروان . معجم البلدان : ٨ : ٢٠٩ ؛ البكرى : ٣ : ١٧ - ١٩ .

رجب[١]. وفيها ملك القمص رجار بن تنقرد صاحب مدينة قلبريو[٢]، وهى مقابل مدينة جَرْبة[٣] ، جزيرة صقلية[٤].

---

(١) وخلفه فيها ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن ابن عمار ، فضبط البلد أحسن ضبط ، ولم يظهر لفقد عمه أثر لكفايته . الكامل : ١٠ : ٢٤ .

(٢) هو الأمير Roger I, Son of Tancred of Hauteville . وصل مع مجموعة من النورمان إلى جنوب إيطاليا ٤٥٠ (١٠٥٧) وشارك فى فتح إقليم كلبريا (فى المتن قلبريو) ثم اتجه إلى صقلية وواصل فتوحه فيها على مدى ثلاثين عاما ٤٥٢ – ٤٨٣ (١٠٦٠ – ١٠٩٠) ونجح فى وضع أسس الحكم النورماندى بها . راجع دائرة المعارف البريطانية .

(٣) جزيرة بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس ، بها بساتين كثيرة ، وبينها وبين البر مجاز . معجم البلدان : ٣ : ٧٣ – ٧٤ .

(٤) والسبب المباشر لذلك أن المستنصر بعث إلى الوالى يطلب منه المال المقرر عليها ، وكان عاجزا عما طلب منه ، فاستعان بالفرنج ، فدخلوا وقتلوا ونهبوا واستولوا على البلد . النجوم الزاهرة : ٥ : ٨٧ فى أثناء عرض أحداث سنة ٤٦٣ .

سنة خمس وستين وأربعمائة [1] :

فيها قُتِل ناصرُ الدّين الحسين بن ناصر الدّولة الحسن بن الحسين بن عبد الله أبى الهيجاء بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن الرشيد بن المثنى بن رافع بن الحارث ابن غطيف بن مجرّبة بن حارثة بن مالك بن جشم ، أحد الأراقم ، بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب بن وائل بن قاسط بن فيد بن أقصى بن داغمى بن جَديلة بن أسد بن ربيعة الفرس بن نزار بن معدّ بن عدنان التغلبى . وكان سبب فنائه أنّه لما استولى على أمور الدّولة وبالغ فى إهانة المستنصر وتتبُّع أقاربه وحواشيه ، وأخْذِ من قَدَرَ عليه منْهم ، وفرَّ مَنْ وجد سبيلا إلى الفرار ، كان يولّى الرجل بعض الأعمال ويسيّره إليه فلا يتمكن من ذلك العمل حتى يكتب إليه بأن يعود ، ويبعث غيره[2]. وشرع فى قطع دعوة المستنصر وإعْمال الرأى فى إقامة الخطب للخليفة القائم بمصر والقاهرة ، [١٠٦ب] وأن يُزيل من البلاد دولة الفاطميين ويمحوَ آثارها ، فلم يستطع ذلك ولاقدر عليه لكثرة الأعوان والأتباع . وكان من جملة رجال الدولة إلْدكز[3]، وهو أحد الأُمراء، ففطِن لما يريده ناصر الدولة من قطع خطبة المستنصر وإقامة دعوة بنى العبّاس ، فتشاور هو والأمير يَلْدَكوز ، وكانا من أكابر الأتراك ، وأنكرا ، مايتّفق من ناصر الدولة وتخوّفا من عاقبة ذلك . وصارًا إلى بقية الأتراك وأعلماهُمْ أنه إنْ تمّ لناصر الدولة مايحاوله لم يُبْق منهم أحدا ، والرأى مبادرتُه قبل أن يستفحل أمره ؛ فتقرر الأمر على القيام عليه وقتله .

وكان ناصرالدولة قد اغترّ بقوته ، وظنّ أنّه قد أمن ، وأن أعداءه قد تلاشَوْا وتَلِفُوا ، فأتاه الله من حيث لم يحتسب ، وأناخ به عواقب بغيه ، فلم يشعر إلاّ وقد ركب الأتراكُ بأجمعهم

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع عشر من سبتمبر سنة ١٠٧٢ .

(٢) ولا يمكن الوالى من العود . وكان يقصد بذلك أن يجرد المستنصر بالله من الأعوان وأن يخلى القاهرة من الرجال القادرين الذين قد يكونون عقبة فى سبيل تمكنه . الكامل : ١٠ : ٢٧ — ٣٠ .

(٣) سبق التعريف بأنه كان شيخ الأتراك ومقدمهم وكان قد تزوج ابنة ناصر الدولة ابن حمدان .

على حين غفلة من ليلة   من رجب[١] ، ووافَوْا دارَه بمصر سحَراً ، وكان يسكن في منازل العز ،[٢] فهجموا عليه من غير دُسْتُوره ولاطلب إذن ، فإذا هوفى صحن داره وعليه رداء ، فبادره أحدُهم بسيفه وأَتْبَعَهُ إلْدِكز فحزَّ رأسه . وخرج كوكب الدولة مسرعا إلى فخر الدولة أخيه فى عدّة ، فطرقهُ وهو آمِنٌ[٣] وقتله واحتمل رأسه ، وأخذ سيفه وجاريةً منجواريه . وامتدّت الأَيدى إلى مَنْ بقِى منهم ، فقُتِل أخُوهما تاج المعالى وجماعة من بني حمدان ؛ وتتبعوا أَسبابهم وحواشيهم حتى لم يبق منهم أحد بديار مصر ، وأصبحوا لاتُرَى إلّا مساكنُهم[٤] وما أصدق قول أَبي على الفكيك إذ يقول هجاء لناصر الدولة هذا :

ولئن غلطت بأَن مدحتك، طالبا   جدواك ، معْ علمى بأَنك باخل
فالدولة الغراء قد غلطت بأَن   سمّتك ناصرها وأَنت الخاذل

وقتل فى هذه النَّوْبة الوزير أَبو غالب عبد الطاهر بن فضل بن الموفَّق فى الدّين ، ابن العجمى .

وفيها قُطِعت خطبة المستنصر من بيت المقدس .

---

(١) بياض بالأصل يتسع لنحو كلمة ، ولم أتمكن من تحديد هذا التاريخ رغم الاستعانة بمراجع عدة .

(٢) دار بنتها السيدة أم العزيز بالله ، على النيل لا يحجبها عنه شىء ، وكان الخلفاء الفاطميون يتخذونها متنزها لهم . وقد سكنها ناصر الدولة بن حمدان – كما يتبين من المتن – وعندما قدمت أسرة صلاح الدين الأيوبى مصر ، سكنها تقى الدين عمر ، ابن عمه ، ثم اشتراها من بيت المال وبناها مدرسة للشافعية . انظر الخطط : فى مواضع متفرقة ؛ وكذلك كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة .

(٣) وكان فخر الدولة – فخر العرب – كثير الإحسان إلى كوكب الدولة هذا فأذن له وقال لعله قد دهمه أمر . الكامل : ١٠ : ٣٠ وفى الأصل : « فخرج مسرعا إلى فخر الدولة ولد أخيه ...» وهو خطأ إذ أن فخر الدولة أخو ناصر الدولة . راجع ماسبق ؛ والنجوم الزاهرة : ٥ ؛ نهاية الأرب للنويرى ؛ الكامل : ١٠ : ٣٠ .

(٤) فى النجوم الزاهرة تفصيل لكيفية اغتيال ابن حمدان جاء فيه أنه كان للأمير إلدكز غلام اسمه أبو منصور كشتكين ، وأنه وافق معه فى قتل ابن حمدان ، وقد بدأ إلدكز بأن ضربه بسكين فى خاصرته ، ثم ضربه كشتكين فقطع رجليه ، فصاح ابن حمدان : فعلتموها ! فحزت رأسه . وقطع ابن حمدان قطعا وأنفذت كل قطعة إلى بلد معين . النجوم الزاهرة : ٥ : ٢١ – ٢٣ .

سنة ست وستين وأربعمائة (١) :

فيها تشدد الأتراك وكبيرهم سلطان الجيش يلدكوش التركى(٢) ، والأمير إلْدِكز والوزير يومئذ ابن أبى كدينة ، فضاق خناقه وعظُم روعه وساءت حاله . وكان [المستنصر بالله](٣) يظن أن فى قتل ابن حمدان راحةً له ، فاستطال إلْدِكز وابن أبى كدينَة عليه وناكداه . فتحير فى أمره وكتب إلى أمير الجيوش بَدْر الجمالى ، وهو يومئذ بعكّا ، يستدعيه للقدوم لنجدته وإعانته ويَعِدُه بتملُّك البلاد والاستيلاء عليها . فاشترط عليه أنه يَقْدم بعسكرٍ معه ، وأنه لايُبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم ؛ فأجابه المستنصر إلى ذلك(٤) . فأخذ فى الاستعداد للمسير إلى مصر ؛ واستخدم معه عدّةً من العساكر ، وركب بحر المِلْحِ من عكا ، وكان الوقت فى كانون(٥) وهو أشدّ مايكون من البلاء ، ومن العادة أنَّ البحر لايُركب فى الشتاء . فسار فى مائة مركب وقد حُذِّر من ركوبه وخُوِّف من سوء العاقبة فلم يُصْغ لذلك ؛ وكأن الله سبحانه قد صنع له ومكّن له فى الأرض ، وقَضى بأن يَصْلُح على يديه ، ما قد فَسد من إقليم [مصر] . فترحّل بعساكره فى المراكب ، وأصحت السماء ، وواتَتْهُم ريحٌ طيبة سارت بهم إلى دمياط ولم يَمْسَسْهم سوء ؛ فكان يقال إنه لم يُرَ فى البحر قطُّ صحوة تمادت أربعين يومًا إلاَّ فى هذا الوقت ، فكان هذا ابتداء سعادته وأوَّلَ عظيم جَده . فنزل بدمياط ، وطلب إليه التُّجارَ من تنِّيس وافترض عليهم مالا .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس من سبتمبر سنة ١٠٧٣ .

(٢) وهو الأمير يلدكوز الذى تعاون مع إلدكز فى مؤامرة اغتيال ناصر الدولة ابن حمدان .

(٣) الإضافة لتصحيح الوضع إذ أن المستنصر هو الذى استدعى أمير الجيوش من الشام .

(٤) وكان معظم العسكر الذين استعان بهم من الأرمن ، وبهذا دخل عنصر جديد فى تكوين الجيش الفاطمى ، إلى جانب الأتراك والسودان والمغاربة ، والمصطنعة أى المرتزقة .

(٥) فى السنة شهران يحملان هذا الاسم : كانون الأول = ديسمبر وكانون الثانى = يناير . ولم أهتد إلى المقصود منهما ، إذ تذكر المراجع أن سير بدر الجمالى كان فى سنة ست وستين وأربعمائة دون تحديد للشهر الذى يمكن بوساطته التعرف على المقصود بشهر كانون المذكور هنا ، راجع - مثلا - النجوم الزاهرة : ٥ ؛ الكامل : ١٠ ؛ ذيل تاريخ دمشق ؛ نهاية الأرب .

وقدم عليه سليمان اللواتى ، وهو يومئذ كبير أهل البحيرة وأكثرهم مالا ، وأوسعهم حالا ، وقدم إليه وأضافه ، وأمدّه بالطرقات حتى قدم قليوب فنزل بها . وبعث إلى المستنصر سرا بأنّ لايمكنُنِى القُدوم إلى الحضْرة مالم يَقْدم على يلدكوش ؛ فبادر المستنصر إلى إجابته وقبض عليه .

ودخل بدرٌ عشية يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأُولى فتلقّاه أهلُ الدولة وأنزلوه ، وبالغُوا فى إكرامه ؛ فأظهر أنّه مَاجاء إلاّ شوقًا إليهم ، وخَدعهم بما أبداه من المحبة لهم وكثرة [١٠٧ ا] التملُّق ، وأعرض عَن المستَنْصر ولم يذكره إلّا بالسّوء ؛ وصار مَنْ معه يدخلون إلى القاهرة وُحْدَاناً ورجالا فى الخفية حتى تكامل منهم تسعمائة . ثم أخذ مع الأُمراء فى الأَكل والشرب واللّذات ، إلى أنْ اشتد تآنُسهم به ، فاستدعاه كل منهم إلى ضيافته ، وقدموا إليه ، وهو آخذ فى أسباب مادُعى إليه .

فلما انقضت أيام ضيافتهم له استدعى أُمراء الدّولة ومقدّميها فى صنيع أُعِدّ لهم ، فمضَوْا إليه ، وقضوا نهارهم عنده ، وباتُوا فى أطيب عيشٍ وأنعم بال ؛ وقد رتّب أصحابه ليقتل كلٌّ واحد أميراً من الأُمراء ويكون له جميع مابيده . فلما سكروا وامتدّ عليهم رواقُ اللّيل صار يُخرِج كلّ واحدٍ من باب ويسلمه إلى غلام من غلمانه ، ويمضى إلى داره فيتسلّمُها بما فيها من الخدم والأَموال . فلم يصبح الصباح إلاّ ورءُوس الجميع بين يديه ، وقد استولى كلٌّ رجل من أصحابه على دار أميرمن الأُمراء وأحاط بجميع ما كان له.

وأخذ فى القبض على الأَتراك وتتبعهم حتى لم يَدَعْ منهم أحداً يشار إليه ، فقويت شوكته واشتدت وطأتهُ وعظم أمرهُ ؛ فحسَرَ عن ساعد الجدّ ، وشمرَّ ساعد الاجتهاد ، والتقط المفسدين فلم يُبق على أحد منهم ، وتطلّبَهُم فى القاهرة ومصر حتّى أتى على جميعهم القتل . وفرّ ناصر الجيوش أبو الملوك ، وكانْ شاه بن يلدكوش ، إلى الشام .

وخلع عليه المستنصر بالطَّيْلَسان المقوّر ، وصار جميعُ أهل الدّولة فى حكمه ، والدّعاةُ نوّاباً عنه ، وكذلك القضاة إنما يتولون منه[1] . فقلَّد أبا يعلى حمزة بن الحسين بن أحمد الفارقى قضاء القضاة . وزيد فى ألْقَاب أمير الجيوش على ألقاب مَنْ تقدّمه من الوزراء : كافل قضاة المسلمين .

واتَّفق أنه لما لبس خلع الوزارة حضر إليه المتصدّرون بالجوامع ، فقرأ ابن العجمى : « وَلَقَدْ نَصرَكُمْ اللهُ بِبَدْرٍ »[2]، وسكت عن تمام الآية، فقال له أمير الجيوش بدر : والله لقد جاءتْ فى مكانها وجاء سكوتُك عَن تمام الآية أحسن ؛ وأمر له بصلة .

فيها قَتَل أمير الجيوش من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم عدة كثيرة ، منهم الوزير أبو محمد الحسن بن ثقة الدولة على بن أحمد المعروف بابن أبى كُدَيْنة ، وكان عندما قدم [بدر] إلى مصر هو الوزير ، وهو من ولد عبد الرحمن بن ملجم ، وتردّد فى القَضَاء والوزارة سبع مرات ؛ وكان قاسى القَلب جبّارا ، فلما قُبض عليه سُيِّر إلى دمياط ، ودخل عليه السَّيَّاف ليضرب عنقه ، فكان سيفه كَلِيلًا ، فضربه سبع ضربات بعدد ولايته القضاء والوزارة .

وقُتل أيضا الوزيرُ أبو المكارم أسعد ، والوزير أبو شُجاع محمّد بن الأشرف أبى غالب محمد بن على ؛ والوزير عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضيف .

---

(١) ونعت بدر بالسيد الأجل أمير الجيوش ، وهو النعت الذى كان لصاحب ولاية دمشق ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور زى قاضى القضاة . وصارت الوزارة من حينئذ وزارة تفويض يقال لمتوليها أمير الجيوش ، وبطل اسم الوزارة . الخطط : ، ١ : ٤٤٠ .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٢٣ .

سنة سبع وستين وأربعمائة (١) :

فيها سار أمير الجيوش بَدْر إلى الوجه البحرى فأَوْقع بلَوَاتَة وقتل مقدَّمهُم سليم اللَّواتى وابنه ، واستَصْفى جميعَ ما كان له ولِقَوْمه من أنواع [الأموال](٢) ، وأسرف فى قتلهم حتى يُقال إنه قتل منهم عشرين ألفا . وسار إلى دمياط وقتل كثيراً ممّن كان فيها من المفسدين ، وخرَّب وحرَّق ، وأصلح عامَّة أحوال الثغر . ولم يدع بالبّر الشرقى وجميع أسفل الأَرض مُفْسداً إلاَّ وقتله أو قَمعه . ثم عدّى إلى البرّ الغربى فقتل كثيراً من الطائفة الملحية وأتباعهم ، وأقام على مُحاصَرة الإسكندرية أيّاما حتى أخذها قهراً ، فقتل كثيرا من أهلها المفسدين ، وعفا عن أهل البلد فلم يعْرِض لهم .

وفيها حاصر شكل التركى ، أحد الأَتراك الواصلين من العراق إلى الشام ، ثغر عكّا وأخذه بالسيف ، وكان فيه أولاد أمير الجيوش بَدْر وأهلُه وحرمه ، فأَحسن إليهم وأكرمهم وقتل والى عكّا . ثم سار منها فنزل على طبرية وأخذها .

وفيهامات الخليفة القائم بأمر الله ببغداد ، يوم الخميس ثالث عشر شعبان ، وله من الخلافة أربع وأربعون سنة وتسعة أشهر وأيام(٣) ؛ وجلس بعده ابن ابنه أبو القاسم عبدالله ابن ذخيرة الدّين ولقب بالمقتدى .

وفيها أعيدت الخطبة للمستنصر بمكة [١٠٧ ب] بعد أن خطب فيها للقائم بأمر الله العباسى أربع سنين(٤).

وفيها قتل أمير الجيوش كثيراً من جند مصر وغيرهم ممن يُوَمى إليه بفساد .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٠٧٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين مزيد لأن السياق يقتضيه أو نحوه .

(٣) يقول ابن تغرى بردى : ومن الغرائب أن القائم هذا كان معاصرا للمستنصر العبيدى ، وهو خليفة مصر ، وكلاهما مكث فى الخلافة مالم يمكثه غيره من آبائه وأجداده من طول المدة ؛ فالقائم هذا كانت مدته أربعا وأربعين سنة ، والمستنصر ستين سنة ، فما وقع للقائم لم يقع لأحد من العباسيين ، وما وقع للمستنصر لم يقع لأحد من الفاطميين . النجوم الزاهرة : ٥ : ٩٨ .

(٤) وتتلخص ظروف عودة الخطبة للمستنصر بمكة فى أنه كتب إلى ابن أبى هاشم ، صاحبها ، رسالة وأصحبها هدية جايلة ، وطلب منه فى الرسالة أن يعيد الخطبة قائلا إن أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان ، وقد ماتا . فخطب له وقطع خطبة المقتدى . وكانت الخطبة قد انقطعت أربع سنين وخمسة أشهر . الكامل : ١٠ : ٣٤ . وستعاد الخطبة للمقتدى سنة ٤٧٩ ، كما سيأتى .

سنة ثمان وستين وأربعمائة [1] :

فيها حاصر أَطْسِزِ بن أُرْتُق ، المعروف بالأقسيس[2]، دمشق وألح على قتال مَنْ بها من عساكر المستنصر حتى ملكها بعد أن أقام يحاصرها نحو ثلاث سنين . وكان عليها من قِبَل المستنصر حيدرة بن مِيرْزا الكتامى ، وقد كرهَتْه الرَّعيّة لسوء سيرته فيهم وكثرة مصادرته للناس ، ففرّ منهزما إلى بَانْيَاس[3]، ثم خرج عنها إلى صُور فأقام بها مدة ، ثم حُمل إلى مصر فقُتل بها . وكان قد التحق بأَطْسِزِ عدة ممّن فرّ من مصر عند قُدوم أمير الجيوش ، فتقوّى بهم وبمَن صار إليه من أهل دمشق فرارًا من حَيْدَرة لسوء سيرته . فلمّا مَلَك دمشق دعا للمقتدى من خلفاء بنى العباس وأبطل الخُطبة للمستنصر ، فانقطعت دعوة الخلفاء الفاطميين منها ولم تعُدْ بعد ذلك . وقُطِعت دعوة المستنصر من مكّة أيضا ودُعِى فيها للمقتدى .

فيها مات القاضى الشريف جلال الدولة أبو الحسين أحمد بن أبى القاسم على بن محمد ابن الحسين بن إبراهيم بن على بن عبيد الله بن الحسين بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب الحسينى النصيبينى ، قاضى دمشق ، وهو يومئذ متولّى القضاء بها ، فى يوم الجمعة الرابع من ذى القعدة ؛ وهو آخر قضاة الخلفاء الفاطميين بدمشق ، وسمع الحديث وحدث ، وله فيه مقال[4] .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من أغسطس سنة ١٠٧٥ .

(٢) أطسز أو أتسز هذا من قادة الأتراك السلاجقة ، تقدم نحو دمشق وضمها إلى حكم السلاجقة أيام السلطان ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة العظام ، ومن دمشق وسع نفوذه فى بلاد الشام وتقدم نحو مصر وهددها . وقد تمكن الأمير السلجوق تتش من أن يقتله ويتولى بنفسه دمشق وما يتبعها سنة ٤٧١ . ويقول ابن الأثير فى بعض الحديث عن أتسز هذا : « يذكر الشاميون هذا الاسم أقسيس والصحيح أنه أتسز وهو اسم تركى » . اهـ . الكامل : ١٠ : ٣٥ .

(٣) فى الجنوب الغربى لدمشق .

(٤) قال يوما وعنده أبو الفتيان ابن حيوس الشاعر : وددت أنى فى الشجاعة مثل جدى على وفى السخاء مثل حاتم . فقال له أبو الفتيان : وفى الصدق مثل أبى ذر الغفارى . فخجل الشريف فإنه كان يتزيد فى كلامه . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٠٢ .

سنة تسع وستين وأربعمائة [١] :

فيها اجتمع بمدينة طوخ[٢] من صعيد مصر عدد كبير من عرب جُهَيْنة والثعالبة والجعافرة[٣] لمحاربة أمير الجيوش ، فسار إليهم حتى قَرُب منهم ، فنزل ، ثم ارتحل باللّيل وأمر بضَرْب الطُبول وزعقت البوقات ، واشتعلت المشاعل وقد تزايد وَقُود النيران . وجدّ فى السير والعساكر لها صرخات وصيحات متتابعة فى دَفْعة واحدة ، حتى طرقهم بغتة ووضع فيهم السيف فأفنى أكثرهم قتلا ، وفرّ منهم طوائفُ فغَرِقوا ، ولم ينْجُ منهم إلاّ القليل . وأحاط بأموالهم فحاز منها ما يتجاوز الوصف كثرة ، وسيّرها إلى المستنصر .

وثار كنز الدولة محمد بأسوان[٤] وتغلّب عليها وعلى نواحيها ، وكثرت أتباعه ونَجَمَ أمره ؛ فسار إليه أمير الجيوش بعساكره ، فالتقى معهم وحاربهم محاربة طويلة أسْفَرت عن قتْلِه وهزيمة أصحابه بعد أن قُتل منهم جمٌ غفير ؛ فكانت هذه الواقعة آخر الوقائع التى قُطِع فيها دابرُ المفسدين ، وخمدت جمرتهم .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس من أغسطس سنة ١٠٧٦ .

(٢) فى قوانين الدواوين ثلاثة عشر موضعا كل منها يحمل اسم طوخ مضافا إلى اسم آخر ، منها طوخ الجبل بالقرب من أخميم ، وطوخ دمنو من أعمال القوصية ، وطوخ تنده وطوخ الخيل من أعمال الأشمونين .

(٣) بهامش الأصل تعريف بهم نصه : « بخطه : قال الشريف محمد بن أسعد الجوانى بنو ثعلبة فى بنى الإمام الحسن وبنى جعفر الطيار ، فذكرهم . ثم قال : فأما التى فى بنى جعفر الطيار فبنو ثعلبة الحجازى بن داود بن موسى بن إبراهيم ابن إسماعيل بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عليه السلام ، فيهم عشيرة إلى اليوم بخرجة مين من أعمال سيوط بصعيد مصر ... وحامد ... وإبراهيم أولاد مسلم بن عبد الله بن حسين بن ثعلب المذكور . قال : الجعافرة أبطن ، فذكرهم ، ثم قال : وأما الذى فى ولد أبى طالب فبنو جعفر الطيار بن أبى طالب عليه السلام ، وإليه يرجع الجعافرة كلهم وهم نازلون بسدرة العربان من أعمال الأشمونين بصعيد مصر ، وفى مواضع شتى من بلاد الله ، وفيهم عشائر متسعة » . اهـ .

(٤) كنز الدولة لقب منح أول مرة أيام الحاكم بأمر الله لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على أبى ركوة ثم أصبح هذا اللقب وراثيا فى أسرة أبى المكارم . انظر كتاب الروضتين : القسم الثانى من الجزء الأول : ٥٢١ (تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد) .

وفيها جمع أَطْسِز صاحب دمشق العساكر وسار يريد تَمَلُّك الدِّيار المصرية وإزالة الدولة الفاطمية منها وإقامة الدعوة العباسية كما فعل فى بلاد الشام . وكان أكثر الأَسباب الحاملة له على ذلك أن ابن يلدكوش لما فرّ من أمير الجيوش وصار إلى بلاد الشام اتصل بأَطسز ، وقدّم إليه ستين حبَّة لُؤْلُؤ مُدَحْرج ، زنة كلٍّ حبة منها ينيف على مثقال ، وحَجَر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا ، وتُحفًا كثيرة مما كان قد وصل إلى أبيه من خزائن المستنصر فى سِنِى الشدة ، وأغراه بأَهل مصر وحثه على قصد البلاد ، وهوّنها عنده . فقوِىَ طمعُه وسار وقد حصل فى قوة بمن صار إليه من عساكر مصر ومَنْ انضاف إليه من أهل الشام .

وكان أمير الجيوش ببلاد الصعيد قد انتهى إلى بلاد أسوان ، فوصل الخبر بمسير أطْسِز إلى مصر ، فكُتِب بذلك إلى أمير الجيوش ، وكان عند موافاة الخبر إليه فى شُغُلٍ عن ذلك ، فقدم أطْسِز إلى أطراف مصر فى جمادى الأُولى ، وقد أشار عليه ابن يلدكوش « بألَّا تشتغل بالقاهرة ولكن تَملَّكْ الرِّيف» . وقال له : إذا ملكت الريف فقد ملكت مصر . فأَقام بالرِّيف جمادى الأُولى وجمادى الآخرة وبعض رجب وأمير الجيوش فى إصلاح الصَّعيد وتَدْبير أُموره ، وقد حضر إليه أكثرُ أهل أسوان وبدر بن حازم بجمائع طىّ . فلمّا استوثق أمره وجمع إليه العساكر عاد إلى القاهرة وخرج يريد محاربة أطْسِز فى جَمْعٍ تبلغ عِدَّتُه ما ينيف على ثلاثين ألفًا ما بين فارس وراجل ، وذلك فى [١١٠٨] يوم الخميس لثلاثَ عشرة بقيت من رجب بعد ما جهّز عِدّة مراكب قد شحنها بالعُلُوفات والأَزواد . فجمع أطسز إليه أصحابه واستشارهم ، فاختلفوا عليه فى الرَّأى ، فقال بعضُهم أن ترجع فإنَّك قد دُسْت بلاد مصر وليس معك غير خمسة آلاف ، والقومُ فى كثرة ، وعواقب الأُمور غَيْر معلومة . وقال له أخوهُ وابنُ يلدكوش لا يَهُولَنَّك ما تسمع به من كثرتهم فإنما هم سوقة وأخلاط ، لو سمعوا صيحة لفرّوا عن آخرهم ؛ فإياك والرُّجوعَ عن هذا المُلْك قد أشْرَفْت على أخذه ولم يبق إلاّ تملكه . وأشار عليه شكل ، أمير طبرية ، بمُوافَقة القَوْم والدخول إلى مصر . فتقرر الرأى على ملاقاة العساكر المصرية .

فلما كان يومُ الثلاثاء لثمانٍ بقين منه تلاقى الفريقان وتحارَبا ، فكانت بينهُما عدة وقائع كانت الغلبة فيها للمصريين ، فانهزم أطْسز ، وقُتل أخوه وعدّة من أصحابه ، وعاد

فى قليل مِمن معه وأقام بالرملة حتى تلاحقت به عساكره[1]. ثم رحل إلى القدس ففتحها وقتل مَنْ فيها من المسلمين ولم يترك مَنْ استجار بالأقصى .

ثم سار إلى دمشق ، فدخلها لعشرٍ بقين من شَعْبَان ؛ وقد احتوى أمير الجيوش على كثير مما كان معهم ، ورجع إلى القاهرة مؤيَّدًا مظفَّرًا . وكان المتولى لكسرة أَطْسِز بدر بن حازم ابن على بن دغفل بن جراح . فلمّا جلس أمير الجيوش بدر الجمالى للهناء بِنُصْرته قرأ ابن لفتة ، أحد القراء ، « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ » ، ولم يتمّ الآية ، يعنى بدر بن حازم . فبينا أمير الجيوش بدر فى ذلك إذْ بلغه اجتماعُ عرب قيس وسليم وفزارة ، فخرج إليهم وأوقع بهم ، وأكثر من القتل فيهم ، وفرّ من بقى منهم إلى برقة .

وفيها سقط أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابَشَاذ النّحوى[2] من سطح جامع عمرو بن العاص بمصر ، فمات فى عشية اليوم الثالث من رجب ؛ وكان له على الدّولة الفاطميّة فى كل شهر ثلاثون دينارا وغلّة لإصلاح ما يُكتب فى ديوان الإنشاء ، فكان يعرض عليه جميع ما يكتب منه ، وإذا حرره أمِرَ به فدُفع لأربابه . ثم إنه تخلَّى عن الخدم السُّلطانية وانقطع للعبادة حتى مات ؛ وكان أبوه واعظا بمصر .

---

(١) ويقول ابن القلانسى : وأفلت هزيما بنفسه فى نفر يسير من أصحابه ، ووصل إلى الرملة وقد قتل أخوه وقطعت يد أخيه الآخر . وكان الدعاء عليه ، حين خرج إلى مصر لتملكها ، متواصلا من أهل دمشق ، واللعن له متتابع متصل . ولما وصل بعد الفل إلى دمشق سرت نفوس الناس بمصابه ، وتحكم السيوف فى أتباعه وأصحابه ، فأملوا مع هذه الحادثة سرعة هلاكه وذهابه . اﻫ . ذيل تاريخ دمشق : ١٠٩ — ١١٢ . راجع تفاصيل هذا الصدام فى مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى . وقد اقتبست فى ذيل تاريخ دمشق – بالهامش – ص ١٠٩ – ١١٢ .

(٢) وهو صاحب «المقدمة» فى النحو . وبابشاذ تكتب منفصلة : باب شاذ ، بمعنى الفرح والسرور . وسر انقطاعه للعبادة أنه كان جالسا يأكل فجاءه قط فكان إذا ألقى إليه شيئا لا يأكله ويحمله ويمضى ، وكثر ذلك منه ، فتبعه يوما لينظر أين يذهب بما يطعمه ، فإذا هو يحمله إلى موضع مظلم فيه سنورة عمياء فيلقيه لها فتأكله ، فعجب وقال : إن الذى سخر هذا لهذه ليجيئها بقوتها قادر على أن يغنينى عن هذا العالم . ومن تصانيفه : شرح جمل الزجاجى ؛ المحتسب فى النحو ؛ شرح النخبة . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٠٥ ؛ بغية الوعاة : ٢ : ١٧ .

سنة سبعين وأربعمائة (١) :

فيها سيّر أمير الجيوش عسكراً مقدَّمُه ناصر الدولة الجيوشى ، فانتهى إلى دمشق وأقام محاصِرًا لها مدة ، ثم ارتحل عنها وعاد بغير طائل .

وفيها فُوِّض لأمير الجيوش قضاءُ القضاة ، وزِيدَ فى نعوته : كافل قضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين .

وفيها وصل إلى مكّة من بَغْداد منبر كبيرٌ فى شهر رمضان منقوشٌ عليه بالذهب : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين . مما أمر بعمله محمدُ بن محمّد بن جَهير » . فاتَفق وصوله وقد أُعيدت الخطبة للمستنصر ، فكسر المنبر المذكور وأحرق .

ولم يكن بمصر فى سنة إحدى وسبعين(٢) كبيرُ شئْ .

(١) ويوافق أول المحرم منها الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٠٧٧ .

(٢) ويوافق أول المحرم منها الرابع عشر من يوليو سنة ١٠٧٨ .

سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة (١) :

فيها سيّر أمير الجيوش عسكرا كبيرا ، فانتهى إلى دمشق وحاصرها حتى أشرف على أخذها ، فسيّر أَطْسِز صاحب دمشق إلى تاج الدولة تُتُش بن(٢) السلطان أَلْب أَرْسَلان ـ وكان قد أقطعه أخوه مَلِكْشَاه الشام وأخذ حلب بعد ما حاصرها حتى اشتدَّ الجوع بأهلها وملكها ـ يستحثُّه على نُصْرته وتقويته على المصريين ، ويَعِدهُ أنه يُسَلِّم إليه ملك دمشق . فأجابه إلى سؤاله وسار إليه بعسكره ؛ فبلغ ذلك عسْكَرَ أمير الجيوش ، فارتحل وعاد إلى مصر . وقدم تُتُش فملك دمشق ، ودبّر على أَطْسِز وقتَله بحيلةٍ فى ربيع الأوّل ؛ وجهّز عسكرًا فى إثر العسكر المصرى فلم يدركه .

وفيها خرج ملك النوبة من بلاده وصار إلى أسوان يريد زيارة كنيسة لهم بها ، فبعث والى قوص [مَنْ] قبض عليه وحمله إلى القاهرة ، فأكرمه أميرُ الجيوش وأفاض عليه النِّعم ، وأتحفه بالهدايا الجليلة ؛ فأدركه أجلُه ومات قبل أن يعود إلى بلاده .

وفيها قطعت خطبة المستنصر من مكة وأعيدت خطبة بنى العباس .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الرابع من يوليو سنة ١٠٧٩ .

(٢) هو تاج الدولة تتش بن عضد الدين أبى شجاع ألب أرسلان بن داود ، بن ميكائيل بن سلجوق . تولى أخوه ، جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، سلطنة السلاجقة العظام ، ثم أوصى لابنه نصير الدين محمود من بعده بالسلطنة فأقام نحو سنة ثم توفى وخلفه بركيارق ، ركن الدين أبو المظفر ، فغضب تتش لذلك وخلع طاعته وثار ضده ، وتقدم من الشام لحربه واجتاز الفرات ودجلة ، والتقى الجيشان فى معركة حاسمة عند مدينة الرى ، شمالى فارس ، فسقط تتش فيها صريعا وكان ذلك سنة ٤٨٨ . انظر كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين : ١ فى مواضع مختلفة ؛ النجوم الزاهرة : ٥ فى مواضع مختلفة كذلك ؛ تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصفهانى .

[١٠٨ب] سنة سبع وسبعين وأربعمائة [1] :

فيها خرج الأوحد بن أمير الجيوش على أبيه ، وانضم إليه جماعة من العسكر والعربان وتحصّن بالإسكندرية ؛ فسار إليه أمير الجيوش وحصره ، وألح عليه القتال حتى دخل البلد وأخذ ابنه قهرا . وأمر ببناء الجامع المعروف فى الإسكندرية بجامع العطارين من أموال أخذها من أهل البلد ، وفرغ منه فى شهر ربيع الأول ؛ وأقيمت فيه الجمعة واستمرت إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فأمر ببناء جامع ، ونقل الخطبة من جامع العطارين إليه .

وفى جمادى الأولى استناب أمير الجيوش ولده الأفضل ، وجعله ولىّ عهده فى السلطنة [2] .

وفيها ابتدأ أمير الجيوش فى بناء سور القاهرة [3] .

---

(١) بأول هذه الصفحة فى الأصل عبارة تقول : بياض نحو ربع صفحة ، اهـ. ويوافق أول المحرم من هذه السنة العاشر من مايو سنة ١٠٨٤ . ويلاحظ أن المؤلف أهمل السنوات ٤٧٣ - ٤٧٦ .

(٢) وهذه أول حادثة من نوعها فى العصر الفاطمى أن تصبح الوزارة شبه وراثية وأن يعهد بها الوزير القائم لابنه يتولاها من بعد وفاته . وهذه « السلطنة » لم تعرف من قبل ، ولم يقع بين يدى ما يدل على أن بدرا كان يتلقب بها ، وأرجح أنها أطلقت بتأثير العصر الذى كتب فيه المؤلف كتابه ، وبتأثير السلطات الواسعة التى تولاها الوزير بدر استقلالا عن قصر الخلافة .

(٣) يقول المقريزى فى الخطط : « اعلم أن القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث مرات الأول وضعه القائد جوهر والثانى بدر الجمالى والثالث الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين » . وكان السور الأول من اللبن ، والثانى زاد فيه بدر الجمالى الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب زويلة الكبير وفيما بين باب الفتوح عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح الآن (زمن المقريزى) ، وزاد عند باب النصر أيضاً جميع الرحبة التى تقع تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر . وجعل السور من لبن والأبواب من حجارة ، وبناه قراقوش لصلاح الدين بالحجارة على ما هو عليه الآن ووسعه ليدور على القاهرة ومصر والقلعة جميعا . الخطط : ١ : ٣٧٧ - ٣٨٠ .

سنة ثمان وسبعين وأربعمائة [١] :

فيها قُطعت الخطبة من مكة للمستنصر وخطب بها للمقتدى العباسى[٢].

فيها مات أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين المغربى الملقَّب بالكامل ؛ وكان قد وَلِىَ الوزارة بعد أنْ صار إلى بلاد المغرب وخدم بها ، ثم عاد واتصل بالوزير أبى محمد اليازُورِى ، فأحسن إليه واستخدمه وعُنى به ، فَمَاقَتَهُ أبو الفرج البابلىّ . فلما صارت إليه الوزارة بعد اليازُورِى قبض عليه فى جملة من قبض عليه من أصحاب اليازُورِى ، واعْتَقله ، فلم يزل معتقلاً إلى أن تقرَّرت له الوزارة وهو فى السجن ، فأُخْرِج وخُلِع عليه خِلعُ الوزارة عوضا عن أبى الفرج البابلىّ ، فلم يؤاخذه بما كان منه فى حقه ، بل قابله بالجميل وأحسن إليه إحسانا كبيرا . ولما صرف عن الوزارة اقتُرح أن يُولَّى ديوان الإنشاء[٣]، فقُرِّر فى هذه الرتبة التى يقال لها فى زمننا اليوم كتَّاب السر ، فاستقرت من بعده وظيفة ورتبة يتقلدها الأكابر .

وفيها مات سليمان بن قُطلمُش بن إسرائيل بن سلجوق ، صاحب قونية وأقصرا من بلاد الروم[٤]، وقام من بعده ابنُه قليج أرسلان بن سليمان[٥]؛ فاستردّ منه الفرنج مدينة أنطاكية .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها التاسع والعشرين من إبريل سنة ١٠٨٥ .

(٢) يذكر ابن الأثير أن هذا حدث فى سنة ٤٧٩ . الكامل : ١٠ : ٥٤ .

(٣) يقول ابن تغرى بردى : وهو أول من ولى كتابة الإنشاء بمصر . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٨ . وكان من يتولى هذا المنصب يلقب بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف . ويتسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها ، ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه إذا أراد الدخول إليه . وربما بات عند الخليفة ليالى ، وجاريه مائة وعشرون دينارا فى كل شهر ، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر ولا يجتمع بكتابه أحد إلا الخواص . الخطط : ١ : ٤٠٢ .

(٤) وهو أول سلاطين السلاجقة بأرض الروم (آسيا الصغرى) ، حكم بين سنتى ٤٧٠ – ٤٧٨ (١٠٧٧ – ١٠٨٦) . وقد قتل فى معركة ضد تاج الدولة تتش صاحب دمشق عندئذ ، فقيل إنه قتل نفسه بسكين كانت معه عندما رأى انهزام عسكره ، وقيل قتل فى المعركة بسهم أصابه فى وجهه فوقع عن فرسه ميتا : Mohammadan Dynasties الكامل : ١٠ : ٥٠ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٢٤ .

(٥) قليج أرسلان ، داود الأول ، بدأ حكمه الحقيق سنة ٤٨٥ (١٠٩٢) بعد فترة من الاضطراب ، وكان من رجال ملكشاه السلجوقى الذى أرسله لغزو بلاد الروم ففتح كثيرا من مدنها وتولاها . وانتهت حياته فى معركة بينه وبين جاولى ، مملوك السلطان محمد بن ملكشاه ، انهزم فيها فألقى نفسه فى نهر الخابور فغرق ، فأخرج وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها . النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩٠ – ١٩١ ؛ Mohammadan Dynasties

سنة تسع وسبعين وأربعمائة [1] :

فيها قدم الحسن بن الصّباح ، رئيس الطائفة الباطنيّة من الإسماعيلية ، إلى مصر فى زىّ تاجر ، واتصل بالمستنصر واختصّ به ، والتزم أن يُقيم له الدعوة فى بلاد خُراسان وغيرها من بلاد المشرق . وكان الحسن هذا كاتبًا للرئيس عبد الرزّاق بن بهرام بالرىّ ، فكاتب المستنصر ، ثم قدم عليه[2]. ثم إنّ المستنصر بلغه عنه كلام ، فاعتقله ، ثم أطلقه . وسأله ابن الصّباح عن عدّة مسائل من مسائل الإسماعيلية فأجاب عنها بخطه . ويقال إنه قال له : يا أمير المؤمنين ، مَنْ الإمام مِنْ بعدك ، فقال له ولدى نزار[3] .

ثم إنّه سار من مصر بعد ما أقام عنْد المستنصر مدّة وأنعم عليه بنعم وافية . فلما وصل إلى بلاده نشر بها دعوة المستنصر وبثّها فى تلك الأقطار ، وحدث منه من البلاء بالخلق ما لا يُوصَف مما قد ذُكر فى أخبار المشرق . ثم قام مِن بعدِ المستنصر بدعوة ابنهِ نزار ، وكان بسبب ذلك فى مصر من الانقلاب ما نهتمّ به إن شاء الله تعالى . وأخذ ابنُ الصّباح أصحابَه بجمع الأسلحة ومُوَاعَدَتِهم ، حتى اجتمعوا له فى شعبان سنة ثلاث وثمانين ، ووثب بهم فأخذ قَلْعَةَ أَلَمُوت ، وكانت لملوك الديلم من قبل ظهور الإسلام ، وهى من الحصانة فى غاية .

واجتمع الباطنية بأصبهان مع رئيسهم وكبير دعاتهم أحمد بن عبد الملك بن عَطّاش ، وملكُوا قلعتين عظيمتين ؛ إحداهما يقال لها قلعة الدرّ . وكانت لأبى القاسم دُلَف العجلى ،

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن عشر من إبريل سنة ١٠٨٦ .

(٢) والحسن الصباح هذا رأس الأسرة التى استوطنت قلعة ألموت واتخذتها حصنا لها تبسط منه دعوتها الباطنية الغالية فيما جاورها من البلاد ، وإلى أبعد من ذلك أيضا – كما يتضح من النص – توفى الحسن هذا سنة ٥١٨ **Mohammadan Dynasties**

(٣) سيرد بعد هذا ، عند الحديث عن وفاة المستنصر ، أن الأفضل بن بدر الجمالى نحى نزارا عن ولاية العهد ، فثار بالإسكندرية واتخذ لنفسه لقب المصطفى لدين الله .

وجدّدها وسماها ساهور ؛ والقلعة الأخرى تعرف بقلعة جان ، وهما على جبل أصبهان .
وبث الحسن بن الصباح دُعَاته ، وألقى عليهم مسائل الباطنية التى ذكرتها فى هذا الكتاب عند ذكر داعى الدعاة فى أخبار بناء سور القاهرة ، عند ذكر خطط المعزية القاهرة . فساروا من قلعة ألَمُوت ، وأكثروا من القتل فى الناس غيلة .

وكان إذ ذاك ملكُ العراقَيْن السلطان مَلِكْشَاه الملقب جلال الدين بن ألب أرْسلان ، فاستدعى [١٠٩ ا] الإمام أبا يوسف الخازن لمناظرة أصحاب ابن الصَّباح ؛ فناظرهم ؛ وألَّف كتابه المسمّى بالمستظهرىّ ، وأجاب عن مسائلهم . واجتهد ملك شاه فى أخذ قلعتهم فأعياه المرض وعجز عن نَيْلها .

وفيها خُلع اسم المستنصر وآبائِه من مكة والمدينة وكُتب اسم المقتدى[١] .

(١) بهامش الأصل تعليق نصه : « بخطه : كتاب المستظهرى فى الإمامة وشرائط الخلافة وبعض السير العادلة ، وفيه أشياء حسنة من الفقه والأصول وسيرة . . . ، ألفه أبو يوسف يعقوب بن سليمان بن داود الخازن من أهل أسفرايين ، تفقه على القاضى أبى الطيب طاهر بن عبد الله ، وسمع الحديث وحدث ، وكان فقيها عارفا بالأصول على مذهب أبى الحسن الأشعرى ، وصنف أيضا كتاب بدائع الآثار وروائع الأشعار . ومات يوم الخميس العشرين من ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ببغداد وقد تجاوز ثمانين سنة ، وله شعر . وكتاب المستظهرى أيضا فى الفقه على مذهب الشافعى صنفه أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين بن عمر الشاشى ، وهو يشتمل على مذاهب الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، ويعرف بحلية الفلاسفة للخليفة المستظهر » . اه .

سنة ثمانين وأربعمائة [1] :

فيها مات أبو الفضل عبد الله بن الحسين بن بشرى، المعروف بابن الجوهرى ، الواعظ المصرى فى العشر الأواخر من شوال ؛ وهو أحد أكابر شيوخ مصر ، وتصدّى سنينَ للوعظ بجامع عمرو بن العاص . حدَّث عن جماعة ؛ وله كلام فى الزهد والمواعظ ؛ وهو من بيت علم وأسرة وعظ . ولما كانت أيّام الشدة والغلاء بمصر اجتمع إليه النَّاس فى بعض الأيام وسألُوه عقد المجلس للوعظ بالجامع العتيق ، فقال : مَنْ يحضُر عندى ومَنْ بَقِى ؟ فقالوا : لابُدَّ من ذلك ؛ فجلس ، وكان من كلامه : أَبْشرُوا هذه سنة ثلاث ، وأشار بيده ، وهى متعلقة كلها ، وسنة حلّ سنة أربع ويفتح الله ، ورَفَع بِنْصَرَه ؛ وبعدها سنة خَمْسٍ ويفتحُ الله ، ورفع خِنْصَره . فكان كما قال . وأنشد مرة فى بعض مجالسه :

ما يَصنَعُ اللَّيل والنَّهارُ ويستُر الثَّوبُ والجدار
على كرامٍ بَنِى كرامٍ تُخُيِّروا فى القضا وخَارُوا

ومن كلامه : قد اختلّ أمر الدّين والدُّنيا ، وتعذّر الوصول إليهما ، فَمَنْ طلب الآخرة لم يَجد مُعينًا عليها ، ومن طلب الدنيا وجد فاجرًا قد سبقه إليها .

وأنشد مرَّةً الخليفة المستنصر :

عساكر الشكر قَد جاءت مهنئةً وللملوك ارتيابٌ فى تأتّيها
بالباب قومٌ ذوُو ضعفٍ ومَسْكنةٍ يَسْتَصْغرون لك الدُّنْيا بما فيها

وفيها بعث بردويل[2] ملك الفرنج الذين يُقال لهم الإفرنسيس عسكرًا عليه أجار[3] إلى صقلية فملكها من المسلمين .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الثامن من إبريل سنة ١٠٨٦ .

(٢) البردويل : الصورة العربية للاسم الفرنجى Baldwin « بلدوين » . وليس فى ملوك فرنسا فى هذه المرحلة من يحمل هذا الاسم ؛ كما لا يوجد بين ملوك انجلترا ودوقات إيطاليا وأمراء صقلية من تسمى به .

(٣) وهو روجر الأول Roger I ، وقد قام بجهود متواصلة استغرقت ثلاثين سنة انتهت بسيطرته الكاملة على جزيرة صقلية ، فكان ذلك بداية لسيطرة النورمان عليها . وكانت الثقافة الصقلية عند فتح النورمان الجزيرة مزيجا من التأثير الإغريقى والإسلامى ، أما بقية المؤثرات الأخرى فلم يكن لها تأثير واضح . وقد احتفظ النورمان بالطابع الإسلامى الإغريقى المزدوج للحضارة الصقلية ، وعملوا على ترقية تطورها فى الاتجاهين . دائرة المعارف البريطانية .

سنة احدى وثمانين واربعمائة (١) :

سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة (٢) :

فيها ندب أمير الجيوش عسكرا إلى بلاد الشام وقدَّم عليه ناصر الدولة الجيوشى ؛ فسار وفتح ثغرى صور(٣) وصيدا(٤) ، ثم فتح جبيل(٥) وعكا . وكان تُتُش قد ملكها ، فاستولى عليها ناصر الدولة الجيوشى ، وقتل جماعة من أصحاب تتش ، وأخذ كثيرا من ذخائره . ومضى إلى بعلبك ، فوفد عليه خلف بن ملاعب صاحب حمص ، ودخل فى الطاعة ، وبعث ابن حمدان إلى أمير الجيوش ، فسيَّر إليه الخلع والطوق .

سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٦) :

فيها توفى الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن سعد بن عبد الله الخيال المصرى الإمام ، صاحب التاريخ ، فى سادس ذى القعدة ؛ ومولده فى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ؛ ودفن بالقرافة .

وفيها صعد الحسن بن الصباح إلى قلعة أَلَموت فى شعبان ، وأظهر دعوة المستنصر بالله .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها السابع والعشرين من مارس سنة ١٠٨٨ . وبهامش الأصل : بياض أربعة أسطر .

(٢) ويوافق أول المحرم منها السادس عشر من مارس سنة ١٠٨٩ .

(٣) يصفها ياقوت بأنها مدينة حصينة بالساحل داخلة فى البحر مثل الكف على الساعد ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع الذى فيه بابها . ويقول : وهى حصينة جدا ركينة ، لا سبيل إليها إلا بالخذلان . بينها وبين عكا ستة فراسخ . معجم البلدان : ٥ : ٣٩٧ - ٣٩٨ . وكان فى صور أولاد القاضى عين الدولة ابن أبى عقيل ، ولم تكن لهم قوة يمنعونها بها . ذيل تاريخ دمشق : ١٢٠ ؛ الكامل : ١٠ : ٦٠.

(٤) صيدا بالقصر والمد ، على الساحل شرق صور ، بينهما ستة فراسخ ؛ وكانت تعد من أعمال دمشق . معجم البلدان : ٥ : ٤٠٣ - ٤٠٥ .

(٥) على بعد ثمانية فراسخ من بيروت فى إتجاه الشرق : نفس المصدر : ٣ : ٥٩ - ٦٠ .

(٦) ويوافق أول المحرم منها السادس من مارس سنة ١٠٩٠ .

سنة خمس وثمانين وأربعمائة [١] :

فيها نقل أمير الجيوش بَابَىْ زويلة وزاد من ورائهما قطعة[٢]، وبنى باب زويلة الكبير الموجود الآن ، ورفع أبراجه على ما هى عليه ، ولم يجعل له باشورة[٣] كما هى عادة أبواب الحصون أن يكون فى أبوابها عطفة تمنع العساكر من الهجوم على الحِصْن عند الحصار ، بل عمل فى بابه زَلَّاقة من حجارة صوّان ، حتى إذا هجم العسكر لم تثبت قوائم الخيل على الصَّوّان لملاسته . فلم تزل هذه الزلَّاقة باقية إلى أيام الملك الكامل محمد بن العادل ، فأَمَر بنقضها لمَّا زَلَّت به فرسه وسقط عنها .

(١) ويوافق أول المحرم منها الثانى عشر من فبراير سنة ١٠٩٢ . ويلاحظ أنه قد أسقط سنة ٤٨٤ .

(٢) فى الأصل : وزاد من ورائه قطعة .

(٣) الباشورة بناء ذو منعطفات أمام كل باب أو خلفه ، يقصد به تعويق هجوم العساكر على الباب وقت الحصار وتعويق دخول الخيل إلى المدينة فى مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وقريب من هذا المعنى ما ذكره دوزى من أن الباشورة هى الحائط الظاهرى للحصن يختفى وراءه الجند للقتال . الخطط : ١ : ٣٧٧ – ٣٨٠ ؛ Dozy: Supp. Dict. Ar. .

سنة ست وثمانين وأربعمائة [1] :

فيها جرّد أميرُ الجيوش عسكرًا إلى ثغر صُور ، وكان المتولّى[2] به قد خرج عن الطاعة . فسار العسكر ونزل على الثغر ، فخاف أهلُ البلد من سطوة أمير الجيوش ، فلم يَعْرِضوا لقتال فهجم العسكر البلد وانتهبوا أهله ، وقبضوا على أميرها وعلى جماعة من الناس وسيّروهم إلى أمير الجيوش فقتلهم ؛ وبعث بفريضة ستين ألف دينار على أهل صور ؛ وكان ذلك فى رابع عشر جمادى الآخرة .

وفيها نمى قَتْلُ أبى علىّ حسن بن عبد الصمد بن أبى الشحناء العَسْقلانى صاحب الرسائل والشعر ، وكان بديوان الإنشاء ، وشعره [١٠٩ ب] ورسائله مشهورة . ويقال إن القاضى الفاضل عبد الرحيم كان جلُّ اعتماده على رسائله . ومن شعره :

أصبحت تُخرجنى بغير جريمة ... من دار إكرامٍ لِدَارِ هـوان

كَدَم الفِصاد يُرَاق أَرْذَل موضع ... أبدًا ، ويخرج من أعزّ مكان

ثقُلَتْ مَوازينُ العباد بفَضْلهم ... وفضيلَتى قد خَفَّفت ميزانى

---

(١) ويوافق أول المحرم منها أول أيام فبراير سنة ١٠٩٣ .

(٢) وكان أمير الجيوش ولاها أميرا يعرف بمنير الدولة الجيوشى ، وقد ثار به أهلها عندما أعلن عصيانه ، وهم الذين سلموها لجيوش مصر . الكامل : ١٠ : ٧٧ .

سنة سبع وثمانين وأربعمائة [1] :

فى شهر ربيع ، وقيل فى جمادى الأُولى[2] ، توفى أميرُ الجيوش بدر الجمالى مِن مرضٍ نزل به من أوّل السنة حتى أُسكت فلم يقدر على الكلام إلى أن مات وقد ناهز ثمانين سنة ؛ وجنسُه أرمنى ؛ وكان مملوكا لجمال الدولة ابن عمّار ، فلذلك قيل له بدر الجمالى . ومازال يأْخذ نفسه بالجِدّ من شبيبته فيما يُبَاشره ، ويُوَطِّن نفسه على قوة العزم فيما يَرُومه ، ويتَنقَّل فى الرتب العليّة ، حتى وَلِىَ بلاد الشام وتقلَّد إمارة دمشق من قِبَل المستنصر مرّتين ، وثار عليه أهلُها . وكانت فى إمارته الفتنة العظيمة التى احترق فيها قَصْرُ الإمارة وجامع بنى أُمية . ثم إنّه رحل عن دمشق إلى مصر ، وقلَّده المستنصر عكّا . فلما فسدت أَحوال مصر وتغيرت أَمورُها وخربت كان يَبْلغُه ذلك فيتحسَّر لِمَا يَبْلُغه ويتلَهف لكونه بعيداً عن مصر . فلما كاتبه المُسْتنصر ودخل إلى القاهرة تحكَّم فى بلاد مصر تحكُّم الملوك ، ولم يبق للمستنصر من أمر ، وألقى إليه مقاليد مملكته ، وسلَّم إليه أمور خلافته ، فضبطها أَحسن ضبط . فاشتدَّت مهابتُه فى قلوب الخاصّة والعامَّة ، وخاف سطوتَه كلُّ جليل وكبير ، لِعِظَم بأْسه وكثرة بطشه ، وقَتْله من الخلائق مالا يمكن ضبطهم ولا يعلم عدتهم إلا إلٰههم سبحانه . وبقتله أكابر المصريين من الأُمراء والقوّاد والوزراء والأَعيان ، من أَهل القاهرة ومصر وبلاد الصعيد وأَسفل الأَرض وثغر دمياط وتنّيس والإسكندرية ، الذين كانوا قد تمرّنوا على الفساد ، ونشأُوا فى الفتن واعتادوا مضرة الخلق ، ولصلاح أَحوالهم من ذلك صَلُحت الديار المصريَّة بعد فسادها ، وعمرت بعد خرابها ، وزال عكس[3] المستنصر وابتدأَت سعادته .

---

(١) ويوافق أول المحرم منها الحادى والعشرين من يناير سنة ١٠٩٤ .

(٢) هكذا ورد فى الأصل : فى شهر ربيع (دون تحديد أى الربيعين) ، وقيل فى جمادى الأولى . ويوافق النويرى المقريزى فى هذا ويحدد ربيع بأنه ربيع الأول . ويحدد ابن الأثير وفاته فى ذى القعدة . راجع الكامل : ١٠ : ٨١ . ولايحدد صاحب النجوم الزاهرة الشهر . ويذكر ابن القلانسى أنه مرض فى هذه السنة واشتد به مرضه فى جمادى الأولى منها وتوفى فى العاشر منه . ذيل تاريخ دمشق : ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) استعمال مستخدم فى عصرنا هذا ، يقصد به التعبير عن انكشاف الغمة وانفراج الكربة .

وكان من جَميل أفعاله أنّه لما قتل المفسدين من الأجناد والعُربان وغيرهم أطلق الخراج للمزارعين ، ولم يأخذ منهم شيئًا ثلاث سنين ، حتى صَلُحت أحوالُ الفلاّحين . واستغنى أهلُ مصر فى أيّامه ، ودَرَّت عليهم أخلافُ النِّعم بعد توالى الشدائد الكبيرة ، ومقاساة الألم . وكثُر ترداد التجار فى أيامه إلى مصر بعد نزوحهم عنها ، وخروجهم لِشِدّة البلاء والجور فيها .

وكانت مدّةُ تحكُّمه بالديار المصرية إحدى وعشرين سنة . وكان عَزُوف النفس شديد البطش ، عالى الهمة عظيم الهيبة ، حسن التّأتّى جميلَ السِّياسة ، مظفَّرًا ، سعيد الجدّ ، سخيّا ، مِفْضالا . قصده علقمة بن عبد الرزّاق العليمى ، فلما وافى بابَه شاهد أشراف النّاس وكبراءهم وشُعراءهم وعُلماءهم على بابِه وقد طال وُقُوفُهم ومقامهم ، ولا يَصِلُون إليه . فبينما هو كذلك إذ خرج أميرُ الجيوش يريد الصيد ، فخرج فى أثره وأقام معه حتى رجع من صَيده ؛ فَعِنْدَما قَارَبَهُ وقف على تلٍّ من رمل ، ورمى برُقْعَة كانت فى يده ، وأنشد :

نحن التِّجارُ ، وهذه أعلاقُنَا دُرٌّ ، وَجُودُ يمينك المبتاع
قلِّب ، وفتّشها بسَمْعِك ، إنّما هى جوهرٌ تختارُه الأسماع
كسدت علينا بالشآم ، وكلمّا قلّ النّفاق تعطّل الصُّنّاع
فأتَاك يحملُها إليك تِجارُها ومَطِيُّها الآمال والأطماع
حتى أناخُوها ببَابِك ، والرَّجا مِنْ دونِك السِّمسَار والبيّاع
فوهبتَ ما لم يُعْطِه فى دهرِه هرِمٌ ، ولا كعبٌ ، ولا القَعْقاع
وسبقت هَذَا النّاسَ فى طلب العُلا والناسُ بعدَك كلُّهم أتباع
يابدرُ ، أُقسم ، لو بك اعتصم الورى ولَجَوْا إليك ، جميعُهم ، ماضاعوا

وكان بيد بدر باز ، فدفعه لأحد مماليكه وجعل يستعيد الأبيات ، وهو معه ، إلى أن استقر فى مجلسه . فلما اطمأن قال للحاضرين عنده ؛ من أحبّنى فليخلع ثيابه . فبادر حينئذ الحاضرون ، ولم يبق منهم إلاّ مَنْ ألقى له ما قدر عليه ، حتى صار إليه منهُم ما حمله على سبعين بغْلاً عندما خرج من المجلس ؛ ومع ذلك أمر له أمير الجيوش من ماله بعشرة آلاف درهم .

قال [١١٠ ا] قاضى الرشيد أحمد بن الزبير فى كتاب العجائب والطرف والهدايا والتّحف : ولمّا مات أمير الجيوش بَدْر المُسَتَنْصرىّ خلّف سبعمائة غلام ، كلُّ غلام له من المال ما ينيف عن المائة ألف غلام(١). وخلّف من المال بعد عمارة سور القاهرة ستة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف درهم فى دار الوزارة ؛ ومن الجوهر والياقوت أربعة صناديق ومن القُضُب الفضّة والذّهب والمراتب ، ومن السروج المحلاة ، ما يُعْجَز عن وصفه . وخلف ألف قصبة زمرد ، لأنه كان له به غرام عظيم ، جمعت له من جميع الأقطار .

ولما مات أمير الجيوش كان أجلّ غلمانه من الأمراء نصر الدولة أفتكِين ، ويليه فى الرتبة أمين الدولة صاف ، ويقال لَاوُن ، فبعث لَاوُن لكلٍّ جماعة من الأمراء الجيوشيّة مالاً والتمس منهم الرّضا به أن يلى الوزارة مكان أستاذه أمير الجيوش ، فوافقوه على ذلك فأقرّ أمْرَه مع المستنصر ؛ فَطلبه بعد موت أمير الجيوش وأفاض عليه خلع الوزارة وجلس فى الشباك عند الخليفة ليتولّى على العادة . وكان نصر الدّولة أفتكِين قد بلغه ذلك من قبل، فركب وطاف على الأمراء ، كلّ واحد بمفرده ، وغلّطه فيا عزم عليه ، وقبحّ أن يكون أحد خُشْدَا شِيَّته(٢) يتحكم عليه مع وُجود أولاد أستاذهم ؛ مع ما قد عُرِف من بخل لاون ، ونحو ذلك من القول ، حتّى رجعوا عن لاون . فعندما طلبه المستنصر وخلع عليه ركب نصر الدولة فى جميع الأمراء بالسلاح وصاروا إلى القصر ، ووقفوا فى الصحن ؛ فشقّ ذلك على المستنصر وعلى مَنْ بحضرته من خواصه . وشرع الأمراء فى مخاطبة المستنصر فى إبطال وزارة لاون ، وهو يأبى عليهم ، حتّى طال الخطاب . فقال المستنصر إذا أقمنا قصبة قُبِل أمْرُنا . فقال الأمراء ، إذا أقمت هذه القصبة قطعناها بهذه السيوف ؛ وجَرَّدُوا سيوفهم ،

---

(١) هكذا فى الأصل . ولم أجد فيما بين يدى من المراجع ما يساعد على التحديد . ولعل المقصود : المائة غلام .

(٢) جمع خشداش ، وهو معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش ، أى الزميل فى الخدمة ، وهى أيضا الخوشداشية والخجداشية ، أو الخوجداشية : الأمراء الذين نشئوا مماليك عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة زمالة . السلوك : ١ : ٣٨٨ حاشية : ٣ .

ولم يبق إلاّ وقوع الشر . فقال المستنصر لهم خيرًا ، وأمر بإحضار الأفضل بن أمير الجيوش ، وقُرّر فى الوزارة مكان أبيه ، وبطل أمر لاون ، فاستمرّ إلى ليلة الخميس الثامن عشر من ذى الحجة .

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معدّ ، فلما كان عند موته حصل رعد عظم وبرق كثير ومطر غزير ؛ وعمره يومئذ سبع وستون سنة وخمسة أشهر ؛ منها فى خلافته ستون سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام، مرّت به فيها أهوال عظيمة ، وشدائد آلت به إلى أن جلس على نخّ ، لا يجد من القوت إلاّ ما تتصدّق به عليه الشريفة ابنة صاحب السبيل فى كلّ يوم ، فلا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم من قَعْب فتيتٍ تبعثُ بها إليه ، كما قد تقدم ذلك .

وكان قد قوى أمره وقام بتدبير وزارته عند إقامته فى الخلافة وزيرُ أبيه على بن أحمد الجرجرائى ، فمشت الأحوالُ على سَدادٍ إلى أن مات ، فحكمت أمّه فى الدولة وولّت أبا سعيد ابراهيم اليهودى التُّسْتَرى وزارتها[1]، فصار هو الذى يلى الوساطة ويدبّر الأموال إلى أن قتل. فلما كانت سنة اثنتين وستين اختلطت الأمور وتعاظم الأمر ، فكان من الغلاء والفتن والبلاء والنهب ما تقدم ذكره .

وولى وزارته أربعة وعشرون وزيرا ، وهم : أبو القاسم الجرجرائى إلى أن مات وزيرا فى سنة ست وثلاثين ؛ فولى أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى إلى أن قتل فى سنة تسع وثلاثين ؛ فولى عماد الدولة أبو البركات الحسين بن محمد الجرجرائى مرتين إلى أن عُزل فى سنة أربعين ؛ فولى صاعد بن مسعود أبو الفضل وصرف فى سنة اثنتين وأربعين ؛ فاستقر أبو محمد اليازورى مضافاً إلى القضاء والتَّقْدمة على الدعاة ، ولم يُجْمع ذلك لأحد قبله ، إلى أن قُبض عليه فى محرم سنة خمسين ؛ فاستُوزر أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلى ثم صرف بعد شهرين وأربعة عشر يوما . واستقر أبو الفرج محمد بن جعفر بن

---

(١) تقدم تصحيح هذا الاسم إذ هو سهل بن هارون ، وأما إبراهيم قاسم أخى أبى سعيد .

محمد بن على بن الحسين المغربى ثم صرف فى سنة اثنتين وخمسين ؛ وأعيد البابلى ثم صرف بعد أربعة أشهر . وتولى عبد الله بن يحيى بن المدبر فى صفر سنة ثلاث وخمسين وصرف بعد شهرين ؛ وتولى عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى فى رمضان منها إلى أن توفى فى محرم سنة أربع وخمسين ؛ فتولى بعده [١١٠ ب] أخوه أبو على أحمد سبعة عشر يوما وصرف ؛ فأعيد البابلى كرة ثالثة فى ربيع الأول ، فأقام خمسة أشهر واستعفى فوزر أبو عبد الله الحسين بن سديد الدولة المَاسَكى ؛ ثم صرف بأبى أحمد بن عبد الكريم ابن عبد الحاكم ، فكان ينقل من القضاء إلى الوزارة ثم يعود إلى القضاء ؛ وصرف بابن المدبر ، فأقام إلى أن توفى ؛ فأعيد أبو أحمد بن عبد الحاكم فى ذى الحجة سنة خمس وخمسين فأقام خمسة وأربعين يوما ؛ وصرف بأبى غالب عبد الطاهر بن فضل العجمى ، فتولى غير مرة ، وكان جدُّه من دُعاة الدولة ؛ فوَلِىَ مرة فى جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وصرف بعد ثلاثة أشهر ، وولى أخرى فى ربيع الآخر سنة ستٍّ وخمسين وصرف بعد ثلاثة وأربعين يوما ، وفى ثالثةٍ فى أيام الفتنة وقتله تاج الملوك شاذى بالقاهرة فى سنة خمس وستين . وولى الوزارة أيضا الحسن بن ثقة الدولة بن أبى كدينة ، وجمع له بين القضاء والوزارة سبع مرات ، ووصل أمير الجيوش وهو وزير فقبض عليه وقتل بدمياط . وولِىَ أبو المكارم سعد وتنقلت به الأحوال حتى قتله أمير الجيوش ؛ ثم وزر بعده أبو على الحسن ابن أبى سعيد التُّسْتَرى عشرة أيام ثم استعفى ، وكان يهوديا فأسلم . ثم استُوزِر أبو القاسم عبد الله بن محمد الرعبانى مرتين ، كل منهما عشرة أيام ؛ ثم ولى الأمير أبو الحسن بن الأنبارى أياما وصرف . فتولى أبو على الحسن بن سديد الدولة الماسَكى أياما ، وهذه وزارته الثانية ؛ ثم صرف بأبى شجاع محمد بن الأشرف بن فخر الملوك وصرف ، فسار إلى الشام ولقيه أمير الجيوش فقتله ؛ وأبو غالب جدُّه كان وزيراً لبهاء الدولة بن عضد الدولة ملك العراق . ثم ولى بعده أبو الحسن طاهر بن وزير الطرابلسى ثم صرف ، وكان أحد الكتاب بديوان الإنشاء ؛ فولى بعده أبو عبد الله محمد بن أبى حامد التنيسى يوما واحدا وقتل ،

فوُجد له مال كثير . ثم ولى أبو سعد منصور بن أبي أيمن سورس بن مكرواه بن زنبور ، وكان نصرانيا فأسلم ، ويقال إنه لم يسلم ؛ ثم ولى بعده أبو العلاء عبد الغنى بن نصر بن سعيد الضيف وصرف . فلما قدم أمير الجيوش تسلمها .

ولما قدم أمير الجيوش من عكّا صار وزير السيف والقلم ، وولى القضاء أيضا ، وزيد فى ألقابه كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . ثم لما مات وزر من بعده ابنه الأفضل .

وأما قضاته ، فقد تقدم من جمع له القضاء مع الوزارة . والذين أفردوا بوظيفة القضاء عبد الحاكم بن سعيد الفارقى فى أول خلافته ؛ ثم تقلّد القضاء القاسم بن عبد العزيز ابن النعمان ؛ ثم أبو يعلى ، ويقال أبو الحسن ، أحمد بن حمزة بن أحمد العرقى ومات ؛ فولى أبو الفضل القضاعى ؛ ثم جلال الدولة أبو القاسم على بن أحمد بن عمار . وولى الفضل ابن نباتة ، ثم أبو الفضل بن عتيق ، ثم أبو الحسن على بن يوسف بن الكحّال ، ثم فخر الأحكام أبو الفضل محمد بن عبد الحاكم ، وكان فى أيامه ما قدتقدم ذكره من الرزايا .

وكان نقش خاتمه : « بنصر السميع العليم ينتصر المستنصر أبو تميم » .

ومما رُثى به المستنصر قول حظىّ الدولة أبي المناقب عبد الباقى بن على التنوخى الشاعر ، من أبيات :

وليس رَدَىَ المستنصر اليوم كالرّدى ... ولا قدرُه أمرٌ يقاس به أمر
لقد هاب مَلْكُ الموت إتيانَه ضحى ... ففاجأه ليلاً وما طلع الفجر[1]
فأجْرَى عليه ، حين مات ، دمُوعَنا ... سماءٌ ، فقال الناس : لا ؛ بل هو القطر
وقد بكت الخنساءُ صخرًا ، وإنَّه ... ليَبْكيه من فَرْط المصاب به الصَّخر
وقلّدنا[2] المستعلى الطُّهر حَسْبَ ما ... عليه قديما نصّ والدُه الطُّهر

(١) فى النجوم الزاهرة : ٥ : ولم يطلع الفجر .
(٢) فى النجوم الزاهرة : ٥ : وقلدها .

الفهـــــرس

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٠/٥٨٧٥

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب